



مجلة العلوم العربية

مجلة علمية فصلية محكمة

العدد الثالث والستون

ربيع الأول ١٤٤٣ هـ

الجزء الأول

رقم الإيداع: ٣٥٦٣/١٤٢٩/١٩/٠٦/١٤٢٩
الرقم الدولي المعياري (ردمد) ٤١٩٨ . ١٦٥٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



المشرف العام

الأستاذ الدكتور/ أحمد بن سالم العامري

معالي رئيس الجامعة

نائب المشرف العام

الأستاذ الدكتور/ عبدالله بن عبد العزيز التميم

وكيل الجامعة للدراسات العليا والبحث العلمي

رئيس التحرير

الأستاذ الدكتور/ سعود بن عبد العزيز الخنين

الأستاذ في قسم النحو والصرف وفقه اللغة - كلية اللغة العربية

مدير التحرير

الدكتور/ إبراهيم بن ناصر بن محمد الشقاري

وكيل عمادة البحث العلمي

أعضاء هيئة التحرير

أ.د. إبراهيم بن عبد العزيز أبو حميد

الأستاذ في قسم علم اللغة التطبيقي – معهد تعليم اللغة العربية

أ.د. إبراهيم بن محمد أبا نبي

الأستاذ في قسم الأدب – كلية اللغة العربية

أ.د. محمد أحمد الدالي

الأستاذ في قسم علم اللغة – كلية الأداب – جامعة الكويت

أ. د. محمد محمد أبو موسى

الأستاذ في قسم البلاغة والنقد – كلية اللغة العربية – جامعة الأزهر

أ.د. نوال بنت إبراهيم الحلوة

الأستاذ في قسم اللغة العربية – كلية الأداب

جامعة الأميرة نوره بنت عبد الرحمن

أ. د. يوسف بن عبد الله العليوي

الأستاذ في قسم البلاغة والنقد ومنهج الأدب الإسلامي – كلية اللغة العربية

أ.د. ممدوح إبراهيم محمود

أمين تحرير مجلة الجامعة - عمادة البحث العلمي

قواعد النشر

مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية (العلوم العربية) دورية علمية محكمة، تصدر عن عمادة البحث العلمي بالجامعة. وتُعنى بنشر البحوث العلمية وفق الضوابط الآتية:
أولاً: يشترط في البحث ليقبل للنشر في المجلة:

- ١- أن يتسم بالأصالة والابتكار، والجدة العلمية والمنهجية، وسلامة الاتجاه.
 - ٢- أن يلتزم بالمناهج والأدوات والوسائل العلمية المعتمدة في مجاله.
 - ٣- أن يكون البحث دقيقاً في التوثيق والتخرير.
 - ٤- أن يتسم بالسلامة اللغوية.
 - ٥- ألا يكون قد سبق نشره.
 - ٦- ألا يكون مستلأً من بحث أو رسالة أو كتاب، سواءً أكان ذلك للباحث نفسه، أم لغيره.
- ثانياً: يشترط عند تقديم البحث:

- ١- أن يقدم الباحث طلباً بنشره، مشفوعاً بسيرته الذاتية (مختصرة) وإقراراً يتضمن امتلاك الباحث لحقوق الملكية الفكرية للبحث كاملاً، والتزاماً بعدم نشر البحث إلا بعد موافقة خطية من هيئة التحرير.
- ٢- أن يكون البحث في حدود (٥٠) صفحة مقاس (٤ A).
- ٣- أن يكون حجم المتن (١٧)، والهواشم حجم (١٤) وأن يكون تباعد المسافات بين الأسطر (مفرد).
- ٤- يقدم الباحث نسخة مطبوعة من البحث، ونسخة حاسوبية مع ملخص باللغتين العربية والإنجليزية، لا تزيد كلماته عن مائة كلمة أو صفحة واحدة.

ثالثاً: التوثيق :

- ١- توضع هوامش كل صفحة أسفلها على حدة .
 - ٢- تثبت المصادر والمراجع في فهرس يلحق بآخر البحث .
 - ٣- توضع نماذج من صور الكتاب المخطوط المحقق في مكانها المناسب .
 - ٤- ترفق جميع الصور والرسومات المتعلقة بالبحث، على أن تكون واضحة جلية .
- رابعاً: عند ورود أسماء الأعلام في متن البحث أو الدراسة تذكر سنة الوفاة بالتاريخ الهجري إذا كان العلم متوفى .

خامساً: عند ورود الأعلام الأجنبية في متن البحث أو الدراسة فإنها تكتب بحروف عربية وتوضع بين قوسين بحروف لاتينية، مع الاكتفاء بذكر الاسم كاملاً عند وروده لأول مرة .

سادساً: تُحَكَّمُ البحوث المقدمة للنشر في المجلة من قبل اثنين من المحكمين على الأقل .
سابعاً: تُعاد البحوث معدلة، على أسطوانة مدمجة CD أو ترسل على البريد الإلكتروني للمجلة .
ثامنة: لا تُعاد البحوث إلى أصحابها، عند عدم قبولها للنشر .
تاسعاً: يُعطى الباحث نسختين من المجلة، وعشرون مستلات من بحثه .

عنوان المجلة :

جميع المراسلات باسم رئيس تحرير مجلة العلوم العربية

الرياض ١٤٣٢ - ص ب ٥٧٠١

هاتف: ٢٥٨٢٠٥١ - ناسوخ (فاكس) ٢٦١٠٢٥٩

www.imamu.edu.sa

E.mail: Arabicjournal@imamu.edu.sa

المحتويات

المفاضلة بين القراءات القرآنية المتواترة في الفكر النحوي

١٣

(قراءة في المبدأ والمفاهيم والمواقف)

د. زكي بن صالح بن سعد الحربيول

تحقيق ابن هشام الأنباري نصًّا ألفية ابن مالك "عرض ودراسة"

١١٣

د. جابر بن عبدالله بن سريج السريج

صُونَ الْيَاءَ مِنَ الْقَلْبِ (مظاهره، وبوعشه، وطُرُقه)

١٩٩

د. عبد العزيز بن علي بن أحمد العامدي

جائحة كورونا وأثرها في الشعر السعودي الرؤية والتشكيل شعراء جازان

٢٤٥

د. سعيد بن عبدالله بن ناصر القرني

تجليّات التناص في رسائل أبي بكر الخوارزمي "الأشكال والآليات"

٣٢٣

د. عبد الخالق بن عبد الرحمن بن عبد الخالق القرني

جماليات الشكل في السيرة الذاتية كتاب الاعتبار لأُسامة بن منقذ نوذجاً

٤٠٩

د. وئام محمد سيد أحمد أنس

المفاضلة بين القراءات القرآنية المتواترة في الفكر النحوي
(قراءة في المبدأ والمفاهيم والموافق)

د. زكي بن صالح بن سعد الحريول

قسم اللغة لغربية – كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
جامعة الإمام محمد بن سعود، فرع الأحساء

المفاضلة بين القراءات القرآنية المتواترة في الفكر النحوي

(قراءة في المبدأ والمفاهيم والموافق)

د. زكي بن صالح بن سعد الحرريول

قسم اللغة العربية- كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
جامعة الإمام محمد بن سعود، فرع الأحساء

تاریخ تقديم البحث: ١٤٤٢/٨/١٥ هـ تاریخ قبول البحث: ١٤٤٢/٦/٢٥ هـ

ملخص الدراسة:

يهدف هذا البحث إلى دراسة ظاهرة المفاضلة بين القراءات القرآنية المتواترة عند النحويين، حيث مواقف النحويين من هذه الظاهرة تحتاج إلى مزيد تحقيق وجمع بين المعطى النظري والتطبيقي في المنجزات النحوية، كما أنَّ هذه الظاهرة لم تدرس-فيما أعلم- دراسة تنطلق من أصول علم النحو العربي والمساحة المشتركة بينها وبين علم القراءات، وتتغوب إليها بنتائج تمس جذور هذه الظاهرة.

الكلمات المفتاحية: المفاضلة، القراءات، النحويين، ثعلب، النحاس، أبو حيان.

A comparison between the frequent Qur'anic readings in grammatical thought - a reading in the principle, concepts and positions

Dr. Zaki Saleh Saad Al-Hariol

Department of Arabic Language - Faculty of Sharia and Islamic Studies

Imam Muhammad bin Saud Islamic university, Al Ahsa Branch

Abstract:

This research aims to study the phenomenon of Comparison between the frequent Qur'anic readings of grammarians, as the grammarians 'attitudes towards this phenomenon require further investigation and a combination of theoretical and applied given in grammatical achievements, and this phenomenon has not been studied - as far as I know - a study based on the origins of Arabic grammar and the common space between it and the science of readings, and it repels it with results that touch the roots of this phenomenon.

key words: Comparison, Qur'anic readings, Grammarians, Tha'lab, Al-Nahhas,

Abu Hayyan

المقدمة:

المفاضلة بين القراءات القرآنية ظاهرة لها حضورها وتأثيرها في الدرس اللغوي، ومرتبطة بجوانب نظرية وتطبيقية في موقف النحاة من القراءات القرآنية، لا تزال بحاجة إلى التداول والبحث، وهذا ما يضطلع به بحثنا هذا الموسوم بـ(المفاضلة بين القراءات القرآنية المتواترة في الفكر النحوي-قراءة في المبدأ والمفاهيم والماوافق).

وتكمّن أهمية هذا الموضوع في كونه موضعًا مهمًا لعلاقة جهد نحاة العربية بأعلى درجات القراءات القرآنية وهي القراءات المتواترة التي تلقّتها الأمة بالقبول، وحساسية إنزال المعايير اللغوية على النص القرآني لتفضيل قراءة على أخرى. كما أن هناك خلطًا شديداً عند كثير من الباحثين في قدرة الجمع بين النصوص النظرية الواردة من علماء العربية في منع التفضيل بين القراءات والواقع المليء بالمفاضلة في كتب معاني القرآن وإعرابه وتوجيهه قراءاته.

وتبقى علاقة النحاة بالقراءات القرآنية بحاجة إلى دراسات معمقة، تحرر المفاهيم وتنفهم المراحل، وذلك من أجل الوصول إلى حقيقة موقف النحويين في الحكم على القراءات القرآنية والمفاضلة بينها -تنظيرًا وتطبيقًا.

والمفاضلة: مفاجلة من (فضل)، وـ«الفاء والضاد واللام أصلٌ صحيحٌ يدل على زيادة في شيء»^(١)، ويكوننا تقريب المراد بالمفاضلة: بأنّها تفضيل النحوي لقراءة قرآنية متواترة على قراءة متواترة أخرى أو أكثر.

(١) مقاييس اللغة ٤، ٥٠٨/٤، (ف ض ل).

والمستقر عند علماء القراءات أن القراءة المتواترة هي: «كل قراءة وافقت العربية مطلقاً، ووافقت أحد المصاحف العثمانية ولو تقديرًا، وتواتر نقلها، هذه القراءة المتواترة، المقطوع بها»^(١)، ويلحق بالقراءات المتواترة (القراءات المشهورة) أو (القراءات الصحيحة)^(٢)، وهي ما صح سندها بنقل العدل الضابط إلى منتهاه، ووافق العربية والرسم.

وبالجملة فإنه لا يُقرأ إلا بما استفاض نقله وتلقته الأمة بالقبول، كما إن جمهور العلماء على أن القراءات السبع متفق على تواترها، والثلاث بعدها (قراءة أبي جعفر، ويعقوب، وخلف) مختلف فيها، والصحيح أنها متواترة بروابتها المشهورين في جمهور أفرادها، والأربع الباقية (قراءة الحسن البصري، والأعمش، واليزيدي، وابن حمصن) هي قراءات شاذة باتفاق^(٣).

ولأجل ذلك فقد جمعت مادة هذا البحث وقسمتها إلى تقدمةٍ تعقبها ثلاثة مباحث، أمّا المبحث الأول: ففيه موقف التحويين من مبدأ (المفاضلة)، والمبحث الثاني: موانع المفاضلة بين القراءات القرآنية المتواترة (قراءة توظيفية)، والمبحث الثالث: مبدأ (المفاضلة) اللغوية في الفكر النحوي، وقد استصفيت من هذه المباحث وعلى ضوئها أهم النتائج الجديرة بالاختتام.

(١) منجد المقرئين، لابن الجوزي ١٥.

(٢) المراجع السابق ١٦.

(٣) ينظر: النشر في القراءات العشر ٩/١، لطائف الإشارات، للقسطلاني ١٧٠/١، القراءات وأثرها في التفسير والأحكام ١٤٧/١.

أما عن الدراسات السابقة التي قد يظهر من عنوانها أنها ذات تماشٍ مع بحثنا أو تشتراك في مسائل (الفضيل) أو (الترجح) أو (الاختيار)، فلم أقف إلا على دراستين، هما:

الأولى: بحث بعنوان (المفاضلة والترجح بين القراءات: نماذج تطبيقية مؤصلة)، للدكتور حسن سالم هيشان، نشره بمجلة البحوث العلمية والدراسات الإسلامية، جامعة الجزائر بن يوسف بن خدة، العدد الثاني عشر، ٢٠١٦م.
والآخرى: بحث بعنوان (أسباب الترجح بين القراءات المتواترة، دراسة ونقد)، للدكتور عماد أبو مغلى، مجلة جامعة القدس المفتوحة للأبحاث والدراسات، العدد الثلاثون (٢)، حزيران، ٢٠١٣م.

وهاتان الدراساتان-وغيرها-تريان منع التفضيل بين القراءات المتواترة، تسلیمًا لظاهر نصوص بعض العلماء، أما بحثنا فيختلف عنها في طريقة التداول وفي النتيجة والوقف كذلك. فقد عنيت دراستنا بتجليّة حقيقة مواقف المانعين من خلال محاولة الجمع بين نصوصهم النظرية وواقع ما كان من توجيه القراءات في مؤلفاتهم، كما عنيت دراستنا بربط تداول هذه الظاهرة بأصول علم النحو العربي ونظرياته الكبرى وبأصول علم القراءات ومفاهيمه الرئيسية؛ رغبةً في سبر أغوار هذه الظاهرة وتحريز موقفٍ لغوي يستند إلى أصول هذين العلمين من جهة، ويراعي الفروق بين معطياتهما من جهة أخرى.
ونسأل الله الإخلاص والعون والسداد.

المبحث الأول: موقف النحويين من مبدأ (المفاضلة).

استقراء كتب النحو العربي يُظهر لنا أن المفاضلة بين القراءات المتواترة متجذرة في الفكر النحوي^(١)، ومن نماذج المفاضلة بين القراءات القرآنية المتواترة عند أئمة النحو الآتي:

- نص سيبويه على جواز الجزم والرفع في الفعل المعطوف بعد تمام جملة الشرط، ثم قال: «وقال، عز وجل: ﴿وَإِنْ تُخْفِوْهَا وَتُؤْثِرُهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ حَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَبِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾^(٢)، والرفع^(٣) هاهنا وجه الكلام وهو الجيد؛ لأن الكلام الذي بعد الفاء جرى مجرأه في غير الجزاء، فجرى الفعل هنا كما كان يجري في غير الجزاء^(٤).

- وقال الفراء في قول الله، عز وجل: ﴿وَيَلْقَوْنَ فِيهَا نَحِيَّةً وَسَلْمًا﴾^(٥): «وقوله (ويُلْقَوْنَ) و(وَيَلْقَوْنَ فِيهَا)، كلّ قد قرئ به^(٦) و(يُلْقَوْنَ) أَعجَبٌ إِلَيْهِ؛ لأنَّ القراءة لو

(١) ينظر: الكتاب ٩٠/٣، معاني القرآن، للفراء ١/٧٤، المقتصب ٤/١٢٤، معاني القرآن وإعرابه ١/١١٩، الأصول، لابن السراج ٢/٤٠١، إعراب ثلاثين سورة، لابن خالويه ٦٢، الحجة، لأبي علي ١/٣٠٨، البحر المحيط ٦/٤٨١.

(٢) البقرة: ٢٧١.

(٣) فرأى ابن كثير وأبو عمرو وأبو بكر (وُنَكَفِرُونَ) بفتح الراء، وقرأ نافع وحمزة والكسائي (وُنَكَفِرُونَ) بالجزم، وقرأ ابن عامر ومحض (وُنَكَفِرُونَ) بالياء والرفع على الاستئناف، الحجة، لأبي علي ٢/٣٩٩، حجة القراءات، لابن زنجلة ١٤٧.

(٤) ينظر: الكتاب ٩٠/٣

(٥) الفرقان: ٧٥.

(٦) فرأى أبو بكر وحمزة والكسائي (وَيَلْقَوْنَ فِيهَا) بفتح الياء وإسكان اللام مخففاً، والباقيون بضم الياء وفتح اللام مشدداً، ينظر: السبعة، لابن مجاهد ٤٦٨، التيسير، للداري ١٣٣.

كانت على (يُلْقَوْنَ) كانت بالباء في العربية؛ لأنك تقول: فلان يُتَلَقَّى بالسلام والخير. وهو صواب، يُلْقَوْنَه ويُتَلَقَّوْنَ به، كما تقول: أخذت بالخطام وأخذته»^(١).

- وقال الزجاج في قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ زَيْنَهُ كَلِمَتِهِ﴾^(٢): «وقرأ ابن كثير^(٣): فتلقى آدم من ربه كلمات، والاختيار ما عليه الإجماع وهو في العربية أقوى، لأن آدم تعلم هذه الكلمات، والعرب تقول: تلقيت هذا من فلان»^(٤).

- وقال النحاس في قوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقْتَنِي مِنْ قَبْلِهِ﴾^(٥)، «قرأ أهل المدينة وأهل البصرة وعاصم (وقد خلقناك من قبل)، وقرأ سائر الكوفيين (وقد خلقناك)^(٦)، قال أبو جعفر: القراءة الأولى أشبه بالسود»^(٧).

(١) معاني القرآن/٢٧٥.

(٢) البقرة: ٣٣.

(٣) قرأ ابن كثير بنصب (آدم) ورفع (كلمات)، وقرأ الباقون برفع (آدم) ونصب (كلمات)، ينظر: السبعة، لابن مجاهد ١٥٤، حجة القراءات، لابن زنجلة ٩٤، النشر في القراءات العشر ٢١١/٢.

(٤) معاني القرآن وإعرابه ١١٦/١.

(٥) مريم: ٩.

(٦) ينظر: التيسير، للداني ١٤٨.

(٧) إعراب القرآن ٨/٣.

المنسوب إليهم المنع وحقيقة الموقف.

إنَّ أشهر من أُسند إليهم، قدِيًّا وحدِيًّا، منع المفاضلة بين القراءات القرآنية

المتوترة هم:

١- أبو العباس ثعلب (٢٩١هـ).

٢- أبو جعفر النحاس (٣٣٨هـ).

٣- أبو حيّان الأندلسي (٧٤٥هـ).

وهم- كما ترى- يمثلون قلة قليلة من النحويين، ويمكن تخلية ما سهل نسبة المنع إليهم من جهة، ومناقشة حقيقة هذه النسبة من جهة أخرى في البيان الآتي:

أولاً: موقف أبي العباس ثعلب.

تناول المتأخرون حكايةً، نقلها أبو حيّان بقوله: «وحكى أبو عمر الزاهد في كتاب (الإيقايت)^(١) أنَّ أبا العباس أحمد بن يحيى ثعلبًا كان لا يرى الترجيح بين القراءات السبع.

وقال: قال ثعلب من كلام نفسه: إذا اختلف الإعراب في القرآن عن السبعة^(٢) لم يفضل إعرابًا على إعرابٍ من القرآن، فإذا خرجت إلى الكلام كلام

(١) كتاب مفقود لغلام ثعلب وهو غير كتابه (ياقوتا الصراط) كما أوضح ذلك أ.د. محمد بن يعقوب التركستاني، في مقدمة تحقيقه الرصينة. ينظر: ياقوتة الصراط ١٢٩هـ.

(٢) الأظهر أنَّ ورود كلمة (السبعة) كان تحريرًا، لأنَّ "التبسيع" كان على يد ابن مجاهد (٣٢٤هـ) المتوفى بعد ثعلب. يؤيد ذلك الرواية المتقدمة التي خلت من ذكر (السبعة) لأبي الفضل الرازى (٤٥٤هـ) عن ابن مقْسَم (٣٥٤هـ)، قال: «وقد حدثنا عن أبي بكر بن مقسٰم عن أَبِي حمْدٍ

الناس فضّلت الأقوى. ونعم السلف لنا أَحْمَدُ بْنُ يَحْيَى فَإِنَّهُ كَانَ عَالِمًا بالنحو واللغة متديناً ثقةً^(١). غير أَنَّ الَّذِي يَعُودُ إِلَى مُجَالِسِ هَذَا الْعَلَمِ، وَقَدْ اشْتَهَرَ عَنْ هَذَا الْعِلْمِ الْجَلِيلِ مِنْعَ الْمَفَاضِلِ^(٢)، يَجِدُ أَنَّهُ يَفْاضِلُ بَيْنَ الْقُرَاءَاتِ الْقُرَآنِيَّةِ الْمُتَوَاتِرَةِ بِطَرِيقَةِ صَرِيْحَةٍ.

وَبَعْدَ اسْتِقْرَاءِ مُجَالِسِهِ -رَحْمَهُ اللَّهُ- وَجَدَتْ مَوْضِعَيْنِ صَرِيْحَيْنِ فِي التَّفْضِيلِ مِنْ بَيْنِ مَوْاضِعِ لَا تَتَجَاهِزُ الْعَشْرَةَ ذِكْرُ فِيهَا قُرَاءَاتِ قُرَآنِيَّةٍ:

● قال ثعلب: «في قوله: ﴿وَشَجَرَةٌ تَحْيَثُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءِ﴾^(٣)، هي الزيونة. (تبث بالدهن) قال: الاختيار فتح التاء^(٤). و(تُثْبِتُ) لا يحتاج إلى باء، وهي قليلة في اللغة، إنما يقال خرجت به وأخرجته، وذهبت به وأذهبته»^(٥).

يُحيي ثعلب النحواني أنه كان يقول: لا تُفَضِّلْ إِعْرَابًا عَلَى إِعْرَابِ الْقُرَآنِ، فَإِذَا جَئْتَ إِلَى كَلَامِ النَّاسِ فَفَضَّلْ الْأَقْوَالِ». وقد أورد السيوطي نص ثعلب بتغيير بسيط، لكن بلا لفظ (السبعة). ينظر: معاني الأحرف السبعة، لأبي الفضل الرازي^{٣٥٦}.

(١) البحر الحيط ١١/٤٧٣. وينظر: الدر المصنون ٤٨/٤٨، الإتقان، للسيوطى ١/٢٢٩.

(٢) ينظر: الدر المصنون ٤٨/٤٨، البرهان، للزركشى ١/٣٣٩، الإتقان، للسيوطى ١/٢٩٩، القراءات وأثرها في التفسير والأحكام ١/٣٩٤، علم إعراب القرآن (تأصيل وبيان) ٢٥٨، قواعد نقد القراءات القرآنية ٥٦١.

(٣) المؤمنون: ٢٠.

(٤) قرأ بضم التاء ابن كثير وأبو عمرو، والباقيون بالفتح. ينظر: التيسير، للداني ١٢٩.

(٥) مجالس ثعلب ١/١٦٤.

● ورأي ثعلب في قاعدة إضافة المئة والألف إلى الجمع هو رأي الجمهور^(١): خلافاً للفراء^(٢)، وهو المنع في سعة الكلام، لذا قال في توجيهه قول الله، عز وجل: «وَلَيَأْتُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةَ سِنِينَ»^(٣): «من قال: (ولبثوا في كهفهم ثلاثة سنين) (٤)، فهو الاختيار؛ لأنَّ السنين جمع، ولا تُخرج مفسِّرة، كأنَّه قال: ولبثوا في كهفهم سنين ثلاثة، فالسنون تابعة للثلاثمائة، والثلاثمائة تابعة للسنون. وإذا قال ثلاثة سنين فأضاف، فإنَّ السنين فيها لغات، يُقال: هذه سنون فاعلم، ومررتُ بسنين فاعلم. هذا جمعٌ على ما فسرناه. ولغة يقولون: هذه سنينك، ومررت سنينك، فيثبتون النون، فيجعلونها كالواحد، فعلى هذه أضافوا»^(٥).

ومما مضى تبين بصريح قول أبي العباس أنه فاضل بين القراءات القرآنية المتوترة.

(١) ينظر: المقتضب ١٧١/٢، الإيضاح في شرح المفصل ٥٨٩/٢، التذليل والتكميل ٢٨١/٩.

(٢) ينظر: معاني القرآن ١٣٨/٢.

(٣) الكهف: ٢٥.

(٤) قرأ حمزة والكسائي بإضافة (مئة)، وقرأ بقية السبعة بتنوين (مئة). ينظر: السبعة، لابن مجاهد ٣٩٠، حجة القراءات، لابن زنجلة ٤١٤.

(٥) مجالس ثعلب ٢٦٥/١.

ثانياً: موقف أبي جعفر النحاس.

على المستوى التئيري هناك نصوص قد يُستدل بها على منعه للمفاضلة بين القراءات القرآنية:

- قال أبو جعفر مُنكِراً على الفراء تفضيله بين قراءتين مُتواترتين: «وهذا ما ينكر على الفراء أنْ يُقال للقراءات التي قد روتها الجماعة عن الجماعة: هذه أمور من هذه، لأنها إذا روتها الجماعة عن الجماعة قيل: هكذا أُنزل؛ لأنهم لا يجتمعون على ضلالٍ، فكيف تكون إحداهم أَجود من الأخرى؟»^(١).
- وقال: «والسلامة من هذا عند أهل الدين إذا صحت القراءتان عن الجماعة أن لا يُقال إحداها أَجود من الأخرى لأنهما جمِيعاً عن النبي، صلَّى الله عليه وسلم، فِيَأْتُم مِّنْ قَالَ ذَلِك»^(٢).
- وقال في موضع من مواضع رِدِّه على مفاضلة الفراء: «وعظيمٌ من القول أن يُقال فيما قرأت به الجماعة، ووقع للسود المنقول عن الصحابة الذين أخذوه عن النبي، صلَّى الله عليه وسلم: أَجود وأَخْيَر القراءتان جمِيعاً نقلها الجماعة عن الجماعة»^(٣).
- وقال: «وإذا جاء الشيء على هذا الاجتماع حُظِرَ في الديانة أن يُقال: إحداها أولى من الأخرى»^(٤).

(١) إعراب القرآن ٤/١٣٦.

(٢) إعراب القرآن ٥/٦٢.

(٣) إعراب القرآن ٥/٢٤٠.

(٤) إعراب القرآن ٥/٢٩٠.

لكنَّ حقيقة التطبيق في نحو النحاس، رحمة الله، تدل على غير ما اشتهر عنه^(١)، فقد فاضل بشكل واضح، وألفاظٌ صريحة: «القراءة بالرفع وهي أبين وأصح»^(٢)، «أجود القراءات»^(٣)، «القراءة بالضم أولى»^(٤)، «وقراءة حمزة أصوب وأولى»^(٥)، «والقراءة الأولى أشبه بالسود»^(٦)، «والقراءة الأولى حسنة بيّنة»^(٧)، «وإن كانت القراءة الأولى أبين وأوضحت تأويلاً»^(٨).
 كل ذلك، وغيره^(٩)، يدل على أن مبدأ المفاضلة بين القراءات المتواترة حاضرٌ بوضوح في نحو القرآن عند أبي جعفر، والغريب أن تنظير منع المفاضلة والمفاضلة نفسها يقعان في كتاب واحد ولذلك تفسير لاحق بإذن الله.

(١) ينظر: البرهان، للزركشي ٣٣٩/١، الإنegan، للسيوطى ٢٢٩/١، القراءات وأثرها على التفسير والأحكام ٣٩٣/١، الاختيار في القراءات ٣٦، أثر القراءات القرآنية في تطور الدرس النحوي ١٧٢، قواعد نقد القراءات القرآنية ٥٦١، منهج سبيوبيه في الاحتجاج بالقراءات ولها ١٤٦، في أدلة النحو ٦٥، التفاوت البلاغي بين آي القرآن ٣٨٨.

(٢) إعراب القرآن ٣٠٥/١.

(٣) إعراب القرآن ٣٣٩/١.

(٤) إعراب القرآن ٤٧٣/٢.

(٥) إعراب القرآن ٤٧٥/٢.

(٦) إعراب القرآن ٨/٣.

(٧) إعراب القرآن ١١٢/٣.

(٨) إعراب القرآن ١٦٦/٣.

(٩) ركز البحث على نقل النصوص والشواهد من كتاب (إعراب القرآن) للنحاس، وذلك لهدف تحليلية موقف أشهر من أنسد إليه المنع من أئمة النحو، ولسبب آخر وهو أنني لم أجده كتاباً في توجيه القراءات وإعرابها يمكن أن يلتقط منه الباحثون في علاقة النحاة بالقراءات القرآنية إشارات جوهرية مثل هذا السفر العظيم.

ثالثاً: موقف أبي حيّان الأندلسي.

أبو حيّان من يُسند إليهم منع المفاضلة بين القراءات المتواترة^(١)، وقد نقلنا نصّه الذي عدّ فيه أبا العباس ثعلباً سلفاً صالحًا له في ذلك المنع. ومن أقواله في ذلك الآتي:

«وَهُدَا التَّرْجِيحُ الَّذِي يَذَكُرُهُ الْمُفَسِّرُونَ وَالنَّحْوَيُونَ بَيْنَ الْقَرَاءَتَيْنِ لَا يَنْبَغِي؛ لِأَنَّ هَذِهِ الْقَرَاءَاتِ كُلُّهَا صَحِيحٌ وَمَرْوِيٌّ ثَابِتٌ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَكُلِّ مِنْهَا وَجْهٌ فِي الْعَرَبِيَّةِ، فَلَا يُمْكِنُ تَرْجِيحُ قِرَاءَةٍ عَلَى قِرَاءَةٍ»^(٢).
«وَتَكَلَّمُوا فِي تَرْجِيحِ إِحْدَى الْقَرَاءَتَيْنِ عَلَى الْأُخْرَى، وَقَدْ تَقَدَّمَ أَبِي لَا أَرَى شَيْئًا مِنْ هَذِهِ التَّرَاجِيْحِ؛ لِأَنَّهَا كُلُّهَا مَنْقُولَةٌ مَتَوَاتِرَةٌ قُرآنًا، فَلَا تَرْجِيحٌ فِي إِحْدَى الْقَرَاءَتَيْنِ عَلَى الْأُخْرَى»^(٣).

وَمَعَ هَذَا التَّنْظِيرُ الصَّرِيحُ مِنْ أَبِي حَيَّانِ مَنْعُ الْمَفَاضِلَةِ، فَإِنَّ أَبَا حَيَّانَ فَاضِلٌ تَطْبِيقِيًّا - وَبِدَرْجَةِ أَقْلَى مِنْ غَيْرِهِ - بَعْضًا مِنْ الْمَفَاضِلَةِ فِي تَفْسِيرِهِ، وَمِنْ ذَلِكَ مَا قَالَهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «إِنْ تُبْنِوُ الصَّدَقَةَ فَيُعَنَّا هُنَّ بِهَا وَإِنْ تُحْفَوْهَا وَتُنْهَوْهَا الْفُقَرَاءُ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَبِكُفْرِ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ»^(٤)؛ «وَقَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ^(٥): الْجَزْمُ^(٦) فِي الرَّأْيِ أَفْصَحُ هَذِهِ الْقَرَاءَاتِ،

(١) يُنظر: أصول النحو العربي .٣٨

(٢) البحر الحيط .٢٤٧/٦

(٣) البحر الحيط .٤٧٨/٧

(٤) البقرة: .٢٧١

(٥) يُنظر: المحرر الوجيز .٣٧٥/١

(٦) ذُكْر تحرير قراءة (ويكفر) سابقاً. يُنظر: حجّة القراءات، لابن زنجلة ٤٧، التيسير، للداني .٧١١

لأنها تؤذن بدخول التكفير للجزاء، وكونه مشروطاً إن وقع الخفاء، وأماماً رفع الراء فليس هذا المعنى. انتهى.

ونقول: إن الرفع أبلغ وأعلم؛ لأن الجزم يكون على أنه معطوفٌ على جواب الشرط الثاني، والرفع يدل على أن التكفير متربٌ من جهة المعنى على بذل الصدقات، أبديت أو أخفيت؛ لأننا نعلم أن هذا التكفير متعلقٌ بما قبله، ولا يختص التكفير بالإخفاء فقط، والجزم يخصصه به، ولا يمكن أن يقال: إن الذي يُبدي الصدقات لا يُكفر من سيئاته، «فقد صار التكفير شاملًا للنوعين من إبداء الصدقات وإخفائها، وإن كان الإخفاء خيراً من الإبداء»^(١).

وربما نقل أبو حيّان ترجيحات الأئمة في الموضع الواحد بلا إنكار منه^(٢)، «وهو، بعامّةٍ، لا يُفاضل بين القراءات المتواترة ولا ينص على الوجه الأفصح إلا نادراً، وإنما كل همه أن يوجّه الوارد منها، ويدافع عن القراءات المنقودة»^(٣).

(١) البحر المحيط ٦/٤٨٩. وينظر: البحر المحيط ٦/٤٨١.

(٢) البحر المحيط ٦/٥٣٧.

(٣) النحو وكتب التفسير ٢/٩٣٢.

وقصاري القول فيما مضى من دراسة وصفية للواقع النحوي للعلماء المنسوب إليهم المع كالتالي:

- ١- ثبت أن ثعلباً والنحاس وأبا حيان = لم يخل نحوم القرآن من المفاضلة بين القراءات القرآنية المتواترة.
- ٢- أبو حيان، رحمه الله، معروف ب موقفه الأثري وبدفاعه عن القراءات القرآنية، لكن مبدأ المفاضلة بين القراءات المتواترة لم يكن معدوماً في تفكيره النحوي، وإن كانت المفاضلة في (البحر المحيط) قليلة جداً مقارنة بما في (إعراب القرآن) للنحاس من تفضيل.
- ٣- يشتراك العلماء الثلاثة في وجود تناقضٍ بين ظاهر نصوصهم النظرية مع الواقع الإجرائي في إعرابهم وتوجيهاتهم القرآنية، ولذلك تفسيرٌ في مبحثٍ تحليلٍ لاحقٍ، بإذن الله.

المبحث الثاني: موانع المفاضلة بين القراءات القرآنية المتواترة. (قراءة توظيفية)

التناقض الظاهر بين النصوص التنظيرية للنحو المشتهر عنهم المنع والواقع الإجرائي المشتمل على التفضيل =يمكن أن نستخلص منه موازنةً أو موقفاً نظفراً منه بمواهِمٍ تخصص العام، أو تقييد المطلق.

- وأما أبو العباس ثعلب، فليس له من نصوص أو مزيد تنظير يمكن أن نلتفت إليه، غير ما نقلناه، سابقاً، عن تلميذه، وتناقله العلماء عنه. لكنه يعبر بالتأكيد عن طبيعة اجتهادات مرحلة من مراحل علاقة النحو بالقراءات القرآنية، وهي اجتهادات يمكن التأريخ لها من بداية القرن الرابع الهجري.

- وأما أبو جعفر النحاس، فأعتقد أن المنع المنسوب إليه، اكتسب تجذرها في أذهان الكثيرين من موانع التفضيل التي ظهرت بوضوح في إعرابه للقرآن الكريم وتوجيهه قراءاته، فهو -في أئمة النحو- أكثر من قدمٍ تنظيرًا مقبولاً ومهمًا لظاهرة المفاضلة-يمكن للباحث أن يلتقط منه إشارات، يسوغ توظيفها في استكناه هذه الظاهرة، أو في الكشف عن طبيعة مرحلة من مراحل العلاقة بين النحو والقراءات القرآنية.

وقد رأيت أنّ موقفه هو إلى الاعتقاد بوجود موانع للففضيل أقرب منه إلى المنع المطلق.

- وأما أبو حيان، رحمه الله، فإنّ قلة المفاضلة بين القراءات المتواترة في تفسيره مؤذنة بطبيعة تطور الفكر النحوي، فهو من نحاة القرن الثامن والباحثون يسجلون للمتآخرين من النحو علاقةً أكثر مواهمةً مع القراءات القرآنية، ولا ريب أنّ العامل المؤثر الأكبر في هذه العلاقة هي انكشاف الضبابية عن تحقق المفاضلة بين القراءات القرآنية المتواترة في الفكر النحوي (قراءة في المبدأ والمقاهيم والمواقف)

مفهوم (التواتر)، واستقرار شأن (القراءات المتواترة) بالتدوين والتسيب وتلقي الأمة لها بالقبول، وليس في هذا الكلام إشارة من قريب أو بعيد إلى نفي وقوع تضييف القراءات أو المفاضلة بينها عند المتأخرین، ولذلك تحليلٌ لاحقٌ، بإذن الله.

موانع المفاضلة بين القراءات القرآنية المتواترة:

هناك موانع للمفاضلة نص عليها بعض النحويين- وفي مقدمتهم النحاس- وصادق عليها علماء علوم القرآن وقراءاته، وهي كالتالي:

١- أن تكون القراءاتان بمعنى واحد.

قال أبو جعفر في قول الحق، تبارك وتعالى: «وَمَنْ قَبْلَهُ كَتَبْ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهُدًى كَتَبْ مُصَنَّقًا لِسَانًا عَرِبًا لِيَنْذِرَ الْأَذْيَنَ ظَلَمُوا وَبَشَرُوا لِلْمُحْسِنِينَ»^(١)؛ «والمعنى في القراءتين^(٢) واحد، ولا اختيارات فيهما، من قرأ "لينذر" جعله للقرآن أو لله، جل وعز، إذا كان للقرآن فالنبي، صلى الله عليه وسلم، هو المznير به، وكذا إذا كان الله، جل وعز، فإذا عرف المعنى لم يقع في ذلك اختيارات»^(٣).

- وكان النحاس كثيراً ما يرفض التفريق بين القراءات بلا دليل، ويرفض تكليف الفروق اللفظية في القراءات، ومن ذلك: «وأحسن من هذا أن يكون (وصي) و(أوصى) بمعنى واحد، مثل (كرمنا وأكرمنا)»^(٤)، «والمعنى واحد

(١) الأحقاف: ١٢.

(٢) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم وحمزة والكسائي (لينذر) بالياء، وقرأ نافع وابن عامر (لينذر) بالياء، ينظر السبعة، لابن مجاهد ٥٩٦.

(٣) إعراب القرآن ٤/١٦٢.

(٤) إعراب القرآن ١/٢٦٤.

...وليس يقع في هذا اختيار»^(١)، وكثيراً ما يقول: «وهما لغتان بمعنى واحد»^(٢)، «وهذه التفريقات لا تُقبل إلا بحجة ودليل»^(٣).

- وفي قوله تعالى: «أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا فِي الْسِّلْمِ كَافَّةً»^(٤)، نجد النحاس يوافق الكسائي^(٥) في أنّ (السِّلْم) و(السِّلْم) واحد^(٦)، وينخالف أبا عمرو في أنّ الأولى بمعنى المسالمة والثانية بمعنى الإسلام، ويقول أبو جعفر: «ومحمد بن يزيد ينكر هذه التفريقات وهي تكثر عند أبي عمرو، واللغة لا تؤخذ هكذا وإنما تؤخذ بالسماع لا بالقياس، ويحتاج من فرق إلى دليل وقد حكى البصريون: بنو فلان سِلْم وسِلْم، بمعنى واحد، ولو صح التفريق لكان المعنى واحداً؛ لأنّه إذا دخل في الإسلام فقد دخل في المسالمة»^(٧).

- والذي يظهر لي أنّ محاولة التأسيس التي قام بها النحاس لمنع المفاضلة بين القراءتين إذا كانت القراءتان بمعنى واحد هي مفردة من مفردات محاولة الترشيد المبكرة للمفاضلة بين القراءات. وذلك بتقديم حمل القراءتين على الاتفاق ما أمكن، لأن ذلك أقرب لصون القراءات المتواترة من التضعيف. ولم يخل التفكير النحوي من

(١) وينظر: إعراب القرآن/١، ٢٨٩/٤، ٣١٥/٤، ٣٦٠/٤، ١١٧/٥.

(٢) إعراب القرآن/١، ٢٨٨/١.

(٣) إعراب القرآن/٢، ٤٧٢/٢.

(٤) البقرة: ٢٠٨.

(٥) ينظر: معاني القرآن، للكسائي ٨٧.

(٦) قرأ الحمياني والكسائي في (السِّلْم) بفتح السين، والباقيون بكسرها. ينظر: الحجة، لأبي علي ٢٩٢/٢، التيسير، للداني ٦٨.

(٧) إعراب القرآن/١، ٣٠٠/١.

التأصيل لذلك بعد النحاس وقد تأثر بما أصّله مبكراً كثيّر من المفسرين وعلماء الأمة عامة، إذ «الأصل توافق القراءات»^(١)، وأن «حمل القراءتين على معنى واحد أحسن»^(٢)، وقد قال ابن الحاجب: «وإذا اجتمع قراءتان لإحداهما تأويلاً، أحدهما موافق للقراءة الأخرى كان حمله على القراءة الموافقة للأخرى أولى، لئلا يؤدي إلى اختلاف المعاني، والأصل اتفاقهما»^(٣).

- وقد أصبح هذا الأصل قاعدة من قواعد الترجيح عند المفسرين^(٤).

٢- أن تكون القراءتان كائيتين، كلُّ واحدة تؤدي معنى.

من موانع المفاضلة بين القراءات أن يكون لكل قراءة معنى مراد تدل عليه القراءة، وقد ذكر النحاس هذا الضابط غير مرّة في مواضع مختلفة، ومنها:

- «وهذه القراءات إذا اختلف معانيها لم يجز أن يقال إحداهما أجود من الأخرى، لا يقال ذلك في الأخبار إذا اختلفت معانيها»^(٥).

- «ولا ينبغي أن يقال في هذا أحد القراءتين أصح من الأخرى؛ لأنهما يدللان على معنيين»^(٦).

(١) الدر المصون ٣/٥٥٥.

(٢) الكشف، لمكي ١/٢٢٧.

(٣) الإيضاح في شرح المفصل ١/٢٨٩.

(٤) ينظر: قواعد الترجيح عند المفسرين ١/١٠٠.

(٥) إعراب القرآن ٣/٣٤٣.

(٦) إعراب القرآن ٣/١٤٣.

- «أهل النظر يقولون: إذا قرئ الحرف على وجوه فهو منزلة آيات كل واحدة تفيد معنى، وقد قال النبي، صلى الله عليه وسلم: «أوتيت جوامع الكلم»^(١)». ^(٢).

- وجاء في إعراب قوله تعالى: **﴿وَأَسْتَحْوُ بِرُؤُسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ﴾**^(٣): «فمن قرأ بالنصب^(٤) جعله عطفاً على الأول أي واغسلوا أرجلكم، وقد ذكرنا الخفظ إلا أن الأخفش^(٥) وأبا عبيدة^(٦) يذهبان إلى أن الخفظ على الجوار والمعنى للغسل، قال الأخفش: ومثله: (هذا حُجْرٌ ضِبٌّ خَرِبٌ)، وهذا القول غلط عظيم، لأن الجوار لا يجوز في الكلام أن يقاس عليه إنما هو غلط ونظيره الإقواء ومن أحسن ما قيل أن المسح والغسل واجبان جميعاً والمسح واجبٌ على قراءة من قرأ بالخفظ، والغسل واجبٌ على قراءة من قرأ بالنصب، والقراءتان منزلة آيتين^(٧).

وهذا المانع الذي أسس له النحاس لترشيد المفاضلة بين القراءات = ن Stacy عند المفسرين وعلماء الأمة بعد ذلك على هيئة قاعدة كليلة في فهم النص

(١) صحيح مسلم ٣٧٢/١ (حديث: ٥٢٣)، مسند أحمد ١٢/٣٦٦، (حديث: ٧٤٠٣).

(٢) إعراب القرآن ٤/١٨٠.

(٣) المائدة: ٦.

(٤) قرأ (أرجلكم) بالنصب: نافع وابن عامر والكسائي وحفص، وبقية السبعة بالجر، ينظر: السبعة، لابن مجاهد ٢٤٢، حجة القراءات، لابن زنجلة ٢٢١.

(٥) معاني القرآن ١/٢٧٧.

(٦) مجاز القرآن ١/١٥٥.

(٧) إعراب القرآن ٢/٩.

القرآن، إذ «القراءتان إذا ظهر تعارضهما في آية واحدة لهما حكم الآيتين»^(١)، وصار ذلك بمثابة اختلاف تنوع، لا يجوز ترك موجب إداحهما لأجل الأخرى^(٢)، وهذا من تفسير القرآن بالقرآن، إما بإضافة معنى أو توسيعه، وإما بتأكيده أو توضيحه، وإما بدفع توهّم، وإما بشمرة من ثمار تعدد القراءات القرآنية. وقد امتدّ تنظير العلماء لهذا الضابط المنبع من التفكير النحوي إلى الجانب البلاغي الممتد من بلاغة الإيجاز الذي تؤديه تعدد القراءات وتكاملها من طرفٍ خفي إلى إعجاز كثرة القراءات مع انتفاء التناقض والتهاافت والتخاذل، يقول الزرقاني: «إن تنوع القراءات يقوم مقام تعدد الآيات وذلك ضرب من ضروب البلاغة، يبدأ من جمال هذا الإيجاز، وينتهي إلى كمال الإعجاز»^(٣).

٣-أن تكافيء القراءتان في قوة الشهرة والتواتر.

من أدق الأوصاف التي توصف بها القراءات المستعملة قبل تسبيع ابن مجاهد في نحو سنة (٣٠٠هـ)^(٤) هو وصفها بالقراءات (المشهورة) أو (المستفيضة)، إذ الشهرة أمرٌ نسبي، تختلف نسبتها عند إنسان وآخر، وترتبط موقع جغرافي دون آخر وبقاطنيه من الخواص والعام، بخلاف مصطلح

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ١٣/٣٩١، وينظر: البشر في القراءات العشر ١/٥١.

(٢) أضواء البيان ٢/٨.

(٣) مناهل العرفان ١/١٤٩.

(٤) قال مكي (٤٣٧هـ): «أول من اقتصر على هؤلاء: أبو بكر بن مجاهد قبل سنة ثلاثة أو في نحوها، وتابعه بذلك من أتى بعده إلى الآن». الإبانة عن معاني القراءات ٩٩.

(التواتر) الذي يُحِّمِّ من هذه النسبة، ويرتفع إلى درجات القطع، على أنَّ القراءات السبع المتواترة -لاحِقًا- قد أطلق عليها مصلح (المشهورة). ولم يكن لابن مجاهد، رحمه الله، إلا أن يستمد قوة ما يدونه من هذه الشهرة، ليزداد اجتماع الناس عليها ويتلقون تدوينه بالقبول، قال، رحمه الله، في الأئمة السبعة: «فهؤلاء سبعة نفر من أهل الحجاز والعراق والشام، خلفوا في القراء التابعين، وأجمعوا على قراءَهم العوام من أهل كل مصرٍ من هذه الأماكن التي سميت وغيرها من البلدان التي تقترب من هذه الأماكن، إلا أن يستحسن رجلٌ لنفسه حرفاً شادداً، فيقرأ به، من الحروف التي رويت عن بعض الأوائل منفردة، فذلك غير داخلٌ في قراءة العوام»^(١).

وكل ذلك مرئٌ، أولاًً وآخرًا، بما عُرف عن هؤلاء الأئمة، فكُلُّهم «من اشتهرت إمامته، وطال عمره في الإقراء، وارتحال الناس إليه من البلدان»^(٢).

(١) السبعة، لابن مجاهد .٨٧

(٢) الإبانة عن معاني القراءات .٩٨

النحاس و موقفه المؤثر في تاريخ نحو القراءات.

عوداً إلى موقف النحاس و موانعه، فقد وردت منه نصوص تدل على منعه للمفاضلة بين القراءات التي نقلها الجماعة عن الجماعة، ومن ذلك:

- «و هذا ما يُذكر على الفراء أن يُقال للقراءات التي قد روثها الجماعة عن الجماعة: هذا أجود من هذه لأنّها إذا روثها الجماعة عن الجماعة قيل هكذا أُنزل؛ لأنّهم لا يجتمعون على ضلاله»^(١).

- وقال منكرا على اختيار أبي عبيد: «والسلامة من هذا عند أهل الدين إذا صحّت القراءاتان عن الجماعة أن لا يقال إحداهما أجود من الأخرى لأنّهما جمیعاً عن النبي، صلی الله عليه وسلم، فیأثّم من قال ذلك»^(٢).

- وفي موضع قال: «والقراءاتان حستان؛ لأن الجماعة نقلتها»^(٣).

والمسألة التي تشغّل بالكثير من الباحثين وتطرح نفسها بإلحاح: كيف نوّفّق بين نصوص المنع من النحاس و مواضع الترجيح في كتابه؟

(١) إعراب القرآن ٤/١٣٦، وينظر: ٥/٢٤٠.

(٢) إعراب القرآن ٥/٦٢.

(٣) إعراب القرآن ٥/١٤٢.

بعد إحصاء مواطن الترجيح في كتابه (إعراب القرآن)، وكذلك المواطن التي صرّح بإنكار المفاضلة فيها، يتبيّن الآتي:

١- أن قراءة «الجماعية»^(١)، أو «الحجّة من أهل الأمصار»^(٢)، أو «العامة»^(٣)، أو «أكثر الناس»^(٤) هي المقدمة عند النحاس، ولا يحيد في اختياره عن قراءة الأكثرين إلى قراءة الجماعة الأقل في السبعة إلا إذا خالفت قراءة الأكثرين الرسم العثماني، وقد نصّ على أن القراءتين «إذا كانتا فصيحتين فالأولى اتباع السواد»^(٥)، وجاء في قراءتي قوله تعالى: «وَمَا هُوَ عَلَى الْأَقْبَابِ»^(٦): «ولَا اختلاف بين أهل التفسير واللغة أَنْ معنى (بظنين) بِمُتَّهِمٍ، و(بظنين) بِبَخِيلٍ، فَالقراءتان»^(٧) صحيحتان قد رواهما الجماعة إلا أنه في السواد بالضاد»^(٨)، وإذا خلت المفاضلة من تدخل السواد أو الرسم، فالقاعدة أن قراءة الجماعة هي الأولى»^(٩).

(١) إعراب القرآن ١/٣٥٠، ٣٥٠/٤، ٨/٣.

(٢) إعراب القرآن ٤/١٣٤.

(٣) إعراب القرآن ٢/١٩.

(٤) إعراب القرآن ٤/٩٢.

(٥) إعراب القرآن ٥/١١٥.

(٦) التكوير: ٢٤.

(٧) فرأى ابن كثير وأبو عمرو والكسائي (بظنين) بالظاء، والباقيون بالضاد. ينظر: السبعة، لابن مجاهد ٦٧٣، التيسير، للداني ١٧٩.

(٨) إعراب القرآن ٥/١٦٣.

(٩) إعراب القرآن ٥/٣١٠، ٤/٣٧٥. وينظر: ٤/٢١٦.

٢- ومن معطيات القرن الذي عاش فيه النحاس، رحمة الله، فإنه، وإن كان لم يعش مرحلة استقرار الأمة التام لما دُوّنه ابن ماجه، إلا أن هناك مرتکزات مقررة في علم القراءات إلى يومنا هذا لم يخل منها نحو النحاس في توجيهاته، ومنها الضوابط والمرتكزات الآتية:

- كان يربط تعدد القراءات وتنوعها بمبدأ (الأحرف السبعة)، وأن أجود ما يتخذه النحوي هو أن يكف عن التفضيل على ما اشتهر الاجتماع عليه، قال: «وأجود ما قيل: هكذا أُنزل، كما قال النبي، صلى الله عليه وسلم: «أنزل القرآن على سبعة أحرفٍ كلها شافٍ كافٍ»^(١)»^(٢).
- أصل المنهج عنده أنه: «لا يجوز الابتداع في القراءات»^(٣)، وقال في أحد ردوده على أبي عبيد: «وهذا الاحتجاج مردود من العلماء وأهل النظر، لأن كتاب الله -عز وجل- لا يُحمل على المقاييس، وإنما يُحمل بما تؤديه الجماعة»^(٤).
- القراءة المعتبرة عنده ما تتوفرت فيها الآتي:
 - ١- أن يكون لها وجه قوي في العربية.

(١) جمع الزوائد، للهيثمي ١٥٢/٧ (حديث: ١١٥٧٨)، وينظر: النشر في القراءات العشر، ٢١/١، الإتقان، للسيوطى ٤٥/١، وأشار صاحب (المدخل إلى علم القراءات) إلى أن: هذه الرواية بالتحديد عن عثمان بن عفان، رضي الله عنه، كل من ذكرها عزّها إلى المسند الكبير لأبي يعلى الموصلي، ولا يوجد في المطبوع مسند عثمان، ولعله سقط.

(٢) إعراب القرآن ٢٩٠/٥.

(٣) إعراب القرآن ٢٣٨/٤.

(٤) إعراب القرآن ٣٦٥/٤.

٢- أن توافق الرسم العثماني.

٣- أن يقرأها العامة أو الجماعة المعتمد بها.

ويربط الاكتفاء بقراءة الجماعة بغایة حفظ القراءات من الاضطراب ودخول فيها ما ليس منها، قال في أحد الموضع: «هذه القراءة التي عليها جماعة الحجة وما يُروى من غيرها يقع فيها الاضطراب، وكذا أكثر القراءات الخارجة عن الجماعة، وإن وقعت في الأسانيد الصحاح إلا أنها من جهة الآحاد»^(١). ويظهر في هذا النص مصطلح (الآحاد) الذي يدل على أن نقل القراءة لم يبلغ مستوى يُفيد القطع باتصالها بالنبي، صلى الله عليه وسلم، كما ظهر مصطلح (الشاذة) وربط الصحيحة بالشيوخ في رده على تأويل علي بن سليمان الأخفش الأصغر لمعنى قراءة متواترة وحملها على قراءة شاذة، فقال: «فكيف تُردد القراءة الصحيحة الشائعة إلى الشاذة؟»^(٢).

٣- النحو القرآني عند النحاس خير نحو يمكن أن يمثل مرحلة بداية وتطور الموقف مع القراءات في بداية القرن الرابع، لكنها تظل مرحلة ما قبل التسبيع وما قبل الاطمئنان التام للأسانيد، لذا فـ(الإسناد) وملابساته كان جزءاً من أسس التحليل النحووي للقراءات عند النحاس، ولك أن تستعرض هذه النصوص، لنعيش المرحلة:

- «لا يترك السواد المجتمع عليه لهذا الإسناد المنقطع»^(٣).

(١) إعراب القرآن ٤/٥.

(٢) إعراب القرآن ٣٥/٣.

(٣) إعراب القرآن ٣٣٤/٢.

- «وهي الصحيحة عند نافع بن أبي نعيم. حكى ذلك أبو عبيد وإسماعيل بن إسحاق وغيرهما من أهل الضبط إلا ورشا»^(١).

- وقال في قراءة شاذة ذكرها أبو حاتم ووردت في معاني الفراء: «لم أسمع لها إسنادا»^(٢).

- وفي موضع قال: «وأجود من هذا الإسناد ما رواه يحيى القطان عن الثوري عن عطاء بن السايب عن سعيد بن جبير»^(٣).

- «وليس لهذه الرواية طريق غير هذا»^(٤).

- «على أن الإسناد فيه شهرة وذلك أن عمرو بن دينار لم يقل: سمعت ابن عباس، فيخاف أن يكون مرسلا»^(٥).

٤- من أكثر النصوص التي تعبّر عن مرحلة ما قبل التسلیم المطلق للتواتر المدون - وقد وجدت كتب الأعماقيات والتوجيهات النحوية تُصادق على ما فيه بحق- هو معيار المفاضلة الدقيق الذي نص عليه مكي بن أبي طالب (٤٣٧هـ)، رحمه الله، إذ يقول: «وأكثرا اختيارهم إنما هو في الحرف إذا اجتمع فيها ثلاثة أشياء:

(١) إعراب القرآن . ٣٠/٣

(٢) إعراب القرآن . ٢٤١/٢

(٣) إعراب القرآن . ٣٥/٣

(٤) إعراب القرآن . ٣٥/٣

(٥) إعراب القرآن . ٦٥/٤

- قوة وجده في العربية.
- موافقته للمصحف.
- واجتماع العامة عليه.

والعامة عندهم ما اتفق عليه أهل المدينة وأهل الكوفة. فذلك عندهم حجة قوية يوجب الاختيار وربما جعلوا العامة ما اجتمع عليه أحد الحرميين. وربما جعلوا الاختيار ما اتفق عليه نافع وعاصم، فقراءة هذين الإمامين أوثق القراءات، وأصححها سنداً، وأفصحها في العربية، ويتلوها في الفصاحة قراءة أبي عمرو، والكسائي، رحمه الله»^(١).

إن محاولة مكي لتفسير مفهوم (الاختيار) للقراءة عند العلماء تقوم على أساسين أو فرضيتين^(٢):

- ١- المفاضلة بين القراءات.
- ٢- المفاضلة بين القراء.

والذي يظهر لي أن هذا المعيار كان منتشرًا ومؤثراً في اختيارات النحويين ويمتد هذا التأثير إلى ما بعد القرن الرابع الهجري.

إن تفهم هذا المعيار أمر ضروري لمعرفة حقيقة موقف النحاس من المفاضلة بين القراءات فهو لا يمانع من المفاضلة وفق ذلك المعيار الذي يعبر عن مراتب القوة والشهرة الذي اطمئن له أهل تلك العصور، وقد حللت نوعاً ما محل مطلق

(١) الإبانة عن معانٍ القراءات . ١٠٠ .

(٢) إعجاز القراءات القرآنية . ١٣ .

(التواتر) الذي استقر لنا لاحقاً، لكنه يمانع حين يختل هذا المعيار النافذ، وإليك تبيان ذلك:

- ١- بالرغم من منزلة عاصم ونافع عند العلماء مطلقاً، وعند النحاس خاصة^(١)، فقد أثني عليهما بما هما أهله، لكنه كان يقدم قراءة عامة القراء عليها^(٢)، أمّا تقاديمه لقراءة الجماعة على ما سواها فهو أبين^(٣)، إذ «الجماعة لا تجتمع على ما لا يجوز»^(٤).
- ٢- قراءة الحرمين مقدمة في اختيارات النحاس على قراءة الكوفة^(٥)، لكنه يقدم قراءة العامة في مقابل قراءة قراء الحرمين أو قراء الكوفة^(٦).
- ٣- لا يكاد يقدم على قراءة عاصم ونافع مجتمعين إلا قراءة عامة القراء.
- ٤- إذا استوت الجماعتان في القوة، وانقسم القراء انقساماً متساوياً في المعيار، فيفترق قراء الحرمين وقراء الكوفة والبصرة، أو يفترق في القراءتين عاصم ونافع، فعادة النحاس أن يختار توجيه القراءتين بلا مفاضلة^(٧). وربما أكتفى

(١) إعراب القرآن ٢/٣٨٤، ٤/٩٢، ٤/١٥٥، ٤/١٥٥، ٥/١٥٩.

(٢) إعراب القرآن ١/٤١٩، ٢/١٢٣، ٤/٥٥.

(٣) إعراب القرآن ٤/١٧٤، ٤/١٣٤، ٤/٦٥، ٤/١٢٣، ٤/٣٢٢.

(٤) إعراب القرآن ٤/١٧٤.

(٥) إعراب القرآن ٢/٤٢٠، ٢/٢٩.

(٦) إعراب القرآن ٣/١٦٧، ٣/٨.

(٧) إعراب القرآن ٢/١٨٢، ٢/١٣٣.

بترجيحٍ خفيٍ وذلك بنقل رأي أئمة النحو في المسألة أو رأي سيبويه^(١) على وجهٍ خاصٍ^(٢).

● مواضع إنكار المفاضلة وعلاقتها بالمعيار.

بعد إحصاءٍ دقيقٍ للمواضع التي صرّح فيها النحاس بمنع المفاضلة ومنها النصوص التي اشتهرت عنه عند المتقدمين والمتاخرين، فقد تبين أنّ كل إنكار صريح للمفاضلة بين القراءات على الفراء أو أبي عبيد = كان في طيّات ذلك مانعة من النحاس على تقديم قراءةٍ غير موافقةٍ لراتب القوة والشهرة التي شاعت في تلك القرون.

وقد أحصيَت مواضع إنكار النحاس وأوضحت علاقتها بمعيار المفاضلة الذي ارتكضاه في البيان الآتي:

١- قال أبو جعفر في إعراب، قراءات قوله تعالى: «وَمَنْ يَنْتَهِ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ»^(٣): «أبو عبيد القاسم بن سلام يختار قراءة أبي عمرو والكسائي في هذا»^(٤)، وزعم أنها أصح في العربية، وردد قراءة أهل الحرمين وعاصم وجمزة»^(٥). يتضح

(١) ظاهرة الاعتداد برأي سيبويه حاضرة بقوة في كتب معاني وإعراب القرآن، وتستحق دراسة متفردة في طبيعتها وتوظيفها.

(٢) ينظر: إعراب القرآن ٢/٣٢.

(٣) الحجر: ٥٦.

(٤)قرأ أبو عمرو والكسائي (يقطن) وفي الروم: ٣٦ (يقطنون) وفي الزمر: ٥٣ (لا تقطنوا)، بكسر النون في الثلاثة، والباقيون بفتحها، ينظر: حجة القراءات، لابن زنجلة ٣٨٣، التيسير، للداني ١١١.

(٥) إعراب القرآن ٢/٣٨٤.

هنا أنّ إنكار النحاس للمفاضلة يُدخله إنكار أن تُقدم قراءة على إجماع قراءة الحرمين، «ولا سيما ومعهم عاصمًا مع جلالته ومحله وعلمه وموضعه من اللغة»^(١).

٢- جاء في قوله تعالى: ﴿كَالْمَهْلِ يَعْلَىٰ فِي الْبَطْوَنِ﴾^(٢): «قراءة أهل المدينة وأهل الكوفة وأهل البصرة، وقراءة ابن كثير (كالمهمل يغلي)^(٣)، وهو اختيار أبي عبيدة. وهو مخالف لحجة الجماعة من أهل الأمصار»^(٤). فالمفاضلة بين قراءة العامة وقراءة فرد من الأئمة لا يرتضيها أبو إسحاق.

٣- جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَقِبِّلَ فِي مَقَامِ أُمِّيِّنَ﴾^(٥): «قراءة الكوفيين وأبي عمرو، وقرأ المدينيون (في مُقام الميم)^(٦)، قال: الفراء: مَقَامٌ أَجُودُ فِي الْعَرَبِيَّةِ؛ لِأَنَّهُ لِلْمَكَانِ. قَالَ أَبُو جعْفَرٍ: وَهَذَا مَا يُنْكِرُ عَلَى الْفَرَاءِ أَنْ يُقَارَنَ لِلْقُرَاءَاتِ الَّتِي قَدْ رَوَتْهَا الْجَمَاعَةُ عَنِ الْجَمَاعَةِ: هَذِه أَجُودُ مِنْ هَذِه﴾^(٧)، يُظَهِّرُ هُنَّا أَنَّ الْإِنْكَارَ عَلَى الْفَرَاءِ وَرَاءَهِ إِنْكَارٌ تَقْدِيمِ قِرَاءَةِ نَافِعٍ وَابْنِ عَامِرٍ مِنَ السَّبْعَةِ عَلَى قِرَاءَةِ الْعَامَةِ الْمَكُونَةِ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ وَبَقِيَّةِ السَّبْعَةِ، فَالْقِرَاءَةُ الْمُفْضُولُ عَلَيْهَا فِي مَعِيَارِهِمْ أَقْوَى وَأَشَهَرُ.

(١) المرجع السابق.

(٢) الدخان: ٤٥.

(٣) ينظر: السبعة، لابن مجاهد ٥٩٢، حجة القراءات، لابن زنجلة ٦٥٧.

(٤) إعراب القرآن ٤/١٣٤.

(٥) الدخان: ٥١.

(٦) قرأ نافع وابن عامر (في مُقام الميم) بضم الميم، والباقيون بفتحها، ينظر: السبعة، لابن مجاهد ٥٩٣، التيسير، للداني ١٦٠.

(٧) إعراب القرآن ٤/١٣٦.

٤- قال النحاس: «وَقَرَأَ أَبُو عُمَرُ^(١) 《وَلَا تَفْرُخُوْ بِمَا أَتَيْتُكُمْ》^(٢)، وهو اختيار أبي عبيد، واحتج أنه لو "آتاكم" لكان الأول "أفاتكم". قال أبو جعفر: وهذا الاحتجاج مردود عليه من العلماء وأهل النظر؛ لأن كتاب الله عز وجل لا يُحمل بما تؤديه الجماعة، فإذا جاء الرجل فقاس، بعده أن يكون مُتبِعًا^(٣). هنا قدم أبو عبيد قراءة أبي عمرو على جماعة القراء الأئمة، والمفاضلة التي تجعل من قراءة العامة المعتمد بها هي المفضولة-مفاضلة لا يقبلها النحاس.

٥- قال النحاس في قراءات قوله تعالى: 《إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقْرُئُمُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيْ أَلْيَنَ وَنَصْفَهُ، وَثُلُثَهُ》^(٤): «وقد عكس الفراء^(٥) قوله فاختار النصب^(٦)... والسلامة من هذا عند أهل الدين إذا صحت القراءتان عن الجماعة أن لا يقال: إحداها أجود من الأخرى؛ لأنهما جيئاً عن النبي، صلى الله عليه وسلم، فيأثم من قال ذلك»^(٧). في هذا التفضيل قدم الفراء قراءة النصب وهي قراءة الكوفيين وابن كثير، على قراءة الخفاض وهي قراءة أهل المدينة والباقيين،

(١) قرأ أبو عمرو (آتاكم) بالقصر، والباقيون بالمد. ينظر: السبعة، لابن مجاهد ٦٢٦، التيسير، للداني ٢٦٩.

(٢) الحديدي: ٢٣.

(٣) إعراب القرآن ٤/٣٦٥.

(٤) المزمل: ٢٠.

(٥) معاني القرآن ٣/١٩٩.

(٦) قرأ الكوفيون وابن كثير (ونصفه وثلثه) بنصب الفاء والتاء، والباقيون بمحضها. ينظر: السبعة، لابن مجاهد ٦٥٨، حجة القراءات، لابن زنجلة ٧٣١.

(٧) إعراب القرآن ٥/٦٢.

وفيهم: عاصم ونافع، وهذا مخالفٌ لمعيار القوة، وتقديمٌ للمفضول على الفاضل.

٦- جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَخَافُ عَقْبَاهَا﴾^(١): «هكذا قرأ أهل البصرة والكوفة وقرأ أهل الحجاز (فلا يخاف عقباها)، وزعم الفراء^(٢) أن الواو أجود. وهذا عظيم من القول أن يقال فيما قرأْت به الجماعة ووقع للسواد المنقول عن الصحابة الذين أخذوه عن النبي، صلى الله عليه وسلم: أجود أو أخير. والقراءتان جمِيعاً نقلها الجماعة عن الجماعة، فهما بمنزلة آيتين؛ لأن معناها مختلف»^(٣). قدم هنا الفراء قراءة أهل البصرة وأهل الكوفة على قراءة أهل الحجاز، فأنكر النحاس أن يفاضل بين قراءتين بهذه الدرجة من القوة والشهرة، لا سيما أن قراءة عامة قراء الحجاز مقدمة على غيرها عندهم.

٧- وفي توجيه قراءتي: ﴿فِي عَمَدٍ مُّنْدَدَة﴾^(٤)، حيث نسب قراءة (عمد) بضمتيين إلى عاصم وجمزة والكسائي وغيرهم، ونسب (عمد) بفتحتين والميم إلى المدينيين وأبي عمرو^(٥)، وقال: «إذا جاء الشيء على هذا الاجتماع حُظر في الديانة أن يقال: إحداها أولى من الأخرى»^(٦).

(١) الشمس: ١٥.

(٢) معاني القرآن ٢٣٩/٥.

(٣) إعراب القرآن ٢٣٩/٥.

(٤) الممزة: ٩.

(٥) ينظر: معاني القرآن للفراء ٢٩٠/٣، التيسير، للداني ١٨٢.

(٦) إعراب القرآن ٢٩٠/٥.

هُنا يُنكر النحاس المفاضلة في (مثل هذا الاجتماع) والقوة، فالكتابان متساويان: عاصم والكوفيون في كفّة، ونافع وبقية المدينيين وأبو عمرو في الكفة الأخرى.

خلاصة موقف النحاس: ليس من الإنفاق في حقّ هذا النحوى الإمام - رحمه الله -أن نظن بأنه في سفر واحدٍ ينصل في مواضع على منع المفاضلة بين القراءات المتواترة ثم ينافق نفسه في مواضع عدّة في السفر نفسه. كما أنه ليس من الصحيح ما اشتهر عنه - قدّهَا وحديثاً - أنه يمنع المفاضلة وفي كتابه مفاضلات وفيرة.

إنما موقفه الذي أستخلصه بالإحصاء وتحليل مواضع الإنكار أنه - رحمه الله - لا يمنع المفاضلة مطلقاً، إنما يمنعها فيما قوي وانتشر عند الخاصة والعامة مما اجتمعت عليه الجماعة حتى كان عندهم بمثابة (المتواتر) الذي اطمأنّت له الأمة بعد مرحلة التدوين وتبسيط ابن مجاهد.

أمّا المفاضلة بين بعض القراءات أفراد السبعة أو بين قراءة العامة ومن خالفهم، فشأن النحاس شأن سائر النحويين يفاضلون ويرجحون بظاهر القول وباطنه^(١). وذلك يعني أن القراءات الأئمة المستفيضة - في القرن الرابع وما قبله - مع استفاضتها إلا أن بعضها أوثق من بعض والمعول عليه في ذلك هو: اجتماع الأئمة على القراءة، ويمكن أن نلمح ذلك في قول النحاس: «وإذا جاء الشيء على هذا الاجتماع» حظر في الديانة، أن يقال: إحداها أولى من

(١) للبحث موقف وتفسير لمبدأ "المفاضلة" في الفكر النحوى في المبحث الثالث، بإذن الله.

Three decorative asterisks used as a section separator.

١) إعراب القرآن / ٥٢٩٠ .

١٣٤/٤) إعراب القرآن (٢)

(٣) *جامع البيان*، للطبرى ١١/١٧٨، (تح. شاكر)

المبحث الثالث: مبدأ (المفاضلة) اللغوية في الفكر النحوي

ينقسم العلماء في مسألة القول بتفاوت بلاغة القرآن الكريم إلى فريقين^(١):
الفريق الأول: يذهب إلى عدم التفاوت في بلاغة القرآن الكريم، فكله بلغ ومحاجز، و«لا يجوز أن يكون بعض القرآن أفصح من بعض؛ لأنّه كلّه كلام الله»، وقد أنكر القول بالتفضيل القاضي الباقلاني^(٢)، وابن عبد البر^(٣)، وابن حبان^(٤)، ونُسب هذا القول لأبي الحسن الأشعري^(٥).

الفريق الثاني: يذهب إلى جواز القول بتفاوت القرآن، وأن بعضه أبلغ من بعض، صرّح بذلك ابن سنان الخفاجي^(٦)، وابن عقيل الحنفي^(٧)، والعزّ بن عبد السلام^(٨)، فالقرآن يتفضّل باعتبار مدلولاته وموضوعاته كما يتفضّل باعتبار أجر التلاوة فلا مانع من أن يتفضّل من جهة البلاغة والإعجاز، وهذا التفضّل قال فيه شيخ الإسلام ابن تيمية: «وهو القول المأثور عن السلف، وهو الذي عليه أئمة السلف الفقهاء من الطوائف الأربع وغيرهم»^(٩)، ودعوى

(١) ينظر: البرهان، للزركشي ٤٣٨/١، التفاوت البلاغي بين آي القرآن ٣٨٧، وما بعدها.

(٢) إعجاز القرآن ٢٠٦.

(٣) الاستذكار ١١٦/٨.

(٤) الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ٣/٥٧.

(٥) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ١٧/٦٩.

(٦) سر الفصاحة ٢١٢.

(٧) الواضح في أصول الفقه ٤/٢٦٣.

(٨) الإشارة إلى الإعجاز ٤/٢٠.

(٩) مجموع الفتاوى ١٧/١٣.

أن التفضيل يوهم نقص المفضول، يُرُدُّ عليها بأنه إن أريد بالنقض العيب فهو ممنوع، ففضيل غيره عليه لا يوجب عيباً فيه أهي: في المفضول، وإنْ أريد بالنقض أنه دونه في الفضل، فهـي قضية النزاع، والتعليل بها مغالطة، أو مصادرة على المطلوب؛ لأنـه استدلال على محل النزاع بمحل النزاع^(١). والقرآن هو المعجز، وأفصح من التوراة والإنجيل، مع أنه كلام اللهـ جـلـ وـعـزـ.

هـذا عـرـضـ أـرـدـتـ بـهـ أـبـيـنـ طـرـيـقـةـ تـدـاـولـ الـعـلـمـاءـ عـامـةـ لـمـسـأـلـةـ المـفـاضـلـةـ وـأـنـاـ ظـاهـرـةـ لـهـ اـمـتـدـادـاـتـاـ خـارـجـ نـطـاقـ التـدـاـولـ النـحـوـيـ وـالـلـغـوـيـ^(٢). مـبـدـأـ (ـالـمـفـاضـلـةـ)ـ وـالـفـكـرـ النـحـوـيـ.

مع قلة ما كـتـبـ فيـ هـذـهـ الـظـاهـرـةـ منـ إـشـارـاتـ فيـ الـقـدـيمـ وـالـحـدـيـثـ،ـ فـإـنـ هـذـاـ الـطـرـحـ دـائـمـاـ ماـ يـتـوـجـهـ إـلـىـ الـوـجـهـ الـظـاهـرـ لـهـ الـظـاهـرـةـ وـهـوـ التـدـاـولـ المـقـتـصـرـ عـلـىـ تـسـجـيلـ المـوـقـفـ مـنـهـاـ:ـ المـنـعـ وـالـرـفـضـ.

وـنـفـرـضـ أـنـ عـلـاقـةـ الـلـغـوـيـ مـعـ الـقـرـاءـاتـ وـتـوـجـيهـهـاـ هـيـ عـلـاقـةـ تـفـاضـلـيـةـ بـاـمـتـيـازـ،ـ وـلـذـلـكـ حـاـوـلـ بـحـثـنـاـ دـفـعـ التـدـاـولـ إـلـىـ الـمـنـطـقـةـ الـعـمـيـقـةـ،ـ إـلـىـ أـسـسـ تـعـاـمـلـ النـحـوـيـنـ مـعـ الـقـرـاءـاتـ،ـ لـيـكـونـ السـؤـالـ:ـ هـلـ يـمـكـنـ أـنـ يـتـحـقـقـ لـلـنـحـوـيـ،ـ فـيـ إـعـرـابـاتـهـ وـتـوـجـيهـاتـهـ،ـ الـحـيـادـ الـمـطـلـقـ مـنـ الـقـرـاءـاتـ الـمـتـوـاتـرـةـ الـلـاـيـةـ الـوـاحـدـةـ؟ـ هـذـاـ مـاـ سـنـحـاـوـلـ سـبـرـ أـغـواـرـهـ مـنـ خـلـالـ مـنـاقـشـةـ الـاعـتـبـارـاتـ الـأـسـاسـيـةـ الـمـتـمـاسـةـ بـيـنـ عـلـمـ الـقـرـاءـاتـ وـعـلـمـ الـنـحـوـ الـعـرـبـيـ.

(١) التفاوت البلاغي بين آي القرآن ٣٩٤.

(٢) استندتُ كثيراً في هذا الموضوع من بحث (التفاوت البلاغي بين آي القرآن)، ويندر أن تجد من يختص هذه المسألة ببحث مختص.

الاعتبار الأول: العلاقة المنطقية بين المفاضلة ومبدأ تعدد القراءات.

الأصل الذي يُبني عليه اختلاف القراءات وتعددتها هو حديث النبي - صلى الله عليه وسلم-: «إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف، فاقرأوا ما تيسر منه»^(١)، ويمكننا القول بأن هذا النص الشريف قطعي الثبوت ظني الدلالة، فقد اختلف العلماء اختلافاً كبيراً ومشهوراً في تفسير (الأحرف السبعة) ولا ضرورة لبسطه في هذا المقام^(٢)، لكن يمكننا الخروج بتفسير يجمع بين أكثر الأقوال وهو أنها «وجوه قرائية متعددة متغيرة في الكلمة الواحدة ضمن نوع واحد من أنواع التغاير»^(٣).

وقد جُمعت مظاهر الاختلاف بين القراءات في الآتي^(٤):

- ١- الإظهار والإدغام (قد سمع، فَسَمِعَ).
- ٢- الإملالة والفتح (والضحي).
- ٣- القصر والمد (أَنذرْتُهُمْ، آنذرْتُهُمْ).
- ٤- التسهيل والتحقيق (أَعْجَمَيْ، أَعْجَمَيْ).
- ٥- التحقيق والإبدال (يَؤْمِنُونَ، يَوْمَنُونَ).
- ٦- الإبدال بين الحروف (كالسين والصاد)، والمعنى واحد، (وهذه الأنواع ترجع إلى الأداء فهي من علم الصوتيات المرتبط باختلاف لهجات العرب).

(١) صحيح البخاري ١٢٢/١، (الحديث: ٢٤١٩)، صحيح مسلم ١/٥٦٠، (الحديث: ٨١٨).

(٢) ينظر: الإتقان، للسيوطى ١/١٣١.

(٣) حديث الأحرف السبعة ٩٥.

(٤) ينظر: تأويل مشكل القرآن ٣٦، المحرر في علوم القرآن ٨٩.

٧-الريادة والنقصان (أوصى، وصَّى).

٨-اختلاف الإعراب.

٩-الخطاب والغيبة (يعلمون، تعلمون).

١٠-التذكير والتأنيث (كان سيئهُ، كان سيئةً).

١١-تغيير الكلمة ومعناها (بطنين، بضنين).

وهذه المظاهر تؤكد لنا أن القراءة هي العلم بكيفية أداء كلمات القرآن الكريم^(١)، وأن ما ذهب إليه الزركشي من أن «القرآن والقراءات حقيقان متغييرتان»^(٢)، فيه نظر، لأن ظاهر النقل لا يسنه، فعن عبد الله بن عباس، رضي الله عنه، أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال: «أقرأني جبريل عليه السلام على حرفٍ واحدٍ فراجعته، فلم أزل أستزيده، ويزيدني، حتى انتهى إلى سبعة أحرف»^(٣).

إن مبدأ التيسير، المنصوص عليه وحيًا، هو في حد ذاته نواة المفاضلة، فهي التي تجعل الترجيح بين القراءات أمرًا محتملاً، فلذلك أصبحت القراءات المتواترة عند الجميع (القراء^(٤) والنحوين) خياراً من خيار، ومفاضلةً من مفاضلة^(٥). بل

(١) منجد المقرئين، لابن الجوزي ٣.

(٢) البرهان، للزرکشی ٣١٨/١

(٣) صحيح البخاري ٤/١١٣، (الحديث: ٣٢١٩)، صحيح مسلم ١/٥٦١، (الحديث: ٨١٩).

(٤) النشر في القراءات العشر ١/٥٢.

(٥) ومن صور ذلك ما جاء في كتب القراءات عن رجوع بعض الأئمة من القراء عن قراءة اشتهروا بها، إذ الرجوع في معناه هو ترك المفضول، وأخذ بالفاضل، وهذا هو الاختيار لفضيل إحدى القراءتين على الأخرى، ينظر: الاختيار في القراءات منشئه ومشروعيته ٦١.

هي استلزم منطقى في النفس الإنسانية عامة، فإنها إذا تعددت أمامها الخيارات، ابنتقت المقارنة، ومع كل مقارنة يزغ حسن ما أو تفضيل ما. وقد روی عن الأئمة ما يدل على الميل الذاتي وفضيل قراءة صحيحة على أخرى، ولا غضاضة ما دام الاختيار وفق النقل لا الابداع، ويأتي التفضيل بلفظي (أحب) و (أكره) في الآثار الآتية:

- روی أن مالگا سُئل عن النبر في القرآن، فقال: «إني أكرهه وما يعجبني ذلك وأستحب فيه التسهيل كما جاء أن النبي، صلی الله عليه وسلم، لم تكن لغته الهمز. وعن عبد الله بن أحمد بن حنبل: سألت أبي أي القراءة أحب إليك؟ قال: قراءة أهل المدينة، قلت: فإن لم يكن؟ قال: قراءة عاصم. وروي عنه كراهة قراءة حمزة لما فيها من الكسر والإدغام وزيادة المد»^(١)، وبالطبع لم يعد تفضيل كل قوم بما جرت به عادتهم في الكلام، «فتفسّح كل قوم، وقرأوا على طبعتهم ولغتهم، ولغة من قرب منهم، وكان في ذلك رفق عظيم بهم، وتسهير كثير لهم»^(٢).
- ولنا أن نلمح مما مضى رافدًا من روافد حتمية التفضيل بين القراءات وهو جانب الأداء وروايته (المد، الإدغام، الترقيق، الاختلاس، الإمالة، ونحو ذلك)، وقد قيل إن: «القراءات السبع متواترة فيما ليس من قبيل الأداء»^(٣)، لدقة أمر الأداء وصعوبة ضبطه، والصحيح أن أصول الوجوه

(١) معرفة القراء ١١٦/١، ينظر: المغني لابن قدامة ١٦٥/٢ (تح. التركي).

(٢) الإبانة عن معاني القراءات ٩٢.

(٣) بيان مختصر الأصول ٤٦٩/١، منجد المقرئين، لابن الجزري ١٨٦ وما بعدها.

القرائية الثابتة عن الأئمة في القراءات العشر متواترة، لا يجوز الزيادة فيها ولا النقص، إنما الاختلاف والاجتهاد في بعض المقادير، فالمد-مثلا- ثابت متواتر، أمّا ضبط مقداره، فيصعب حصول التواتر فيه، فذلك فوق طاقة البشر^(١).

● ومن النصوص التي تظهر أثر تعدد الوجوه القرائية في إذكاء المفاضلة والاختلاف ما نص عليه ابن جني بقوله: «ألا ترى إلى قراءة أبي عمرو **﴿لَكَ لَا تَأْمُنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾**^(٢) مختلساً لا محققًا، وكذلك قوله عز وجل: **﴿أَيْسَرُ ذَلِكَ بِقُدْرٍ عَلَىٰ أَيْجِينِ الْمُؤْتَمِ﴾**^(٣) مخفى لا مستوى، وكذلك قوله عز وجل: **﴿فَقُوَّبْلَةُ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾**^(٤)، مختلساً غير ممكن كسر الهمزة، حتى دعا ذلك من لطف عليه تحصيل اللفظ، إلى أن ادعى أن أبا عمرو كان يسكن الهمزة والذي رواه صاحب الكتاب^(٥) اختلاس هذه الحركة لا حذفها البة، وهو أضبط لهذا الأمر من غيره من القراء الذين رواه ساكناً. ولم يؤت القوم في ذلك من ضعف أمانة، لكن أتوا من ضعف دراية^(٦).

(١) ينظر: شرح الكوكب المنير ٢/١٢٨-١٣١ حديث الأحرف السابعة ١٠٩.

(٢) يوسف ١١.

(٣) القيامة: ٤٠.

(٤) البقرة: ٥٤.

(٥) الكتاب ٤/٢٠٢.

(٦) الخصائص ١/٧٢.

وبعيداً عن خطأ طعن ابن جني، فتاریخ القراءات القرآنية یثبت تفردھا عن الشعور وغیره من مصادر اللغة في طریقة النقل بالتلقی والعرض، وقد علمنا ما كان من رسول الله -صلی الله علیه وسلم- من تلقیه الوھی ثم عرضه على جبریل، ثم إقرانه الصحابة وقراءھم علیه، وعلى ذلك سار أصحاب القراءات، إذ لا يکتفی في النقل بالسماع بل لا بد من شرطی: التلقی والعرض^(۱)، هنا یتبین لنا أن المفاضلة بين وجوه القراءات صادرٌ لا محالة عن اختلاف الزاوية التي ینظر منها أهل القراءات عما ینظر منها النحویون، «فالنحوة أصحاب تععید وتنظیم ... والقراءة أصحاب أداء، وهم أهل تلقی وعرض، وهم من هذه الناحية أدقُّ من النحوة في نقلھم للغة»^(۲).

ومن دلالات الملازمة «بين القراءات ومبدأ تعدد القراءات هو ما يمكن استنتاجه من حديث آخر من أحاديث (الأحرف السبعة)، فعن أبی بن كعب قال: (لقي رسول الله، صلی الله علیه وسلم، جبریل عند أحجار الماء، فقال: إینی بعثت إلى أمة أمیین منھم الغلام والخادم والشيخ العاسی والعجوز، فقال جبریل: «فليقرأوا القرآن على سبعة أحرف»^(۳). فقد حمل العلماء هذا التيسیر من جهة النطق واللسان، فابن قتيبة يقول: « ولو أَنَّ كُلَّ فَرِيقٍ مِّنْ هُؤُلَاءِ أَمْرٍ أَنْ يَزُولَ عَنْ لِغَتِهِ وَمَا جَرِيَ عَلَيْهِ اعْتِيادَهُ طَفَّالًا وَنَاسِيًّا وَكَهْلًا لَا شَتَدَ عَلَيْهِ ذَلِكَ

(۱) اتحاف فضلاء البشر ۶۸/۱.

(۲) اللهجات العربية في القراءات القرآنية ۸۶.

(۳) مسند أحمد ۱۳۲/۲۵ (حديث: ۲۱۲۰۴)، الإحسان في تقریب صحيح ابن حبان ۳/۱۴.

(حديث: ۷۳۹)

وعظمت عليه المحنـة فيه، ولم يمكنه إلا بعد رياضـة للنفس طويـلة وتذليل اللسان وقطع العادة»^(١): ولا أرى، والله أعلم، أنـَّ في الأحادـيث ما يـقصـر مـغـزـي التـيسـير على جـهـة القراءـة والـلـسان دون جـهـة الفـهـم والتـدـبـر لـلـمعـانـي الـذـي هو طـرـيق الـعـلـم بـمـقـضـاهـ، لـذـا جـاءـ في حـدـيـثـ أـبـي هـرـيـةـ: «أـنـزلـ الـقـرـآنـ عـلـى سـبـعـةـ أـحـرـفـ ...ـ ما عـرـفـتـمـ مـنـهـ فـاعـمـلـواـ بـهـ، وـمـا جـهـلـتـمـ فـرـدـوـهـ إـلـىـ عـالـمـهـ»^(٢)، وـيـؤـيدـ ذـلـكـ ما يـنـصـ عـلـيـهـ الـعـلـمـاءـ أـنـفـسـهـمـ فيـ تـنـاوـلـهـمـ الـإـجـرـائـيـ لـلـتـفـسـيرـ وـالـإـعـرـابـ وـالـتـوـجـيـهـ مـنـ أـنـ تـعـدـ الـقـرـاءـاتـ يـفـيـدـ تـخـصـيـصـ الـعـاـمـ وـتـقـيـيـدـ الـجـمـلـ، وـالـإـحـاطـةـ بـالـمـعـنـىـ، وـدـفـعـ التـوـهـمـ وـفـيـ كـلـ ذـلـكـ تـيـسـيرـ عـلـىـ الـمـتـلـقـيـ وـبـالـأـخـصـ، الصـغـيرـ وـالـخـادـمـ وـالـرـجـلـ الـعـاـسـيـ. وـمـنـ نـمـاذـجـ ذـلـكـ:

– قال الله، عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ حَمَاءَكُمْ فَاسْقُبْ بِنَبِيِّ فَتَبَيَّنُوا﴾^(٣)، وقد قرأها حمزة والكسائي وخلف (فتباينوا)^(٤):

١- (فتباينوا) أي: افضـحـوا وـاـكـشـفـوا حتى تـبـيـنـ لـكـمـ الـحـقـيـقـةـ.

٢- (فتباينوا) أي: تـأـنـوا وـلـاـ تـقـدـمـواـ.

(١) تـأـيـيلـ مشـكـلـ الـقـرـآنـ ٣٩.

(٢) مـسـنـدـ أـحـمـدـ ٣٦٩ـ /ـ ١٣ـ (ـ حـدـيـثـ ٧٩٨٩ـ)، الـإـحـسـانـ فـيـ تـقـرـيـبـ صـحـيـحـ اـبـنـ حـيـانـ ١/٢٧٥ـ .ـ (ـ حـدـيـثـ ٧٤ـ).

(٣) الـحـجـرـاتـ ٦ـ .ـ

(٤) يـنـظـرـ: الـاحـافـ فـضـلـاءـ الـبـشـرـ ٤٨٦ـ /ـ ٢ـ .ـ

حاصل القراءتين: يأمر الله، عز وجل، بالثاني والتبين أمام قول الفاسق، مع عدم الاكتفاء بالوقوف إلى أن تظهر الحقيقة، فلا بد من بذل الوسع بالكشف والتحري^(١).

قال مكي بن أبي طالب: «التبين يعم التثبت؛ لأن كل من تبَّين أمرًا فليس يتبينه إلا بعد التثبت، ظهر ذلك الأمر أو لم يظهر، لا بد من التثبت، ففي التبين معنى التثبت، وليس كل من تثبت في أمر تبَّينه، وقد يتثبت ولا يتبين له الأمر، فالتبين أعم من التثبت في المعنى؛ لاستعماله على التثبت»^(٢).

وأن يتسع التيسير بتنوع القراءات ليشمل تيسير المعاني والفهم على الأمة -فذاك معنى يمكن تلمسه فيما ذهب إليه ابن عاشور من «أنه يجوز أن تكون إحدى القراءات نشأت عن ترخيص النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يقرأ بالمرادف تيسيرًا على الناس، كما يشعر به حديث عمر مع هشام بن حكيم، فتروى تلك القراءة للخلف فيكون تمييز غيرها عليها بسبب أن المتميزة هي البالغة غاية البلاغة، وأنَّ الأخرى توسيعة ورخصة، ولا يعكر ذلك على كونها أيضًا باللغة الطرف الأعلى من البلاغة وهو ما يقرب من حد الإعجاز»^(٣).

-ولا ريب أن تبَّين المقامات والسياقات مؤذنٌ في الدخول إلى عوالم المجاز والكنایة والإيجاز أو الكف عن ذلك إلى واقع الحقيقة والتصريح والإطناب، ولو كانت الآي والقراءات كلها في مرتبة واحدة على سnam البلاغة، لما سهل الفهم

(١) القراءات وأثرها في التفسير والأحكام ٢/١٨٥.

(٢) الكشف ١/٤٩٣.

(٣) التحرير والتنوير ١/٦٣.

على الغلام والخادم والشيخ العجوز، وفي تبادل المقامات في آي الكتاب وجدنا أبا عثمان الجاحظ يقول: «ورأينا الله، تبارك وتعالى، إذا خاطب العرب والأعراب، أخرج الكلام مخرج الإشارة والوحي والمحذف، وإذا خاطببني إسرائيل أو حكى عنهم، جعله مبسوطاً وزاد في الكلام»^(١).

فإذا روعي تبادل مقامات المخاطبين، فلا بد أن يحضر، ولا ريب، التفاضل المبني على أن تكون آيةٌ ما أو قراءة ما «أحفل بوجوه من اللطائف والمحسنات، فيُقال حينئذ: إن هذه الآية (أو القراءة) أبلغ من تلك، وما أشبه ذلك، مع أن نظيرتها في موقعها بلية؛ لمطابقتها مقتضى الحال، وهذا أحد الوجوه المهمة في إعجاز القرآن»^(٢).

ولبُّ القول: أن حتمية المفاضلة بين القراءات قد تدخل من باب اختلاف المقامات المقتضي لأن تكون قراءة أبلغ من قراءة، وكلتاها بلية في سياقها المقصود لها، وأن التيسير يقتضي التخفف من مستوى الفصاحة التي قد تخفي على الناشئ أو العاجز عن مراتب الفصاحة العليا، وبذلك يكون التيسير بالأحرف السبعة أشمل من المستوى النطقي والقرائي، وهناك إشارات عده فيما جمعه العلماء في تفسير (الأحرف السبعة) يسند ما اطمأنَّ إليه بحثنا هذا^(٣).

(١) الحيوان ٩٤/١

(٢) التفاوت البلاغي بين آي القرآن ٣٩٩.

(٣) الإتقان، للسيوطى ١٣١/١، وما بعدها.

الاعتبار الثاني: المفاضلة وشروط قبول القراءة.

المستقر عند علماء اللغة والقراءات أن شروط القراءة المقبولة ثلاثة:

- ١- التواتر على رأي الجمهور، أو الشهرة والاستفاضة عند بعضهم.
- ٢- موافقة الرسم العثماني ولو احتمالاً.
- ٣- موافقة العربية بوجه من الوجوه.

وهذه الشروط ذات دلالة نسبية وتفاضلية، وتعد في ذاتها مسوغاً للقول بختمية المفاضلة بين القراءات.

أولاً: شرط (التواتر) ومسارب المفاضلة.

الفرق الجوهرى بين مفاضلة القراء ومفاضلة النحويين هو ما أوجزه ابن الجزري بقوله: «وأئمة القراء لا تعمل في شيء من حروف القرآن على الأفши في اللغة والأقيس في العربية، بل على الأثبت في الأثر والأصح في النقل. والرواية إذا ثبتت عنهم، لم يردها قياس عربية، ولا فشو لغة؛ لأن القرآن سنة مُتبعة يلزم قبولها والمصير إليها»^(١).

ولك أن تتأمل في هذا النص الجليل وما فيه من تكرر صيغة أفعل التفضيل مقسمة على ما يخص شأن القراء وما يخص شأن النحويين؛ إذ المفاضلة قاسم مشترك بينهما.

(١) جامع البيان، للداني ٥/١.

وهناك معطيات أولية باللغة الأهمية في فهم علاقة النحويين بالقراءات القرآنية، أجملها في الآتي:

أولاً: أن النحويين يؤمنون بأن القراءة سنة متبعة، فالاصل عندهم هو الاتباع، قال إمام النحاة سيبويه: «والقراءة لا تخالف؛ لأن القراءة السنة»^(١)، وقال النحاس: «ولا يجوز الابتداع في القراءات»^(٢)، وقال ابن خالويه: «والقراءات سنة وليس قياساً»^(٣).

وقد سجل د.شعبان صلاح ملاحظة على موقف سيبويه من القراءات بقوله: «والذي يلفت الانتباه في بداية الحديث عن موقف سيبويه من القراءات أنه يقرر أن (القراءة لا تخالف؛ لأنها السنة). وقد كان هذا المبدأ كفياً لأن يورث سيبويه احتراماً لكل ما ورد من قراءات، واعتماداً لها في مجال التععيد النحوي»^(٤).

والجواب عن ذلك: أن القراءة، حقيقة، في منهج النحويين سنة متبعة، لكن مواقفهم مع أفراد القراءات ومدى تيّعّنهم من ثبوتها هو الذي يؤثر في اعتراف القراءة أو المفاضلة بينها وبين غيرها؛ لأن تباهي القراءات المتواترة من الشاذة لم يستقر إلا بعد القرن الرابع الهجري بمدة، ولم يكن قبل ذلك إلا قراءات مشهورة

(١) الكتاب ١٤٨/١.

(٢) إعراب القرآن ٥/٢٣٨.

(٣) إعراب القراءات السبع ٢/٤٤.

(٤) موقف النحاة من القراءات القرآنية ١٤٠.

أو مستفيضة يتفاوت بعضها في الشهرة أو الاستفاضة^(١)، ولو سلموا لكل قراءة لما قام قياس العربية بوظيفته تجاه القراءات القرآنية.

ثانيًا: يمكننا القول بأن ما يخفف التوتر من مواقف النحاة من تضييف بعض

القراءات أو المفاضلة بينهما تفهم مصطلح (التواتر) وملابساته في الآتي:

١- ما أشرنا له من أنَّ كثيًراً من مواقف النقد لبعض القراءات كانت قبل تمايز القراءات المتواترة من غيرها. ولذلك أن تتأمل في احتكام سيبويه للصحف في قوله: «ومثل ذلك قوله، عز وجل: ﴿مَا هُنَّا بِشَّارِ﴾^(٢)، في لغة أهل الحجاز، وبنو تميم يرفعونها إلا من درى كيف هي في المصحف»^(٣).

علق الزركشي على قول سيبويه قائلًا: « وإنما كان كذلك، لأن القراءة سنة مروية عن النبي، صلى الله عليه وسلم، ولا تكون القراءة بغير ما روي عنه»^(٤). والمقصود أنه لا يُعد أحدًا متجرِّئًا على (التواتر) إلا من تيقن بحدوثه ولم يكن النحويون الأوائل على ذلك.

٢- «هؤلاء الأئمة السبعة الذين تلقت الأمة قراءتهم بالقبول، قد يرد عنهم حروف مفردة لم يقبلها العلماء، وهي خارج القراءة العامة التي أقرأ بها الإمام

(١) أمَّا لفظ التواتر فلم أقف عليه عندَ مَنْ قبل الطبرى (ت: ٣١٠ هـ)، ولا عندَ ابن مجاهد (ت: ٣٢٤ هـ) الذي سبَّع السبعة، ولا عند الدانى (ت: ٤٤٤ هـ) في كتابه التيسير، ينظر: مقال (هل أنكر ابن جرير قراءة متواترة أو رَدَّها؟)، ضمن كتاب: مقالات في علوم القرآن وأصول التفسير ٤٢٨/١.

(٢) يوسف: ٣١.

(٣) الكتاب ٥٩/١.

(٤) البرهان، للزركشي ٣٢٢/١

منهم، لذا لا يُعدُّ كل ما روِي عنهم في درجة واحدةٍ من القبول، بل ما كان معروفاً بالنقل من الطرق المعتبرة عند أهل هذا الشأن. وإنما أشير لهذا ليُعلم أن الحكم بقبول قراءةِ أهْمَّ ما هو فيما اختاروه وأقرُّوا به العامة وانتشر، دون تلك الأفراد التي لا يخلو منها إمام منهم. وإذا ما تأملت ما ذكر هؤلاء العلماء من أسانيد القراءة وجدتها تقف عند هؤلاء السبعة، فهي في حقيقتها أفراد، لكن لما تلقتها الأمة بالقبول، فإنما صارت قراءةً مستفيضةً مشهورة، وهذا لو كان هو الضابط بدل التواتر لكان، لكن للفظ التواتر سلطان يحتاج إلى تحرير»^(١).

لذا جاء في ضوابطهم أنّ «ما انفرد به من كان جائزاً عليه السهو والغلط، فغير جائز الاعتراض به على الحجة»^(٢).

يضاف إلى ذلك أنّ أمر التواتر مختلف فيه عند بعض المحققين، فهذا الزركشي يقول: «والتحقيق أنها متواترة عن الأئمة السبعة، أما تواترها عن النبي، صلى الله عليه وسلم، ففيه نظر»^(٣). وأبو شامة يحصر التواتر فيما اتفقت الطرق على نقله عن القراء فقط، أما المختلف في أداء الكلمة أو لفظها فلا^(٤)، وقد أوردنا رأي ابن الحاجب الذي يرى فيه أن التواتر فيما ليس من قبيل الأداء^(٥).

(١) مقالات في علوم القرآن وأصول التفسير ٤٣١/١.

(٢) جامع البيان، للطبراني ١٦/٤ (تح. شاكر).

(٣) البرهان، للزركشي ٣١٩/١

(٤) ينظر: المرشد الوجيز ١٤٥.

(٥) ينظر: بيان المختصر ٤٦٩/١

وجاء في (البرهان) أن جماعة منهم الزمخشري ظنوا القراءة اختيارية لا توقيفية^(١)، تدور مع اختيار الفصحاء واجتهاد البلغاء، «ولعل هذا، فيما نظن، هو الذي جعل بعض النحويين يبحثون لأنفسهم اختيار ما رأوه موافقاً للعربية مستكملاً لشروط الفصاحة والبلاغة، ورداً ما عداه»^(٢).

وقد صرَّح الرضي بما هو قريب من قول الزمخشري قائلاً: «ولا نسلِّم تواتر القراءات وإن ذهب إليه بعض الأصوليين»^(٣).

إذَا، الخلاف في المتواتر داخل حراك النحويين وخارجها، ولا ينبغي تفسير الموقف من القراءات القرآنية إلا داخل الاجتهاد العلمي، وإن كان المستقر عند جمهور العلماء هو أن قراءات الأئمة معقودة بالسند، وأن إضافتها للأئمة «إضافة اختيار ودوم ولزوم، لا إضافة اختيار ورأي واجتهاد»^(٤).

ولا عذر اليوم لرد أي قراءة سبعية أو عشرية، بحججة ما كان قد يداها من بعض العلماء فقد استقر الأمر وتلقتها الأمة بالقبول، وما من شكٍ في صحتها وسلامتها، لكنما المراد من طرح الموقف من (التواتر) هو «النظر إلى القراءات في كل جيل، والاعتذار لما وقع من بعض العلماء العارفين من ردٍ بعض

(١) البرهان، للزرتشي ٣٢١/١.

(٢) أصول النحو العربي ٤٥.

(٣) شرح الكافية للرضي ٩٤٢/٢.

(٤) النشر في القراءات العشر ٥٢/١.

القراءات، وأئمّه إنما ردوها بأسلوب علمي مناسب لما تلقوه من القراءات وليس عن هوىٌ أو حيالٍ منهم»^(١).

أما التواتر الذي اطمأنّت له الأمة بعد القرن الرابع، أو الشهرة المستفيضة قبلها- لم يكن هذا أو ذاك بمنزلةٍ واحدةٍ عند العلماء، ولقد وردت الآثار بما يدلُّ على ذلك التفاضل:

● قال مالك، رحمه الله: «قراءة أهل المدينة سُنّة، قيل له: قراءة نافع؟ قال: نعم»^(٢).

● وقال مكي: «وربما جعلوا الاختيار ما اتفق عليه نافع وعاصم، فقراءة هذين الإمامين أوثق القراءات، وأصحها سندًا، وأفصحها في العربية»^(٣).

● ولا ريب أنّ ما اتفقت الطرق على نقله عن القراء هو أقوى مراتب التواتر، لذا نجد أبا شامة، رحمه الله، يخالف الأكثرين، ويرى أنّ ما اختلفت الطرق في نقله ليس بمتواتر^(٤).

وهذا المسوّغ لحتمية التفاضل هو مسوّغ مشترك بين النحاة والقراء، وإن كان هو من جانب القراء بالأصلّة.

(١) مقالات في علوم القرآن وأصول التفسير .٤٣١/١.

(٢) ينظر: غاية النهاية /٢ .٣٣٠.

(٣) الإبابة عن معاني القراءات .١٠١.

(٤) المرشد الوجيز .١٧٧.

● قال الزجاج: «وأخبرني إسماعيل بن إسحاق أن نافعًا-رحمه الله-لم يقرأ بحرف إلا وأقل ما قرأ به اثنان من قراء المدينة»^(١)، «فلهذا قال عبد الله بن وهب: قراءة نافع سُنّة»^(٢).

كل ذلك يدل على أن شرط التواتر له مراتب في القوة، وإذا وُجِدَت المراتب حلّت المفاضلة.

(١) معاني القرآن وإعرابه ١٩٧/١.

(٢) إعراب القرآن، للنحاس ٤/٩٢.

ثانيًا: شرط (موافقة الرسم العثماني) ومسارب المفاضلة.

أمّا شرط موافقة أحد المصاحف العثمانية ولو احتتمالًا، فقد استثنوا من ذلك مخالفات جائزات، قال عنها ابن الجوزي: «على أنّ مخالفة صريح الرسم في حرف مدغم، أو مبدل، أو ثابت، أو مذوف، أو نحو ذلك، لا يُعدّ مخالفًا إذا ثبتت القراءة به، ووردت مشهورة مستفاضة، ألا ترى أنّهم لم يعدوا إثبات ياء الرواء وحذف ياء ﴿تَسْلَئِ﴾^(١) في الكهف، وقراءة^(٢) ﴿وَأَكْنِ مِنَ الْصَّلِحِينَ﴾^(٣)، والظاء من ﴿يَضْنِينَ﴾^(٤) ونحو ذلك من مخالفه الرسم المردود، فإنَّ الخلاف في ذلك يُعترف إذ هو قريب يرجع إلى معنى واحد وتعضده صحة القراءة وشهرتها وتلقيتها بالقبول، وذلك بخلاف زيادة الكلمة ونقصانها، وتقديرها وتأخيرها حتى لو كان حرفًا واحدًا من حروف المعاني، فإنَّ حكمه في حكم الكلمة لا يسوغ مخالفه الرسم فيه، وهذا هو الحد الفاصل في حقيقة اتباع الرسم ومخالفته»^(٥).

لقد كان لتفاوت درجة اختلاف رسم القراءة عن المصاحف العثمانية –أثرٌ في انعقاد كثييرٍ من المفاضلات بين القراءة، وبالأخص في الاختلاف اليسير المتتجاوز عنه، قال النحاس في قول الله، عز وجل: ﴿وَقَدْ حَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلٍ وَمَّا تَأْتَ﴾

(١) الكهف: ٧٠.

(٢) في المصحف (أكْنِ)، وقرأها أبو عمرو (وأكْنَوْ) باللواو والنصب والباقيون بغير (واو) وجزم النون، ينظر: حجة القراءات، لابن زنجلة ٧١٠، التيسير، للداني ٢٢٠.

(٣) المافقون: ١٠.

(٤) التكوير: ٢٤.

(٥) النشر في القراءات العشر ١٢/١. وينظر: رسم المصحف – دراسة لغوية تاريخية ٦٩٦، وما بعدها.

شيئاً): «قرأ أهل المدينة وأهل البصرة وعاصم (وقد خلقتك من قبل)، وقرأ سائر الكوفيين (وقد خلقتناك)، قال أبو جعفر: القراءة الأولى أشبه بالسود»^(٢) قال: (أشبه) بصيغة التفضيل.

● وقد تتعقد المفاضلة بسبب اختلافهم في تحقق اختلاف الرسم في القراءة من عدمه، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَمِعُ يَوْمَ يَنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾^(٣): «قرأ عاصم والأعمش وحمزة والكسائي ... بغير ياء في الوصل والوقف، وهو اختيار أبي عبيد اتباعاً للخط؛ لأنَّ الياء لام الفعل فقد عُلِمَ أنَّ حقها الثبات»^(٤).

● وقد تتعقد المفاضلة بسبب علاقه الرسم مع غيره من شروط القراءة المتواترة، فهم قد يغتربون بعض مخالفات الرسم العثماني إذا قوي سند القراءة، وقوي قياسها، «ولم يضادَّ معنى خط المصحف»^(٥)، وقد قال أبو شامة: «والقراءة نقل فيما وافق منها ظاهر الخط كان أقوى، وليس اتباع الخط بمجرده واجباً ما لم يعده نقل، فإن وافق فيها ونعمت، ذلك نور على نور»^(٦).

(١) مريم: ٩.

(٢) إعراب القرآن ٨/٣

(٣) ق: ٤١.

(٤) إعراب القرآن ٤/٢٣٣

(٥) الإلإابة عن معاني القراءات ٣٦.

(٦) إبراز المعاني ٤/٦٠.

● وال نحويون على ذلك النهج، تفاوتت مواقفهم من شرط الرسم العثماني، فالزجاج يحتاج برسم المصحف في اللغويات والإعراب والصرفيات، فيتشدد فيما تجاوز عنه الجمهور من مخالفة الرسم، ويفاضل وفق ذلك، يقول: «وأماماً **﴿مَنْ يَرَدِدْ﴾**^(١) فهو الأصل^(٢)؛ لأن التضعيف إذا سكن الثاني من المضعفين ظهر التضعيف، نحو **﴿إِنْ يَمْسَكُمْ قَرْحٌ﴾**^(٣)، ولو قرئت إِنْ يمسّكم قرْحٌ، كان صواباً، ولكن لا تقرآنَ به لمخالفته المصحف، ولأنَّ القراءة سنة^(٤)».

● وكثيراً ما يلمح المراقب لعلاقة النحوين بالرسم العثماني تفاوتاً بين النحوين في مراعاة الرسم، وإن كانت مراعاته سمة بارزة عامة فيهم، ففي القرن الرابع مثلاً: «نرى مسلكين متخالفين: ابن خالويه يعتد اعتداناً شديداً برسم المصحف، وأبو علي الفارسي يحّكم القياس في الاحتجاج، ولا يرى أن يأخذ برسم المصحف»^(٥) في كثير من المواقع وهو كذلك مسرب من مسارب التفضيل بين القراءات القرآنية المتواترة، وفق ضوابط تدل على دقة السلف وعنتيهم بالأمانة، واجتهادهم في حمل وجوه القراءات على أشرف محمل.

(١) المائدة: ٥٤.

(٢) قرأ نافع وابن عامر بالفك والباقيون بالإدغام، ينظر: السبعة، لابن مجاهد ٢٤٥، التيسير، للداني .٨٢

(٣) آل عمران: ١٤٠.

(٤) معاني القرآن وإعرابه ١٨٢/٢.

(٥) ينظر: القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث .٢١٠

ثالثاً: شرط (موافقة العربية) ومسارب المفاضلة.

أما شرط موافقة العربية ولو بوجهٍ من الوجه، فهو أوسع الأبواب المقتضية للتفضيل بين القراءات المتواترة، وسيتناوله البحث لاحقاً في كثير من الجوانب بإذن الله، غير أننا يكفياناً أن نؤصل للطبيعة التفاضلية لذلك الشرط عند القراء والنحو، وقد نقلت كتب القراءات قول ابن القشيري (٤٥١هـ): «إنا لا ندعى أن كل القراءات على أرفع الدرجات في الفصاحة»^(١).

أما النحويون فدستورهم المعلن أنَّ «القرآن إنما يُحمل على أشرف المذاهب»^(٢)، وكل مفاضلة بين القراءات القرآنية عندهم تقصدهم هذا الدستور.

وإذا ارتضينا شرط مككي، رحمة الله، في القراءة المقبولة: «قوة وجهها في العربية»^(٣)، فالقوة تتفاوت في حضرة الاحتكام إلى القياس، وإذا ارتضينا ما استقرَّ عند ابن الجوزي وهو شرط: «موافقة العربية ولو بوجه»^(٤)، وهو قيد أخف من سابقه، فاللوجه تتفاوت في الحسن، وقد أوضح ابن الجوزي قيد (لو بوجه)، بقوله: «نزيد به وجهاً من وجوه النحو، سواء كان أفصح أم فصيحاً،

(١) علّق عليه أبو شامة بقوله: «قلت: وهذا كلام حسن صحيح»، وفي هذا نقصٌ لما اشتهر عنه عند الباحثين بأنه لا يجوز المفاضلة بين القراءات المتواترة، وجمع أقواله من مظان كثيرة تدل على أنه يمنع المفاضلة التي تكاد تسقط إحدى القراءتين وحسب. ينظر: إبراز المعاني ٤١٢، ٧٠.

(٢) الكامل، للمرد ٩٣١/٢.

(٣) الإبانة عن معاني القراءات ١٠٠.

(٤) النشر في القراءات العشر ٩/١.

مجمعاً عليه أَم مُخْتَلِفًا لَا يُضْرِبُ مثْلَهُ، إِذَا كَانَتُ الْقِرَاءَةُ مَا شَاءَ وَذَاعَ، وَتَلَقَّتْهُ
الْأَئْمَةُ بِالْإِسْنَادِ الصَّحِيفِ»^(١).

وهناك من يرى أنَّ مثل هذا التسَمِّح في المعيار اللغوي هو الذي سمح
بدخول قراءات ليس له وجه قوي في القياس، وأنَّ هذا نفسه مسوغ لما فعله
أئمَّة النحو من إبداء وجهة نظر القياس اللغوي، إذ هو اجتهادٌ من يملك حق
الاجتهاد، فالنحاة لم يخضعوا القراءات لمقاييس اللغة، «وإنما رأوا المنسوب إلى
النبي، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَلَى يقينٍ لَيْسَ بِمَعْزَلٍ عَنْ مَقَايِيسِ الْلُّغَةِ الْفَصْحَى
الَّتِي هِيَ وَعَاءُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ»^(٢).

(١) النشر في القراءات العشر . ١٠/١

(٢) ضوابط الفكر النحوي ١/٣١٣ . وينظر: ١/٢٩١

الاعتبار الثالث: المفاضلة وطبيعة عمل النحوى.

التفكير النحوى في حقيقته ذو بنية تفاضلية من الدرجة الأولى. وأعتقد أنّ الطبيعة (المعيارية) في النظام النحوى لها التأثير الأكبر في ذلك. وكثيرٌ من الدراسات المعاصرة تقع في خللٍ كبير حين يختلط عليها الأمر، فلا تمايز بين ركيـنـيـ الفـهـمـ اللـغـوـيـ:

١- فـهـمـ طـبـيـعـةـ اللـغـةـ.

٢- فـهـمـ طـبـيـعـةـ التـقـعـيـدـ اللـغـةـ.

والخلط بينهما أدى إلى مغالطات كثيرة في البحث اللغوي الحديث. فلم تكن وظيفة النحو العربي هي نقل كلام العرب ولهجاتها للمتكلمين وتدوينها، لكن وظيفتهم - بالتحديد - هي تقنين لأعلى مستويات هذه اللهجات، وكان هذا التقنين يصب في غاية محددة لطالما نصّ عليها النحويون، قال ابن السراج: «النحو إنما أريد به أن ينحو المتكلم إذا تعلمـهـ كـلـامـ الـعـربـ، وهو علم استخرجه المتقدمون فيه من استقراء كلام العرب حتى وقفوا منه على الغرض الذي قصد المبتدئون بهذه اللغة»^(١)، وكما حدد ابن جني الغاية بقوله: «لـلـحقـ مـنـ لـيـسـ منـ أـهـلـ الـلـغـةـ الـعـرـبـيـةـ بـأـهـلـهـاـ فيـ الـفـصـاحـةـ، فـيـنـطـقـ بـهـاـ، وـإـنـ لـمـ يـكـنـ مـنـهـمـ، وـإـنـ شـذـ بـعـضـهـمـ عـنـهـاـ رـدـ بـهـ إـلـيـهـاـ»^(٢)، «وـقـدـ ظـلـ الـهـدـفـ الـتـعـلـيـمـيـ مـقـتـرـاـ بـالـدـرـسـ»

(١) الأصول، لابن السراج ٣٥/١.

(٢) الخصائص ١/٣٤.

النحوى في كل مراحل تكونه... فقد صاغ النحو العربي نفسه وفق غايتها التربوية ونظر إلى المتكلم الممكн على أنه مُتعلم»^(١).

وهذه التنشئة ذات صبغة دينية قرآنية، إذ لما بدأت تضعف الملكة اللغوية عند كثريين لعامل الخلطة بالأعاجم «خشى أهل العلوم منهم أن تفسد تلك الملكة رأساً، ويطول العهد، فينغلق القرآن والحديث على الفهوم فاستبطوا من مجاري كلامهم قوانين لتلك الملكة مطردة شبه الكلمات والقواعد يقيسون عليها سائر أنواع الكلام»^(٢). هذه الغاية هي التي اقتضت أن يكون عمل النحوى ذا جهد وصفي ومعياري في آن، واقتضت «أنّ المنهج النحوى لم يكن نقلًا محضًا، ولم يكن عقلاً محضًا»^(٣)، على أنّ ما ينبغي التنبية إليه هو أنّ الوصفية أو المعيارية ليستا شحتتين متنافرتين، "فليستا من طبيعة واحدة حتى تتنسى مقارعة إحداهما بالأخرى، فليس لزاماً أن تقوم بينهما علاقة ما: من توازٍ أو تصادم أو تطابق. فهما مصادرتان فكريتان مستقلةٌ كلتاها عن الأخرى»^(٤)، وفي مرحلتين زمنيتين مختلفتين. هذه الطبيعة الممتزجة من جهة، ومن جهة أخرى سلطة المعيار الذي كانت وظيفة النحو إخراجه من الوجود بالقوة إلى الوجود بالفعل أي: «بتحويله من وضع الكمون إلى وضع التحقق»^(٥) -هاتان الجهتان

(١) الأسس المعرفية والمنهجية للخطاب النحوى العربي ٣٤.

(٢) مقدمة ابن خلدون ٢٣٨/٣.

(٣) النحو العربي والدرس الحديث ١٩، وينظر: اللغة بين المعيارية والوصفية ٢.

(٤) اللسانيات وأسسها المعرفية ١٥.

(٥) المرجع السابق ٣٩.

هما اللتان كونتا البنية التفاضلية في النظام النحوي، ويمكن ملاحظة ذلك في المفاضلات التكوينية التالية:

١- في ثنائية الأصول (السماع/القياس)، السمع مقدمٌ على القياس، وما يثبت بالسماع أفضل مما يثبت بالقياس:

● يقول ابن السراج: «الأصل ما سمع عن العرب، وإذا لم يصح سمع الشيء عن العرب فيليجيء فيه إلى القياس»^(١).

● «وإذا تعارض القياس والسماع نطبق بالسماع»^(٢).

● «وقواعد النحو ليست على سبيل الابتداء والابداع، بل على وجه الاقتداء والاتباع»^(٣).

٢- ثنائية (الإطار الزمني والإطار المكاني) للاحتجاج - هي في حقيقتها مفاضلة حيث يشير الإطار المكاني إلى رغبتهما في التعميد على لغة عليا بجمع ما علا في أساليب وظواهر لهجته. ويشير الإطار الزمني إلى تحديد المدونة الفصيحة التي تشدُّ الناطقين بالعربية إلى فصاحة القرآن العجز؛ إذ لو ترك الإطار الزمني لخضعت اللغة لناموس التطور والتغيير، «لذا يجوز أن نقدر بأئِّ النحو - في تاريخ الحضارة العربية- هو موقف لا من اللغة ذاتها. وإنما

(١) الأصول، لابن السراج ١٠/١.

(٢) الخصائص ١١٧/١.

(٣) الاقتراح ٢٤٤/٢.

هو موقف من خصائص الملازمة لها، وأبرز تلك الخصائص التغيير والاستحالة»^(١).

٣- المسموع يخضع للتفاضل الكمي (القلة/الكثرة)، يقول سيبويه: «الأقل نوادر تحفظ عن العرب، ولا يُقاس عليها، ولكن الأكثر يُقاس عليه»^(٢).

٤- القياس من حيث (القوة والضعف) مراتب، وقد سرد الأنباري أنواع القياس على ما تستحقه من الترتيب من تقديم قياس العلة، ثم قياس الشبه ثم قياس الطرد^(٣).

٥- في نظرية (الأصل والفرع)، «تفضيل الفرع على الأصل من نوع»^(٤)، غير أنه «يجوز أن يفوق الفرع الأصل بكثرة الاستعمال»^(٥).

كل هذه المفاضلات- كما ترى- هي في عمق أصول ومرجعيات الفكر النحوي، وهي أيضاً شديدة التماس مع ما تفرع منها من نظريات. وذلك كله يقتضي حتمية صدور المفاضلة من النحوي حين يكون في مقابل النص بالتوجيه والإعراب أو في مواجهته بالتأويل والتخيير.

وإذا أردنا أن نسلط الضوء أكثر على بؤرة البنية التفاضلية الكبرى لعلم النحو العربي وهي خصيصة (المعيارية)، فهي نتيجة طبيعية تستلزمها الغاية التي

(١) التفكير اللساني في الحضارة العربية .٩٤

(٢) الكتاب .٨/٤

(٣) مل مع الأدلة .١٠٥

(٤) شرح الكافية الشافية .٤٩١/١

(٥) شرح التسهيل، لابن مالك .٢٦/١

يرجوها نحاة العرب من هذا العلم، فلم يكن أمامهم إلا بناء قواعدهم، على معهود خطاب العرب وسنت قوفهم، لكنّ الاطراد المطلق لا يتحقق للغات البشر، فعادة تكون مهمة التقنيين في مواجهة مباشرة مع اعتراض الشاذ والقليل والنافر عن القياس، وإذا عجزت صناعة التقنيين عن مواجهة التعددية والتنوع والاختلاف، والصيغة به إلى الشمولية والاحتواء فلن يبلغ بهذه الصناعة قاصدو العربية غاية الارتسام والاحتذاء، أو كما قال ابن السراج: « ولو اعترض بالشاذ على القياس المطرد لبطل أكثر الصناعات»^(١)، هنا مؤاز حتمية المفاضلة في بنية الفكر النحوي، فالنتيجة أنْ قام بناء التعقيد النحوي على صخرة (الأكثر)، وقد تواترت ضوابطهم على نحو:

- «إنما القياس على (الأكثر)»^(٢).
- «و(الأكثر) عدم الالتفات إلى الأقل، وهذا من أصولهم»^(٣).
- وكما قال أحد أئمة التعقيد اللغوي أبو عمرو بن العلاء، حين قيل له: «أخبرني عما وضعت مما سميتها عريّة، أيدخل فيه كلام العرب كلها؟ قال: لا، فقلت: كيف تصنع فيما خالفت فيه العرب وهم حجة؟ قال: أكمل على (الأكثر) وأسمّي ما خالفي لغات»^(٤).

(١) الأصول، لابن السراج ٥٦/١.

(٢) المقتضب ١/٢٣٣.

(٣) التوطعة ١١٦.

(٤) طبقات النحويين واللغويين ٣٩.

المُرجِّحات بين القراءات عند النحويين.

يمكّنا تلمس العلاقة بين المفاضلة بين القراءات والبنية التفاضلية في أصول النحو ونظرياته من خلال استعراض المُرجِّحات التي اعتمدتها النحاة في التفضيل بين القراءات المتواترة، وأجملها في الآتي:

أولاً: الموافقة البينية للقياس اللغوي المستتب.

تقديم الوجه «الأقيس»^(١) هو المؤثر الأكبر في تفاضل القراءات عند النحويين. ومع ذلك فأقيساتهم ليست واحدة، وطريقة إزالتها على النصوص كذلك هي التي أنتجت بعض الفروق بين مدارس النحو، وهذا جزء من بنية التفاضل في الفكر النحوي، إذ نسبية نظرة كلّ نحوٍ إلى قوة وضعف القياس بالنسبة إليه، وطريقة إزالتها على النص وتعامله مع مناط الحكم، كل ذلك بواسعه للمفاضلة، ولا أدل على ذلك من مثل مصطلحات الفراء المعبرة عن النظرة الشخصية للقياس حين يحكم على القراءات بقوله: «والوجه الأول أحبُّ إلى»^(٢)، وقوله: «ولست أشتئي ذلك»^(٣).

● كما أنّ مفاضلتهم ترتبط بأوصاف نسبية في القياس ذاته، تختلف من نحوٍ لآخر، لكنهم متفقون على أصل الوصف، وأعني بذلك وضوح القياس

(١) وقولهم نحو (وجه الكلام)، و(أحسن القراءتين)، و(أجود) و(أنفذ) و(أوجه)، ينظر: الكتاب ١٨٩/٤، ٨٢/١، معاني القرآن، للقراء ٩٢/١، ١٧١/١.

(٢) معاني القرآن ٢٤٥/١.

(٣) معاني القرآن ١٨٤/٣.

ذاته، فهم كثيراً ما يختارون: «القراءة البينة»^(١)، «والأ宾 في العربية»^(٢)، ويجتنبون ما يجوز على «غموض من العربية»^(٣) أو على وجه «بعيد في العربية»^(٤).

● كما أن مناط الحكم بالمخالفة قد يتغاذبه أكثر من قياس، فيقدم نحوياً قياساً ويقدم آخر قياساً آخر. قال أبو حيان في قوله تعالى: ﴿مَنْ يُصْرِفُ عَنْهُ بَؤْمِدِ فَقَدْ رَحِمَهُ﴾^(٥): «وتكلم المعربون في الترجيح بين القراءتين على عادتهم، فاختار أبو عبيدة، وأبو حاتم، وأشار أبو عليٍّ إلى تحسينه، قراءة (يُصْرِفُ)^(٦) مبنياً للفاعل، لتناسب (فقد رحمة)، ولم يأتِ فقد رُحْم... ورجح الطبراني قراءة (يُصْرِفُ)^(٧)، مبنياً للمفعول، قال: لأنها أقل إضماراً»^(٨). فهناك من قدم قياس مراعاة التناسب وهناك من قدم قياس مراعاة الأقل حذفاً.

(١) إعراب القرآن، للنحاس ٢٩٦/٢.

(٢) معاني القرآن ٣/٢٢٨، إعراب القرآن، للنحاس ٣٧٣/٣.

(٣) إعراب القرآن، للنحاس ٤٥١/١.

(٤) إعراب القرآن، للنحاس ٩٠/٣.

(٥) الأنعام: ١٦.

(٦) وهي قراءة حمزة وأبو بكر والكسائي، ينظر: السبعة، لابن مجاهد ٢٥٤، حجة القراءات، لابن زنجلة ٢٤٣.

(٧) وهي قراءة السبعة ما عدا حمزة وأبا بكر والكسائي، ينظر: حجة القراءات، لابن زنجلة ٢٤٣، التيسير، للداني ٨٤.

(٨) البحر المحيط ٤٧٢/١١.

● وما يجدر التنبية إليه هو أن ربط حركة نقد القراءات القرآنية بتمسك النحويين بأقويستهم – ربطٌ خاطئ، فقد وقع النقد والاختلاف منذ زمن الصحابة، رضوان الله عليهم، والأئمة بعدهم، أمّا نقد النحويين والاختلاف اختياراً لهم للقراءات فهو بذلٌ وسع، غايته الاحتراز وحمل القرآن وقراءاته على أشرف الوجوه.

ثانيًا: موافقة قراءة العامة.

من المرجحات بين القراءات المتواترة عند النحويين مراعاة ما اختاره عامة الأئمة، قال سيبويه مُسِّلِّماً لاجتماع القراء على وجه، وعدم قراءتهم على الوجه الذي يقوّيه: «وقد قرأ أنس^(١): 《السَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ》^(٢) وَ《الرَّازِيَةُ وَالرَّازِيَنِيُّ》^(٣)، وهو في العربية على ما ذكرت لك من القوة. ولكن أبَيَتِ العامة إِلَّا القراءة بالرفع»^(٤). ● وهذا من النحويين من دلائل عدم اندفاعهم للأقىسة على حساب التشتت ومراعاة النقل، فاحترام قراءة العامة هو في الحقيقة احترام للنقل القوي الذي تنتهي له قراءتهم. إضافة إلى ما قاله الطبرى: «وما انفرد به من كان جائزًا عليه السهو والغلط فغير جائز الاعتراض به على الحجّة»^(٥). وكثيراً ما نجد الفراء ينص على ضابط تقديم قراءة العامة ويختارها، وقد قال: «وأجود ذلك ما اختارته القراء الذين تؤثر عنهم القراءة»^(٦). وقد تناولنا -سابقاً- روافد حتمية المفاضلة الناتجة عن مراعاة قراءة العامة.

(١) وهي قراءة عيسى بن عمر، وابن أبي عبلة، والجمهور على الرفع ينظر: مختصر ابن خالويه ،٣٢، البحر المحيط ٥٣٩/١٠.

(٢) المائدة: ٣٨.

(٣) النور: ٢.

(٤) الكتاب: ١٤٤/١.

(٥) جامع البيان، للطبرى ٦/٤.

(٦) معانى القرآن ٣٦/١، وينظر: ٢١٤/٢، ٢٤٦، ٢٢٥/٣، إعراب القرآن، للنساجي ٢١٩/٢ . ١٠٥/٤.

ثالثاً: موافقة الرسم العثماني.

تحدثنا قبلاً عن أثر موافقة الرسم العثماني ودرجاته في الترجيح بين القراءات القرآنية، ونضيف هنا أن الاعتداد بالرسم العثماني قد يكون فاصلاً في الترجيح بين اللغات المشهورة عن العرب.

قال النحاس في قوله تعالى: **﴿وَإِذَا أَرْسَلْتُ أُقْتَلَ﴾**^(١): «وقد ذكر سيبويه^(٢) للغتين **وُقِتَتْ وُقِتَتْ**^(٣)، فلم يقدم إحداهما على الأخرى، فإذا كانتا فصيحتين، فالأولى أتباع **السوداد**»^(٤).

● وللمقصد أن القراءة الموافقة للرسم العثماني تستمد قوتها من دلالة الرسم على الاجتماع عليها، لذا قال النحاس في إحدى القراءات وقد ذكر سندها: «هذه قراءة مخالفة للمصحف، فإن قال قائل: **الإسناد صحيح**، قيل له: **الإجماع أولى**»^(٥). وقال الزجاج في إحدى القراءات: «وهذا جيد في العربية إلا أنني أكرهه لمخالفة المصحف، والقراءة إنما ينبغي أن تلزم فيها السنة، ولزوم السنة فيها أقوى عند **أهل العربية**»^(٦)، لذا كان من قواعد الترجيح

(١) المرسلات: ١١.

(٢) ينظر: الكتاب ٤/٣٣١.

(٣) قرأ أبو عمر بالواو (وُقِتَتْ)، والباقيون بالهمزة، وقرأ الحسن وأبو جعفر (وُقِتَتْ) بواو وتحفيف القاف، ينظر: معاني القرآن، للفراء ٣/٢٢٢، التيسير، للداني ١٧٧.

(٤) إعراب القرآن ٥/١١٥.

(٥) إعراب القرآن ٤/٦٥.

(٦) معاني القرآن وإعرابه ١/٢٣٦.

في علوم التفسير وعلوم العربية «الوجه التفسيري والإعرابي الموافق لرسم المصحف أولى من الوجه المخالف له»^(١).

(١) قواعد الترجيح عند المفسرين .١١٠/١

رابعاً: موافقة الأكثر والأشهر في لغات العرب.

وهذا المعيار من أبين مسارات حتمية مفاضلة التحوي بين القراءات القرآنية، فالقراءات مهما علت فصاحتها، إلا أنها يبعد أن تتساوى الوجوه واللغات التي نزلت بها في الكثرة والشهرة. لذا كان من ضوابطهم:

- «ولا ينبغي أن نقرأ إلا بالكثير»^(١).
- «ولا يحمل كتاب الله، عز وجل، إلا على الأغلب الأشهر»^(٢).
- أوضح اللغات ما جاء في القرآن «وربما وقع الغلط من بعض أهل اللغة فيما يذكرون من فصيح الكلام»^(٣).
- «وموافقة الأكثر أولى من موافقة الأقل»^(٤).
- قال أبو زرعة نacula عن أبي عبيد في قوله تعالى: ﴿قَالَ هَلْ عَسِيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمْ الْقِتَالُ﴾^(٥): «القراءة عندنا بالفتح^(٦)؛ لأنّها أعرف اللغتين، ولو كان (عَسِيْتُمْ) لفُرِئَتْ ﴿عَسَىٰ زَيْتَانَ﴾^(٧)، وما اختلفوا في الحرف»^(٨).

(١) معانٍ القرآن وإعرابه ١/٣٥.

(٢) إعراب القرآن، للنحاس ٤/٨٣.

(٣) المرجع السابق ٤/٩٩.

(٤) شرح التسهيل، لابن مالك ١/١٦٧.

(٥) البقرة: ٢٤٦.

(٦) وهي قراءة العشرة عدا نافع، ينظر: السبعة، لابن مجاهد ١٨٦، الحجة، لأبي علي ٢/٣٤٩، النشر في القراءات العشر ٢/٢٣٠.

(٧) القلم: ٣٢.

(٨) حجة القراءات، لابن زنجلة ١٣٩.

و هنا نشير إلى أمرٍ مهم في علاقة التفاضل بين القراءات بالبنية التفاضلية في الفكر النحوي وهو أنَّ هذا المنهج يقودنا أولاً إلى التذكير بما يقرره العلماء من أن أكثر الاختلاف في القراءات أصله اختلاف لهجات، إذ «القرآن العربي فيه من جميع لغات العرب؛ لأنَّه أنزل عليهم كافَّة، وأبيح لهم أن يقرأوا على لغاتهم المختلفة، فاختلفت القراءات فيه لذلك»^(١).

هنا تظهر حتمية تأثير طبيعة عمل النحوي التفاضلي، إذ الحكم على القراءتين، سيكون -بالضرورة- فرعًا عن الحكم على اللغتين أو اللهجتين ومنزلتهما في كلام العرب، وعلى ذلك مدار التفاضل، وقد قرر ابن جني الموقف المنهجي من التعادل في اللغات والترجيح بينها، وقال في نصه الدستور: «وليس لك أن ترد إحدى اللغتين بصاحبتها؛ لأنَّها أحق بذلك من رسيلتها. لكن غاية ما لك في ذلك أن تتخِّير إحداها، فتقويها على اختها، وتعتقد أن أقوى القياسيين أقبل لها، وأشدُّ أنسًا بها. فاما رد إحداها بالأخرى فلا.

أولاً ترى إلى قول النبي، صلى الله عليه وسلم: «نَزَّلَ الْقُرْآنَ عَلَيَّ بِسْعَ لِغَاتٍ كُلُّهَا كَافٍ شَافِ»^(٢). هذا حَكْمُ اللَّغَتَيْنِ إِذَا كَانَتَا فِي الْاسْتِعْمَالِ وَالْقِيَاسِ مُتَدَانِيَتَيْنِ مُتَرَاسِلَتَيْنِ، أَوْ كَالْمُتَرَاسِلَتَيْنِ. فَإِنَّمَا أَنْ تَقْلِي إِحْدَاهُمَا جَدًّا وَتَكُثُرَ الْأُخْرَى جَدًّا، فَإِنَّكَ تَأْخُذْ بِأَوْسَعِهِمَا رِوَايَةً وَأَقْوَاهُمَا قِيَاسًا»^(٢).

(١) إِبْرَازُ الْمَعْنَى . ٤٧٨

(٢) الْخَصَائِصُ . ١٠/٢

هنا تتدخل طبيعة عمل النحوى، فكيف يُطمئنُ نسبة منع المفاضلة لأبي العباس ثعلب-مثلاً-القائل: «ارتفعت قريش في الفصاحة عن عنونة تميم، وكشكشة ربيعة...»^(١)، وهو في منجزاته ومؤلفاته - كالفصيح-يفاضل بين لغات العرب؟!.

فهو، رحمة الله، اختار في الفصيح: (وَحَزَنَنِي الْأَمْرُ يَحْزُنُنِي)^(٢)، وهي إحدى قراءاتي قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنْكُ﴾^(٣)، قال ابن خالويه: «يُقرأ بفتح الياء وضم الزاي، وبضم الياء وكسر الزاي»^(٤)، فالحججة لمن فتح الياء أنه أخذ من (حَزَنْ يَحْزُنْ حُزْنًا)، والحججة لمن فتح الياء أنه أخذه من (أَحْزَنْ يَحْزُنْ حُزْنًا)، ولم يُسمع إحزانًا وإن كان القياس يُوجبه»^(٥).

إن طبيعة البنية التفاضلية في التراث النحوى هي التي أُنْبأْتُنا بترجيح الإمام ثعلب ولو لم نجد له نصوصًا في قراءات الآية السابقة. وما ورد عنه - رحمة الله - من أنه لا يُفضل إعرابًا على إعراب فإذا خرج إلى كلام الناس، فضل الأقوى، فجوابه أن من تمام إعجاز القرآن الكريم أن نزل ليتحدى العرب بلغتهم، فمن

(١) مجالس ثعلب ١/٨٠.

(٢) الفصيح ٢٦٨.

(٣) يونس: ٦٥.

(٤)قرأ نافع (يَحْزُنْ) بضم الياء وكسر الزاي حيث وقع ما خلا قوله في (الأنبياء: ١٠٣)، ﴿لَا يَحْزُنْهُم﴾ فإنه فتح الياء وضم الزاي وفيه الباقيون كذلك في الكل. ينظر: السبعة، ابن ماجه ٢١٩، التيسير، للداني ٧٦.

(٥) الحجة ١١٦.

يفاضل بين كلام العرب ولغاتهم فهو - لا محالة - سيفاضل بين القراءات التي
نزلت بلغاتهم وعلى معهود خطابهم.

خامسًا: المرجح البلاغي ومراعاة جوانب الدلالة والسياق.

كثيراً ما يرجح النحويون بين القراءات المتواترة لاعتبارات بلاغية وأسلوبية كالمشاكلة، وتناسب الفوائل، ودلالات القطع والاستئناف، والخصوص والعموم، ودلالات التكثير والتقليل، وعامة الدلالات النحوية والصرافية واللغوية.

ومن نماذج ذلك استحسان القراء الاستئناف والإتباع على البديلية في قراءة (رب) بالرفع في قوله تعالى: ﴿وَادْكُرْ أَسْمَ رَبِّكَ وَبَيْنَ إِلَيْهِ تَبَيَّنَ﴾ (٨) رَبُّ الْمُشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾^(١)، يقول: «خضها عاصم والأعمش، ورفعها أهل الحجاز، والرفع يحسن إذا انفصلت الآية عن الآية»^(٢).

وفي قوله تعالى: ﴿وَحَسِيبُوا لَا تَكُونُ فِتْنَةً﴾^(٣)، بفتح (تكون)^(٤)، قال النحاس: «الرفع عند النحويين في (حسبت) وأخواتها أجود... وإنما صار الرفع أجود؛ لأنَّ (حسبت) وأخواتها بمنزلة العلم في أنه شيء ثابت، وإنما يجوز النصب على أن تجعلهنَّ بمنزلة (خشيت) و(خفت)»^(٥). فالدلالة المعجمية للفعل (حسب) أثرت في الحكم التكبيي للفعل بعدها، وعليه مدار التفضيل.

(١) المزمل: ٩-٨.

(٢) معاني القرآن ١٩٨/٣.

(٣) المائدة: ٧١.

(٤) قرأها بالرفع أبو عمرو وحمزة والكسائي، والباقيون بالنصب. ينظر: السبعة، لابن مجاهد ٢٤٧، التيسير، للداني ٨٣.

(٥) إعراب القرآن، للنحاس ٣٥/١.

والترجيحات الأسلوبية والبلاغية كثيرةٌ في توجيهات النحويين، حتى إنك تكاد تذهب إلى أنَّ ظاهرة المفاضلة بين القراءات عند علماء العربية ذات صبغة دلالية، باعتبار أن الدلالة هي مستوى مشترك وكامن في مستويات اللغة: الصرفية والنحوية واللغوية، كما أن الترجيح الدلالي يمثل طبيعة لغة، تختزن فنون قولٍ وتحتزن ازياحاتها كذلك، أو كما قال ابن جني: «كلام العرب كثير الانحرافات، ولطيف المقاصد والجهات، وأعذب ما فيه تلفته وتشبيهه»^(١).

(١) المحتسب .٨٦/٢

سادساً: مراعاة ما توافق مع قول المفسرين وأئمة التأویل.

ما يتقيّد به النحويون في اختيارهم للقراءات القرآنية هو موافقة ما عليه أئمة التفسير والتأویل، فيینون ترجيحهم على الأبين والأوضح تأویلاً من أقوالهم، ولا يجوز لأحدٍ «أن يخرج عن جملتهم فيما قالوه، وإن كان قوله محتماً»^(١). قال أبو جعفر في قوله تعالى: ﴿لَا فِيهَا عَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنَزِّلُونَ﴾^(٢): «والقراءة الأولى^(٣) أبين وأصح في المعنى؛ لأن معنى (يُنَزِّلُونَ) عند جلة أهل التفسير منهم مجاهد: لا تذهب عقوبهم، فنفي الله، عز وجل، عن خمر الجنة الآفات التي تلحق في الدنيا من خمرها من الصداع والسكر. فأما معنى (يُنَزِّلُونَ)، فالصحيح فيه أن يقال: أنزف الرجل إذا نفدت شرابه، وهذا يبعد أن يوصف به شراب أهل الجنة، ولكن مجازه أن يكون بمعنى لا ينفذ أبداً»^(٤).

(١) إعراب القرآن، للنحاس ٢١٢/٥.

(٢) الصفات: ٤٧.

(٣) وهي (يُنَزِّلُونَ) بفتح الزاي وهي قراءة ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر وقرأها عاصم هنا بالفتح وفي (الواقعة: ١٩) بالكسر، وقرأها حمزة والكسائي بكسر الزاي في المضعين. ينظر: السبعة، لابن مجاهد ٥٤٧، الحجة، لأبي علي ٥٤/٦.

(٤) إعراب القرآن ٤١٩/٣.

• ويقى لنا أن نشير إلى أمورٍ في غاية الأهمية:

أولاً: إن فكرة ربط عدم المفاضلة بالديانة أو ما يُشبه فكرة (التحرّز الديني) التي وردت في نص ثعلب ونصوص النحاس وأبي حيّان - لم تكن قادرة على مواجهة طبيعة عمل النحوي التفاضلية، فقد أسلّمهم التوجيه النحوي للقراءات القرآنية إلى صريح التفاضل بينها، فلو كانت فكرة (التحرّز الديني) ستغلب على طبيعة عمل النحوي لأدت بجم إلى الزهد في نقد القراءات وتضعييفها قبل أن تُزهّدُهم في مجرد المفاضلة، فثعلب والنحاس - رحّهما الله - نقدوا القراءات القرآنية وتضعييفها^(١). كما أن النهج الأثري الواضح عند أبي حيّان، ومنافحته عن القراءات المتواترة لم يُنقذه من الوقوع في المفاضلة.

ومفارقة أن أحد المواقع التي أنكر فيها النحاس على من فاضل بين القراءات التي لها حظ من الاجتماع؛ لأن الديانة تحظر ذلك^(٢)، هو نفسه موضع انتقاد فيه أبو العباس ثعلب قراءة للأئمة وهو الذي نص على أنه لا يفاضل بين الإعراب إلا إذا خرج إلى كلام الناس. قال أبو العباس في ذلك الموضع وهو في قوله تعالى: «في عَمَدٍ مُنَدَّدَةٍ»^(٣)، بضمتين (عُمُدٌ): «هو القياس،

(١) ينظر: مجالس ثعلب ١/٥٣، ٢/٣٥٩، إعراب القرآن، للنحاس ١/٢٣، ١٧٠.

(٢) إعراب القرآن ٥/٢٩٠.

(٣) الممزة: ٩.

(٤) قرأها بضمتين أبو بكر وحمة والكسائي، وقرأ بقية السبعة بفتحتين. ينظر: السبعة، لابن مجاهد ٦٩٧، التيسير، للداني.

(وَعَمَد) شادٌ^(١). والسرُّ في ذلك هو أَنَّ التفاضل صادرٌ عن بنية التفكير النحوي ولا شيءٌ خارجه يمكن أن يلغى ذلك. وهم يفاضلون القراءات المختلفة، ويفاضلون في الإعراب والقراءة واحدة لدوعٍ صناعية وغير صناعية -لفظية ودلالية^(٢).

ثانيًا: وظيفة أقيسة النحويين هي تقنين كلام العرب الفصيح، لا التقنين لما جاء في القرآن الكريم وحسب. وعماد هذا التقنين هو الاعتماد على الكثير الشائع المعتبر عن معهود خطابهم.

وموقف النحويين من القرآن الكريم وقراءاتها المتواترة والشاذة -أَنَّ ذلك كله يُحتج به، ويُحتج له^(٣)، غير أن هناك ما يتميز به النص القرآني عن غيره، وقد لخصه ولخص موقف النحويين منه الزجاج بقوله: «القراءة سنة لا ينبغي أن يقرأ فيها بشكل يحيزه النحويون، وإن تتبع، فالذي روي من المشهور في القراءة أجود عند النحويين، فيجتمع في القراءة بما روى الأنبياء، وإثبات ما هو أقوى في الحجة»^(٤). فتوسط موقف النحويين صادرٌ عن حفاظهم على حرمة القراءات بلزومهم النقل، واحترامهم لقوانين العربية، بقبول الأوجه القوية في

(١) مجالس ثعلب ١/٣٢٥.

(٢) ينظر: إعراب القرآن، للنحاس ١/٣٦٩.

(٣) الاقتراح ٣٦/.

(٤) معانٍ القرآن وإعرابه ١/١٢.

القياس وإن كانوا لا يجيزون القراءة به إذ «القراء لا تقرأ بكل ما يجوز في العربية، فلا يقبح عنك تشنيع متشنّع ما لم يقرأه القراء مما يجوز»^(١).

ولما كان الاحتكام في القوة والضعف إلى أقيستهم المستنبطة من كلام العرب، رأوا في بعض الشاذ^(٢) الخارج عن قراءة القراء السبعة أنه «مع خروجه عنها نازع بالثقة إلى قرائه، محفوف بالروايات من أمامه وورائه، ولعله، أو كثيراً منه، مساوٍ في الفصاحة للمجتمع عليه»^(٣).

وما دام طبيعة عمل النحو الاحتكام إلى القياس، إضافة إلى الاحتجاج للقراءة تارة الاحتجاج بها تارة أخرى، فلا مانع من أن يجعل أئمة النحو أحياناً القراءة الشاذة هي القياس^(٤)، وربما يحتاجون بالمتواتر والشاذ جنباً إلى جنب^(٥)، وربما يقدمون قراءة القلة على قراءة الكثرة^(٦)، مادام القياس المبني على الكثير من كلام العرب يقتضي ذلك.

(١) معانٍ القرآن للفراء ٢٤٥/١.

(٢) مِرْ مصطلح الشذوذ عند علماء القراءات بثلاث مراحل، أولها: ما خالف رسم المصحف، وكثيراً ما يعدها النحاس وغيره مدرجة (آية تفسير)، ثانيها: ما خالف السبع التي اختارها ابن مجاهد، وآخرها: ما اختلف فيه ركن من أركان القراءة المقبولة، ملخص ذلك من: ضوابط الفكر النحوية ٢٩٧/١، ومطولة في: رسم المصحف ٥٥٥.

(٣) المحتسب ٣٢/٢.

(٤) ينظر أحد اختيارات الخليل في: الكتاب ٣٩٩/٢.

(٥) ينظر فعل سبيوبيه في: الكتاب ١٤٧/٢.

(٦) المقتضب ١٢٤/٤.

وقد أتى سيبويه في احتجاجه بما في مصحف ابن مسعود^(١)، ومصحف أبي^(٢) لما هو جائز في العربية، موثق بالأسانيد، وإن خالف المصحف الإمام، إذ يكفي لتجويز إعرابٍ ما أن يُستشهد بما في مرسوم المصاحف التي قبل المصحف الإمام، ولكن لا يقرأ بذلك القراءة، «ومسلك سيبويه يبدو طبيعياً، إذ كانت صفتة الأولى والباقي على الدهر أنه نحوي ينظر إلى المصاحف على عمومها، متحججاً بما جاء في مرسومها، غير متقييد بمصحف الإمام، ما دامت المصاحف الأخرى في الاحتجاج على المذاهب الإعرابية في فنون الكلام»^(٣). ومهما يكن من أمر، فالمسألة ترتد إلى اختلاف الغاية الوظيفية من التعامل مع القراءة القرآنية، إذ «الاحتجاج شيء، والبناء على المجتمع به شيء آخر، فالقراءات متواترها وشاذتها -لصحة ثبوتها- يحتاج بها في الورادة فيه بعينه، أما بناء غيرها عليها فلا يكون إلا إذا اتفقت وضوابط النحوة في بناء قواعدهم على الكثير الشائع»^(٤).

هذه الطبيعة للنحو العربي المكونة في أصل التكوين من السمع، المتمحضة بعد ذلك في (قياس يُتبع)، ويحتمكم إليه للحكم على أي نص، هذه الطبيعة هي النشأة، والنمو، والنضج، وكل ذلك تمّ والتباين الحاد بين القراءات المتواترة

(١) الكتاب ٨٣/٢.

(٢) الكتاب ١٦٦/٣.

(٣) رسم المصحف العثماني ٧١.

(٤) ضوابط الفكر النحوي ٢٩٨/١.

والشادة والآحاد لم يتحقق، فالقراءة في نظر أئمة النحو «مذهب من مذاهب النطق»^(١)، أو هي «أداء قارئ وليس أداءً نبوياً»^(٢).

وإذا كُنّا ذهناً إلى أن المعيارية في القياس النحوي، وطبيعة المرحلة التي تكون فيها علم النحو العربي، ومن ثم طبيعة البنية التفاضلية في الفكر النحوي-اقتضى حتمية المفاضلة بين القراءات القرآنية، فإنّ ما يؤكد لنا ذلك الآتي:

١- أنّ الذين نصّوا على منع ذلك ديانةً، لم يسعفهم الواقع الإجرائي في توجيهاتهم وإعراباتهم، فوقعوا في حتمية المفاضلة القراءات، وإذا اتسع الفارق بين قراءة وأخرى في القرب من القياس اللغوي اضطر المانعون إلى الترجيح الخفي، بذكر نصوص الأئمة، أو الاعتداد بسيبوه وذكر اختياره^(٣). وخاصة إذا كانت القراءتان قويتين في الشهرة والإجماع.

٢- إن الباحثين يكادون يجمعون على أنّ مواقف النحويين المحقّقين والمتّاخرين بالجملة أكثر مواءمة مع القراءات القرآنية من غيرهم، بسبب استقرار أمر التواتر واطمئنانهم إليه، ومع ذلك كله فالتأثير في الموقف نسبيٌ^(٤)، فإذا كان

(١) في أصول النحو العربي ٥٨.

(٢) الأسس المعرفية والمنهجية للخطاب النحوي العربي ٢٤٧.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣٢/٢.

(٤) كثيرون من اضطراب مواقف الباحثين وحيثهم في تفهُّم حركة نقد النحويين للقراءات مرجعها إلى غياب فكرة حتمية المفاضلة والتصنيف التي يتقتضيها طبيعة الفكر النحوي، ولو لا الدافع العلمي وحرص الباحث على محاولة الاستقلال بقضية المفاضلة عن قضية تضييف القراءات وتلخيصها، لأوضحتُ للقارئ- بنفسه مطّولـ ما في هذا البحث من نقاط كثيرة يمكن أن يستفاد منها في تفهُّم حركة نقد النحويين للقراءات القرآنية بشكل عام.

أبو حيان -رحمه الله- المتأخر والمعروف عنه ب موقفه الأثري ودفاعه المستميت عن القراءات والقراء -قد فاضل بين القراءات المتواترة، فأي نحوٍ غيره يمكن - طوعاً منه أو كرهًا -أن نجد تراثه النحوي حالياً من المفاضلة؟!

ويظهر لي أن عدم تمايز المتواتر من غيره عامل مهم في تحدى النظرة التفاضلية في التفكير النحوي، لكن ذلك لا يعني تلاشي حركة النقد للقراءات أو المفاضلة بين القراءات بعد استقرار التسبيع، إذ السر الأكبر في داخل أسس النظام لا خارجه، ولذا اضطر بعض الباحثين في التفرقة بين منهج المتأخرین بعد استقرار فن القراءات وأصوله بعد رأس السنة ثلاثة ومنهج المتقدمين قبلها إلى القول: «من كان عمله على النوع الأول وهو نقد القراءات وإخضاعها للمقاييس المختلفة فهو على نهج المتقدمين وإن كان في عصر متأخر، ومن كان عمله على النوع الثاني، وهو الاعتماد على الرواية في ذلك فهو على نهج المتأخرین، وإن وجد قبلهم»^(١). والأمر، في تقديری، يعود لما أشرتُ إليه من حتمية المفاضلة في الفكر النحوي الذي لا يردها تقدم أو تأخر.

(١) ضوابط الفكر النحوي ٣٣٠/١

ثالثاً: حتمية وقوع المفاضلة بين القراءات من قبل اللغويين مرتبطة بعوامل اختلاف، ولا أقول تضاد، بين طبيعة علم القراءات وطبيعة علم النحو العربي، أوجزه في الفكرتين الآتيتين:

١- النحويون ينصون على أنَّ القرآن الكريم نزل على لغات العرب، قياسها وشاذُّها، يقول ابن بابشاذ (٤٦٩هـ): «والقرآن العظيم في أعلى رُتب البيان، منه ما يأتي على أقيسة النحويين، وهو الأكثُر، ومنه ما يأتي على غير أقيستهم، وكلُّ مسلمٍ مُتَّبعٌ كالنَّصُّ الذي يرتفع معه حُكْمُ القياس، فلا يجوز العدول إلى القياس مع وجوده»^(١)، وأبو حيَان يقول: «القراءات جاءت على لغة العرب قياسها وشاذُّها»^(٢).

والنحويون، وإنْ كان عندهم «الشذوذ لا ينافي الفصاحة»^(٣) في ذاته، إلا أنَّهم يبنون قواعدهم على الكثير المطرد و«الشاذ مقصور على السَّماع، فلا يقاس عليه»^(٤)، ومن يؤمن بهذا القياس وصفته - كأبي حيَان - لا يسوغ أن تتساوى في توجيهاته القراءةُ الآتيةُ على المطرد الشائع الذي يُؤمن به صراحة في تراثه النحوي بغيرها من القراءات.

٢- القراءات القرآنية تكونت وفق مبدأ التيسير والاتساع، فجاءت أفانين على سبعة أحرف، تتسع أفقياً لتلائم مذاهب النطق في جغرافية أكثُر امتداداً،

(١) شرح المقدمة المحسنة ٤٣٤/٢.

(٢) البحر المحيط ٤٧٦/٢٥.

(٣) فيض نشر الانشراح ٤٢٧/١.

(٤) الخصائص ١٩٣/١.

أمّا طبيعة التقييد النحوي فهي طبيعة استقطاب وانتخاب تلائمان غاية تسهيل الاحتداء بأعلى مستوى من كلام العرب وفق قواعد مطردة يسهل تمثيلها، «وهذه الخصوصية في النظام النحوي تسمح، بل توجب أن يخرج الباحث معطيات البحث فيه من التعددية والتنوع إلى الشمول والتّوحد قدر الإمكان، حتى يتّسنى له أن يرسم صورة دقيقة لطبيعة العلاقات القائمة في هذا النظام»^(١)، وبناءً لاختلاف الطبيعتين، فإن القراءة الموافقة للكثير الشائع المنتخب للتقييد –بالضرورة– ستكون هي الفضلى في عمل النحوي، وإن كانت القراءة النائية عن القياس قوية في ذاتها ونقلها وقد تمكنت في القوة ببنيلها شرف الانضمام إلى آي الذكر الحكيم.

وبالجملة فإن «معيار اللغوي ومنهجه يختلف عن معيار القارئ ومنهجه، وأنّ أي محاولة لفرض منهج القراءة على اللغويين سيعني فرض منهج علمٍ على علمٍ آخر، كما سيظهر اللغوي بمظهر المضطرب أو المتناقض في أقواله وأفعاله»^(٢).

رابعاً: إنّ تاريخ القراءات القرآنية منذ الأعمال الجليلة التي قام بها الصحابة الكرام –رضوان الله عليهم– في الجمع والتدوين والاجتماع على الرسم –يشهد بأن مبدأ (الاحتراز) من دخول غير القرآن فيه مقدّمٌ على جلب أو رصد كل قراءة يمكن أن يثبت صحتها أو توافتها.

(١) منزلة المعنى في نظرية النحو العربي .٢١٠

(٢) البحث اللغوي عند العرب .٢٥

وحين استقر أمرُ الأمة على الشروط الثلاثة للقراءة الصحيحة، أصبحت وظيفة (شرط الرسم)، و(شرط العربية ولو بوجه) هي وظيفة احترازية من دخول ما ليس متواتراً في القراءات المتواترة^(١)، وهذه الوظيفة الرئيسة لم يكن للقياس اللغوي أن يقوم بها لو تنازل اللغويون وال نحويون عن أقيساتهم بحججة التسليم المطلق لكل قراءة سمعت أو نقلت عن جماعة. وال نحويون يحفظون للنقل أولوية، إذ القراءة عندهم، ابتداءً، نقلٌ لا قياس^(٢)، لذا كان معيار تفضيلهم الأهم هو «القراءة التي عليها جماعة الحجة، وما يُروى من غيرها يقع فيه الاضطراب، وكذا أكثر القراءات الخارجة عن الجماعة، وإن وقعت في الأسانيد الصحاح إلا أنها من جهة الآحاد»^(٣)، غير أن تمسكهم بأقيساتهم هو من كمال مهمة العمل النحوي في خدمة القرآن الكريم وقراءاته، وأكثر الذين ينتقدون موقف النحوين لم يتبعوا لحتمية ضياع الوظيفة الاحترازية لو تنازل النحويون عن أقيساتهم. ومع تخلف تباين القراءة المتواترة من غيرها عند بدايات علم التحو العربي أصبحت مهمة الاحتراز التي قام بها النحويون أكد ما تكون، وبات النحويون يحلقون بمناجي النقل والقياس، ووجدنا إمامهم سيبويه في مواضع عدة «يُسلِّم بصواب القراءات ... ولكنه يضعها شأنها شأن النصوص الأخرى - في قوائم الملاحظة والتصنيف في مجال استنباط القواعد والأحكام النحوية، ومن ثم كانت أحكامه من كثرة وقلة وجودة وحسن، دون اعتراض على القراءة من حيث هي

(١) ينظر: النشر في القراءات العشر ١٠/١.

(٢) ينظر: إعراب القراءات السبع ٤/٤.

(٣) إعراب القرآن، للنحاس ٥/١٤.

قراءة»^(١). ومنذ أن احتط الأئمة هذا المنهج النحوي إلى زمن النضج والتحقيق عند المتأخرین والتفاصل الحتمي (كثرة، قلة، جودة، ضعف) يسكن بنية التفكير النحوي، وبقى النص القرآني بجلاله المُعجز، «فإن قلت: هل يفضي ترجيح بعض على بعض إلى أن تكون الراجحة أبلغ من المرجوحة، فيفضي إلى أن المرجوحة أضعف في الإعجاز؟

قلت: حُدُّ الإعجاز مطابقة الكلام لجميع مقتضى الحال، وهو لا يقبل التفاوت، ويجوز مع ذلك أن يكون بعض الكلام المعجز مشتملاً على لطائف وخصوصيات تتعلق بوجوه الحسن كالجناس والمباغة، أو تتعلق بزيادة الفصاحة... وأمّا الإيجاز فلا يلزم أن يتحقق في كل آية من آي القرآن؛ لأنَّ التحدي إنما وقع بسورةٍ مثل سور القرآن، وأقصر سورة ثالث آيات، فكل مقدار ينتمي من ثلاثة آيات من القرآن يجب أن يكون مجموعه مُعْجزاً»^(٢).

والحق أن المتأمل باستسال فيما توفر للنص القرآني مما بذله أئمة القراءة «التي لا تعمل في شيء من حروف القرآن على الأفتشى في اللغة والأقىيس في العربية بل على الأثبت في الأثر والأصح في النقل»^(٣)، وما بذله أئمة العربية من صيانة القراءات المستفيضة من أن يتسرّب إليها شيءٌ من غيرها من خلال التمسك بأقىستهم التي توجه القراءات وتنقىي سياجها وتحلّلها مهيمنة على غيرها بحملها على أشرف المذاهب - المتأمل في ذلك، يُدرك حقيقة القول بأنه

(١) مواقف النحاة من القراءات القرآنية ١٥٩.

(٢) التحرير والتنوير ٦٣/١.

(٣) النشر في القراءات العشر ١٠/١.

«لم يتوفّر لنص ما توفّر للقرآن الكريم من تواتر روایاته وعناية العلماء بضبطها وتحريرها متّناً وسندًا، وتدوينها وضبطها بالمشافهة عن أفواه العلماء الأثبات الأئيّناء من التابعين، عن الصحابة، عن الرسول -صلي الله عليه وسلم-، فهو النص العربي الصحيح المتواتر المجمع على تلاوته بالطرق التي وصل إلينا بها في الأداء والحركات والسكنات، ولم تعن أمّةٌ بنصٍّ ما اعتنى المسلمون بنص قرآنهم»^(١).

(١) في أصول النحو .٢٨

الخاتمة:

بعد أن أكفيت دُرس موضوع المفاضلة من خلال تبيان موقف النحويين من مبدأ (المفاضلة)، والتعرف إلى موانع المفاضلة بين القراءات القرآنية المتواترة (قراءة توظيفية)، واستقراء لمبدأ (المفاضلة) اللغوية في الفكر النحوي، آنَ لنا أن نوجز ما وصل إليه البحث من نتائج وتوصيات، وهي:

- أن النحاة الذين اشتهر عنهم منع المفاضلة بين القراءات وفُهم من نصوصهم النظرية ذلك (ثعلب، النحاس، أبا حيان) –فاضلوا بين القراءات القرآنية في مؤلفاً لهم مفاضلة صريحة.
- أن تفسير موقف المنع النظري المشتهر لبعض النحاة مع القيام بالمفاضلة عملياً –أسلمنا بعد البحث والتحري في كتب النحو القرآني إلى حمله على ممانعة خاصة ليست عامة، وأنَّ في ناصية موانع المفاضلة عندهم هو أن تكون القراءتان متكافئتين في قوة الشهرة والقبول والتواتر.
- أنَّ ما نطمئن إليه، وأثبتَه بحثنا هذا من جوانب عدَة –هو أنَّ المفاضلة بين القراءات القرآنية المتواترة أمرٌ حتمي، ويبعد أن يكون موقف النحوي هو الحياد المطلق أمام قراءات الآية الواحدة، ومردُ ذلك –بالدرجة الأولى– إلى طبيعة عمل النحوي والبنية التفاضلية المتجذرة في التفكير النحوي، وإذا كنا أثبتنا أن طبيعة اصطفاء هذه القراءات المتواترة هي طبيعة تفاضلية عند

القراء^(١)، فهي عند النحويين أكده؛ لأن ذلك واقع فيها من جهتين، خارجية (طبيعة القراءات المتواترة)، وداخلية (طبيعة النظام النحوي) ولذلك لم يثبت لنا - فيما قرأته - أن نحوياً أسهם في توجيه القراءات القرآنية أو في إعرابها وبيان معانيها - ولم يفاضل بين القراءات، بما في ذلك النحويون الذين لهم نصوص نظرية يفهم منها منهم أو تحرزهم من المفاضلة.

ولذلك نرى أن تداول هذه الظاهرة في البحث النحوي من منطلق التأييد أو الرفض أو الاكتفاء بذكر الفريقين: من أُسند إليهم المنع والجواز تداول لا يقدّم للبحث النحوي إضافةً تذكر، ما لم ثبت بالأدلة القاطعة أن نحوياً ما وجّه القراءات القرآنية المتواترة ولم يفاضل بينها تطبيقاً!

• والنتيجة التي اطمأن إليها بحثنا، هو أنّ علاقة اللغوي مع القراءات وتوجيهها هي علاقة تفاضلية بامتياز، ولذلك حاول بحثنا دفع التداول إلى المنطقة العميقية، إلى أسس تعامل النحويين مع القراءات، ليكون السؤال: هل يمكن أن يتحقق للنحوي، في إعراباته وتوجيهاته، الحياد المطلق من القراءات المتواترة المتعددة للاية الواحدة؟

• ما يمكن تسجيله من موقف أمام هذه الظاهرة الختامية هو أنّ المنع يتوجه إلى المفاضلة المفضية إلى إسقاط القراءة الأخرى، على حدّ قول أبي شامة: «وقد أكثر المصنفون في القراءات والتفاسير من الكلام في الترجيح بين

(١) ونذكر هنا بما نقل أستاذ علم القراءات ومحقق الأداء فيها ابن الجزي، رحمه الله، عن أبي نصر القشيري قوله: «فإنا لا ندعي أن كل ما في القراءات على أرفع الدرجات من الفصاحة»، ينظر: منجد المقرئين، لابن الجزي ٢٠٣

هاتين القراءتين حتى إن بعضهم يبالغ في ذلك إلى حد يكاد يُسقط وجه القراءة الأخرى، وليس هذا بمحمود بعد ثبوت القراءتين وصحة اتصاف الرب، سبحانه وتعالى، بهما»^(١).

● أوصي الباحثين في قضايا القراءات القرآنية بالاستفادة مما نصّ عليه اللغويون من الموانع التي منعت بعض النحوين في مواضع محدّدة من عقد المفاضلة، مثل: كون القراءتين بمعنى واحد، وكوّنهما كائتين كلّ واحدة منهما تؤدي معنى، وكوّنهما متكافتين في قوة التواتر والشهرة، على نحو ما جرى تفصيله بالبحث الثاني، فيستفدو منها في ترشيد ظاهرة المفاضلة باقتدارها على المرجحات الحقيقة البتّنة، إذ هو المنهج الأسدُ، لا سيما أن هذا الكتاب المُعجز فيه من الأسرار البيانية التي لا تنكشف جملةً واحدةً لكلٍ متطلّب لها.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

(١) إبراز المعاني ٧٠.

المصادر والمراجع:

- الإبانة عن معاني القراءات، لمكي بن أبي طالب، تحقيق: د. عبد الفتاح اسماعيل شلبي، المكتبة الفيصلية، الطبعة الثالثة، ١٤٠٥-١٩٨٥ م.
- إبراز المعاني من حز الأمانى في القراءات السبع، للإمام الشاطىء أبو شامة الدمشقى، تحقيق: إبراهيم عطوه عوض، مطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده بمصر، ١٤٠٢=١٩٨٢ م.
- إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربع عشر، لأحمد بن محمد بن البناء، تحقيق: شعبان محمد اسماعيل، عالم الكتب (بيروت)، مكتبة الكليات الأزهرية.
- أثر القراءات القرآنية في تطور الدرس النحوى، د. عفيف دمشقية، معهد الإنماء العربى، الطبعة الأولى، ١٩٧٨ م.
- الإحسان في تقریب صحيح ابن حبان، للأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨-١٤٠٨ هـ.
- الاختيار في القراءات-منشأه ومشروعه، د. عبد الفتاح اسماعيل شلبي، مركز بحوث الدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، ١٤١٧=١٩٩٦ م.
- الاستذكار الجامع لمذاهب فقهاء الأمصار، لابن عبد البر، تحقيق: عبد المعطي قلعي، دار قتبة، بيروت-دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٤ هـ.
- الأسس المعرفية والمنهجية للخطاب النحوي العربي، د. فؤاد بوعلی، عالم الكتب الحديث، إربد، الطبعة الأولى، ١٤٣٢=١١٢٠ م.
- الأشباه والنظائر في النحو، لجلال الدين السيوطي، تحقيق: د. عبدالعال سالم مكرم، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٦=١٩٨٥ م.
- أصول النحو العربي، د. محمد خير الحلولى، أفريقيا الشرق، المغرب، الطبعة الثانية، ٢٠١١ م.
- أصول النحو العربي، د. محمود أحمد نخلة، دار العلوم العربية، بيروت-لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٧=١٩٨٧ م.
- الأصول في النحو، لأبي بكر محمد بن سهل بن السراج، تحقيق: عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥=١٩٨٥ م.

- إعجاز القرآن، لأبي بكر الباقياني، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف، مصر، الطبعة الخامسة، ١٤٠٣ هـ.
- إعراب القراءات السبع، لأبي عبد الله الحسين بن أحمد بن خالوبيه، حققه وقدم له: د. عبد الرحمن بن سليمان العشيمين، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٣ هـ = ١٩٩٢ م.
- إعراب القراءات الشواذ، لأبي البقاء العكبي، دراسة وتحقيق: محمد السيد أحمد عزوز، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٧ هـ = ١٩٨٦ م.
- إعراب القرآن، لأبي جعفر أحمد النحاس، تحقيق: زهير زاهد، عالم الكتب، بيروت، مكتبة النهضة العربية، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٤٠٩ هـ = ١٩٨٨ م.
- الاقتراح في أصول النحو وجده، لعبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، دراسة وتحقيق: د. محمود فجال، الطبعة الأولى، ١٤٠٩ هـ = ١٩٨٩ م.
- الإيضاح في شرح المفصل، لأبي عمر عثمان بن أبي بكر المعروف بابن الحاجب، تحقيق: أ.د. إبراهيم محمد عبد الله، دار سعد الدين، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٢٥ هـ = ٢٠٠٥ م.
- البحث اللغوي عند العرب، د. أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، الطبعة السابعة، ١٩٩٧ م.
- البحار الحيط، لأبي حيان محمد بن يوسف الأندلسي، تحقيق: د. عبد الله بن عبد المحسن التركى، مركز هجر للبحوث والدراسات العربية والإسلامية، ١٤٣٦ هـ = ٢٠١٥ م.
- البرهان في علوم القرآن، لبدر الدين محمد الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩١ هـ = ١٩٧٢ م.
- بيان المختصر شرح مختصر ابن الحاجب، لأبي الثناء محمود بن عبد الرحمن الأصفهاني، تحقيق: د. محمد مظہر بقا، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى، الطبعة الأولى، ١٤٠٦ هـ = ١٩٨٦ م.
- تأویل مشکلة القرآن، لعبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، شرحه: أحمد صقر، المكتبة العلمية، بيروت.
- التحریر والتنویر، محمد الطاهر بن عاشور، دار سخنون، تونس، ١٩٩٧ م.

- التنليل والتكميل في شرح كتاب التسهيل، لأبي حيان الأندلسي، حرقه: حسن هنداوي، دار القلم، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨=١٩٩٧ م.
- التفاوت البلاغي بين آي القرآن، للكتور عبد الحسن العسكري، ضمن أعمال ندوة (مناهج البحث في بلاغة القرآن الكريم)، كلية اللغة العربية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٣٨=١٤١٦ م.
- التفكير اللساني في الحضارة العربية، د. عبد السلام المسدي، الدار العربية للكتاب، طرابلس، ١٩٨٦ م.
- التوطئة، لأبي علي الشلوبي، دراسة وتحقيق: يوسف أحمد المطوع، مطبع سجل العرب، ١٤٠١=١٩٨١ م.
- جامع البيان في القراءات السبع، لأبي عمرو الداني، تحقيق: محمد صدوق الجزائري، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٦=٢٠٠٥ م.
- جامع البيان في تفسير القرآن، ابن حجر الطبرى، تحقيق: أحمد محمد شاكر، محمود محمد شاكر، دار المعرف، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٧٢ م.
- حجة القراءات، لأبي زرعة عبد الرحمن بن محمد بن زنجلة، تحقيق: سعيد الأفغاني، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٤١٨=١٩٩٧ م.
- الحجة في القراءات السبع، لابن خالويه، تحقيق وشرح: د. عبد العال سالم مكرم، مؤسسة الرسالة، الطبعة الخامسة، ١٤١٤=١٩٩٩ م.
- الحجة للقراء السبعة، لأبي علي الحسن بن عبد الغفار الفارسي، تحقيق: بدر الدين فهوجي، بشير جوبياتي، دار المأمون للتراث، دمشق-بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٤=١٩٨٤ م.
- حديث الأحرف السبعة، د. عبد العزيز بن عبد الفتاح قارئ، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٣=٢٠٠٢ م.
- الحيوان، لأبي عثمان الجاحظ، تحقيق: د. عبد السلام محمد هارون، دار الجليل، بيروت، ١٤١٦=١٩٩٦ م.
- المخصائص، لأبي الفتح عثمان بن جني، تحقيق: محمد النجار، دار الكتاب العربي، بيروت.

- الدر المصنون في علوم الكتاب المكونون، للسمين الحلبي، تحقيق: أحمد الخراط، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٦ هـ=١٩٨٦ م.
- الدلالة والتقييد النحوي، دراسة في فكر سيبويه، د. محمد سالم صالح، دار غريب، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦ م.
- رسم المصحف—دراسة لغوية، د. غانم قدوري الحمد، اللجنة الوطنية ببغداد، الطبعة الأولى، ١٤٠٢ هـ=١٩٨٢ م.
- السبعة في القراءات، لابن مجاهد، تحقيق: د. شوقي ضيف، دار المعارف، الطبعة الثالثة.
- سر الفصاحة، لابن سنان الحفاجي، تحقيق: علي فوده، مكتبة المخنخي، الطبعة الثانية، ١٤١٤ هـ.
- سنن ابن ماجه، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، فيصل عيسى البابي الحلبي.
- سنن أبي داود، لسليمان بن الأشعث الأزدي السجستاني، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا—بيروت.
- سنن الترمذى، تحقيق: أحمد محمد شاكر وغيره، مصطفى البابي الحلبي، الطبعة الثانية، ١٣٩٥ هـ=١٩٧٨ م.
- السنن الكبرى، لأحمد بن شعيب النسائي، تحقيق: حسن عبد المنعم شلبي، إشراف: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١ هـ=٢٠٠١ م.
- شرح التسهيل، لابن مالك الأندلسي، تحقيق: د. عبد الرحمن السيد، د. محمد بدوي المختون، هجر للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، ١٤١٠ هـ=١٩٩٠ م.
- شرح الرضي لكافية ابن الحاجب، لرضي الدين الاستراباذى، تحقيق: د. حسن بن محمد الحفظي، د. يحيى بشير مصرى، مطبوعات جامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٧ هـ=١٩٩٦ م.
- شرح الكافية الشافية، لجمال الدين محمد بن عبد الله بن مالك، حققه وقدم له: د. عبد المنعم أحمد هريدي، دار المأمون للتراث، الطبعة الأولى، ١٤٠٢ هـ=١٩٨٢ م.

- شرح الكوكب المنير، محمد بن أحمد الفتوحي الحنبلي المعروف بابن النجار، تحقيق: د. محمد الرحيلي ود. نزيه حماد، مكتبة العبيكان، الرياض، ١٤١٨هـ = ١٩٩٧م.
- شرح المفصل، موفق الدين بن يعيش النحوي، تحقيق: د. عبد اللطيف بن محمد الخطيب، دار العروبة، الطبعة الأولى، ١٤٣٥هـ = ٢٠١٤م.
- شرح المقدمة المحسبة، طاهر بن أحمد بن بابشاذ، تحقيق: د. خالد عبد الكريم، المطبعة العصرية، الكويت، الطبعة الأولى، ١٩٧٧م.
- صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشريكاه، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ = ١٩٩١م.
- ضوابط الفكر النحوي، د. محمد عبد الفتاح الخطيب، دار البصائر، القاهرة، ٢٠٠٦م.
- طبقات النحويين واللغويين، لأبي بكر محمد بن الحسن الزبيدي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، الطبعة الثانية.
- فتاوى ابن تيمية، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مكتبة ابن تيمية للطباعة.
- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، إشراف: عبد العزيز بن عبد الله بن باز، ومحمد فؤاد عبد الباقي، محب الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت.
- الفصيح، لأبي العباس ثعلب، تحقيق ودراسة: د. عاطف مذكر، دار المعارف، القاهرة.
- في أدلة النحو، د. عفاف حسنين، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م.
- في أصول النحو العربي، د. السعيد شنوفة، المكتبة الأزهرية للتراث، الجزيرة للنشر، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨م.
- في أصول النحو، سعيد الأفغاني، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٧هـ = ١٩٨٧م.
- فيض نشر الانسراح من روض طي الاقتراح، محمد بن الطيب الفاسي، تحقيق وشرح: أ. د. محمود يوسف فجال، دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث الإمارات العربية المتحدة، دبي، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ = ٢٠٠١م.
- القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث، د. عبد الصبور شاهين، القاهرة، ١٩٦٦م.
- القراءات وأثرها في التفسير والاحكام، محمد بن عمر بازمول، دار الهجرة، الثقة (السعودية)، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ = ١٩٩٦م.

- قواعد الترجيح عند المفسرين، د. حسين بن علي الحربي، دار القاسم، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٧ هـ ١٩٩٦ م.
- قواعد نقد القراءات القرآنية—دراسة نظرية تطبيقية، د. عبد الباقى بن عبد الرحمن سيسى، دار كنوز إشبيليا، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٣٠ هـ ٢٠٠٩ م.
- الكامل، لأبي العباس المبرد، تحقيق: د. محمد أحمد الدالى، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٣ هـ ١٩٩٣ م.
- كتاب سيبويه، تحقيق: د. عبد السلام محمد هارون، دار الجليل، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١ هـ ١٩٩١ م.
- الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها، لمكي بن أبي طالب القىسى، تحقيق: د. محى الدين رمضان، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٧ هـ ١٩٨٧ م.
- الكليات، أبوبقاء الكفووي، إشراف: د. عدنان درويش، محمد المصري، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤١٣ هـ ١٩٩٢ م.
- اللسانيات وأسسها المعرفية، د. عبد السلام المسدي، الدار التونسية للنشر، والمؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٦ م.
- لطائف الإشارات، لشهاب الدين القسطلاني، تحقيق: عامر السيد وصاحبها، لجنة إحياء التراث، ١٣٩٢ هـ.
- اللغة العربية بين المعيارية والوصفية، د. تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، الطبعة الرابعة، ١٤٢١ هـ ٢٠٠١ م.
- لمع الأدلة في أصول النحو، لأبي البركات الأبنارى، تحقيق: سعيد الأفغاني، دار الفكر.
- اللهجات العربية في القراءات القرآنية، د. عبد الرحيم، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٨ م.
- مباحث تأسيسية في اللسانيات، د. عبد السلام المسدي، دار الكتاب الجديد المتحدة، طرابلس—ليبيا، الطبعة الأولى، ٢٠١٠ م.
- مجاز القرآن، لأبي عبيدة معمر بن المثنى، تحقيق: د. محمد فؤاد سرکین، مكتبة الماخنچي، القاهرة.

- مجالس ثعلب، أحمد بن يحيى، شرح وتحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار المعارف، مصر، الطبعة الخامسة.
- مجمع الروايد ونبع الفوائد، علي بن أبي بكر الميشي، تحقيق: حسام الدين القدسي، مكتبة القدسي، القاهرة، ١٤١٤هـ = ١٩٩٤م.
- المختسب في تبيين وجوه شواد القراءات والإيضاح عنها، لأبي الفتح عثمان بن جني، تحقق: علي النجدي ناصف وعبد الحليم النجار وعبد الفتاح إسماعيل شلبي، لجنة إحياء كتب السنة، وزارة الأوقاف، مصر، ١٤١٥هـ = ١٩٩٤م.
- مختصر في شواد القرآن من كتاب البديع، لابن خالويه، عني بنشره: ج. برجشتراسر، المطبعة الرحمنية بمصر، الطبعة الأولى، ١٣٥٣هـ = ١٩٣٤م، سلسلة النشرات الإسلامية-٧.
- المدخل إلى علم القراءات، د. عبد القيوم بن عبد الغفور السندي، معهد الإمام الشاطبي، جدة، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ = ٢٠١٨م.
- المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز، شهاب الدين أبو شامة، تحقيق: طيار آلتى فولادج، دار صادر، بيروت، ١٣٩٥هـ.
- مسنند أحمد، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وعادل مرشد، وآخرون، إشراف: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ = ٢٠٠١م.
- مصنف ابن أبي شيبة، تحقيق: كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.
- معاني الأحرف السبعة، لأبي الفضل عبد الرحمن بن أحمد الرازى، تحقيق: د. حسن ضياء الدين عتر، دار التوادر، الطبعة الأولى، ١٤٣٣هـ.
- معاني القرآن للكسائي، جمع وتعليق: د. عيسى شحاته عيسى، دار قباء، القاهرة.
- معاني القرآن وإعرابه، لأبي إسحاق إبراهيم بن السري الزجاج، شرح وتحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، دار الحديث، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ = ١٩٩٤م.
- معاني القرآن، لأبي زكريا يحيى بن زياد الفراء، تحقيق: أحمد يوسف نجاتي، محمد علي النجار، دار السرور، بيروت.

- معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار، محمد بن أحمد النهي، تحقيق: د. بشار عواد وآخرين، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ٤٠٤ هـ.
- المغني في الفقه، لأبي محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة، تحقيق: د. عبد الله بن عبد المحسن التركى ود. عبد الفتاح محمد الحلو، هجر للطباعة، الطبعة الثانية، ١٤١٣ هـ = ١٩٩٢ م.
- مقالات في علوم القرآن وأصول التفسير، د. مساعد بن سليمان الطيار، مركز تفسير للدراسات القرآنية، الطبعة الأولى، ٤٣٦ هـ = ٢٠١٥ م.
- مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس، تحقيق وضبط: د. عبد السلام محمد هارون، دار الجليل، بيروت، ٤٢٠ هـ = ١٩٩٩ م.
- المقتضب، لأبي العباس المبرد، تحقيق: د. محمد عبد الخالق عصيمة، دار الكتاب اللبناني، ١٣٩٩ هـ.
- مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، تحقيق: عبد السلام الشدادي، بيت الفنون والعلوم والآداب، الدار البيضاء، ٢٠٠٥ م.
- منجد المقرئين ومرشد الطالبين، لحمد بن محمد بن الجزري، تحقيق: علي بن محمد العمران، دار عالم الفوائد، الطبعة الأولى، ٤١٩ هـ.
- منزلة المعنى في نظرية النحو العربي، د. لطيفة إبراهيم التجار، دار العالم العربي، دبي، ٢٠٠٣ م.
- منهج سيبويه في الاحتجاج بالقراءات ولها، د. إدريس مقبول، عالم الكتب الحديث، إربد، الطبعة الأولى، ٤٣١ هـ = ٢٠١٠ م.
- مواقف النحاة من القراءات القرآنية حتى نهاية القرن الرابع الهجري، د. شعبان صلاح، دار غريب، القاهرة، ٢٠٠٥ م.
- موطأ مالك، تصحيح وتعليق: محمد فؤاد عبد الباقي، المكتبة الفيصلية، مكة المكرمة.
- النحو العربي والدرس الحديث-بحث في المنهج، د. عبده الراجحي، دار النهضة العربية، بيروت، ٤٠٦ هـ = ١٩٨٦ م.
- الشر في القراءات العشر، لأبي الحسن محمد بن محمد الشهير بابن الجزري، بإشراف: علي محمد الضباع، دار الكتب العلمية، بيروت.

-
-

الواضح في أصول الفقه، لأبي الوفاء ابن عقيل، تحقيق: د. عبد الله التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٠ هـ.

ياقوتة الصراط في تفسير غريب القرآن، لأبي عمر محمد بن عبد الواحد البغدادي الزاهد المعروف بغلام ثعلب، تحقيق: د. محمد بن يعقوب التركستانى، مكتبة العلوم والحكم، المدينة، الطبعة الأولى، ١٤٢٣ هـ ٢٠٠٢ م.

تحقيق ابن هشام الانصاري نصّ الفية ابن مالك
عرض ودراسة

د. جابر بن عبدالله بن سريع السريع
قسم العلوم الإدارية والإنسانية – كلية المجتمع ببريدة
جامعة القصيم

تحقيق ابن هشام الأنصاري نصًّا ألفية ابن مالك "عرض ودراسة"

د. جابر بن عبدالله بن سريعة السريع

قسم العلوم الإدارية والإنسانية – كلية المجتمع ببريدة
جامعة القصيم

تاریخ قبول البحث: ١٤٤٢ / ٦ / ٣٠ هـ

ملخص الدراسة:

كان ابن هشام الأنصاري (ت ٧٦١ هـ) -أحد أبرز علماء اللغة في القرن الثامن- جهودًّا متنوعة في تحقيق نصيّ الألفية لابن مالك (ت ٦٧٢ هـ)، مثل: تحرير نصّها إن كان فيه إشكال، والنظر في اختلاف سُسخها؛ للوصول إلى العبارة الصحيحة، وضبط ما يُشكّل من أفالظها على مقتضى مراد مؤلفها، وهذه الجهود المتنوعة ينتظمُها علم تحقيق النصوص الحديث في عناصر عدّة، مثل: جمع النسخ، وقراءة النص، وضبطه، والتعليق على مشكله.

وقد أبرز البحث هذه الجهود المتنوعة في ثلاثة مباحث وختمة: الأول: كتابة النص. فيه التعريف بنسخة الألفية التي كتبها ابن هشام بخطه، وبيان أصلها، وأبرز محسنهما، وذكر بعض المآخذ عليها. الثاني: معارضة النص. فيه معارضه ابن هشام نصًّا الألفية بنسخة أو أكثر، وبيان مسالكه في الترجيح بين النسخ، وأسباب ترجيحاته بينها. الثالث: ضبط النص. فيه إشكال ضبط النصّ عند ابن هشام، والأمور العلمية التي استند إليها في ضبطه، ومسالكه في ضبط ما تعددت أوجهه. الخاتمة. فيها أهم النتائج التي وصل إليها البحث.

الكلمات المفتاحية: ابن هشام الأنصاري - ألفية ابن مالك - تحقيق النصوص

Ibn Hisham Al-Ansari's Verification of the Text of Al-Alfiyah by Ibn Malik "Presentation and Study"

Dr. Jābir bin Abdillah bin Surayyi¹ As-Surayyi²

Department of Administrative and Human Sciences - Community College in Buraidah

QassimUniversity

Abstract:

The research highlighted these various efforts in three chapters and a conclusion: First: Writing the text. It includes the introduction to the copy of the Alfiyyah that Ibn Hisham wrote with his handwriting, explains its origin, highlights its merits, and mentions some observations on it. Second: Comparing the text. It includes Ibn Hisham comparison of the text of the Alfiyyah with one or more copies, his methods of weighting between copies, and the reasons for his preponderance between them. Third: Adjusting the text. It contains the forms of vowelizing the text according to Ibn Hisham, the scientific matters on which he relied in vowelizing it, and his paths in vowelizing what has many aspects. The conclusion contains the most important findings of the research.

key words: Ibn Hisham Al-Ansari - Alfiyyah Ibn Malik - Textual verification

المقدمة

الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، والصلة والسلام على أكرم خلقه محمد بن عبد الله، وعلى آله وأصحابه والتابعين بإحسان، وبعد:

عُرف ابنُ هشام الأنباري (٧٦١-٧٠٨هـ) نحوًى بارعًا، وأسهب العلماء قديمًا وحديثًا في إبراز معارفه ودراستها، وقد بدا لي في جملة جهوده العلمية المتکاثرة أشياء لم أر من عرَّج عليها من قبل، وأراها حريَّة بالدرس والبحث، وهي جهوده المتصلة بتحقيق نصوص الكتب المتداولة بين العلماء، خاصةً المتون والمقدمات والمحضرات الجامعة لأطراف العلم، التي يقرؤها الطلاب على أشياخهم، ثم يقرئونها طلبتهم من بعد، فتطول صحبتهم إياها، وتحتاج عبارُّها إلى تحقيق وتحقيق؛ لتحرير نصِّها إنْ كان فيه إشكال، والنظر في اختلاف نسخها؛ للوصول إلى العبارة الصحيحة، وضبط ما يُشكُّل من ألفاظها على مقتضى مراد مؤلفيها، وهذه الجهود المتنوعة ينتظمُها علم تحقيق النصوص الحديث في عناصر عدَّة، مثل: جمع النسخ، وقراءة النص، وضبطه، والتعليق على مشكله^(١).

وهذا الباب لم يختصَّ به ابن هشام وحده، بل شاركه فيه علماؤنا المتقدمون، وقد أَسْهَمَ فيه ابن هشام إسهامًا ملحوظًا، تجلَّى في حواشيه وتعليقاته على كتابي ابن مالك (ت ٦٧٢هـ): الألفية والتسهيل؛ وذلك لمزيد عنایته بحما، وكوِّنَهما الكتابين المتداولين بين الأشياخ والطلبة في زمانه، ومن

(١) ينظر: تحقيق النصوص ونشرها، لعبدالسلام هارون ص ٣٩، ٥٣، ٧٩، ٨١.

العلوم أن ابن هشام لم يكتب حول شيء من الكتب أكثر مما كتبه حول الألفية ثم التسهيل، فله على الألفية شرحان: مختصر مشهور، هو أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، ومطوّل مفقود، هو رفع الخصاصة عن قراء الخلاصة، وله عليها عدة حواشٍ، وُجِدَ منها اليوم أربعٌ، هي: نسخة مكتبة رئيس الكتاب بالرقم ١٠٣٩، ونسخة مكتبة يوسف آغا بالرقم ١٠٣٩٢، ونسخة مكتبة مجمع اللغة العربية بدمشق بالرقم ١٠٤١، والثلاث بخطه، الأولى متّا وحواشٍ، والأخرىان حواشٍ فقط، ونسخة المكتبة التيمورية بالرقم ١٨٧ نحو، وهي منقولة من خطه. وطريقته في كل واحدة منها هي كتابة تعليقات وفوائد في هوماش نسخةٍ من متن الألفية، فيذكر في كل حاشية منها ما لا يذكره في الأخرى، وله حواشٍ كذلك على شرح الألفية لابن الناظم (ت ٦٨٦ هـ)، وله شرح لشواهد، هو تخلص الشواهد وتلخيص الفوائد، إلا أنه لم يكمل. وعُنِيَ أَيْضًا بالتسهيل، فشرحه شرحاً مطوّلاً، هو التحصيل والتفصيل لكتاب التذليل والتكميل، وُجِدَ منه شرح خطبة الكتاب، وكتب عليه عدة حواشٍ، وُجِدَ منها اليوم اثنان، هما: نسخة مكتبة مراد ملا بالرقمين ١٦٥٨ و ١٦٥٩، وهي بخطه، ونسخة مكتبة بالكسير بالرقم ٦٦٨، وهي منقولة من خطه وخطٍ أحد تلاميذه، وغير تامة. وطريقته فيها كطريقته في حواشٍ الألفية^(١).

(١) ينظر: آثار ابن هشام الأنباري تصنیف واستدراك وتحقيق نسبة، جابر السریع ص ٤٤، ٤٧.

وتناول العلماء من بعده أشياء كثيرة من أعماله حول الألفية والتسهيل، لم يُوقف اليوم على أصوتها، وكان أكثرهم احتفاءً بها: ابن قديد الحنفي (ت ٨٥٦ هـ)، وخلال الأزهري (ت ٩٠٥ هـ)، والسيوطى (ت ٩١١ هـ)، وياسين العليمي (ت ١٠٦١ هـ)، فإنهم وقفوا على أكثرها بخطه^(١).

وفي هذه الأعمال العلمية تنوعت جهود ابن هشام في دراسة الألفية والتسهيل، فنراه فيها محققًا النصَّ، ومفسِّرًا ألفاظَ المتن تفسيرًا لغوياً يوضح المراد، وشارحًا المسائل المتصلة بالباب بتفصيلٍ أو إجمالٍ، ومستشهادًا لها بشواهد مسموعة، أو مثلاً لها بأمثلة توضِّحها، ومعترضًا العbaraَ أو مستدرِّغاً عليها، أو متصرِّفاً لها.

وقد اجتمع لدى جملةٍ صالحة للدرس من تحقيق ابن هشام نصَّ ألفية ابن مالك، أفادت فيه من نسخة الألفية التي كتبها ابن هشام بخطه، ومن حواشيه عليها وعلى غيرها، ومن كتابه أوضح المسالك، وما نقله عنه العلماء اللاحقون، فرأيت أن أعرض له بتفصيلٍ يجلّي أطرافه، ويوضح معالمه، وكان مما دعاني إلى دراسته:

١- إبراز جهود علمائنا الأوائل في تحقيق النصوص، وابن هشام مثالٌ صادق على ذلك.

٢- بيان أثر الاعتماد على خطوط العلماء في ضبط النصوص، وتحرير محتوى الخلاف فيها.

(١) ينظر: السابق ص ٤٩.

٣- إظهار طريقة ابن هشام في تحقيق النصوص، والمعارف التي استعملها لذلك.

ولم أر من تعَرَّض لتحقيق ابن هشام نصًّا الألفية غير الدكتور سليمان بن عبدالعزيز العُيُونِي، فإنه -وفقه الله وبارك في علمه- نَهَى إلى تحقيق متن الألفية، وانتخب لها أعلى النسخ التي وقف عليها قيمةً، وأرفعها قدرًا، فاعتمد نسخة الألفية التي كتبها ابن هشام، فجعلها أول نسخ تحقيقها، ورمز لها بالحرف (أ)^(١)، وهو بسبِقِ حائزٍ تفضيلاً، وقد انتفعت بعمله كثيراً، واستفدت من دراسته وحواشيه، لكنِّي أرى بين عملينا فروقاً من جهات:

١- كان غرضه تحقيق متن الألفية على نسخها العالية، فاستفاد من نسخة ابن هشام ضمن نسخ التحقيق، ولم يكن معنِّياً بجهود ابن هشام خاصةً، كما هي غاية دراستي هذه.

٢- اقتصر فيما يتصل بجهود ابن هشام حول نص الألفية على الإشارة إليها دون دراستها دراسةً مفصَّلةً، وقد فصلتُ في دراستي هذه آراء ابن هشام ما استطعت، وذكرت عللها، وأشارت إلى تعدد رأيه أحياناً في المسألة الواحدة.

٣- جاء وصفه نسخة ابن هشام مختصرًا في بضعة أسطر ضمن وصف نسخ التحقيق، ولم يفصل القول في ذكر أصلها، ومراحل كتابتها، وطريقة ابن

(١) ينظر: مقدمة تحقيق الألفية ص ٤٥، ٤٦.

هشام فيها، ومحاسنها، والآخذ عليها، وما فيها لغير ابن هشام، ورجح أن بعض العلماء نقل منها، وهو ما خالفته فيه؛ لأدلة ذكرها.

٤- نقلَ من حواشِي نسخة ابن هشام ومن غيرها ما يتصل بتحقيقه نصًّا الألفية في عشرين موضعًا، ثلاثة منها تتعلق بالضبط، وباقيتها إشارات إلى نسخ أخرى، وزدتُ على ما ذكره من حواشِي نسخة ابن هشام وحدها اثنين وعشرين موضعًا، ومن غيرها خمسة عشر موضعًا، متنوعةً بين معارضته النص وضبطه.

٥- ذكر في حواشِيه فرقَ ما بين نسخة ابن هشام والنسخ العالية الأخرى، حتى أوهام ابن هشام، واستدركت عليه ثلاثة وخمسين موضعًا فاته التبيه عليها.

وقد سرت في بحثي على المنهج الاستقرائي الوصفي، ورأيت أن يكون في ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: كتابة النص. وفيه ثلاثة مطالب:

الأول: التعريف بنسخة الألفية التي كتبها ابن هشام بخطه، وبيان أصلها.

الثاني: الفرق بينها وبين نسخ الألفية العالية الأخرى.

الثالث: قيمتها العلمية.

المبحث الثاني: معارضته النص. وفيه ثلاثة مطالب:

الأول: معارضته ابن هشام نصًّا الألفية بنسخة أو أكثر.

الثاني: مسالكه في الترجيح بين النسخ.

الثالث: أسباب ترجيحاته بين النسخ.

المبحث الثالث: ضبط النص. وفيه ثلاثة مطالب:

الأول: أشكال ضبط النص عند ابن هشام.

الثاني: الأمور العلمية التي استند إليها في ضبطه.

الثالث: مسالكه في ضبط ما تعددت أوجهه.

ثم ختمت بذكر أهم ما وصلت إليه في بحثي، وأسائل الله التوفيق والإعانة
والسداد، إنه سميع عاليم.

المبحث الأول: كتابة النص.

أخذت الألفية عن ابن مالك روايةً وسماعاً وإجازةً، وحملها عنه تلاميذه، وأدّوها إلى من بعدهم، وكان له في أثناء ذلك اجتهادات جديدة في صياغة العبارات، توحّياً للأقرب والأدق^(١)، فكان للألفية عدة روایات، فكلُّ آخذٍ لها يثبت رأي ناظمها حالَ الأخذ عنه، أو ينسخها من نسخة قد كتبها صاحبها على ما أقرَّه ناظمها أخيراً.

وعلى أن نسخ الألفية اليوم قد كثرت وتعددت فإن النسخ العالية منها وهي النسخ التي تقدّم زمان نسخها، أو كتبت بخط عالمٍ نحوِيٍّ، أو عليها إجازة من عالمٍ نحوِيٍّ أو خطُّه، أو نُقلت من نسخة عاليةٍ - قليلةٍ، ولم يُعرف منها اليوم إلا بضع نسخ، أما النسخ التامةُ العلوِيُّ - وهي التي بخط ابن مالك، أو بخط أحد تلاميذه وعليها إجازته، أو مقروءةٌ عليه ومصححة، أو معارضةٌ بنسخته - فلم يُعرف اليوم منها شيء^(٢).

(١) ينظر: سيرة ألفية ابن مالك تأليفاً وإبرازاً وتحقيقاً، سليمان العيوني ص ١٩٨، ١٩٩، ومقدمة تحقيق الألفية ص ٣٩، ٤٠.

(٢) ينظر: مقدمة تحقيق الألفية ص ٦، ٧، ٤٥.

المطلب الأول: التعريف بنسخة الألفية التي كتبها ابن هشام بخطه، وبيان أصلها.

ما بقي لنا اليوم من نسخ الألفية العالية نسخة كتبها ابن هشام لنفسه في أول حياته العلمية، أعنّها وعمره أربعة وعشرون عاماً، إذ جاء في آخرها: «نَحَرَّتِ الْخَلَاصَةُ بِحَمْدِ اللَّهِ تَعَالَى وَعَوْنَهُ عَلَى يَدِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ يُوسُفِ بْنِ هَشَامٍ عَفَا اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ فِي شَهْرِ رَبِيعِ الْأَوَّلِ مِنْ سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَثَلَاثِينَ وَسَبْعِمَائَةٍ»^(١)، وهي محفوظة في مجموعة رئيس الكتاب ضمن المكتبة السليمانية في إسطنبول بتركيا بالرقم ١٠٣٩.

وتقع في اثنين وأربعين ورقة مخطوطة، وثلاثة عشر سطراً في المتوسط لكل وجه من وجهي الورقة، بخط نسخي، ومتّن الألفية مكتوب بالحبر الأسود، وعناوين أبواب الألفية مكتوبة بخط أكبر قليلاً، بعضها بالحبر الأحمر، وبعضها بالحبر الأسود.

وتبيّن لي من دراستها أن ابن هشام بدأ أولاً بكتابة متن الألفية ثم كتابة عناوين أبوابها، بنفّطٍ متوسط، وضبّطٍ قليل، ثم أخذ يتعاهمدها بعد ذلك شيئاً فشيئاً بالنّفّط والضبّط والتعليق.

وجاء ضبطه للألفية متفاوتاً بين الضبط المتوسط والضبط المختار لبعض الألفاظ، وفي موضع قليلة يكاد الضبط يكون تاماً، وجاء بعضه بالحبر الأحمر، وهو الغالب على ضبط أول الألفية إلى آخر باب إعمال اسم

(١) حواشى الألفية (رئيس الكتاب) ٤٢ / ب.

الفاعل، مع ترك أبواب "كان" وأخواتها، و"إن" وأخواتها، وما بينهما، وأبواب الاستثناء، والحال، والإضافة دون ضبط، ولم أدرك سبب ذلك، وبعضه بالحبر الأسود أو الأسود الباهت، وهو الغالب على ما بقي من أبواب، وهو أقل من سابقه.

وكتب ابن هشام تعليقاته على أبيات الألفية في حواشى المتن، يمين الورقة ويسارها، وأعلاها وأسفلها، وبين الأبيات، وفي قصاصاتٍ أوراقٍ ملحقةٍ بين الأوراق الأصلية، وعلى ورقة العنوان، وفي ورقتين مستقلتين في آخر النسخة، بالحبر الأسود والأسود الباهت غالباً، وبالحبر الأحمر أحياناً.

وجاءت تعليقاته في مدد متفاوتة، بدليل تباين خطوطها بين المتأني والمستعجل، وعدم انتظام كتابتها في اتجاه واحد من الورقة، واضطراره إلى تفريق بعضها في موضعين؛ لضيق المكان وامتناعه.

ودليل تأثيرٍ تعليقاته عن كتابة الأبيات ثم عن عناوين الأبواب أنه المنقاد لطبيعة الكتب، إذ يكتب المتن قبل التعليق عليه، وأن ابن هشام تحاشى في تعليقاته الكتابة على جميع الأبيات وعناوين الأبواب؛ لأنها مكتوبة من قبل، إلا أني رأيته كتب عنواينٍ بابيٍّ "الاشتغال" و"التمييز" بعد كتابته تعليقاتٍ مكانهما، فاضطر لشطر الكلمة الواحدة منهما شطرين^(١)، فربما كانوا ما علّق في مكانهما قبل كتابتهما.

(١) حواشى الألفية (رئيس الكتاب) ١١/ب، ١٦/أ.

وأرجح أن ما كتبه في النسخة بالحبر الأحمر ضبطاً وتعليقًا -سوى عناوين الأبواب؛ فإن حمرتها مختلفة- متأخرٌ عن غيره؛ لأمور :

الأول: أن التعليقات المكتوبة به جاءت أقلَّ، وفي أماكن ضيقة ومحصورة، وذلك بعد امتلاء الورقة بالتعليقات الأخرى المكتوبة بغيره.

الثاني: أن ابن هشام صَحَّحَ به تعليقاتٍ مكتوبةً بغيره، إما بالضرب على العبارة، أو تصحيح الخطأ، أو إلحاقي الساقط، أو تتميم الناقص، وأعاد به الكتابة على جزء من عناوين أبواب الألفية، وعلى بعض كلمات التعليقات؛ إظهاراً لكونها أول التعليق، أو كونها فاصلةً في سياقها، من مثل الكلمات: "قوله" و"قال" ، و"أحدها" و"الثاني" ...

الثالث: أن ابن هشام كتب به في بعض الأماكن فوق كلماتٍ مكتوبةٍ بغيره، وفرق في أماكن أخرى الكلمة المكتوبة به شطرين؛ تفادياً للمكتوب بغيره.

وإن صَحَّ ذلك ترجح أمران:

الأول: أن ابن هشام قد أعاد قراءة نسخته، وأعمل فيها قلم التصحيح.

الثاني: أن ضبط الأبيات بالحبر الأحمر الذي سار عليه ابن هشام في أول الألفية ثم تركه كان متأخراً، ويدل على تأخره أيضاً: أنه كتب فتحة فاء "تُفَدْ" في آخر البيت ٣٦٢ بالحمرة فوق مَدَّة جيم كلمة "جرير" من التعليق الذي في يسار الورقة^(١).

(١) حواشى الألفية (رئيس الكتاب) ١٦ / أ.

ولم أقف في هذه النسخة على أثرٍ لغير ابن هشام إلا في موضعين كُتبا في
الحاشية بغير خطه، أحدهما: استدراك البيت ٦٩٤ الذي أسقطه ابن هشام،
والآخر: إشارة إلى نسخة أخرى في البيت (٧٩١).^(١)

ولم أقف على ما يقطع بأن أحداً من شراح الألفية أو المعتبرين بها اطلع
على هذه النسخة أو أفاد منها، لا في ضبط نص الألفية، ولا في النقل من
التعليقات المنتشرة على حواشيه.

أما الضبط الذي نسبه ياسين الغيماني^(٢) إلى خط ابن هشام في كلمتي
"ائمن" في البيت ٩٤٩، وأصل" في البيت ٩٦٨ فليس مراده هذه
النسخة، بدليل أن ابن هشام لم يضبط كلمة "ائمن" في نسخته هذه أصلاً،
وضبط فيها كلمة "أصل" مصححًا عليها بخلاف ما نسبه إليه ياسين^(٣)، وقد
وافق ياسين على الموضع الأول الصبّان (ت ١٢٠٦ هـ)^(٤)، وعلى الثاني ابن
سعيد التونسي (ت ١١٩٩ هـ)^(٥)، وابن حمدون (ت ١٣١٦ هـ)^(٦)، والظاهر
اعتمادهم عليه، بل صرّح الصبّان أنه لم يقف على ذلك، فقال: «كما نُقلَّ
عن خط ابن هشام».

(١) حواشي الألفية (رئيس الكتاب) ٣٠/٣٤، ٣٠/أ.

(٢) حاشية الألفية ٥٠٣/ب، ٥٠٤/أ، ٥١٠/ب، ٥١١/أ.

(٣) حواشي الألفية (رئيس الكتاب) ٤٠/ب، ٤١/أ.

(٤) حاشية شرح الأشموني ٤١٦/٤.

(٥) زواهر الكواكب ٣٠١/٢.

(٦) الفتح الودودي ٢٧٧/أ.

والأقرب أن إشارة ياسين الآنفة هي لإحدى نسختين من حواشى ابن هشام بجامش الألفية وقف عليهما بخطه^(١)، وأن المتن فيها أو في إحداها إما بخط ابن هشام، فيكون قد كتب نسخة أخرى من الألفية وحشّاها بالتعليقات، وإنما بغير خطه، والذي بخطه فيها هو الحواشى فقط، فيكون قد عَمَدَ إلى نسخة من الألفية مكتوبة من قبل، فحشّاها بالتعليقات، وضَبَطَ بخطه في متنها كلاماتٍ اقتضى المقام ضبطها، والله أعلم.

وأما ما جاء في حاشية إحدى نسخ شرح الألفية لابن الناظم^(٢) بغير خط الناسخ عند البيت ٥١٤ من أن ابن هشام ضبط كلمة "نعمت" فيه بالرفع فقد جاء ذلك موافقاً لضبط ابن هشام في نسخته هذه^(٣)، ولم أقف على ضبطٍ له في غيرها، فمن المحتمل أن يراد به هذه النسخة، وأن يراد به ما يحتمله كلام ياسين الآنف.

ومن المعروف أن الألفية قد حظيت منذ تأليفها بنسخ كثيرة، ومع ذلك لم يفصح ابن هشام عن النسخة التي نقل منها نسخته هذه، لكنه أشار في موضعين منها^(٤) إلى نسخة بهاء الدين بن النحاس (ت ٦٨٩ هـ) أحد

(١) حاشية الألفية ٢/١.

(٢) الورقة ١٢٢ أ/١ من نسخة جامعة الإمام بالرقم ٤٥٤٥، كما في تحقيق الألفية ص ١٣٣، ١٣٢.

(٣) حواشى الألفية (رئيس الكتاب) ٢٢/ب.

(٤) حواشى الألفية (رئيس الكتاب) ٣٢/٣٨، أ.

تلاميذ ابن مالك، ونقل عنه ياسين العليمي من حاشية أخرى أنه أفاد في موضع آخر من نسخة ابن النحاس^(١).

والظاهر أن ابن هشام لم ينقل نسخته كلّها من نسخة ابن النحاس، ولم يقابلها كلّها بها، وإنما عارض بها نسخته في مواضع معينة اقتضتها الحاجة، بدليل أنه صرّح في نسخته في ثاني الموضعين المشار إليهما بأنّ ما في نسخة ابن النحاس في هذا الموضع خطأ، وهو قد كتبه في نسخته على الصواب، فلو كان نقل نسخته من نسخة ابن النحاس لتبّعه على خطّه، ولظاهر أثر التصحيح في نسخته بعد أن تبيّن له الخطأ في نسخة ابن النحاس، والأمر على خلاف ذلك، ولو كان قابل نسخته كلّها بنسخة ابن النحاس لما بقيت الأوهام التي ستأتي الإشارة إليها في نسخته.

(١) حاشية الألفية ٥١٠/ب، ٥١١/أ.

المطلب الثاني: الفرق بينها وبين نسخ الألفية العالية الأخرى.

بموازنة نسخة ابن هشام بننسخ الألفية العالية الأخرى التي اعتمدتها محققها^(١) نجدها قد اتفقت معها في أمور عامة، أهمها:

١- ليس منها نسخة تامة *العلو*، فليس منها نسخة بخط ابن مالك، أو بخط

أحد تلاميذه وعليها إجازته، أو مقروءة عليه ومصححة، أو معارضة

بنسخته.

٢- التوافق في ترتيب الألفية، فإن النسخ متفقة على ترتيب واحد للأبواب

والفصوص، أما تسمية الباب الواحد فقد يقع فيها خلاف بين نسخة ابن

هشام والنسخ الأخرى.

٣- عدم ذكر الرواية التي اعتمد عليها في إثبات نص الألفية، فلم يذكر

واحد من نسخها إسناده إلى ابن مالك بالألفية، ولا سمي الأصل الذي

اعتمد عليه في كتابة نصها.

أما كون بعض النسخ تحمل إجازة من عالم نحوى يسندها إلى ابن مالك

فإن ذلك كان -فيما وقفت عليه- بعد كتابة النص في النسخة المجاز بها،

فالإجازة متوجهة إلى النص الموجود قبلها، وهذا لا يعني أن ما في النسخة

مطابق تماماً لرواية المجيز، فقد يوجد في روايته ما يخالف المثبت في النسخة،

وهم يتسامحون في مثل هذا. ومن ذلك: أن نسخة الألفية المحفوظة في مكتبة

عارف حكمت بالرقم ٤١٥/٨٠ عليها إجازة من أبي حيان الأندلسي (ت

(١) ينظر: مقدمة تحقيق الألفية ص ٤٥ - ٥٠.

٤٥٧٤ هـ)، مع أن نسخته من الألفية التي ضمّنها شرحه "منهج السالك" تختلفها في موضع كثيرة^(١).

٤- الإشارة إلى نسخ أخرى للألفية في موضع، وإجازة أكثر من وجه في الضبط في موضع.

وما جاءت فيه نسخة ابن هشام موافقةً النسخ الأخرى في نص الألفية متّناً وتبوياً أكثر مما خالفتها فيه، ويُتّضح ذلك بالنظر في هوماش تحقيق الألفية، ويندر أن تختلفها كلهما، والأكثر أن تختلف بعضًا وتوافق بعضًا، ويرجع أكثر هذه المخالفات إلى النسخة التي نقل منها ابن هشام نسخته، فيكون نصّها في هذه الموضع مبایناً للنسخ الأخرى، ويرجع بعضها إلى ابن هشام نفسه.

ولمخالفة نسخة ابن هشام النسخ الأخرى في نص الألفية وفي ضبطها صور، هي:

١- الزيادة. ومن ذلك: باب «الإخبار بالذى والألف واللام» كذا في النسخ، وفي نسخة ابن هشام: «وبالألف»^(٢). والبيت ٦٥: كذاك "خلتيني"، واتصالاً أختار، غيري اختار الانفصالا

(١) تقارن على الترتيب أبيات الألفية ٢٧، ١٢٢، ٧٠، ١٢٣، ١٣٠، ٣٣٣، ٣٣٩، ١٨٦-١٨٣، ٤١١، ٤٣٣، ٤٤٢، ٥٠٣ منهج السالك ص ٧، ٢٠، ٤١، ٤٧، ٤١، ٦٨-٨٠. ٤١٤، ١٨٩، ٢٧٢، ٢٩٧، ٣٣٢، ٣٤٢، ١٨٠.

(٢) الألفية ص ١٥٥، وحواشى الألفية (رئيس الكتاب) ٣١/٥١.

في النسخ: «خلتنيه»، وفي نسخة ابن هشام: «خلتنيه» و«خلتنيه»،
باليوجهين معًا^(١).

٢- النقص. ومن ذلك: باب «أسماء الأفعال والأصوات» كذا في النسخ،
وليس في نسخة ابن هشام: «والأصوات»^(٢). والبيت ٥٣٩:
ونحو "بِشَرٍ" تابع "البكري"
في بعض النسخ: «تابع» و«تابع»، باليوجهين معًا، وفي نسخة ابن هشام
بالجر فقط^(٣).

٣- الإبدال. ومن ذلك: البيت ٢٤٣:
فأوَّل الفعل اضممن، المتصل بالآخر أكسر في مضي ك"وصل"
في النسخ: «أكسر»، وفي نسخة ابن هشام: «اجعل»^(٤). والبيت ٥٦٦:
مطابقًا، أو بعضاً، او ما يشتمل عليه يلفى، أو كمعطوف بـ"بل"
في النسخ: «يَشَتمِل»، وفي نسخة ابن هشام: «يُشَتمِل»^(٥).

(١) الألفية ص ٧٨، وحواشى الألفية (رئيس الكتاب) ٤/أ.

(٢) الألفية ص ١٤٦، وحواشى الألفية (رئيس الكتاب) ٢٧/ب.

(٣) الألفية ص ١٣٥، وحواشى الألفية (رئيس الكتاب) ٢٣/ب.

(٤) الألفية ص ١٠٠، وحواشى الألفية (رئيس الكتاب) ١١/ب.

(٥) الألفية ص ١٣٩، وحواشى الألفية (رئيس الكتاب) ٢٥/أ. والميم فيها غير مضبوطة، وما ظنه
محقق الألفية كسرة على الميم هو فتحة الصاد من الكلمة "صاحب" المكتوبة بين السطرين في آخر
البيت التالي.

٤ - التقديم والتأخير. ومن ذلك: البيت ١٦٩ :

كـ"أنـشـأـ" السـائـقـ يـحدـوـ، كـ"ذـاـ" جـعـلـتـ، وـ"أـخـذـتـ"، وـ"عـلـقـ" في النـسـخـ: «ـجـعـلـتـ، وـ"أـخـذـتـ"»، وـفيـ نـسـخـةـ اـبـنـ هـشـامـ: «ـ"أـخـذـتـ"»، وـ"جـعـلـتـ"»^(١). وـالـبـيـتـ ٥٤٥ـ فـيـ النـسـخـ:

والفاءُ للترتيبِ باتصالٍ وَالْمُؤْمِنُ للترتيبِ بانفصالٍ وفي نسخة ابن هشام تقدّم الشطر الثاني على الأول^(٢). وأمثلة ذلك كثيرة، وهي منتشرة في هوامش تحقيق الألفية^(٣).

(١) الألفية ص ٩٢، وحواشي الألفية (رئيس الكتاب) ٨/أ.

(٢) الألفية ص ١٣٦، وحواشي الألفية (رئيس الكتاب) /٢٤٪.

المطلب الثالث: قيمتها العلمية.

لنسخة ابن هشام من بين نسخ الألفية مكانة علمية تميّزت بها، يوضّحها ما يلي:

١- كتابتها من قبّل عالم نحوي كبير، صرّفَ كثيّراً من حياته العلمية إلى دراسة الألفية وعني بها، شرحاً وتحشية، مدارسةً وتدريساً، وهذا يعطي النسخة قيمةً أكبرَ مما لو كتبها غيرُ عالم.

٢- تقدُّم كتابتها وقرّجها من عصر ابن مالك، إذ أتمَ ابن هشام كتابتها سنة ٧٣٢هـ كما سبق، وهذه الميزة لم توجد إلا في القليل من نسخ الألفية المعروفة اليوم^(١)، وكوّنَ النسخة قريّةً من عصر المؤلف يقدّمها على غيرها مما تأخر عنها ما لم يحمل مزيّةً أخرى^(٢).

٣- توفرُ ابن هشام عليها بالتصحيح والضبط والمقابلة بالنسخ الأخرى منذ إتمام كتابتها، وأمارَتُ ذلك باديّةً عليها، فإن ابن هشام صَحّحَ بعض ما كان سهّا في كتابته أو ضبطه، وضَبَطَ كثيّراً من الألفاظ التي تحتاج إلى ضبط، وربما زاد على الضبط تصحيحاً عليه، إشارةً إلى تصويبه على غيره، وأشار في مواضع إلى ما في النسخ الأخرى من عبارات مخالفة لما في نسخته.

(١) ينظر: سيرة ألفية ابن مالك تأليفاً وإبرازاً وتحقيقاً ص ١٤٤ ، ١٨٠.

(٢) ينظر: تحقيق النصوص ونشرها ص ٣٨.

٤- وفرة الحواشى التي كتبها ابن هشام عليها، وتنوع أغراضها، بين حواشٍ شارحة وضابطة ونقدة ومتّمة، مما يعزز القيمة العلمية لنص الألفية فيها؛ إذ حظي بمزيد عنايةٍ.

ومع ذلك فقد بدا لي بعض المآخذ على نسخة ابن هشام، أجملها فيما يأتي:

١- إغفال المصدر الذي نقل منه نص الألفية، والإشارة أحياناً إلى ما في نسخٍ أخرى للألفية دون ذكر أصولها.

٢- إهمال النّقط والضبط في كثير من ألفاظ الألفية، مع الحاجة أحياناً إليهما.

من ذلك: أن النسخ اتفقت في البيت ٨٥٩ على:
والألفَ الجائزَ أرجعاً أزلْ

وأهمل ابن هشام نقطة الجيم من: "الجائز"^(١)، فأوهم أن روایته بالحاء، مع أنه لم يبيّن ذلك بوضع علامة الإهمال عليها، واحتمل من عادته في إهمال النّقط أثما بالجيم كحقيقة النسخ.

واختلفت النسخ في البيتين ٣١٦ و٣١٧، ففي بعضها:
وبعد نفيٍ أو كنفيٍ انتخبْ
إتباعَ ما اتصل
وفي بعضها: «انتخب إتباع»، ولم يضبط ابن هشام أيّاً منهما^(١).

(١) الألفية ص ١٧١، وحواشى الألفية (رئيس الكتاب) ٣٧/٥.

٣- سقوط ثلاثة أبيات من أبيات الألفية، هي: البيت ٦٩٤
 وشدّ حذف "أنْ" ونَصَبٌ في ما مرّ، فاقيل منه ما عَدْلُ روى
 وهو ثابت في نسخ الألفية العالية كلها^(٢)، واستدرك في الحاشية بغير خط ابن
 هشام. والبيت ٧١٩:
 نحو: "الذِي ضربَتْ زَيْدًا فَذَا ضربَتْ زَيْدًا" كان، فاَدْرِ المَأْخِذَا
 وهو ثابت في نسخ الألفية العالية كلها^(٣). والبيت ٨٦٠:
 والحدف في اليا رابعًا أحق من قلبٍ، وحتم قلب ثالثٍ يعنٌ
 وهو ثابت في نسخ الألفية العالية كلها^(٤).
 أما البيت ٨٩٧:
 ووصل ذي الهاء أجزٌ بكلٍّ ما حُرِّكَ تحرِيكَ بناءٍ لزما
 فلعل سقوطه من نسخة ابن هشام كان من قبيل الرواية لا السهو، فقد
 اختلفت نسخ الألفية في إثباته وحذفه^(٥).
 وكان ابن هشام قد أسقط سهواً أبياتاً، ثم استدركها في الحواشى وبين
 الأبيات، هي الأبيات ٣٥ و١٤٣ و٣٢٦ مع صدر ٣٢٧ و٦٣٣ و٦٣٥ و٦٧٨ و٨١٦ و٨٠٨ و٨٨٤ و٩٧٥^(٦).

(١) الألفية ص ١٠٩، وحواشى الألفية (رئيس الكتاب) ١٤/ب.

(٢) الألفية ص ١٥٣، وحواشى الألفية (رئيس الكتاب) ١٥/أ.

(٣) الألفية ص ١٥٦، وحواشى الألفية (رئيس الكتاب) ١٥/أ.

(٤) الألفية ص ١٧١، وحواشى الألفية (رئيس الكتاب) ١٧/أ.

(٥) الألفية ص ١٧٤، وحواشى الألفية (رئيس الكتاب) ١٨/أ.

٤- مخالفة نسخ الألفية في بعض المواقع مخالفةً لا تحتمل أن تكون روايةً بل سهواً، إما في نص الألفية، أو في ضبطها. فمن الأول: ما في البيت ٣١٩، إذ اتفقت النسخ على:

وإن يفرغ سابق "إلا" لما بعد يكن كما لو "الا" عدماً
وفي نسخة ابن هشام: «لما قبل»^(٢). وهو وهم؛ لمخالفة المعنى والحكم.
وفي البيت ٣٨٨ اتفقت النسخ على:

وإن يُشَابِهِ المضافُ "يَفْعَلُ" وصفاً فعْنَ تنكيره لا يُعَزِّلُ
وفي نسخة ابن هشام: «فعن تعريفه»^(٣). وهو وهم؛ كسابقه.
وفي البيت ٥٢٥ اتفقت النسخ على:

ودون "كُلٍّ" قد يحييء "أجمع" "جماعٌ" "أجمعون" ثم "جُمُعٌ"
وفي نسخة ابن هشام: «أجمعين»^(٤). وهو وهم؛ لمخالفة الإعراب، ولعله انتقال نظر إلى البيت قبله:

وبعد "كُلٍّ" أَكَدُوا بـ"أَجْمَعًا" "جماعٌ" "أجمعين" ثم "جُمُعًا"
وفي البيت ٧٣١ اتفقت النسخ على:
ومع غير "أَحَدٍ" وـ"إِحْدَى"

(١) حواشى الألفية (رئيس الكتاب) ٢/ب، ٧/أ، ١٥/أ، ٢٧/ب، ٢٨/أ، ٢٩/ب، ٣٥/أ، ٣٧/ب، ٤١/ب.

(٢) الألفية ص ١١٠، وحواشى الألفية (رئيس الكتاب) ١٤/ب.

(٣) الألفية ص ١١٧، وحواشى الألفية (رئيس الكتاب) ١٧/ب.

(٤) الألفية ص ١٣٤، وحواشى الألفية (رئيس الكتاب) ٢٣/أ.

وفي نسخة ابن هشام:

ومع غير "واحدٍ" و"إحدى"^(١)

وهو وهم؛ لأن المراد مذكُور "إحدى"، لا "واحدة"، ووُجِدَتُ في نسخة من الألفية عالية لم يعتمدتها محققُها - كُتُبَتْ سنة ٧١٩هـ، وعليها إجازة من أبي حيَان سنة ٧٢٠هـ - مثل ما في نسخة ابن هشام هنا، لكنه صُحِّحَ ليُوافِقَ ما في النسخ الأخرى^(٢)، فِيمَا كان مصدُرُ النسختين واحداً، ولم يُسْتَدِرَكَ ابن هشام ما في نسخته سهواً.

وفي البيت ٨١٥ اتفقت النسخ على:

في "فَعْلٍ" اسمًا مطلق الفاء، له، ولـ"الْفَعَالِ" "فِعْلَانٌ" حَصَلَ وفي نسخة ابن هشام: «فِعْلَانٌ شَمِلٌ»^(٣)، وصَحَّحَ عَلَى: "شَمِلٌ" ، وأشار في الحاشية إلى أنه في نسخة: "حَصَلٌ" ، ورَجَحَها على ما أثبَتَه في المتن. وهو وهم، وانتقال نظرٍ إلى البيت ٨١٧ الآتي، إذ آخره: «فِعْلَانٌ شَمِلٌ» ، ولذا سقط عليه البيتان ٨١٦ و٨١٧، فاستدركهما في الحاشية، ولم يبنِه على ما وقع له.

وفي البيت ٨٧٩ اتفقت النسخ على:

في نَسَبٍ أَغْنَى عَنِ الْيَا فَقِيلٌ

(١) الألفية ص ١٥٧ ، وحواشِي الألفية (رئيس الكتاب) ٣١/ب.

(٢) الخلاصة الأسدية ٢٦/أ.

(٣) الألفية ص ١٦٦ ، وحواشِي الألفية (رئيس الكتاب) ٣٥/أ.

وفي نسخة ابن هشام: «التا»^(١). وهو وهم؛ لأن المراد ياء النسب.

وفي البيت ٩٦١ اتفقت النسخ على:

وواوا إثٰر الصِّمِّ رُدَّ الْيَا مَتَى الْفَيَ لَامْ فَعْلٍ، او من قبل تا

وفي نسخة ابن هشام: «من قبل يا»^(٢). وهو وهم؛ لمخالفة الروي أولًا، والمراد

بالحكم ثانية؛ إذ المراد مبيّن في البيت التالي:

كتاء باٰنِ من "رمي" كـ "مَقْدُرَه"

وهي في نسخة ابن هشام: «كتاء» مصححًا عليها، وكأنّها كانت في نسخته: كياء، فطمس النقطتين من تحت، وأبدلها بالحمرة باثنين من فوق، ولم يصحح نظيرها في البيت السابق.

ومن مخالفة نسخة ابن هشام النسخ الأخرى في الضبط: ما في البيت

٥٦٩ إذ اتفقت النسخ على:

ومن ضمير الحاضر الظاهر لا

وفي نسخة ابن هشام: «الحاضر» بالنصب^(٣). وهو وهم؛ لمخالفته الإعراب.

وفي البيت ٦٩٣ اتفقت النسخ على:

وإن على اسٰمِ خالصٍ فِعْلٌ عُطْفٌ

وفي نسخة ابن هشام: «فِعْلًا»^(٤). وهو وهم؛ لمخالفة الإعراب.

(١) الألفية ص ١٧٣، وحواشى الألفية (رئيس الكتاب) ٣٧/ب.

(٢) الألفية ص ١٨٢، وحواشى الألفية (رئيس الكتاب) ٤١/أ.

(٣) الألفية ص ١٣٩، وحواشى الألفية (رئيس الكتاب) ٢٥/أ.

(٤) الألفية ص ١٥٣، وحواشى الألفية (رئيس الكتاب) ٣٠/أ.

وفي البيت ٧٥٦ اتفقت النسخ على:

وإن تَصل فلفظُ "مَنْ" لا يختلفُ

وفي نسخة ابن هشام: «فَلَفْظُ»، هكذا منّة^(١). وهو وهم؛ لمخالفة الإعراب، فالكلمة مضافة إلى "مَنْ" باعتبار لفظها.

في أشياءٍ أُخْرَ أشار إلى بعضها محقق الألفية^(٢)، وهي مخالفات لا تعدو أن تكون أوهاماً في النقل والضبط، لا في تحرير المسائل والآراء، وهي ترجع في نظري إلى السهو والنسيان الذي هو جيلٌ بشريّ، بسبب انتقال النظر إلى أبيات سابقة أو لاحقة، أو انتقال الذهن إلى ألفاظ أخرى تشبهها في الصياغة أو المعنى، أو سبق القلم بكتابٍ غير المراد، أو الاعتماد على الحفظ، أو عدم استجماع الفكر لحظة كتابة النص. ويحتمل أن يكون سبب الخطأ في بعضها أن الأصل الذي نقل منه ابن هشام كان على الخطأ، واستمر عليه دون أن يتبه له.

وقد اعتمد ابن هشام على الحفظ، فخالف في حواشيه ألفاظ الألفية التي يزيد التعليق عليها، ففي البيت ٤٢٠ جاء لفظ الألفية في المتن عنده: آخر ما أُضِيف لـ"اليا" أكسْرْ إِذَا لم يُكْ مَعْتَلًا، كـ: رَامِ، وَقَدَى

(١) الألفية ص ١٦٠، وحواشى الألفية (رئيس الكتاب) ٣٢/ب.

(٢) تنظر الأبيات: ٤٥٧، ٦٤٥، ٧٢٨، ٨٨٥، ٩٨٥ و ٩٨٦ في حواشى الألفية (رئيس الكتاب) ٢٠/أ، ٢٨/أ، ٣١/ب، ٤٢/ب، ٣٧/أ، والأبيات: ٦٢١، ٦٢٣، ٦٦٦ و ٧١٣ و ٧٧٠ في الألفية ص ١٤٦، ١٥٠، ١٥٥، ١٦١، ١٦٢.

فَنَقَلَهُ فِي الْحَاشِيَةِ لِلتَّعْلِيقِ عَلَيْهِ مَرَّةً بِلِفَظِ: «مَا لَمْ يَكُنْ»، وَمَرَّةً بِلِفَظِ: «إِنْ لَمْ يَكُنْ»^(١). وَفِي الْبَيْتِ ٦٩٨ جَاءَ لِفَظُ الْأَلْفِيَّةِ فِي الْمُتْنَ عَنْهُ: فِعْلَيْنِ يَقْتَضِيَنِ: شَرْطٌ قُدِّمَا يَتَلَوُ الْجَزَاءُ، وَجَوَابًا وُسِّمَا فَنَقَلَهُ فِي الْحَاشِيَةِ لِلتَّعْلِيقِ عَلَيْهِ بِلِفَظِ: «يَتَلَوُ الْجَواب»^(٢). وَهَذَا يَدُعُّمُ الْقُولُ بِاعْتِمَادِهِ عَلَى الْحَفْظِ فِي بَعْضِ الْمَوَاضِعِ الَّتِي أَخْطَأَ فِيهَا فِي أَثْنَاءِ كِتَابَةِ نَصِ الْأَلْفِيَّةِ.

(١) حواشِي الْأَلْفِيَّةِ (رَئِيسُ الْكِتَابِ) ١٨/ب، وَظَهَرَ الْوَرْقَةُ الْثَالِثَةُ الْمَلْحَقَةُ بَيْنَ ١٨/ب وَ١٩/أ.

(٢) حواشِي الْأَلْفِيَّةِ (رَئِيسُ الْكِتَابِ) ٣٠/أ.

المبحث الثاني: معارضته النص.

المطلب الأول: معارضة ابن هشام نصًّا الألفية بنسخة أو أكثر.

الظاهر أن ابن هشام لم يعارض نسخته من الألفية كلَّها من أوها إلى آخرها بنسخ مختلفة، فذلك لا يدعمه دليلٌ واضح، وإنما هي مواضع قليلة عارض فيها ابن هشام الألفية بنسخةٍ أو نسخٍ ضمن جهوده العلمية حول الألفية.

وقد رجع في بعض مواضع معارضته الألفية إلى نسخٍ كثيرة، يدل على ذلك قوله في أحد المواضع: «يوجد في نسخ كثيرة: "عشرين" بالياء، وهو غلط»^(١).

وقد تقدَّم أن ابن هشام لم يُفصح عن الأصل الذي نسخ منه نسخته، والأمر كذلك في نسخ الألفية التي عارض بها، فإنه لم يُسَمِّي أَيَّاً منها، لا في حواشِي نسخته، ولا في غيرها، سوى نسخة ابن النحاس، فهُي النسخة الوحيدة التي سعَاها ابن هشام من بين النسخ التي رجع إليها، وذلك في موضعين من نسخته^(٢)، وموضعٍ ثالث نقله ياسين عنه^(٣).

(١) حواشِي الألفية (رئيس الكتاب) /٣٢ أ.

(٢) حواشِي الألفية (رئيس الكتاب) /٣٢ أ، /٣٨ أ.

(٣) حاشية الألفية ٥١٠ ب، /٥١١ أ.

ولم يظهر لي سبب معارضته بعض الموضع دون بعض، مع أن الخلاف بين نسخ الألفية كثير جدًا، ولا سبب اقتصاره في موضع على الإشارة إلى ما في النسخ الأخرى دون ترجيح بينها.

وأشار ابن هشام في غير حواشيه نسخته التي كتبها إلى نسخ من الألفية، لكنني لم أجده منها شيئاً يوافق ما في نسخته، فلم يُشير ابن هشام إلى شيء من النسخ في غير نسخته إلا وفي متن نسخته خلافٌ ما أشار إليه.

ويُشير ابن هشام إلى الفروق بين النسخ بقوله: في نسخة، أو: في بعض النسخ، أو: في نسخ، أو: رُوي، وأحياناً باستعمال الرمز (خ) الدال اصطلاحاً على الإشارة إلى نسخة أخرى^(١).

وتتنوع الفروق في النسخ التي أشار إليها ابن هشام بين الزيادة، والنقصان، والإبدال، والتقديم والتأخير. فمن الزيادة: ما في البيت ٩:
وكلمةٌ بها كلامٌ قد يُؤمُّ

قال ابن هشام: «في نسخة: «بها الكلامُ قد يُؤمُّ»^(٢). وفي البيت ٢٦١: وبعد عاطفٍ بلا فصلٍ على معمولٍ فعلٍ مستقرٍ أولاً قال ياسين: «قال ابن هشام: وجدت في نسخةٍ بعد قوله: «بعد عاطف» البيت:

(١) ينظر: تقاليد المخطوط العربي، لأدم جاسك ص ٢٩٧.

(٢) حواشيه الألفية (التيمورية) ٣.

وانصب إذا ما خيفَ من أن مُفَسِّر بالوصف مختاراً وقِسْنَ»^(١)

ومن النقصان: ما في البيت ٧٦٠:

ولا تَلِي فارقةً فَعُولاً أَصَلًا، ولا "المِفْعَال" و"المِفْعِيلَا"

قال ابن هشام: «خ: "مِفْعَالاً" أو "مِفْعِيلَاً"»^(٢).

ومن الإبدال: ما في البيت ١٠:

بِالْجَرِّ وَالْتَّوْبِينِ وَالنَّدَا وَ"أَلْ" وَمَسْنِدٌ لِلَّا سَمْ تَمِيزْ حَصْلَ

قال ابن هشام: «في نسخة: "مَيْزٌ قد حَصَل"»^(٣). وفي البيت ٢٠٢:

وَغَيْرَ ما يَلِي وَغَيْرَ الْمَفْرَد لَا تَبْنِ، وَانصَبْهُ، أَوِ الرُّفْعَ اقْصِدِ

قال ابن هشام: «خ: "أَوِ ارْفَعْ تَقْصِدِ"»^(٤). وفي عنوان باب «ظن

وَأَخْوَاتِهَا»: قال ابن هشام: «خ: "ظَنَنْتُ"»^(٥). وفي البيت ٢٥٨:

وَإِنْ تَلَ السَّابِقُ مَا بِالْأَبْتِدا

قال ابن هشام: «خ: "بِالْأَبْتِدا"»^(٦). وفي البيت ٧٥٦:

وَنَادَرْ "مَتُونَ؟" فِي شِعْرٍ عُرْفٍ

قال ابن هشام: «خ: "نَظَمْ"»^(١). وفي البيت ٧٨١:

(١) حاشية الألفية ١/٢٢٢، ٢٢٣.

(٢) حواشى الألفية (رئيس الكتاب) ٣٣/أ.

(٣) حواشى الألفية (التيمورية) ٣. وأثبت محقق الألفية ص ٧٠ رواية: «مَيْزٌ حَصَل».

(٤) حواشى الألفية (رئيس الكتاب) ٩/ب.

(٥) الألفية ص ٩٧، وحواشى الألفية (رئيس الكتاب) ٩/ب.

(٦) حواشى الألفية (رئيس الكتاب) ١٢/أ.

وَمَا كَـصْحَرَاءَ بَـوَى ثُـبَيْـا وَنَـحُـو عِـلْـبَـاءَ، كَـسَـاءَ، وَ حَـيَـا
قال ابن هشام: «نسخة: "وما ك: علباء"»^(٢).

وَمِن التَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ: مَا فِي نَسْخَةِ ابْنِ هَشَامَ فِي الْبَيْتِ ٩٢: بِاللَّاءِ وَاللَّاتِ "الَّتِي" قَدْ جُمِعَـا

قال ابن هشام: «رُوِيَ: بِاللَّاتِ وَاللَّاءِ»^(٣).

ويوظف ابن هشام اختلاف النسخ في تفسير أبيات الألفية، وتحديد مراد ابن مالك منها، ففي البيت ٣٨:

وَمِثْلَ حِينِ قَدْ يَرِدْ ذَا الْبَابُ، وَهُوَ عِنْدَ قَوْمٍ يَطْرَدُ
قال السيوطي: «قال ابن هشام: هذا كلام مُلِيسٌ؛ لأنَّه يحتمل أنَّ يريده
أنَّ قوماً من النحاة يرون إجراء "السنين" مجرى "الحين" مطرداً لا شادداً، وأنَّ
قوماً من العرب يستعملون ذلك على وجه الاطراد لا على وجه الشذوذ،
وعليه عَوْلَ ابن الناظم. قال: والمعنىان لا طائل تحتهما، ولا جرت العادة
بالتبنيه على مثلهما في المختصرات، وينبُعد تفسير ابنه: أنَّ في بعض نسخ
الألفية: "والفرَّ يراه مطرَداً" فالخلاف نحوٌ لا عربيٌ، ويحتمل معنى ثالثاً، وهو
أنَّ من النحاة من يطرُدُ الإجراءَ مجرى "حينٍ" في باب جمع المذكر السالم وما

(١) حواشى الألفية (رئيس الكتاب) ٣٢/ب.

(٢) حواشى الألفية (رئيس الكتاب) ٣٤/أ.

(٣) حواشى الألفية (رئيس الكتاب) ٥/أ.

حمل عليه، ولا يخص ذلك بباب "سنين"، وبهذا قال جماعة، منهم المبرد^(١). انتهى»^(٢).

وما ذكر ابن هشام أنه نسخة أُشير إليه في حاشية إحدى نسخ الألفية العالية^(٣)، وما نسبه لابن الناظم من احتماله التفسيرين لم أره هكذا في مطبوعة شرحه الألفية^(٤)، والذي فيها أنه مطرد عند قوم من النحويين، منهم الفراء^(٥) (ت ٢٠٧ هـ)، وقد استعمله غيرهم على وجه الشذوذ، كما في الحديث: «اللهم اجعلها عليهم سنين كسنين يوسف»^(٦).

وفي البيتين ٤٣٢ و ٤٣٣ :

"فَعَالٌ" او "مِفْعَالٌ" او "فَعُولٌ" في كثرة عن "فَاعِلٌ" بديلٌ فيستحِقُ ما له من عَمَلٍ وفي "فَعِيلٌ" قلَّ ذا و "فَعِيلٌ" قال السيوطي: «يحتمل أن يريد بها كثرة العمل؛ لمقابلة قوله: "قلَّ ذا"؛ قال ابن هشام: ويقوّيه: أن في بعض النسخ: "بكثرة". ويحتمل أن يريد بها الدلالة على التكثير والبالغة»^(٧).

(١) المقتضب ٣٣٢/٣.

(٢) النكٰت ١٤٠/١.

(٣) الألفية ص ٧٤.

(٤) شرح الألفية ص ٢٧.

(٥) ذكر في معاني القرآن ٩٢/٢ أنَّها لغة لبعض العرب، وأنَّها كثيرة في أسد وبني تميم وبني عامر.

(٦) أخرجه أبو عوانة في المستخرج على مسلم ٢١٦٩، ٢١٧٧، ٢١٩٠، ٢١٩٣ بلفظ: "سنيناً كسنيناً يوسف".

(٧) النكٰت ٨٢/٢.

وما قَوَاهُ ابْنُ هَشَامَ شَرَحَ عَلَيْهِ فِي أَوْضَحِ الْمَسَالِكِ، فَقَالَ: «تُحَوَّلُ صِيغَةُ «فَاعِلٌ» لِلْمُبَالَغَةِ وَالتَّكْثِيرِ إِلَى «فَعَالٌ» أَوْ «فَعُولٌ» أَوْ «مِفْعَالٌ» بِكَثْرَةِ، وَإِلَى «فَعِيلٌ»، أَوْ «فَعِيلٌ» بِقِلَّةِ، فَيُعَمَّلُ عَمَلَهُ بِشَرْوَطِهِ»^(١).

وَالْفَرْقُ بَيْنَ رَوَايَتِيْ "فِي كَثْرَةٍ" وَ"بِكَثْرَةٍ" أَنَّ الْأُولَى تَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى أَنْ هَذِهِ الْأَوْزَانُ الْثَّلَاثَةُ بَدِيلَةٌ عَنْ وَزْنِ "فَاعِلٌ" فِي الدَّلَالَةِ عَلَى الْكَثْرَةِ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَوْضُعْ دَالًّا عَلَيْهَا، وَأَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى أَنَّهَا جَاءَتْ بَدِيلَةً عَنْهُ فِي عَمَلِهِ مُجِيئًا كَثِيرًا، أَمَّا الثَّانِيَةُ فَلَا تَحْتَمِلُ إِلَّا الْمَعْنَى الثَّانِيَّ؛ لِذَلِكَ عَضَّدَ بِهَا ابْنُ هَشَامَ رَأِيهِ، وَيُؤَيِّدُهُ تَقْيِيدُ النَّاظِمِ فِي الْبَيْتِ التَّالِيِّ وَزَنِيْ "فَعِيلٌ" وَ"فَعِيلٌ" بِقَلْةِ اسْتِحْقَاقِهِمَا عَمَلُ اسْمِ الْفَاعِلِ^(٢).

وَفِي نَسْخَةِ ابْنِ هَشَامَ فِي الْبَيْتِ ٩٢: بِاللَّاءِ وَاللَّاتِ "الَّتِيْ" قَدْ جُمِعَا

قَالَ ابْنُ هَشَامَ: «يُحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ أَرَادَ: الْلَّاتِيْ، وَحَذْفُ الْيَاءِ؛ لِالتَّقَاءِ السَّاكِنَيْنِ، وَرَجَحَهُ: أَنَّهُ الَّذِي وَرَدَ فِي التَّنْزِيلِ، فَلِيَكُنْ هُوَ الْمَنْصُوصُ عَلَيْهِ. وَيُحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْحَذْفُ مِنَ الْأَصْلِ، وَرَجَحَهُ: أَنَّهُ رُوِيَ: "بِاللَّاتِ وَاللَّاءِ"»^(٣).

(١) أَوْضَحُ الْمَسَالِكَ .٢١٩/٣

(٢) يَنْظُرُ: الْمَقَاصِدُ الشَّافِيَّةُ، لِلشَّاطِيْيِّ ٤/٢٧٧، ٢٧٨، وَشَرْحُ الْمَكْوُدِيِّ صِ ١٨١، ١٨٢.

(٣) حَوَاشِيُّ الْأَلْفَيْهِ (رَئِيسُ الْكِتَابِ) ٥/أ.

ووجه ترجيحه الأخير أنه لا مكان لاحتمال حذف الياء في هذه الرواية؛ لأن الوزن يختلف بإثباتها، ولا موجب لحذفها، كالتقاء الساكنين في الرواية الأخرى.

وأجاز ابن هشام مرّة لفظة في بيت، ولم يُنصّ على أنها نسخة، إذ ورد البيت ٦٢٨ في نسخته هكذا:

وما بمعنى: افعل كـ"آمين" كثُر ونحوه كـ"وا" وـ"هيهات" تَرْز
فقال في الحاشية: «ويجوز: كـ"وي"»، ثم مثَّل لـ"وا" وـ"وي" جميـعاً^(١)؛ مع أن الرواية في نسخ الألفية العالية: «وغيره كـ"وي"»^(٢).

ووُجِدَت في نسخة ابن هشام إشارةً بغير خطه إلى نسخة من نسخ الألفية، وذلك في البيت ٧٩١، إذ جاء في نسخة ابن هشام:

"أَفْعِلَةُ" ، "أَفْعُلُ" ، ثُمَّ "فِعْلَةُ" ثُمَّ "أَفْعَالُ" مبنياً قِلَّه
وفوق قوله: «مبنياً قِلَّه»، بغير خط ابن هشام: «خ: جمـوع»^(٣)، وهي رواية النسخ العالية^(٤)، ولعل صاحب هذه الإشارة أحد مُلَّاك النسخة أو مطالعها، والله أعلم.

(١) حواشـي الألفـية (رئيس الكتاب) ٢٧/ب.

(٢) الألفـية ص ١٤٦.

(٣) حواشـي الألفـية (رئيس الكتاب) ٣٤/أ.

(٤) الألفـية ص ١٦٣.

المطلب الثاني: مسالكه في الترجيح بين النسخ.

يرجح ابن هشام بين نسخ الألفية عند اختلافها، فيختار أرجح عبارةٍ من بينها، وله في ترجيحه مسلكان:

المسلك الأول: التصرير بالترجح، كأن يعبر عن الراوح بـ: الأحسن، أو: الأولى، أو: الحق، أو: الصواب، وعن المرجو بـ: الغلط، أو: الخطأ، أو: عدم الوجاهة، أو: عدم الجودة. مثاله: في البيت ٤٩
وأيُّ فعلٍ آخرٍ منه أَلْفٌ أو وَأَوْ أو يَأُّ فمعتلاً عُرِفٌ
قال ابن هشام: «وفي نسخة: "وَكُلُّ فِعْلٍ"، وما أحسنها! ومثله في دخول الفاء في الخبر»^(١).

ويرجح رواية "وَكُلُّ فعلٍ" عدم حاجتها في البيت إلى تقدير مذوفٍ كالرواية الثانية، وإنما فيها دخول الفاء في خبر "كُلٌّ"، وهو جائز^(٢)، وأشار ابن هشام هنا بقوله: «ومثله في دخول الفاء في الخبر» إلى أن له شواهد مسموعة، لكنها لم تذكر في النسخة، فإما أسقطها الناسخ سهواً، أو ترك ابن هشام مكتافها بياضاً، وأورد ابن هشام في موضع آخر^(٣) من شواهد ذلك قول الشاعر:

وَكُلُّ خَيْرٍ لَدِيهِ فَهُوَ مَأْمُولٌ^(٤)

(١) حواشي الألفية (التيمورية) ٧.

(٢) ينظر: شرح الكافية، للرضي ١/٢٦٩، والتنزيل والتمكيل، لأبي حيان ٤/١٠٢.

(٣) تخلص الشواهد ص ٢١٨.

(٤) عجز بيت من البسيط، لعبدة بن الطيب، في ديوانه ص ٧٥، وصدره:

أما رواية "وأي فعل" - وهي رواية نسخ الألفية العالية^(١) - فتحتاج إلى تقدير "كان" الشائنة أو الناقصة بعدها؛ لأن "أي" لا تدخل إلا على الجمل الفعلية، والتقدير: وأي فعل كان آخر منه أحد الحروف المذكورة ...^(٢) وفي البيت ٤٩٦:

صُغْ من مَصْوِغٍ مِنْهُ لِلْتَّعْجِبِ "أَفْعَلَ" لِلتَّفْضِيلِ، وَأَبَ اللَّدُ أَبِي
قال ابن هشام: « قوله: "وَأَبَ الَّذِي" ^(٣) أَبِي : في نسخة: "وَأَبَ مَا أَبِي" ،
وهو أحسن»^(٤).

والرواية التي أشار إليها ابن هشام أسهل على اللسان، وأحسن جرساً، مع أدائها المعنى، وحفظها على استقامة الوزن، لكن لم تشر إليها نسخ الألفية العالية^(٥).

وفي البيت ٥٩٣:

وَفَتْحُ أَوْ كَسْرُ وَحْدَفُ الْيَا اسْتَمْرُ في "يا بن أمّ" ، "يا بن عمّ" لا مفرّ

نرجو فواضلَ رِبِّ سَيِّدِنَا دِيمَ

سَيِّدِهِ عَطَاوَهُ الْكَثِيرِ . وَدِيمَ: عَلَى حَالَةٍ وَاحِدَةٍ لَا يَنْقَطِعُ وَلَا يَتَغَيَّرُ .
(١) الألفية ص ٧٦ .

(٢) ينظر: توضيح المقاصد والمسالك، للمرادي ٣٤٩/١، وشرح المكودي ص ٢٠، وتمرين الطلاب، خالد الأزهري ص ١٢، ١٣، واللوامع الشمسية، لابن طولون ٢٤/١، ب.

(٣) كذا في المخطوطة، وهو سهو من الناشر، والذي في نسخ الألفية العالية ونسخة ابن هشام: «اللَّدُ». ينظر: الألفية ص ١٣٠، وحواشي الألفية (رئيس الكتاب) ٢٢/أ.

(٤) حواشي الألفية (التيمورية)، وجه الورقة الملحقة بين ٩٦، ٩٧ .

(٥) الألفية ص ١٣٠ .

كذا جاء الشطر الأول في نسخة ابن هشام، فوضع على أوله: «خ»، وكتب فوقه: «الفتح والكسر وحذف»: خ، وهي أحسن^(١). وحسن رواية التعريف في سلامتها من الابتداء بالنكرة، وهي رواية إحدى نسخ الألفية العالية، لكن في حاشيتها إشارة إلى الرواية الأخرى، مصححًا عليها^(٢).

وفي البيت ٧٣٦:

وَمَيَّزُوا مَرَكَبًا بِمِثْلِ مَا مُيَّزَ عَشْرُونَ، فَسَوَّيْنَهُمَا صَحَّحَ ابن هشام في نسخته على الكلمة "عشرون"، وقال في الحاشية: «يُوجَدُ في نسخ كثيرة: "عشرين" بالياء، وهو غلط، وفي نسخة ابن النحاس بالواو»^(٣)، وجاء في أصل نسخة أخرى حشّها ابن هشام "عشرين"^(٤)، ولم أره علّق عليها بشيء.

وَظَاهِرٌ أَنَّ ابن هشام غَلَطَ رواية الياء لمخالفتها مقتضى الإعراب، إذ يجب رفعها نائبًا عن فاعل "مُيَّز"^(٥)، وليس "عشرين" مما جاء في البيت على الحكاية فتبقى على صورتها.

(١) حواشى الألفية (رئيس الكتاب) ٢٦/أ.

(٢) الألفية ص ١٤٢ .

(٣) حواشى الألفية (رئيس الكتاب) ٣٢/أ.

(٤) حواشى الألفية (مجمع دمشق) ٦٣/ب.

(٥) ينظر: ترین الطلاب ص ١١٨ ، واللوامع الشمسية ٢/٩٧/أ.

وفي البيت ٨٨٨:

محركاً، وحركاتٍ لساكنٍ تحرّكُه لَن يُحظّلَا
قال ابن هشام: «حظل: بالظاء أخت الطاء، ويوجد بخطٍ بعض الناس
- هو ابن النحاس - بصاد، وليس بجيد»^(١).

واستظهر محقّق الألفية أنّ رواية الصاد: «يُحصّلَا»^(٢)، وما في نسخة ابن هشام «يُحظّلَا» أوفّى للمعنى، والحظل في اللغة: المぬ^(٣)، والمعنى: أنه لا يصح الوقف على الكلمة بنقل حركة آخرها إلى ما قبله إلا إذا كان ساكناً سكوناً لا يُمنع تحريكه، سواء كان منع تحريكه لتعذرها، كالألف، أم لا، كالواو والياء والحرف المدغّم^(٤)، وهذا أقرب من أن يقال: إلا إذا كان ساكناً لا يُحصّل تحريكه، أي: لا يمكن تحريكه؛ لأنّه قد يمكن تحريكه، ولكنه يُمنع، كما سبق.

المسلك الثاني: الإشارة إلى الترجيح برمز التصحيح (صح) أو: (صح)
الdal اصطلاحاً على ترجيح المصحّح عليه على غيره مما ورد في الموضع نفسه^(٥). مثاله: في البيت ٢:

(١) حواشى الألفية (رئيس الكتاب) ٣٨/أ. وكأنّه استدرك تصريحة بابن النحاس؛ إذ كتبه تحت قوله: «بعض الناس».

(٢) الألفية ص ١٧٤.

(٣) ينظر: الصاحاح، للجوهري ٤/١٦٧٠.

(٤) ينظر: توضيح المقاصد والمسلك ٣/٢٩٧، ١٤٧٩، والمقادير الشافية ٨/٦٣، ٦٤، وشرح المكودي ص ٣٥٦، ٣٥٧.

(٥) ينظر: علوم الحديث، لابن الصلاح ص ١٩٦، ومعجم مصطلحات المخطوط العربي، لأحمد

مُصلِّيًّا على الرسول المصطفى وآلِهِ المستكملين الشَّرِفَا
صَحَّحَ ابن هشام في نسخته على كلمة "الرسول"، وكتب في الحاشية:
«خ: النبي»^(١).

وكلمة "الرسول" أَخْصُّ من كلمة "النبي"، فهـي أَمْدَحُ^(٢)، وهي رواية
النُّسْخ العالِيَّة^(٣)، وتـدل إِشـارة ابن هـشـام هـنـا إـلـى الروـاـيـةـ الـأـخـرـىـ عـلـىـ أـنـ
الـخـلـافـ بـيـنـ نـسـخـ الـأـلـفـيـةـ فـيـهـاـ قـدـيمـ،ـ وـإـنـ لـمـ تـأـتـ بـهـ نـسـخـ عـالـيـةـ.
وـجـاءـ الـبـيـتـ ٥٩٦ـ فـيـ نـسـخـ اـبـنـ هـشـامـ بـلـفـظـ:

فـيـ سـيـ سـيـ الـأـنـثـيـ نـحـوـ يـاـ حـبـاتـ

فـوـضـعـ عـلـىـ كـلـمـةـ "نـحـوـ":ـ «ـخـ»ـ،ـ وـكـتـبـ فـوـقـهـاـ:ـ «ـوـزـنـ»ـ،ـ وـصـحـحـ عـلـيـهـاـ^(٤)ـ،ـ
وـهـيـ رـوـاـيـةـ نـسـخـ الـأـلـفـيـةـ الـعـالـيـةـ^(٥)ـ.

وـلـفـظـةـ "ـوـزـنـ"ـ أـدـقـ فيـ الدـلـالـةـ عـلـىـ الـمـرـادـ؛ـ إـذـ يـفـهـمـ مـنـهـاـ أـنـ مـاـ أـشـبـهـ الـمـثـالـ
الـمـذـكـورـ مـنـ جـهـةـ الـوـزـنـ أـعـطـيـ حـكـمـهـ فيـ اـطـرـادـ مـلـازـمـةـ الـنـدـاءـ^(٦)ـ،ـ أـمـاـ لـفـظـةـ
"ـنـحـوـ"ـ فـلـيـسـ فـيـهـاـ بـيـانـ جـهـةـ الـمـشـابـحـةـ الـتـيـ بـيـنـ عـلـيـهـاـ الـحـكـمـ فـيـ الـمـثـالـ الـمـذـكـورـ.

بنين وزميله ص ٨٩.

(١) حواشـيـ الـأـلـفـيـةـ (ـرـئـيـسـ الـكـتـابـ)ـ ١ـ/ـ بـ.

(٢) يـنـظـرـ:ـ الـمـقـاصـدـ الـشـافـيـةـ ١ـ/ـ ١٣ـ.

(٣) الـأـلـفـيـةـ ص ٦٧ـ.

(٤) حواشـيـ الـأـلـفـيـةـ (ـرـئـيـسـ الـكـتـابـ)ـ ٢ـ/ـ ٢٦ـ.

(٥) الـأـلـفـيـةـ ص ١٤٢ـ.

(٦) يـنـظـرـ:ـ شـرـحـ اـبـنـ النـاظـمـ صـ ٤١٥ـ،ـ وـالـمـقـاصـدـ الـشـافـيـةـ ٥ـ/ـ ٣٤٩ـ،ـ وـشـرـحـ الـمـكـودـيـ صـ ٢٤٦ـ.

وجاء البيت ٩٤٧ في نسخة ابن هشام بلفظ:

وَفِي مِثْلِ "جَرَاؤَةٍ" جُعِلَ

فوضع على الكلمة "جَرَاؤَةٍ": «خ»، وكتب في الحاشية: «هراوة»، وصحح
عليها^(١).

وليس في نسخ الألفية العالية إشارة إلى الكلمة "جَرَاؤَةٍ"^(٢)، ولم أقف عليها
في شيء من معجمات العربية المتقدمة، وذكر القلقشندي (ت ٨٢١هـ)^(٣)
أنها آلة من جلد يجعل فيها الطين الذي يرمي به عن قوس البندقة، وذكرها
ياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ)^(٤) بضم الجيم موضعًا في الأندلس، أما الكلمة
"هِرَاؤَةٍ" فهي أشهر، إذ وردت في المعجمات، ومعناها: العصا الغليظة^(٥).

ووقفت على موضعين في نسخة ابن هشام كتبهما في المتن بلفظ، وأشار
في الحاشية إلى لفظ آخر مرجحًا إياه، دون أن يشير إلى أن ما في المتن عنده
نسخة:

(١) حواشى الألفية (رئيس الكتاب) ٤٠/ب.

(٢) الألفية ص ١٨١.

(٣) صبح الأعشى ٢/١٥٤.

(٤) معجم البلدان ٢/١٧٧.

(٥) ينظر: الصاحب ٦/٢٥٣٥.

الموضع الأول: في عنوان باب الاستغلال، إذ أثبته في المتن بلفظ «الاستغلال»، وكتب في الحاشية: «اشغال العامل عن المعمول»، وصحح عليه^(١).

الموضع الثاني: في البيت ٩٤٢، إذ جاء في نسخته بلفظ: و "أَيْمُنْ" و "هَمْزُ" "أَلْ" ، و يُبَدِّل مَدًّا في الاستفهام أو يُسَهِّل فكتب أمام الشطر الأول في الحاشية: «صوابه: و "أَيْمُنْ" ، هَمْزُ "أَلْ" كذا،

فاحتُمل الأمر من صنيعه في الموضعين أن يكون ما في المتن نسخةً، وأن يكون خطأً وقع منه في أثناء النسخ أو في النسخة المنقول منها، ويريد الأخير أن نُسخ الألفية في الموضعين لم تشر إلى كون ما عند ابن هشام في المتن نسخةً^(٢).

(١) حواشى الألفية (رئيس الكتاب) ١١/ب.

(٢) حواشى الألفية (رئيس الكتاب) ٤٠/أ.

(٣) الألفية ص ١٠٢ ، ١٨٠ .

المطلب الثالث: أسباب ترجيحاته بين النسخ.

يعيل ابن هشام بعض ترجيحاته بين النسخ ذاكراً أسباباً متنوعة، منها:

١- الترجيح لأمر لغويٍّ، حيث تكون العبارة الراجحة أقرب لغة إلى المراد من المرجوحة.

مثاله: عنوان الباب الأول في الألفية: «الكلام وما يتَّلَفُ منه»، قال السيوطي: «وفي تعليق آخر لابن هشام: في بعض النسخ: "يتَّلَفُ"، وفي بعضها: "يَأْتِلِفُ"، والأولى أحسن؛ لدلائلها صريحًا على الانفعال الناشئ عن فعل الفاعل، إشارة إلى احتياج التأليف إلى معالجة، وكلامها أحسن من "يتَّرَكَبُ"؛ لأن التأليف أخص؛ إذ هو تركيب وزيادة، وهي وقوع الألفة والتناسب بين الجزأين»^(١).

وجاءت نسخ الألفية العالية بموافقة ما رجحه ابن هشام^(٢)، لكن جاء في نسخته: «يَأْتِلِفُ»^(٣)، بخلاف ما رجحه هاهنا، ولم يعلق عليه بشيء؛ اكتفاءً بما في تعليقه الآخر، أو لأنه لم يظهر له حُسْنُ الرواية الأخرى إلا بعد ذلك.

٢- دقة العبارة الراجحة في توفيق الحكم التحوي حُقْه، وإخلال العبارة المرجوحة بذلك.

مثاله: ما في البيت ٧٤:

(١) النكت ٥٦/١.

(٢) الألفية ص ٦٩.

(٣) حواشى الألفية (رئيس الكتاب) ١/ب.

واسمًا أتى وكنيةً ولقبًا وأخرين ذا إن سواه صحّبًا حيث ورد عجزُه بروايتين: مشهورة، هي المتقدّمة، وعليها نسخة ابن هشام^(١) والنسخ العالية^(٢)، والأخرى غير مشهورة، هي:

وذا اجعل آخرًا إذا اسمًا صحّبًا

قال السيوطي: «لم يذكر ابن هشام في الشذور^(٣) أيضًا سوى تأخيره عن الاسم، وكذا في القطر^(٤) والجامع^(٥)، لكن في بعض تعاليقه على الألفية – ومن خطه نقلت – ما نصّه: يُؤخّر اللقب عن الاسم والكنية؛ لأن اللقب موضوع للذات من حيث هي ممدودة أم مدمومة تحقيقًا أو تفاؤلًا، والاسم أُتى به مجرد تعريف الذات، وأيضاً فالاسم والكنية يتقدّمان وضعًا، واللقب يتأخّر، فناسب ترتيبهما في اللفظ كترتيبهما في الموجود. ثم ذكر النسخة التي أُشير إليها، وقال: إن النسخة المشهورة أُولى؛ لأن في هذه إيهامًا وإخلالًا»^(٦).

فرجح ابن هشام الرواية الأولى المشهورة؛ لأنها أشمل وأوفى، إذ فيها بيان حكم اللقب مع الاسم والكنية، بخلاف الثانية، فليس فيها إلا بيان حكم

(١) حواشي الألفية (رئيس الكتاب) ٤/ب.

(٢) الألفية ص ٨٠.

(٣) شرح شذور الذهب ص ١٧٩.

(٤) شرح قطر الندى ص ١١٩.

(٥) الجامع الصغير ص ٢٥.

(٦) النكت ١٧٩/١.

اللقب مع الاسم فقط، لكنه في أوضح المسالك رجح مقتضى الرواية الثانية، فبعد أن ذكر أن اللقب يؤخر عن الاسم، وأنه لا ترتيب بين الكنية وغيرها، قال: «وفي نسخة من الخلاصة ما يقتضي أن اللقب يجب تأخيره عن الكنية، كـ: أبي عبدالله أَنْفُ النَّاقَةِ، وَلِيُسْ كَذَلِكَ»^(١). فظاهر أن له في هذا رأيين.

وجاء البيت ٢٠٨ في نسخة ابن هشام هكذا:

والذي كـ"صِيرًا" أيضًا به انصب مبتدأ وخبرا
فكتب في الحاشية: «خ: "والتي" ... "أيضاً [بها]"^(٢)، وصحح عليها،
إشارةً إلى الرواية الأخرى التي عليها النسخ العالية:

والتي كـ"صِيرًا" أيضًا بها انصب مبتدأ وخبرا^(٣)
ثم قال: «هذا الأحسن؛ لأن الذي كـ"صِيرًا" ليس شيئاً واحداً»^(٤).

ومراده: أن ما يدل على التصوير والتحويل ليس فعلاً واحداً، بل عدّة أفعال، مثل: جعل، وترك، وردد، ووَقَبَ، وانْخَذ^(٥)، وكلمة "الذي" في إحدى روايتيه البيت تدل على المفرد، فتعطي أن ما يأخذ حكم "صِيرًا" في نصب

(١) أوضح المسالك ١٣٠/١، ١٣١.

(٢) موضع النقطة بياض تركه ابن هشام دليلاً على الحذف، وما بين المعقوفين انقطع مكانه في طرف الورقة، وما أثبتت موافق للرواية الأخرى الآتية.

(٣) الألفية ص ٩٧.

(٤) حواشى الألفية (رئيس الكتاب) ١٠/أ. وكانت العبارة هكذا: «هذا الصحيح والأحسن؛ لأن الذي كـ"صِيرًا" ليس شيئاً واحداً، فـ"التي" تدل عليه، أي: والأشياء التي كـ"صِيرًا"»، ثم ضرب على: «الصحيح و»، وعلى «فالتي» إلى آخره.

(٥) ينظر: أوضح المسالك ٥١/٢.

المفعولين هو فعل واحد، بينما تدل الكلمة "التي" في الرواية الأخرى على الجنس، وهو يتناول القليل والكثير، فناسب المقام التعبيرُ بـ"التي"؛ لأنها أدق في تبيين الحكم.

٣- مخالفه العبارة المرجوحة مراد الناظم.

مثاله: ما في البيت ١٣١:

أو كان مُسندًا لِذِي لَامِ ابِنِهِ أَو لَازِمِ الصَّدْرِ كَمَنْ لِي مِنْ جَدًا؟^(١)
ضبيط ابن هشام في نسخته قوله: "لَازِمٌ" بكسر الزاي والميم، وصحيح
عليها، وقال في الحاشية: «في بعض النسخ: "لَازِمٌ"، بالفتح في الميم، يعني:
أو كان الخبر لازِمَ الصدر. وهذا عكس القصد؛ لأن ذاك لا يجب تأخيره بل
تقديمه. ويوجد: "لَازَمٌ"، بفتح الزاي والميم، عطفًا على "كان"؛ أي: أو لازِمٌ
هو الصدر. وهو كالأول في الخطأ. والحق: "لَازِمٌ"، بكسرهما. ثم العطف على
"ذِي" لا على "لام"؛ لأن المعنى يصير على الأول: أو كان مسندًا للازم
الصدر، أي: لمبتدأ لازِم الصدر، وهو المراد، وعلى الثاني: لمبتدأ ذِي لازِم
الصدر، فينصرف إلى مثل: أَزِيدُ قَائِمٌ؟ وَالْحَكْمُ أَنَّ الْخَبْرَ مُتَقَدِّمٌ عَلَى الْمُبْتَدَأِ، لَا
عَلَى هَمْزَةِ الْاسْتِفَهَامِ، فَهَذَا فَسَادٌ، وَلَا يَطَابِقُ»^(١).

(١) حواشى الألفية (رئيس الكتاب) ٦/ب.

فمن بين ثلاثة أوجهٍ يحتملها ضبطُ كلمة "لازم" في البيت لا يوافق مراد الناظم منها سوى ما اختاره ابن هشام، ولم يشر محقق الألفية إلى ورود شيءٍ مما ضعَّفه ابن هشام في نسخها العالية^(١).

٤- وجود أحد عيوب القافية في العبارة المرجوحة.

مثاله: ما في البيت ٨١٥، إذ جاء في نسخة ابن هشام هكذا:

فَيُقْرَأُ "فَعْلٌ" اسْمًا مُطْلَقًا لِهُ، وَلِلْفَعَالِ "فِعْلَانٌ" شَمِيلٌ فَضَيْبَطَ كَلْمَةً "شَمِيلٌ" بِكَسْرِ الْمِيمِ وَفَتْحِهَا، وَصَحَّحَ عَلَيْهَا، وَكَتَبَ فَوْقَهَا: «خ: حَصَلٌ»، ثُمَّ قَالَ فِي الْحَاشِيَةِ: «يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الْإِنْشَادُ: "حَصَلٌ"؛ لَأَنَّ "شَمِيلٌ" بِفَتْحِ (٢) الْعَيْنِ، فَلَا يَطْبِقُ الْأُولَى كُلَّ الْمَطَابِقَةِ» (٣).

وليس في نسخ الألفية العالية ما يوافق ما أثبته ابن هشام في أصل نسخته، بل فيها: «حصل»⁽⁴⁾، ويحتمل كلامه معنيين:

الأول: أن في عين "شمل" - وهي الميم - وجهين: الكسر، وهو مشهور، والفتح، وهو مسموع^(٥)، فينبغي من جهة النظم أن يكون ما يقابلها في آخر الشطر الأول مما يجوز في عينه وجهان، لكن عين " فعل" في آخر الشطر الأول لا تتحمل في كلام الناظم إلا وجهاً واحداً، هو الفتح؛ لأنه تقدم في

٨٨ (١) الألفية ص.

(٢) مهملة في خط ابن هشام، ويعكن أن تقرأ : **ثُفَّاح**.

(٣) حواشی الألفية (رئيس الكتاب) / ٣٥ أ.

(٤) الألفية ص ١٦٦.

(٥) ينظر: الصاحب ١٧٣٨/٥، ١٧٣٩.

البيت قبله^(١) الكلام على اطراد جمع "فَعَلٌ" - بكسر العين - على "فُعُولٌ" ، فلم يق إلا الكلام على جمع "فَعَلٌ" - بفتح العين - على "فُعُولٌ" ، فيكون مراد ابن هشام بقوله: «لأن "شَلٌ" بفتح العين» أن فتح عينها زائد على المشهور فيها ، وهو الكسر ، فيكون فيها وجهان.

الثاني: أن عين "شَلٌ" مكسورة على المشهور ، وعين "فَعَلٌ" في آخر الشطر الأول مفتوحة ، وذلك أحد عيوب القافية عند بعضهم ، وهو سِناد التوجيه ، وهو أن يكون قبل حرف الرويِّ المقيد فتحةً مع ضمة أو كسرة^(٢) ، وهو مراد ابن هشام بعدم المطابقة ، فيكون على هذا قد سَبَقَ قلْمُه في قوله: «لأن "شَلٌ" بفتح العين» إلى كتابة "فتح" بدل "بكسر".

هذا ما ظهر لي في فهم كلام ابن هشام ، وقد تقدّم أنه وقع له هاهنا في أثناء كتابة الألفية انتقالٌ نظرٌ وإسقاطٌ ، حيث انتقل نظره إلى آخر البيت

٨١٧ الآتي:

غير معلٌ العين "فُعْلَانٌ" شَلٌ

(١) وهو قوله:

وبـ"فُعُولٍ": فَعَلٌ نحو: گِيدْ يُطَرْدُ يُخَصُّ غالباً، كذلك

(٢) ينظر: القوافي، للأخفش ص ٣٧ ، والموضع، للمرزباني ص ٧ ، والواقي، للخطيب التبريزي ص

.٢٢١

فأثبتت هاهنا: «فِعْلَانُ شَمْلٍ»، وأسقط بيتهن بينهما، ثم استدركهما في الحاشية بعد ذلك، ولم يتبَّه على أن "شَمْلًا" الذي كتبه أولاً كان سهواً لنسخةً.

ويشار إلى أنه وقع في الألفية في البيت ٤٥٤ نظيرٌ ما وقع هاهنا، وهو قوله:

للَّدَّا فُعَالٌ أَوْ لِصَوْتٍ، وَشَمِيلٌ سَيِّرًا وَصَوْتًا "الْفَعِيلُ" كـ"صَهْلٌ" ولم يذكر ابن هشام الإشكال في الكلمة "شَمْلًا" الذي ذكره في البيت ٨١٥ مع أنه ضبط ميمها في نسخته هاهنا بالوجهين أيضًا، وصحح عليها، وكتب فوقها: «مَعًا»، وضبط هاء "صَهْلٌ" بالفتح فقط، وصحح عليها^(١).

٥ - موافقة العبارة الراجحة الوجه الإعرابي الظاهر، ومخالفة العبارة المرجوة له.

مثاله: في البيت ٢٩٨ :

يُنْصَبُ مَفْعُولًا لِهِ الْمَصْدُرُ إِنْ أَبَانْ تَعْلِيًّا، كـ"جُدْ شَكْرًا وَدِنْ" صحح ابن هشام في نسخته على لفظ: "مَفْعُولًا"، وقال في الحاشية: «في بعض النسخ: "مَفْعُولٌ" بـاللام بغير ألف، ولا وجه له ظاهراً»^(٢).

(١) حواشى الألفية (رئيس الكتاب) ١٩/ب.

(٢) حواشى الألفية (رئيس الكتاب) ١٣/ب.

فـ"مفعولاً" في البيت حال من نائب الفاعل، وهو قوله: "المصدر"^(١)، أي: يُنصب المصدر حالة كونه مفعولاً له إن أبان تعليلاً، أما رفعه فلا وجه له كما قال ابن هشام.

وفي ختام هذا المبحث يلحظ أن ابن هشام -فيما وقفت عليه- لم يعتمد في ترجيحه بين النسخ على الرواية عن الناظم والنقل والسماع منه، فيرجح أعلى النسختين روايةً، أو أوثقهما نقلًا، أو أقربهما سماعًا من المؤلف أو ممن دونه، بل كان اعتماده على الدراءة والنظر والتعليل، مع أن القاعدة في الترجيح عند اختلاف النسخ أن يدور الأمر حول معرفة العبارة التي انتهى إليها المؤلف، حتى لو كانت تقصير عن الدقة درجةً، أو فيها خللٌ مَّا من جهة التركيب والصياغة^(٢).

وعذر ابن هشام في هذا أن النسخ التي وقف عليها كانت كُلُّها عنده في درجة واحدة من جهة الرواية، إما علواً أو نزواً، فلم يكن بُدُّ من الترجيح بأمر خارِج عن هذه الجهة.

(١) ينظر: تربين الطلاب ص ٤٨ ، واللوامع الشمسية ١/١٣٤ أ.

(٢) ينظر: تحقيق النصوص ونشرها ص ٧٢ ، ٧٣ .

المبحث الثالث: ضبط النص.

المطلب الأول: أشكال ضبط النص عند ابن هشام.

أَحَدَ ضَبْطَ الْأَلْفِيَّةِ عِنْدَ ابْنِ هَشَامَ ثَلَاثَةُ أَشْكَالٍ: ضَبْطُ الْقَلْمَ، وَضَبْطُ الْحُرُوفِ، وَضَبْطُ الْإِعْرَابِ.

أَمَّا ضَبْطُ الْقَلْمِ فَهُوَ مَا أَعْمَلَ فِيهِ ابْنُ هَشَامَ قَلْمَهُ بِالضَّبْطِ فِي مَتْنِ نَسْخَتِهِ مِنَ الْأَلْفِيَّةِ، فَإِنَّهُ جَرِيَ فِي كِتَابَتِهِ عَلَى عَادَةِ أَهْلِ عَصْرِهِ فِي إِهْمَالِ أَكْثَرِ الْحُرُوفِ الْمُعْجَمَةِ؛ اعْتِمَادًا عَلَى فَطْنَةِ الْقَارِئِ وَمَعْرِفَتِهِ، ثُمَّ عَادَ إِلَيْهَا بَعْدَ ذَلِكَ بِالضَّبْطِ فِي أَوْقَاتٍ مُتَفَوِّتَةٍ، كَمَا تَقَدَّمَ.

وَقَدْ مَرَّ ضَبْطُ الْأَلْفِيَّةِ بِالْقَلْمِ فِي نَسْخَةِ ابْنِ هَشَامَ بِمَرْحَلَتَيْنِ: الْأُولَى: فِي أَثْنَاءِ كِتَابَةِ الْأَلْفِيَّةِ، وَهُوَ ضَبْطٌ بِالْحِبْرِ الْأَسْوَدِ الَّذِي كُتِبَ بِهِ مَتْنُ الْأَلْفِيَّةِ، وَكَانَ ضَبْطًا مُخْتَارًا لِبَعْضِ حُرُوفِ الْكَلْمَةِ الْمُضْبُوَّتَةِ، وَأَكْثَرُهُ كَانَ مَا لَا تَدْعُوُ الْحَاجَةُ إِلَى ضَبْطِهِ.

الثَّانِيَةُ: بَعْدَ كِتَابَةِ الْأَلْفِيَّةِ، وَذَلِكَ بِالْعُودَةِ إِلَيْهَا مَرَّةً أُخْرَى لِضَبْطِ كَلْمَاتِهَا، إِمَّا بِالْمَرْورِ عَلَى الْأَبْوَابِ وَضَبْطِ أَيَّتِ الْبَابِ كُلَّهَا ضَبْطًا يَكَادُ يَكُونُ تَائِمًا، وَبَعْضُ ذَلِكَ كَانَ بِالْحِبْرِ الْأَحْمَرِ، وَبَعْضُهُ كَانَ بِالْأَسْوَدِ أَوِ الْأَسْوَدِ الْبَاهِتِ، وَكَانَ فِي أَبْوَابِ سَبَقَ بِيَانِهَا، إِمَّا بِضَبْطِ مَا كَانَ هَنَاكَ دَاعِ لِضَبْطِهِ، وَمِنْ ذَلِكَ:

١- أَنْ يَكُونَ فِي الْكَلْمَةِ الْمُضْبُوَّتَةِ بَحْثٌ أَجْرَاهُ ابْنُ هَشَامَ فِي حَوَاشِيهِ عَلَى الْأَلْفِيَّةِ، فَضَبَطَهَا فِي الْمَتْنِ تَثِيِّثًا لِمَا انتَهَى إِلَيْهِ بَحْثُهُ فِيهَا.

٢- أن يكون الخطأ في قراءة الكلمة المضبوطة وارداً، إما لأن في الكلام تقديمًا وتأخيرًا، وإما لأن السياق يتحمل ضبطين والمراد أحدهما، فيضبطها ابن هشام في الحالين؛ لئلا يسبق ذهن القارئ إلى الخطأ.

٣- أن يكون ابن هشام كتب الكلمة المضبوطة أو ضبطها أولاً على الخطأ، فيعيد كتابتها أو ضبطها على الصواب.

وастعمل ابن هشام في ضبط القلم العلامات الشائعة في الضبط، كنقطة الإعجام، والحركات، وعلامات السكون، والإهمال، والتشديد، والتحفيف، والمد، والهمز، والوصل، والتصحح، والجمع بين ضبطين فأكثر (معاً). وأما ضبط الحروف فهو ما ضبط فيه ابن هشام ألفاظ الألفية ضبطاً مشروحاً من خلال تعليقاته عليها.

وأما ضبط الإعراب فهو أن يعرب ابن هشام بعض ألفاظ الألفية، ويكون غرضه من ذلك الوصول إلى الضبط الأقرب للصحة.

المطلب الثاني: الأمور العلمية التي استند إليها في ضبطه.

استند ابن هشام فيما ضبطه من الألفية إلى أمور علمية متعددة، راعى فيها ما تقتضيه قواعدها، فمنها:

١ - مراعاة مقتضى الإعراب.

من ذلك: ما في البيت ٣٣٢:

الحال وصفٌ فضلةٌ منتصبٌ مفهُمٌ "في حالٍ" كـ: فرداً
قال ياسين: «قوله: "مُفهُمٌ في حالٍ"، قال ابن هشام: "حالٍ" بغير تنوينٍ
على الحكاية. وقال في موضع آخر: "حالٍ" غير منون؛ لأن ابنه قال^(١):
"أي: في حالٍ كذا"، وقوّةً هذا يعطي أنه مضاف»^(٢)، وهو ما مشى عليه في
أوضح المسالك، فقال: «و قال الناظم:

الحال وصفٌ فضلةٌ منتصبٌ مفهُمٌ في حالٍ كذا
... ومفهُمٌ في حالٍ كذا: مخرج لعت المتصوب ...»^(٣).

ومراده بالحكاية في الموضع الأول حكايةٌ حالٌ كلمة "حالٍ" في الجملة
التي أوردها عن ابن الناظم، وهو كونها مضافةً غير منونة، فهي على نية
الإضافة، وهو ما عَبَرَ عنه في الموضع الثاني بالإضافة؛ لأن المضاف لا ينون،
ومجيئها في البيت غير مضافة اكتفاءً من الناظم ببعض الجملة عن جميعها؛
لدلالة المكتَفَى به على المراد، فأوردها بلفظها كما لو كانت مضافةً.

(١) شرح الألفية ص ٢٢٧.

(٢) حاشية الألفية ١/٣٠٨.

(٣) أوضح المسالك ٢/٢٩٥.

لكن ابن هشام خالف رأيه هذا، فضبطَ في نسخته الكلمة "حال" بالتنوين^(١)، على قطع الكلمة عن الإضافة، فله في ضبطها رأيان، وجاءت نسخ الألفية العالية بالوجهين^(٢).

ومن ذلك: ما في البيت ٩٦٢:

كتاء بانٍ من "رمى" كـ"مقدمة" كذا إذا كـ"سبعين" صيره
قال ياسين: «قال ابن هشام: الصواب: فتح نون "سبعين" على لغة من أجرى المثنى مسمى به مجرى "سلمان"، ولو كسرت النون لزم: "كذا إذا كسبعينين"، ولم يجُز حيئنِ كوئها منونه؛ لأنها نون التثنية»^(٣)، ونقله الصبان، وزاد: «وعندي فيما ذكره من اللزوم نظر؛ لأن إلزام المثنى وما أُلحق به الألف لغة، كما سبق»^(٤).

وقد مشى ابن هشام في نسخته من الألفية على ما اختاره هنا، فضبط بالحُمْرة نون "سبعين" بالفتح، وكان ضبطَ بالسوداء السينَ والباءَ بالفتح فالضم^(٥).

(١) حواشى الألفية (رئيس الكتاب) ١٥/أ.

(٢) الألفية ص ١١١.

(٣) حاشية الألفية ٥٤٩/٢.

(٤) حاشية شرح الأشموني ٤٣٢/٤، ٤٣٣.

(٥) حواشى الألفية (رئيس الكتاب) ٤١/أ.

والمنى إذا سمي به جاز فيه وجهاً:

الأول: بقاوئه على ما كان عليه قبل التسمية، فيرفع بالألف، وينصب ويجر بالياء.

الثاني: إعرابه إعراب الممنوع من الصرف للعلمية وزيادة الألف والنون، فيرفع بالضمة، وينصب ويجر بالفتحة^(١).

فابن هشام يوجب فتح نون سَبْعَانَ - وهو اسم موضع^(٢) -، ويخرجه على أنه منى مسمى به أجري مجرى الممنوع من الصرف، فجُرّ بالفتحة، ولا يجيز كسر نونه؛ لأنَّه إن لم يعرب كالممنوع من الصرف أُعرب إعراب المنى، ولو كان كذلك لجُرّ بالياء لا بالكسرة، ولا يجيز تنوينه؛ لأنَّ الممنوع من الصرف والمنى لا ينونان.

أما الصَّبَانَ فلا يوجب فتح نونه كما قاله ابن هشام، بل يجيز ذلك، ويجيز الكسر، ويخرج الكسر على أنه منى معرب بالألف في أحواله كلّها.

٢ - مراعاة مقتضى الصناعة:

من ذلك: ما في البيت ٩٧١:

وَصَحَّ عَيْنُ "فَعَلٍ" وَ "فَعِلًا" كَذَا "أَفْعَلٍ" كَذَا "أَغْيَدٍ" وَأَحْوَلَا
لَمْ تُضْبِطْ كَلْمَتَا "فَعَلٍ" وَ "فَعِلًا" فِي إِحْدَى نُسُخِ الْأَلْفِيَّةِ الَّتِي حَشَّاَهَا ابْنُ
هَشَّامَ، فَضَبَطَ الْأُولَى بِالقَلْمَ بِفَتْحَتِينَ، وَكَتَبَ فَوْقَهَا: «قَدَّمْتُهُ»، لَأَنَّ الْمَصْدَرَ

(١) ينظر: شرح المفصل، لابن عبيش ٤٣/٣، وتسهيل الفوائد، لابن مالك ص ٢٢٥، وارتشاف الضرب، لأبي حيyan ٨٩٨/٢.

(٢) ينظر: معجم البلدان ١٨٥/٣.

الأصل»، وضبط الأخرى بفتح فكسر، وكتب فوقها: «أَخْرُهُ؛ لأنَّه فرعُ المصدر، ولأنَّ «ذا أَفْعَلَ» أقربُ إليه، والأوصافُ إنما تنسب إلى الأفعال»^(١). ومراده: أنَّ المصدر أصلُ الفعل على رأي البصريين^(٢)؛ لذا رأى أنه أولى بالتقديم في البيت، فضبطَ الكلمة الأولى بما يوافق كونها مصدرًا على وزن «فَعَلٌ»، مثل: غَيْدٍ، وحَوَلٍ، وضبطَ الأخرى بما يوافق كونها فعًا ماضيًّا على وزن «فَعِلٌ»، والألف فيها للإطلاق، وعلَّه بأنَّه فعل، والفعل فرعٌ عن المصدر، فهو أولى بالتأخير، وبأنَّه المراد بما ذُكرَ بعده من أنَّ الوصف منه على «أَفْعَلٍ»، فيكون القيُدُ على هذا الضبط متصلًا بالمقيد.

ويدلُّ قوله: «قَدَّمْتَهُ»، و«أَخْرَتَهُ» على أنَّه لم يرجع فيما ضبطه من الألفية إلى روايَةٍ، بل إلى درايةٍ ونظرٍ، ولو كان في المسألة شيءٌ منقول عن الناظم لانتهى إليه.

٣- مراعاة المعنى.

من ذلك: ما في البيت ٣٤٥:

واعملُ صُمِّيَّ معنى الفعلِ لا حروفَهُ مؤخَّرًا لن يَعْمَلُ
قال ابن هشام تعليقًا على كلمة «حروفه»: «عَطَّفٌ على «معنى»، لا على «الفعل»؛ لفساد المعنى»^(٣).

(١) حواشِي الألفية (مجمع اللغة بدمشق) ٨٨/ب.

(٢) ينظر: الإنْصَاف، للأبْنَارِي ١٩٠/١، والتبيين، للعَكْرَبِي ص ١٤٣.

(٣) حواشِي الألفية (رئيس الكتاب) ١٥/ب.

ومراده: ضبط الكلمة "حروفه" بالنصب؛ لأن المعنى يدل على أنها معطوفة على الكلمة "معنى" في البيت، والتقدير: ضِمْنَ معنى الفعل لا حروف الفعل، ولو جُعلت مجرورةً عطفاً على الكلمة "الفعل" لكان المعنى: ضِمْنَ معنى الفعل لا معنى حروف الفعل، وذلك كلام غير مستقيم.

ومن ذلك: ما في البيت ٤٧٦ :

وَحَذَفَ مَا مِنْهُ تَعْجِبَتْ اسْتَبَعْ
إِنْ كَانَ بَعْدَ الْحَذْفِ مَعْنَاهُ يَضِّعْ
قَالَ ابْنُ هَشَامَ: «يَضِّعُ» بِالضَّادِ الْمَعْجَمَةَ، أَيْ: إِنْ كَانَ مَعْنَاهُ عِنْدَ
الْحَذْفِ وَاضِحًا، لَا بِالْمَهْمَلَةِ؛ لِأَنَّ قَوْلَكَ: إِنْ كَانَ مَعْنَاهُ عِنْدَ الْحَذْفِ صَحِيحًا
لَا مَعْنَى لَهُ»^(١). وَقَالَ أَيْضًا: «يَقَالُ: وَضَعَ الْأَمْرُ - بِالضَّادِ الْمَعْجَمَةِ، ثُمَّ بِالْحَاءِ
الْمَهْمَلَةِ - وَضُوْحًا، وَأَوْضَحَ، ثَلَاثِيًّا وَرَبَاعِيًّا: ظَهَرَ، وَالْوَجْهُ: حَسْنٌ. قَالَ خَلْفُ
بْنِ حَلِيلَةَ الْأَقْطَعَ: بِنْ حَلِيلَةَ الْأَقْطَعَ
كَفَى الْهَجْرُ أَنَّا لَمْ نَضِّعْ^(٢) لَكَ وَلَمْ يَأْتِنَا عَمَّا لَدَيْكَ يَقِينٌ»^(٣)
ومراده: تضييف ما في بعض نسخ الألفية^(٤) من كون آخر البيت:
«يَضِّعُ» بدل «يَضِّعُ»، بدليل أن المعنى لا يستقيم عليه، ويؤيد كلام ابن

(١) حواشى الألفية (رئيس الكتاب) ٢١/أ.

(٢) كذا في المخطوطة مضبوطاً، وفي مراجع البيت الآتية: «يَضِّع» بالياء.

(٣) حواشى الألفية (التمورية) ٨٨. والبيت من الطويل. ينظر: شرح الخامسة، للمرزوقي ١/٨٨٩ . وللتبريزى ٢/١٨١ .

(٤) الألفية ص ١٢٨ .

هشام حاشية على هذا الموضع في إحدى نسخ الألفية العالية، نصها:
«حاشية بخطه رحمه الله: وَضَعَ الشَّيْءَ يَضَعُ، إِذَا كَانَ وَاضْعَافًا»^(١).
ومن ذلك: ما في البيت ٤: ٧٠

وجزمُ أو نصبُ لفَعْلٍ إِثْرٌ فَأُوْ وَأُوْ إِنْ بالجملتين أكتُنفَا
قال ياسين: «قوله: "اكتنفًا"؛ قال ابن هشام: بضم التاء، والألف تثنية لا
إطلاق»^(٢)، ولم يضبطها ابن هشام في نسخته^(٣).
وتضمنَ كلامه هنا شيئين: ترجيحه ضمَّ التاء على فتحها، وجعله الألفَ
فيها أَلْفَ الْاثْنَيْنِ، لَا أَلْفَ إِطْلَاقِ.

والفعل "اكتنف" جاء باستعمالين: بمعنى: أحاط، وبمعنى: اتخذ كنيفًا،
أي: شيئاً يحيط به، وهو فيهما متعدٍ بنفسه^(٤)، وقد عدَّاه الناظم في البيت
بالباء، فدلَّ على أنه ضمَّنه معنى: أحاط؛ لأنَّه الذي يتعدى بالباء، مثل قوله
تعالى: ﴿وَظَنَّوا أَهْمَمْ أَحْيَطَ بِهِمْ﴾^(٥)، والمعنى عليه مستقيم؛ إذ يصح أن تقول:
أَحْيَطَ الْفَعْلُ بِالْجَمْلَتَيْنِ، ولا يستقيم على هذا التضمين ما في بعض نسخ
الألفية العالية^(٦) من فتح تاء "اكتنف" مبنياً للفاعل؛ لأنَّه لا يصح أن تقول:

(١) الخلاصة الأسدية ١٧/١.

(٢) حاشية الألفية ٢٧٢/٢.

(٣) حواشى الألفية (رئيس الكتاب) ٣٠/ب.

(٤) ينظر: إصلاح المنطق، لابن السكيت ص ٢٦١، ١٤٢٤/٤، والصحاح ٦٠-٥٨/٧، والمحكم ٢٤٨/٢، ٥١٢/١.

(٥) سورة يونس، من الآية ٢٢.

(٦) الألفية ص ١٥٤.

أحاط الفعل بالجملتين؛ لأنه لا يحيط بهما، بل هما اللتان تحيطان به، ولا يستقيم فتح التاء أيضًا على الاستعمال الثاني لـ"اكتنف"^(١) إلا أن تكون عبارة البيت: «إن الجملتين اكتنفَا»، أي: اتخاذهما شيئاً يحيط به؛ لأن "اكتنف" سُمع متعدِّيًا بنفسه لا بالباء.

وأما كون الألف للتشنيه لا للإطلاق فلم أره متوقِّعًا على ما تقدَّم، وهو راجع إلى فاعل الاكتناف، فهو كلمة " فعل" ، فتكون الألف للإطلاق، أم كلمتا "فا" و "واو" فتكون للتشنيه؟ والمعنى مستقيم عليهما، واختار ابن هشام الثاني، والأول أقرب إلى كلام الناظم؛ لأن جواز الجزم والنصب المذكور في البيت منسوب للفعل لا للعاطف.

٤ - مراعاة مراد الناظم والأقرب لمكانته العلمية.

من ذلك: ما في البيت ١١٤ :

وأَوَّلْ مِبْدأً وَالثَّانِي فَاعْلُ اغْنِي فِي "أَسَارِ ذَان؟" قال ابن هشام: «"ذان" تشنيه "ذا" ، لا اسم فاعلٍ من: دنا يدنو؛ لأنَّه لا يليق بذِي فَهْمٍ أَنْ يَمْثُلْ بِمُشْتَرِكٍ، وَنَحُوُ: أَقَائِمْ زِيدٌ؟ يجوز فيه إعرابان - بإجماع، وإنما النزاع في مثل: ﴿أَرَاغِبُ أَنْتَ﴾^(٢)، أعني: فيما مرفوعه ضميرٌ - فلا يُمثَّل به لأَحَدِهِما»^(٣).

(١) وهو ما شرح عليه الشاطبي في المقاصد الشافية ٦٦١/٦.

(٢) سورة مريم، من الآية ٤٦.

(٣) حواشى الألفية (رئيس الكتاب) ٦/٦.

ومراده: أن الوصف الرافع لمكتفى به المعتمد على نفي أو استفهام إن طابق الموصوف في الإفراد جاز كونه مبتدأً وخبرًا مقدمًا، نحو: أقائم زيد؟ وإن طابقه في غير الإفراد تعينت خبرته، نحو: أقائمان أخواك؟ وأقائمون إخوتك؟ وإن لم يطابقه تعينت ابتدائته، نحو: أقائم هذان؟^(١)

فلو كان ما في الألفية "دان" بالذال المهملة لصار المثال مما طابق الوصف فيه موصوفه في الإفراد، فجاز فيه إعرابان، مثل: أقائم زيد؟ ولم يصح التمثيل به؛ لأن الناظم يريد التمثيل لما تعين ابتدائته، إذ نص عليه في قوله: «وأول مبتدأً والثاني فاعل أغنى».

أما لو كان ما في الألفية "دان" بالذال المعجمة تثنية اسم الإشارة "ذا" لكان مما لم يطابق الوصف فيه موصوفه، مثل: أقائم هذان؟ فتعين ابتدائته، وهو مراد الناظم.

فهو يستبعد أن يمثل الناظم - وهو من هو في مكانته العلمية ودقة فهمه - بمثالٍ ليس نصًا في المسألة، بل يجوز فيه إعراب آخر.

٥ - مراعاة الوزن الشعري.

من ذلك: ما في البيت ١٧١:

بعد "عسى" "الخلوق" "أوشك" غَيْ بِأَنْ يَفْعَلَ عن ثَانٍ فُقدْ

(١) ينظر: أوضح المسالك ١٩٣/١.

ضبطه ابن هشام في نسخته بتشديد قاف "قَدْ" ، وقال في الحاشية: «تدغم الكاف في القاف مثل: ﴿لَكَ قُصُورًا﴾^(١)؛ وإلا لزم تسكين ...»^(٢). وضبطه ابن هشام بالإدغام؛ لئلا ينكسر البيت، بتحول عروضه من "مُسْتَفْعِلٌ": "شَقْ قَدْ يَرِدْ" إلى "مُتَفَاعِلٌ": "شَكَ قَدْ يَرِدْ" ، وهو غير جائز في الرجز^(٣).

واستدل ابن هشام لهذا الضبط بالإدغام الكبير الذي روی في قراءة أبي عمرو بن العلاء (ت ١٥٤ هـ) ، وهو إدغام الحرف المتحرك في مماثله أو مقاربه أو مجازه، فالأول كالكاف والكاف، والثاني كالميم والباء، وكالكاف والكاف، والثالث كالناء والدال^(٤).

٦ - مراعاة حكایة اللفظ.

وهو ما جرى عليه ابن هشام في ضبط أمثلة الألفية في نسخته، حيث ضبطها دون نظرٍ إلى مقتضي ما دخل عليها، بل على حكایة حركتها كما لو كانت أمثلةً مجردةً.

من ذلك: ضبطه بالضم أول المثال من: «كذكُرُ اللَّهُ عَبْدُهُ يَسِرٌ» في البيت ٢٥ ، و«كَاللَّهُ بُرٌّ وَالْأَيْادِي شَاهِدُهُ» في البيت ١١٨ ، و«كَمُثُلَ كُلُّ صَانِعٍ وَمَا صَنَعَ» في البيت ١٣٩ ، و«كَمُدُّ حَنْطَةٍ غَذَا» في البيت ٣٥٨ ،

(١) سورة الفرقان، من الآية ١٠ ، وهي قراءة أبي عمرو. ينظر: جامع البيان، للدماني ٤٤١/١.

(٢) حواشى الألفية (رئيس الكتاب) ٨/ب. وأصاب آخر النص في المخطوطة قطعٌ في طرف الورقة.

(٣) ينظر: الواي، للتبريري ص ٦٠.

(٤) ينظر: السبعة، لابن مجاهد ص ١١٨ ، والنشر ٢٧٥/٢٧٨ .

و«إن كان مثل ملء الأرض ذهبا» في البيت ٣٥٩، و«كمحمود المقادص الورع» في البيت ٤٣٩، و«كالعلم نعم المقتني والمقتفي» في البيت ٤٩١، وضبيطه بالنصب أول المثال من: «كالمطواع مِر» في البيت ١٩٠٨.^(١) ولو راعى فيها جيئاً مقتضى ما دخل عليها لضبيطها بالجر على الإضافة.

٧- مراعاة الرسم الإملائي.

من ذلك: ما في البيت ٩٢٨:

وإن يك الزائد ضفت أصلٍ فاجعل له في الوزن ما للأصلي كتب ابن هشام في نسخته الكلمة "أصلٍ" في الموضعين بالياء، وقال في الحاشية: «إنما كتبته بالياء على أنه مخففٌ من "أصلٍ" ، لا أنه لفظة "أصل" أحقت في اللفظ ياءً للإطلاق»^(٢).

فرسم الكلمتين بالياء محتملاً لأن تكونا منسوبتين مخففتين، وأن تكونا غير منسوبتين مشبعتين؛ لذلك نصَّ ابن هشام على المراد، ولو كان يريد غير المنسوبتين لرسمهما بلاِم مكسورة، تفريغاً بين المنسوب وغيره، كما في نسخ الألفية العالية^(٣)، مع جواز رسم غير المنسوب بالياء أيضاً؛ للإطلاق.

(١) تنظر على التوالي في: حواشى الألفية (رئيس الكتاب) ٢/ب، أ/٦، أ/٧، أ/١٦ (موضعان)، ١/ب، ٢/ب، ٣/ب.

(٢) حواشى الألفية (رئيس الكتاب) ٣/ب.

(٣) الألفية ص ١٧٨.

هذا ما بدا لي في مستندات الضبط التي جرى عليها ابن هشام في نسخته وفي تعليقاته على الألفية، ومن خلاها يظهر أنه لم يعتمد في واحد منها على الرواية والنقل عن المصنف، بل مداره فيها على الاجتهاد والبحث والنظر والتعليق، كمثل موقفه من اختلاف النسخ التي مر ذكرها، ويقال هنا ما قيل هناك من أن ابن هشام لم يقف على شيء في الضبط منقولٍ عن الناظم فيعتمدَه، وإنما أعمل نظره وفكره، واجتهد في ضبط ما عرض له من الألفاظ التي تدعو الحاجة إلى ضبطها، ولو كان بين يديه أثارةً من نقلٍ أو سماعٍ لما حاد عنها، والله أعلم.

المطلب الثالث: مسالكه في ضبط ما تعددت أوجهه.

يشير ابن هشام في مواضع إلى أن نصًّا الألفية يجوز في ضبطه أكثر من وجه، وقد سلك في ذلك مسالك: فربما رَجَحَ وجهاً من الأوجه على غيره، وربما أجاز الأوجه المحتملة جميعاً، وربما ضعفها جميعاً، وتفصيل هذه المسالك فيما يلي:

١ - ترجيح أحد الأوجه:

من ذلك: ما في البيت ١٩:

وَفَعْلُ أَمْرٍ وَمُضِيٍّ بُنِيَا

قال ابن هشام: «كيف أَخْبَرَ بالفعل المتحرّم لضمير الثنوية عن مفردٍ وهو "فَعْلٌ"؟ لا يقال: لإضافته إلى "أَمْرٍ وَمُضِيٍّ"؛ لأنك لو قلت: غلامٌ زَدَهُ وعُمِّرَوْ قاما؛ لم يصح، باعتبار زيد وعمرٍ. والجواب: أنه على حذف مضاف، أي: وَفَعْلُ مُضِيٍّ، والإخبار في الحقيقة عن المذكور والمحذوف معاً. وهذا الموضع يقرأ بالخفض، وذلك على حذف المضاف وبقاء المضاف إليه على ما كان عليه من الخفض؛ لكون المضاف المحذوف معطوفاً على مثله، نحو:

أَكَلَ امْرَئٌ تَحْسِبِينَ امْرًا وَنَارٌ تَوَقَّدُ بِاللَّيْلِ نَارًا^(١)

وينبغي أن يقرأ: "وَمُضِيٌّ" بالرفع، على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، على ما هو الأكثر في كلامهم^(١)، وعلى هذا فالإخبار صحيح^(٢).

(١) البيت من المتقارب، لأبي دؤاد الإيادي، في شعره ص ٣٥٣

ومع ترجيح ابن هشام هنا قراءة "مضيّ" بالرفع فإنّه ضبطها في نسخته بالجر، ولم يُشر إلى غيره^(٣)، فمشى فيها على مشهور قراءة الألفية، وقد بين في كلامه السابق أنّ له وجهاً في العربية.

ومن ذلك: ما في البيت ٢٥:

فارفع بضمٍ وانصبَنْ فتحاً وجُرْ كسرًا، ك: "ذكُرَ اللَّهُ عَبْدَهُ يَسْرُرْ" كذا جاء المثال في البيت مضبوطًا في أصل نسخة حشّاها ابن هشام، فكتب في حاشيتها: «ويجوز من حيث المعنى والصناعة أن تقول: عبدُه، بالرفع، ولكن تقوّت ثم الحركاتُ الثلاث»^(٤).

فهو يراعي مراد الناظم في التمثيل للحركات الثلاث بمثال واحد، فيرجح لذلك ضبطَ الكلمة "عبدَه" بالنصب مفعولاً للمصدر "ذكُر" المضاف إلى فاعله^(٥) - وبه ضبطَه في نسخته^(٦) - على ضبطها بالرفع فاعلاً له، مع كون هذا الضبط جائزًا على إضافة المصدر إلى مفعوله.

ومن ذلك: ما في البيت ٤٥:

وحنْدُهَا للجُزْمِ والنَّصْبِ سَمَّهُ ك: "لَمْ تَكُونِ لِتَرْوِيمِ مَظْلَمَةً"

(١) ينظر: شرح التسهيل، لابن مالك ٢٦٥/٣، ١٦٨، وأوضح المسالك ١٦٧/٣.

(٢) حواشى الألفية (البيهورية) ٣٢، ونقله ياسين في حاشية الألفية ١٩/١، ٢٠، ولم يعده ابن هشام.

(٣) حواشى الألفية (رئيس الكتاب) ٢/أ.

(٤) حواشى الألفية (يوسف آغا) ١/أ.

(٥) ينظر: تمرين الطالب ص ٩، واللوامع الشمسية ١٤/١/أ.

(٦) حواشى الألفية (رئيس الكتاب) ٢/ب.

ضبط ابن هشام في نسخته كلمة "مَظْلَمة" بفتح اللام وكسرها، وكتب فوقها: «مَعًا»، وقال في الحاشية: «وَالْأَحْسُنُ -لِأَجْلِ الشِّعْرِ - الْكَسْرُ»^(١). وكلمة "مَظْلَمة" مما جاء على وزن "مَفْعُلَة" بفتح العين وكسرها، فالفتح في القياس؛ لأنَّها مصدر ميمي من فعل ثلاثي مجرد صحيح، والكسر على الشذوذ، أو على أنها اسمٌ مَا أُخِذَ منك، لا يراد بها المصدر^(٢).

ومراد ابن هشام بقوله: «لِأَجْلِ الشِّعْرِ» موافقتها آخر الشطر الأول، وهو "سِمَةٌ"، فبكسر اللام في "مَظْلَمة" تتوافق اللفظتان في حركة حرفين قبل حرف الرويّ، وبالفتح تتوافقان في حركة حرف واحد فقط، وهو مع جوازه ليس مثل الأول في التناسب.

ومن ذلك: ما في البيت ٢٧٦

وَحَذَفَ فَضْلَةً أَجْزٌ إِنْ لَمْ يَضُرْ كَحْذَفٍ مَا سِيقَ جَوَابًا أَوْ حُصْرٌ
 قال ياسين: «قوله: "إِنْ لَمْ يَضُرْ": قال ابن هشام: يجوز: "يَضُرْ" بكسر
 الضاد، من قولهم: ضَارَه يَضِيرُه، ومنه: ﴿قَالُوا لَا ضَيْرٌ﴾^(٣)، ويجوز ضمُّ
 الضاد، على أن الفعل أَجْوَفُ وَاوِيّ، وعلى أنه مضعف وُقِفَ عليه في القافية
 بالتخفيض، مثل قوله:

(١) حواشى الألفية (رئيس الكتاب) ٣/أ.

(٢) ينظر: الكتاب، لسيوطه ٩١/٤، والمخصل ٤٠٥/٣، ٣٢٠/٤، وشرح الشافية، للرضي ١٧٢/١، وارتشاف الضرب ٥٠٤/٢.

(٣) سورة الشعراء، من الآية ٥٠.

الأخير: لا يَدْعِيَ الْقَوْمُ أَنِّي أَفْرَادٌ^(١) ...
والأخير أنساب»^(٢).

فأجاز ابن هشام في ضبط الكلمة "يَضْرُّ" في البيت وجهين:
الأول: "يَضْرُّ" بكسر الضاد وسكون الراء غير مشددة، على أنها مضارع
محزوم من: ضار يضير.

الثاني: "يَضْرُّ" بضم الضاد وسكون الراء غير مشددة، على أنها مضارع
محزوم من: ضار يضور، أو من: ضر يضر، جاءت على التخفيف، وأصلها:
يَضْرُّ.

والوجهان يرجعان إلى معنى واحد، هو الضُّرُّ ضد النفع^(٣)، لكن ابن
هشام اختار هنا الوجه الأول، وضبط به في نسخته^(٤)؛ لأن فيه تناسقاً بين:
"حُصِّرَ" و"يَضْرُّ" في كسر ما قبل حرف الرويِّ المقيد، وبه يسلم البيت من
اختلاف القافية.

(١) عجز بيت من المتقارب، لامرئ القيس، في ديوانه ص ١٥٤، وصدره:
لا، وأبيك ابنة العاميَّ ...

(٢) حاشية الألفية ١، ٢٣٨، وفيها: "يضعف" بدل "مضعف"، والتصويب من مخطوطته ١١٦/ب.

(٣) ينظر: إصلاح المنطق ص ٢٣، وجمهرة اللغة، لابن دريد ١٢٢/١، ٧٥٣/٢، ١٠٦٦،
والصحاح ٧٢٣/٢، والمحكم ٢٢٧/٨.

(٤) حواشى الألفية (رئيس الكتاب) ١٢/ب.

ومن ذلك: ما في البيت ٩٦٨:

من ياءٍ او واو بتحريكِ أصلَ أَلْفًا ابدلَ بعد فتحِ مُتَّصلٍ
ضبط ابن هشام في نسخته قوله: "أصل" بفتح الهمزة، وضم الصاد، وصحيحٌ
عليه^(١)، ونقل عنه ياسين أنه ضبطه في أصل نسخته - وهي نسخة أخرى
اعتمدها غير التي بين أيدينا - بضم الهمزة، وكسر الصاد، وأنه كتب في
حاشيتها: «كما وُجِدَ بخط ابن النحاس»، ثم قال: «رأيَتُ بخط ابن هشام
في شرحه: قوله: "أَصِلٌ" يقرؤه الناس بضم الهمزة وكسر الصاد، على البناء لما
لم يسم فاعله، وفيه نظر؛ لأن هذا الفعل لا يتعدى، فلا يُيني للمفعول، ولا
معنى لقولك: أَجْعَلُه مبنياً للمصدر، والتقدير: أَصِلٌ هو، أي: أَصِلٌ، ووُجِدَ
بخط ابن النحاس: "أَصِلٌ" بفتح الهمزة وضم الصاد، وهو القياس، إلا أنه
يَضُعُّفُ من حيث التلقفية بينه وبين "مُتَّصلٍ"، وهو جائز، ومن أحسن ما
جاء فيه قولُ امرئ القيس:

كأنَّ المُدَامَ وصَوْبَ الْغَمَامِ
مَوْرِيَحُ الْخَزَامِيِّ وَنَشَرَ الْقُطْرُ
يُعَلِّمُ بَهُ بَرْدُ أَنِيَاكِهَا
إِذَا غَرَدَ الطَّائِرُ الْمُسْتَحِرُ^(٢)

(١) حواشى الألفية (رئيس الكتاب) ٤١ / أ.

(٢) بيتان من المتقارب، وهما في الديوان ص ١٥٧ ، ١٥٨ . المدام: الخمر . والغمام: السحاب .
وصوبه: وقعة . ونشر القطر: رائحة العود الذي يتطيب به . ويعلّم: يُسقى . والمستحر: المصوّت
بالسحر .

انتهى. وهذا الذي أشار إليه آخراً هو المسمى عند علماء القوافي: سِنَاد التوجيه»^(١).

ويتضح مما تقدّم أن الضبطين نُقلَا عن ابن النحاس -وبذلك صرّح ابن سعيد التونسي (ت ١١٩٩هـ)^(٢) - وعن ابن هشام، أما ابن النحاس فلم أجد ما يرجح اختياره أحد الضبطين على الآخر، وأما ابن هشام فصريح عبارته المفصلة التي نقلها ياسين وصنيعه في نسخته التي بين أيدينا يفيدان ترجيحه فتح الهمزة وضم الصاد، وذلك أرجح من الضبط الآخر الذي نقله عنه ياسين من نسخة أخرى؛ لأنّه بجمل، وربما كان رأياً له قد ينزع عنه، ويحتمل أن يكون الضبط لغيره، فظنّ وهما أنه له، ورأيت الكلمة في أصل نسخة أخرى حشّاها ابن هشام مضبوطةً بغير خطه بضم الهمزة وكسر الصاد، ولم يعلّق عليها^(٣).

وأما تسمية ياسين ما أشار إليه ابن هشام آخراً بسِنَاد التوجيه، فإن سِنَاد التوجيه هو أن يكون قبل حرف الروي المقيّد فتحةً مع ضمةً أو كسرةً، هذارأي الخليل، وأجازه الأخفش، فإن كانت الضمة مع كسرة لم يكن سِنَاداً عندهما^(٤)، وعليه فلا عيب هنا في البيت على الضم.

(١) حواشى الألفية ٥١٠/ب، ٥١١/أ، وبعضه في مطبوعته ٥٦١/٢، ونحوه في: حاشية الصبان ٤٤٠، وحاشية الحضري ٩٢٢/٢، والفتح الودودي ٢٧٧/أ.

(٢) زواهر الكواكب ٣٠١/٢

(٣) حواشى الألفية (يوسف آغا) ٣٥/أ.

(٤) ينظر: القوافي، للأخفش ص ٣٧، والموشح ص ٧، ٨، والوافي، للخطيب التبريزى ص ٢٢١.

٢- تجويز أكثر من وجه:
من ذلك: ما في البيت ٩:
واحدة گلِمَة والقول عَمْ وكِلَمَة بها كلام قد يُؤْمِن
ضبط ابن هشام في نسخته كلمة "كلمة" الأولى بفتح فكسر، والثانية
بكسر فسكون، وقال في الحاشية: «في "الكلمة" ثلاثة لغات. من
الكافية»^(١).

وهو يشير إلى جواز ثلاثة أوجه لغوية فيها، ولم يذكرها، بل أحال على
الكافية، وهو كتاب لابن الحباز (ت ٦٣٩ هـ) شرَحَه في كتابه النهاية، ونصه
في النهاية: «وفي الكلمة ثلاثة لغات: الكلمة كـ"نِيَقة"، وهي لغة أهل الحجاز،
وكلمة كـ"جَفْنَة"، وهي لغة ربيعة، وكلمة كـ"سِدْرَة"، وهي لغة بني تميم،
وكذلك يُفعل بكل اسم على فَعِيلٍ -بكسر العين- يقال: گِيد وکِيد
وگِيد»^(٢).

ولأجل استقامة الوزن لا يجوز في الموضع الأول من البيت غير ما ضبط
به ابن هشام، أما الثاني فيجوز فيه أيضاً اللغة الثانية، وهي فتح الكاف
وسكون اللام.

ومن ذلك: ما في البيت ٣٥٦:
اسمٌ بمعنى "مِنْ" مبين نكرة يُنْصَبُ تمييزاً بما قد فسَرَه

(١) حواشى الأنفية (رئيس الكتاب) ١/ب.

(٢) النهاية في شرح الكافية ٤٠/١.

يموز في الكلمة "مبين" الرفع والجر، فالرفع على أنها نعت لـ"اسم"، والجر على أنها نعت لـ"من" باعتبار لفظها^(١)، وبكليهما جاءت نسخ الألفية العالية^(٢).

قال ابن هشام في أوضح المسالك: «التمييز: اسم نكرة، بمعنى "من" ، مبين لإبهام اسمٍ أو نسبةٍ، فخرج بالفصل الأول نحو: زيد حسنٌ وجهه ... وبالثاني: الحال؛ فإنه بمعنى: في حالٍ كذا، لا بمعنى "من" ، وبالثالث نحو: لا رجل، ونحو: أستغفرُ اللهَ ذنْبَّاً لسُّتُّ مُحْصِيَّةٍ^(٣)

فإنما - وإن كانا على معنى "من" - لكنهما ليست للبيان، بل هي في الأول للاستغراب، وفي الثاني للابتداء^(٤).

وهذا من كلامه يحتمل الضبطين، فإن جعله قول الناظم: "مبين" فصلاً مستقلاً من فصول الحد يفيد رفعه صفة لـ"اسم"؛ لأنه لو لم يكن مستقلاً

(١) ينظر: ترین الطلاب ص ٦٢ ، واللوامع الشمسية ١/١٥٨ .

(٢) الألفية ص ١١٤ .

(٣) صدر بيت من البسيط، لم أقف له على نسبة، وعجزه:

ربَّ العبادِ إِلَيْهِ الْوَجْهُ وَالْعَمَلُ ...

ينظر: الكتاب ٣٧/١ ، والمقتضب، للمبرد ٣٢١/٢ ، وشرح التسهيل ٣٧٩/٢ .

(٤) أوضح المسالك ٣٦٣-٣٦٠/٢ .

لجعله قيداً للفصل الثاني قبله، وقوله: «فإنهما - وإن كانوا على معنى "من" - لكنها ليست للبيان» يفيد جرّه صفةً لـ"من"؛ لأنّه جعل البيان عائداً إليها^(١). وقد اكتفى ابن هشام مرّةً بالجر، فضبطت به الكلمة في نسخته من الألفية، ولم يذكر غيره^(٢)، واكتفى مرّةً بالرفع، فضبطتها به في حاشية أخرى، قال ياسين: «وعبارة المصنف في الحواشي: قوله: "مبين" بالرفع»^(٣)، وهذا من ابن هشام دالٌّ على إجازته الوجهين معًا.

ومن ذلك: ما في البيت ٤٣٧:

وكل ما قُرِرَ لاسْمٍ فَاعِلٍ يُعْطِي اسْمٍ مفْعُولٍ بلا تَفَاضل
 ضبط ابن هشام في نسخته الكلمة "كل" بالرفع والنصب، وكتب فوقها "معاً" ، وضبط الكلمة "اسم" بالرفع، وقال في الحاشية: «إن رفع "كُل" فمبتداً، خبره "يُعْطِي" ، أي: يُعْطَاه، "اسم" مرفوع، مثل:
 وَحَالِدٌ يَحْمُدُ أَصْحَابَهُ^(٤)»

(١) ينظر: ترین الطلاب ص ٦٢، وحاشية التصريح ٦٨٣/٢.

(٢) حواشي الألفية (رئيس الكتاب) ١٦/أ.

(٣) حاشية التصريح ٦٨٣/٢.

(٤) صدر بيت من السريع، للأسود بن يعْفُر، في ضرائر الشعر، لابن عصفور ص ١٧٦، وعجزه:
 بالحَقِّ لَا يُحْمَدُ بِالْبَاطِلِ ...

وهو بلا نسبة في: شرح التسهيل ٣١٣/١، ١٦٢/٢، ومغني الليبب، لابن هشام ص ٧٩٦.

وإن جعلت "كُلٌّ" مفعولٍ "يُعطى"، فتنصبُ، و"اسمٌ" أيضًا مرفوعٌ؛ لأنَّه مفعولُه الأولُ نائبٌ عن فاعله، فالحاصلُ: أنَّ "اسمٍ" لا بدَّ من رفعه، وأنَّه يجوز وجهان في "كُلٌّ"؛ بناءً على أنه: هل الأصلُ: يُعطَاه، أم لا؟^(١)

لَكَنْ ابن هشام لم يقتصر على هذين الوجهين، بل أجاز معهما في حاشية أخرى^(٢) وجهاً ثالثاً، وهو رفع "كُلٌّ"، ونصب "اسمٌ" على أنه مفعولٌ أوَّلٌ لـ"يُعطى"؛ وأنَّ مفعوله الثاني ضمير مستتر فيه نائبٌ عن الفاعل، لَكَنْ ضعفَه بِأَنَّ فِيهِ إِقَامَةُ المفعولِ الثانِي وَتَرْكُ المفعولِ الأوَّل، وَقَوَاهُ عَلَى عَكْسِهِ بِأَنَّ المفعولِ الثانِي فِيهِ لَمْ يَتَقدَّمْ عَلَى العَامِلِ، وَهَذَا الوجهُ الثالثُ هُوَ الَّذِي جَاءَتْ بِهِ نسخُ الألْفِيَّةِ الْعَالِيَّةِ، وَلَمْ يَشُرِّحْ حَقِيقَتِهِ إِلَى وَرَوْدِ غَيْرِهِ فِيهَا^(٣).

وَضَعَّفَ ابن هشام في الحاشية الأخرى أيضًا الوجه الأوَّل الَّذِي ذُكِرَهُ في الحاشية الأوَّلِيَّةِ -وَهُوَ رفع "كُلٌّ" وـ"اسمٌ"- بِأَنَّ فِيهِ حَذْفَ المفعولِ الثانِي، وَقَوَاهُ بِأَنَّ لَهُ شَوَاهِدًا مَسْمُوعَةً، مُثْلَ قِرَاءَةِ: ﴿وَكُلٌّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾^(٤)، وَقَوْلِ

الشاعر:

كُلُّهُ لَمْ أَصْنَعَ^(٥)

(١) حواشى الألْفِيَّةِ (رَئِيسُ الْكِتَابِ) ١٩/ب.

(٢) حواشى الألْفِيَّةِ (الْتِيمُورِيَّةِ) ٧٥ في مَوْضِعَيْنِ، وَنَقْلُهُمَا يَاسِينَ في حاشية الألْفِيَّةِ ٤٣٩/١، ٤٤٠.

(٣) الألْفِيَّةِ ص ١٢٣.

(٤) سُورَةُ الْحَدِيدِ، مِنَ الْآيَةِ ١٠، وَهِيَ قِرَاءَةُ ابْنِ عَامِرٍ. يَنْظُرُ: السِّبْعَةُ ص ٦٢٥، وَالنُّشُرُ، لِابْنِ الْجَزَرِيِّ ٣٨٤/٢.

(٥) بَعْضُ بَيْتٍ مِنْ مَشْطُورِ الرِّجْزِ، لِأَبِي النَّجْمِ الْعَجْلِيِّ، فِي دِيْوَانِهِ ص ٢٥٦، وَتَمَامُهُ مَعَ مَا قَبْلَهُ:

والخلاصة أن الأوجه الثلاثة في البيت عند ابن هشام متساوية؛ لأن لكل واحد منها وجهاً يقويه، ووجهاً يضعفه.

ومن ذلك: ما في البيت ٥٩٢:

وأجعل منادى صحَّ ان يُضَفْ كـ"عبدِ" ، عبدِي ، عبدَ ، عبدَ ،
قال ياسين: «وقال أيضًا (أي: ابن هشام): المعروف في نسخ هذه الأرجوزة وعلى لسان قرائتها فتح "أن" من قوله: "صحَّ أنْ يُضَفْ" ، وليس بواضِحُ اللُّفْظُ؛ لكون ما وَلَيَ "أن" على صورة المجزوم، فيجوز أن يكون مجزومًا والحالة هذه على لغة من يجزم ما بعد النواصِب، وهي لغة حكاها جماعة من النحويين، وقد جاء عليها شيء صالح من السنة والشعر^(١) ، وتكون "أن" وصلتها في موضع رفع بـ"صحَّ" ، وتكون فائدة إسناد "صحَّ" إلى "أنْ يُضَفْ" التنبيه إلى أن من الأسماء ما لا يصح أن يضاف إلى الياء. ويجوز أن تكسر "إِنْ" ، ويكون فاعل "صحَّ" ضميرًا عائدًا على "منادى" ، فائدةً وصفيه بالصحة الاحتراز عما حَرْفٌ إعرابِه أَلْفٌ أو ياءٌ، نحو: عصا، وفتى، وزيدَيَّ،

قد أصبحتْ أمُ الْحَيَارِ تَدْعِي

عَلَيَّ ذَبَّا كُلُّهُ لَمْ أَصْنَعْ

(١) ينظر: الإنْصَاف ٥٠٣/٢، وشواهد التوضيح والتصحيح، لابن مالك ص ٢١٧ ، ومعنى الليب ص ٣٦٥، ٩١٦.

وزيدِيَّ، فإنَّه لا يجوز فيه كُلُّ هذه اللغات، وجوابُ الشرط مذوق دلَّ عليه "اجعل" و"معموله" ^(١).

فأجاز ابن هشام في همزة "أَنَّ" الفتح والكسر، وخرج كُلُّ واحدٍ منها على وجه صالح في العربية، مبيِّناً أنَّ معنى البيت ومراد الناظم يختلفان في كُلِّ واحدٍ منها: ففي الفتح يكون معناه: اجعل المنادى الصالح للإضافة إلى الياء شبِّهَا بما مُثِّلَ به، ومرادُه: بيان أنَّ من الأسماء المناداة ما لا تصحُّ إضافته إلى ياء المتكلِّم، وعلى الكسر يكون معناه: اجعل المنادى الذي صحَّ حرفُ إعرابه إذا أُضِيفَ إلى الياء شبِّهَا بما مُثِّلَ به، ومرادُه: بيان أنَّ الأسماء المناداة التي إعرابها بحرف معتلٍ لا تكون شبِّهَةً بما مُثِّلَ به من كُلِّ وجه.

وما ذكره ابن هشام في أول كلامه من أنَّ الفتح هو المشهور في نسخ الألفية وعلى ألسنة قرائتها في وقته لم أر محقق الألفية أشار إلى وروده في شيء من نسخها العالية ^(٢)، واختار ابن هشام في نسخته الكسر، ولم يُشرِّر إلى غيره ^(٣).

ومن ذلك: ما في البيت ٩٤٩ :

وَمَدَّا ابْدَلَ ثَانِي الْمَزِينِ مِنْ كِلْمَةٍ اَنْ يَسْكُنَ كَ: آثِرٌ، وَايْتَمْنٌ

(١) حاشية الألفية ١٢١/٢، ١٢٢، وفيها: "التنبيه"، والمشتبه من مخطوطته ٣٢٠/أ، وفيهما:

"جعل" بدل "اجعل".

(٢) الألفية ص ١٤٢ .

(٣) حواشى الألفية (رئيس الكتاب) ٢٦/أ.

رسم ابن هشام في نسخته الكلمة "ايتمن" بالياء، ولم يضبطها^(١)، وهي كذلك بالياء غير مضبوطة في أصل نسخة ثانية حشّاها ابن هشام، إلا أن المتن فيها بغير خطه^(٢)، وكأنها في أصل نسخة ثالثة -متّها بغير خط ابن هشام أيضًا - مضبوطة بضم التاء وفتحها معًا، مع كسر الميم، وكتب ابن هشام بخطه في حاشيتها: «ومثّل ابنه^(٣) بـ: آثَرْتُ أُوثيرَ إيشارًا، لكن الإبدال في: آثَرْت جائز لا واجب؛ لأنَّ الهمزة الأولى همزة المضارعة^(٤)، وهذا يأتي التنبيه عليه في قوله:

و "أُوْمٌ" و "نَحُوْهُ"

البيت^(٥). والمثال المطابق لوجوب الإبدال: أُوْمِنْ، ويحتمله قوله: "وائِنْ" ، ويجوز أن يقرأ: وائِنْ، فيكون أمرًا، لا ماضيًا مبنيًا للمفعول^(٦). ومدلول كلامه أن الكلمة تحتمل ثلاثة أوجه: واحدًا من نوعًا، وهو كونها فعلًا مضارعًا: آتَيْنِ؛ لأنَّ ما كانت همزة الأولى للمضارعة فإنَّ إبدال همزة الثانية جائز لا واجب^(٧)، واثنين جائزين، وهما كونها فعلًا ماضيًا مبنيًا للمفعول:

(١) حواشى الألفية (رئيس الكتاب) ٤٠/ب.

(٢) حواشى الألفية (مجمع اللغة بدمشق) ٨٦/أ.

(٣) شرح الألفية ص ٥٩٩.

(٤) كذا بخطه، و "آثَرْت" فعل ماضٍ، ومراده: أُثِيرَ، وأصلها: أُثِيرُ.

(٥) الألفية ص ١٨١، البيت ٩٥٢.

(٦) حواشى الألفية (يوسف آغا) ٣٤/ب.

(٧) ينظر: شرح الألفية، لابن الناظم ص ٦٠٠، وأوضح المسالك ٣٨٤/٤، ٣٨٥، والمقاصد الشافية ١٠٣/٩.

أوْتَمِنْ، وكوْتَهَا فعلَ أَمْرٍ: اِيتَمِنْ، ويلحظُ أنَّ ابنَ هشامَ رسمَها في تعليقه: "واتَمِنْ" بلا ياءٍ أو واءٍ، كما في بعض نسخ الألفية العالية^(١)، فاحتمل فيها ثلاثةُ الأُوجه، ولم يلتفت إلى رسمها بالياء في النسخة التي عُلِقَ عليها وفي غيرها من النسخ، وهو قاضٍ بكونها فعلَ أَمْرٍ.

لكنه راعى مقتضى رسمها بالياء في نسخة أخرى، فنقل ياسين عن خطه أنه ضبطها بكسر المهمزة، وفتح التاء، وكسر الميم، وقال: «وهو المناسب لرسم "اِيتَمِنْ" بالياء في جميع النسخ. وقولُ الشهاب^(٢): إنه فعلٌ ماضٌ مبنيٌّ لما لم يسم فاعله لا يناسب ذلك، وإنما يناسب رسمها واؤاً؛ لأنَّها حينئذ تقلب واؤاً»^(٣).

ومن ذلك: ما في البيت ٩٦٤

من لام "فَعَلَى" اسمًا أتى الواو ياءً، كـ"تقوى"، غالباً جاً ذا البَدْل ضبط ابن هشام في نسخته الكلمة "تقوى" بـنقطتين من فوق، وبنقطة من تحت، وكتب فوقها: «معًا»، إشارةً إلى تجويز الوجهين فيها، وقال في الحاشية: «قولُه: "كَتَقْوَى"؛ إنَّ قرئَ بالتاءَ من فوق فهو من: أَتَقْيَتْ، أو

(١) الألفية ص ١٨١.

(٢) هو أَحمد بن قاسم العبادي (ت ٩٩٢هـ). ينظر: حاشيته على شرح الأشموني ٢١٩/أ (الأزهرية ٨٤٦٢١)، وفي بعض نسخها: « قوله: "اِيتَمِنْ": فعل مضارع مبنيٌّ لما لم يسم فاعله»، وهو تحرير. ينظر: ١٠٦/ب (الأزهرية ٤٢٠٠٣)، ٤٢٨١/ب (الأزهرية ٢٢٦٢)، ٢٢٨/أ (الأزهرية ١٣٢٣٦٥).

(٣) حاشية الألفية ٥٠٣/ب، ٤٠٥/أ، ونحوه في حاشية الصبان ٤١٦.

ثانية الحروف فهو من: بقى ضد فَيَ، أو من بقى الشيء -فتح القاف-
إذا انتظرته^(١)، وكلامها^(٢) بالياء^(٣).

والوجه الأول الذي أجازه ابن هشام - وهو القوى - هو المشهور الذي جاءت به أكثر نسخ الألفية العالية، أما الوجه الثاني - وهو القوى - فقد جاءت به إحدى نسخها^(٤).

٣- تضييف جميع الأوجه:

من ذلك: ما في البيت ٤٢٢:

وَتُذَعِّمُ الْيَا فِيهِ وَالوَاؤْ وَإِنْ مَا قَبْلَ وَأَوْ ضُمَّ فَاكِسِرَةُ يَهْنٌ
ضبط ابن هشام كلمة "يَهْنٌ" في نسخته بكسر الهاء، وقال في الحاشية:
«وقُولُه: "يَهْنٌ": إن ضمَّت الهاء تغيَّرت القوافي، وإن كُسِرت كان معناه:
يُضَعُّفُ، وهو فاسد؛ لأنَّه واجب لا ضعيف»^(٥).

وبالكسر جاءت أكثر نسخ الألفية العالية، وبالضم جاءت نسخة منها^(٦)، وقد أورد ابن هشام على كل واحد منها إشكالاً، فبالضم - على أنه مجزوم في جواب الطلب، من: هان يَهُون، إذا سَهُل - يختلف ما قبل

(١) ينظر: الصداح ٦/٢٢٨٣، والمحكم ٦/٥٨٦.

(٢) في المخطوطة: وكلامها، وهو سهو.

(٣) حواشى الألفية (رئيس الكتاب) ٤١/أ.

(٤) الألفية ص ١٨٣.

(٥) حواشى الألفية (رئيس الكتاب) وجه الورقة الثالثة الملتحقة بين ١٨/ب و ١٩/أ.

(٦) الألفية ص ١٢١.

حرف الروي المقيد في الشطرين، وبالكسر -على أنه من: وَهَنَ يَهِنُ، إذا ضُعِفَ- يكون المعنى: فاكسره ضعيفاً، وهو ليس ضعيفاً، بل قوي واجب. ولعل الضبطين جائزان، أما الضم فقد تقدم أن اختلاف الضمة مع الكسرة في القوافي المقيدة لا يعد من سِنَاد التوجيه^(١)، وعليه فلا عيب في البيت على الضم، وأما الكسر فلأنه جاء: هَانَ يَهِنُ، إذا صار هِنَّا لِهِنَّا^(٢)، فيمكن أن يخرج ما في البيت على هذه اللغة، وهو موافق لمراد الناظم.

هذا ما تيسر لي إيراده في هذا البحث، وبقيت فيه أمثلة أخرى، لعل فيما أوردته دليلاً عليها، وأجمل خلاصة ما انتهيت إليه فيما يلي:

١- ظهر في جهود ابن هشام في تحقيق نصوص الألفية استفاداته من علومٍ شتى، فاستعمل لذلك معارف متنوعة في اللغة والنحو والصرف والقافية. ٢- وقع لابن هشام في نسخة الألفية التي كتبها مخالفات لنسخ الألفية العالية الأخرى، بعضها أوهام لا يخلو منها البشر، وبعضها راجع إلى ما في الأصل الذي نقل منه.

٣- خالف ضبطُ ابن هشام في نسخته ما اختاره في غيرها في البيتين ١٩ و٣٣٢، ورجحَت أن ذلك من اختلاف رأيه في الضبط. وجاء ما في نسخته مخالفًا اختياره من بين نسخ الألفية في عنوان الباب الأول منها، ورجحَت أن ذلك اتِّباعً منه لأصل نسخته.

(١) ينظر: القوافي، للأخفش ص ٣٧، والمושع ص ٧، ٨، والوافي، للخطيب التبريزى ص ٢٢١.

(٢) ينظر: خطأ فصيح ثعلب، للزجاج ص ٤٣، ٤٣، والمحكم ٢٥١/٤، ٣٨٣/٤.

٤- لم يعتمد ابن هشام في ترجيحه بين نسخ الألفية وفي ضبطه ألفاظها - فيما وقفت عليه- على رواية، بل رجح بينها مراعيًّا أموراً، منها: المعنى، والحكم النحوي، ومراد الناظم، والخلو من عيوب القافية، وأظهر وجوه الإعراب، وضبطها مراعيًّا أموراً، منها: المعنى، والإعراب، والصناعة النحوية، ومراد الناظم، والوزن، والرسم، وحكاية اللفظ.

٥- جاءت نسخة الألفية التي كتبها ابن هشام في مقدمة نسخها العالية التي اعتمدتها محققها، ولها نسخة أخرى أقدم من نسخة ابن هشام بثلاث عشرة سنة، كتبت سنة ٧١٩هـ، وعليها إجازة بخط أبي حيان سنة ٧٢٠هـ، لم يعتمدتها محققها.

والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

مراجع البحث

أولاً: المخطوطات والوسائل العلمية:

- حاشية الألفية، لياسين بن زين الدين العليمي، نسخة جامعة الملك سعود، بالرقم ٧٠٣١.
- حاشية شرح الأشموني على الألفية، لأحمد بن قاسم العبادي، نسخ المكتبة الأزهرية بالأرقام ٤٢٠٣ و ٤٢٦٢ و ١٣٢٣٦٥.
- حواشى ألفية ابن مالك، لابن هشام. نسخة مكتبة رئيس الكتاب بالرقم ١٠٣٩، ونسخة مكتبة يوسف آغا بالرقم ١٠٣٩٢، ونسخة مكتبة مجمع اللغة العربية بدمشق بالرقم ١٠٤١، ونسخة المكتبة التيمورية بالرقم ١٨٧ نحو.
- المخلاصة الأسدية، لابن مالك، نسخة مكتبة يوسف آغا بقونيه بتركيا بالرقم ٥٦٧.
- الفتح الودودي على المكودي، لابن حمدون، نسخة جامعة الملك سعود بالرقم ٧٢٦٣.
- اللوامع الشمسية في إعراب الألفية، لابن طولون الحنفي، نسخة المكتبة الظاهرية بدمشق بالرقمين ١٦٤٥ و ١٦٤٦.
- النهاية في شرح الكفاية، لابن البارز، تحقيق عبدالله عمر حاج إبراهيم، رسالة ماجستير قدمت إلى فرع اللغة في قسم الدراسات العليا بجامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٤١٢.

ثانياً: المطبوعات:

- آثار ابن هشام الأنصاري تصنيف واستدراك وتحقيق نسبة، جابر بن عبدالله السريع، مجلة مجمع اللغة العربية على الشبكة العالمية بمكة المكرمة، ع ٢٣، ١٤٤١، ص ٣٥-٨٣.
- ارتشاف الضرب من لسان العرب، لأبي حيان الأندلسى، تحقيق رجب عثمان محمد، مكتبة الحناجي، القاهرة، ط ١، ١٤١٨.
- إصلاح المنطق، لابن السكikt، تحقيق محمد مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ١، ١٤٢٣.
- ألفية ابن مالك، تحقيق سليمان بن عبدالعزيز العيوني، مكتبة دار المنهاج، الرياض، ط ١، ١٤٣٢.
- الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والковيين، لأبي البركات الأنباري، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٢٤.

- أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، لابن هشام، تحقيق محمد محبى الدين عبدالحميد، المكتبة العصرية، بيروت.
- التبيين عن مذاهب النحوين البصريين والковفيين، للعكّري، تحقيق عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، مكتبة العبيكان، الرياض، ط ١، ١٤٢١.
- تحقيق النصوص ونشرها، لعبدالسلام هارون، مكتبة الماخنجي، القاهرة، ط ٧، ١٤١٨.
- تخلص الشواهد وتلخيص الفوائد، لابن هشام، تحقيق عباس مصطفى الصالحي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ١، ١٤٠٦.
- تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد، لابن مالك، تحقيق محمد كامل بركات، دار الكاتب العربي، القاهرة، ١٣٨٧.
- تقاليد المخطوط العربي، لأدم جاسك، ترجمة مراد تدغوت، معهد المخطوطات العربية، القاهرة، ٢٠١٠ م.
- تمرير الطلاب في صناعة الإعراب، لخالد الأزهري، المكتبة الشعبية، بيروت.
- توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك، لحسن بن قاسم المرادي، تحقيق عبد الرحمن علي سليمان، دار الفكر العربي، ط ١، ١٤٢٨.
- جامع البيان في القراءات السبع، لأبي عمرو الداني، تحقيق مجموعة من الباحثين، جامعة الشارقة، الإمارات، ط ١، ١٤٢٨.
- الجامع الصغير في النحو، لابن هشام، تحقيق أحمد محمود الهرمي، مكتبة الماخنجي، القاهرة، ١٤٠٠.
- جمهرة اللغة، لابن دريد، تحقيق رمزي منير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط ١، ١٩٨٧ م.
- حاشية الألفية، لياسين بن زين الدين العليمي، المطبعة المولوية، فاس، ١٣٢٧.
- حاشية التصريح، لياسين بن زين الدين العليمي، بحاشية: التصريح بمضمون التوضيح للأزهري، تحقيق أحمد السيد سيد أحمد، المكتبة التوفيقية، القاهرة.
- حاشية شرح ابن عقيل على الألفية، لحمد الخضري، تحقيق يوسف البقاعي، دار الفكر، بيروت، ط ١، ١٤٢٤.

- حاشية شرح الأشموني على الألفية، محمد بن علي الصبان، ضبط إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١٧.
- خطأ فصيح ثعلب، للزجاج، تحقيق محمد علي عطا، معهد المخطوطات العربية، القاهرة، ط ١، ١٤٣٩.
- ديوان أبي النجم العجلي، جمع محمد جران، مطبوعات مجمع اللغة بدمشق، ١٤٢٧.
- ديوان امرئ القيس، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، القاهرة، ط ٥، ١٩٩٠.
- زواهر الكواكب لبواهر المواكب، لابن سعيد التونسي، مطبعة الدولة التونسية، ١٢٩٣.
- السبعة، لابن مجاهد، تحقيق شوقي ضيف، دار المعرفة، القاهرة، ط ٢، ١٩٨٠.
- سيرة ألفية ابن مالك تأليفاً وإبرازاً وتحقيقاً، لسليمان بن عبدالعزيز العيوني، مجلة الدرعية، ع ٤٦، ١٤٣٠، ص ١٤٣-٢١٨.
- شرح الألفية، لبدر الدين ابن مالك، تحقيق محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٢، ٢٠١٠.
- شرح الألفية، للمكودي، تحقيق عبدالحميد هنداوي، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٢٥.
- شرح التسهيل، لابن مالك، تحقيق عبد الرحمن السيد ومحمد بدوي المختون، دار هجر، القاهرة، ط ١، ١٤١٠.
- شرح الحماسة، للخطيب التبريزي، مصورة عالم الكتب، بيروت.
- شرح ديوان الحماسة، للمرزوقي، تحقيق أحمد أمين وعبدالسلام هارون، مصورة دار الجيل، بيروت، ط ١، ١٤١١.
- شرح الشافية، للرضي الإسترابادي، تحقيق محمد نور الحسن ومحمد الرفاف ومحمد محبي الدين عبدالحميد، مصورة دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٢.
- شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب، لابن هشام، تحقيق عبدالغنى الدقر، الشركة المتحدة للتوزيع، دمشق، ١٤٠٤.
- شرح قصر الندى ويل الصدى، لابن هشام، تحقيق محمد محبي الدين عبدالحميد، المكتبة العصرية، بيروت، ط ١، ١٤١٧.

- شرح الكافية، للرضي الإسترابادي، تحقيق يوسف عمر، جامعة قاريونس، ليبيا، ١٣٩٥.
- شرح المفصل، لابن يعيش، تحقيق إميل يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٢٢.
- شعر أبي دُؤاد الإيادي، جمع غوستاف فون غربنباوم، ترجمة إحسان عباس وأنيس فريحة ومحمد يوسف نجم وكمال اليازجي، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٥٩.
- شعر عبدة بن الطيب، تحقيق يحيى الجبوري، دار التربية، بغداد، ١٣٩١.
- صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، للقلقشندى، تحقيق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١٩٨٧، ١م.
- الصلاح، للجوهري، تحقيق أحمد عطار، دار العلم للملائين، بيروت، ط ١، ١٣٧٦.
- ضرائر الشعر، لابن عصفور، تحقيق السيد إبراهيم محمد، دار الأندرس، ط ١، ١٩٨٠.
- علوم الحديث، لابن الصلاح، تحقيق نور الدين عتر، دار الفكر، دمشق، ودار الفكر المعاصر، بيروت، ١٤٠٦.
- القوافي، للأخفش، تحقيق أحمد راتب النفاخ، دار الأمانة، ط ١، ١٣٩٤.
- الكتاب، لسيسيويه، تحقيق عبدالسلام هارون، مصورة دار الجيل، بيروت، ط ١.
- الحكم والحيط الأعظم، لابن سيده، تحقيق عبدالحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٢١.
- المخصوص، لابن سيده، تحقيق خليل إبراهيم جفال، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ١٤١٧، ١.
- المستخرج على صحيح مسلم، لأبي عوانة الإسغرايني، تحقيق أيمن بن عارف الدمشقي، دار المعرفة، بيروت، ط ١، ١٤١٩.
- معاني القرآن، للفراء، تحقيق محمد علي النجار وأحمد يوسف نجاتي وعبدالفتاح شلبي، مصورة عالم الكتب، بيروت، ط ٣، ٣، ١٤٠٣.
- معجم البلدان، للياقوت الحموي، دار صادر، بيروت، ط ٢، ٢، ١٩٩٥.
- معجم مصطلحات المخطوط العربي، لأحمد شوقي بنين ومصطفى طوي، الخزانة الحسينية، الرباط، ط ٣، ٣، ٢٠٠٥م.

- مغني الليب عن كتب الأعرايب، لابن هشام، تحقيق مازن المبارك ومحمد علي حمد الله، دار الفكر، بيروت، ط ٦، ١٩٨٥ م.
- المقاصد الشافية في شرح الخلاصة الكافية، لأبي إسحاق الشاطبي، تحقيق مجموعة من الأساتذة، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى، مكة المكرمة، ط ١، ١٤٢٨.
- المقتنض، للميريد، تحقيق محمد عبدالخالق عضيمة، مصورة عالم الكتب، بيروت.
- منهج السالك في الكلام على ألفية ابن مالك، لأبي حيان الأندلسى، تحقيق سدلى جلازر، ١٩٤٧ م.
- الموشح، للمرزباني، تحقيق علي البحاوي، خصبة مصر.
- النشر في القراءات العشر، لابن الجزري، تصحيح علي الضباع، دار الفكر، بيروت.
- المكت على الألفية والكافية والشافية والشذور والزنة، للسيوطى، تحقيق فاخر جبر مطر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٢٨.
- الواقي في العروض والقوافي، للخطيب التبريزى، تحقيق فخر الدين قباوة، دار الفكر، دمشق، ط ٤، ١٤٠٧.

صَوْنُ الْيَاءِ مِنَ الْقَلْبِ
(مَظَاهِرُهُ، وَبُوَاعِثُهُ، وَطُرُقُهُ)

د. عبد العزيز بن علي بن أحمد الغامدي
قسم النحو والصرف وفقه اللغة – كلية اللغة العربية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

صَوْنُ الْيَاءِ مِنَ الْقَلْبِ (مَظَاهِرُهُ، وَبُواعِثُهُ، وَطُرُقُهُ)

د. عبد العزيز بن علي بن أحمد الغامدي

قسم النحو والصرف وفقه اللغة - كلية اللغة العربية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

تاریخ تقديم البحث: ١٤٤٢/٧/١٦ تاریخ قبول البحث: ١٤٤٢/٩/٦ هـ

ملخص الدراسة:

لم يكن مصطلح الصَّوْنِ شائعاً في استعمالات العلماء في مسائل القلب بهذا المعنى، وإنما كان يُوحى إليه في كلامهم، وقد يُعَرَّفُ عنه بالفاظِ تدلُّ عليه، وهو يعني: تصحيح الحرف حين يكون معَرَضاً للقلب بالحيلولة دون العلة الموجبة لقلبه، والحرف المقصود هو الْيَاءُ؛ فقد كانت أكثر الحروف التي اتُّقِيَ قلبها.

وَتُعْنِي هذه الدراسة بالكشف عن جوانب هذا الموضوع، ونظم ما تَفَرَّقَ فيه من دقائق للعلماء، كانت تُساقُ مبسوِّطةً في ثنايا نصوصهم.

وقد بدأنا بِمُقْدِمَةٍ، ثم تمهيدٍ فيه عرضٌ سريعٌ لحروف القلب، ومواقع قلب الْيَاءِ، ومعنى صَوْنِها من القلب، وتلا ذلك ثلاثة مباحث: اشتمل الأول على مظاهر الصَّوْنِ، والثاني على بُواعِثُهُ، والثالث على طُرُقِهِ، ثم جاءت الخاتمة وأودعَتُ فيها أَهْمَّ مَا توصلَتُ إليه من نتائج.

الكلمات المفتاحية: صَوْنٌ، تصحيح، سلامَة، الْيَاءُ، القلب.

* يشكر الباحث عمادة البحث العلمي بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في المملكة العربية السعودية؛ لتمويلها هذا المشروع في عام ١٤٤٢ هـ، برقم: (٢٠١٣٠٤٠٠٨).

Protecting the Yaa Letter from Conversion: (Its Manifestations, Motives, and Methods)

Dr. Abdulaziz Ibn Ali Ibn Ahmad Al-Ghamdi

Department of Grammar, Morphology and Philology - College of Arabic Language

Al-Imam Muhammad Ibn Saud Islamic University

Abstract:

The term Protection was not common in the uses of scholars with this word; rather it was hinted to it from their words. It means correcting the letter when it is exposed to be turned by preventing the cause that results in converting it, and the intended letter in this topic is the Yaa as it was the most common letter that was prevented to be turned.

This research is concerned with uncovering the aspects of this topic; setting the details dispersed by the scholars on it. They presented and conveyed in the folds of their texts.

I began it with an introduction, then a preface in which a quick presentation of converting letters, positions of turning the Yaa. The meaning of protecting it from conversion, followed by three discussions: the first included manifestations of protection the second on its motives, and the third on its methods, then concluded and put in it the most important results I have come to.

key words: Protection, Correction, Safety, Yaa, Conversion.

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلوة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين،
نبينا محمد، وعلى آله وصحبه والتابعين، أما بعد:

فلا يخفى أن موضوع القلب من الموضوعات المألوفة في الدرس الصرفي،
وقد تكلّم العلماء عن حروفه، وبخوا في العلل والشروط والشواذ، وقدّموا في
ذلك دراساتٍ مستفيضة.

وهذا الموضوع يتناول جانباً آخر: وهو أن الحرف قد يكون معَرَضاً
للقلب، ثم يُعمَد إلى تصحيحه، بطريقَةٍ تحوّل دون السبب المقتضي قلبه.
ومن أمثلة ذلك: (أَيْدِي) أصله: (أَفْعُل)، فالإياء فيه
سانحةٌ لقلبها واوًّا بسبب الضمة قبلها، لكن الضمة أُبدلت كسرةً؛ لتسسلم
الباء، ولو قُلْبَتْ واوًّا فقيل: (أَيْدُو) لصارت إلى بناء ليس له نظير، فليس في
العربية اسم معرَبٌ آخره واوًّا لازمةً مضمومٌ ما قبلها^(١).

وقد ألفيتُ بعد طُول استقراءٍ أن حديث العلماء في هذا الموضوع يحوم
معظمَه حول الباء، وأنه أكثر الحروف التي صيّنت من القلب، فكان ذلك
باعثًا لإعداد دراسةٍ تتجه لبحث مسائله، والتعمق في جزئياته.

وتكمّن أهمية هذا الموضوع في أن علماء العربية لم تكن عناناتهم محصورةً
في عرض حالات القلب المحرَّدة، وما يتصل بها من مسائل شاذة، وإنما كانوا

(١) ينظر المبحث الثالث: مراعاة النظير.

يشيرون لدقائق مهمة، **تساقٌ مبئوثةً** في ثنايا نصوصهم، لعلّ هذا البحث يكشف شيئاً منها.

ويهدف الموضوع إلى حصر المظاهر التي صينت فيها الياء من القلب، وإشهار أسباب الصّون، وعرض طُرقه.

وقد قُدِّمت في موضوع القلب دراسات كثيرة لا حصر لها^(١)، غير أنّي لم أقف على دراسة اتجهت إلى فكرته بحسب اطلاقي. وتتعيّنا خطة هذا العمل أن تتحقّق الأهداف المسموّة آنفًا، فتكون على النحو الآتي: المقدمة.

التمهيد: وفيه عرضٌ سريعٌ لحروف القلب، ومواضع قلب الياء، ومعنى صونها من القلب.

ثم يأتي بعد ذلك ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: مظاهر صون الياء من القلب.

المبحث الثاني: بوعث صون الياء من القلب.

المبحث الثالث: طُرق صون الياء من القلب.

الخاتمة: وفيها نتائج البحث.

والله - تعالى - أَسْأَلُ أَنْ يَتَقَبَّلَ هَذَا الْجَهْدُ، وَأَنْ يَنْفَعَ بِهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

(١) وبعضاًها يتصل بموانعه، مثل: (موانع الإعلال في العربية: دراسة صوتية صرفية، لعلاء صالح عبيد حسين الأسد)، وفحوى هذه الدراسة أن الحرف يمتنع إعلاله بالقلب أو بالنقل أو بالحذف إذا فقد شرط الإعلال، ودرستي لا تتناول هذا.

التمهيد: حروف القلب، ومواضع قلب الياء، ومعنى صوتها من القلب:
يختصّ القلب بأحرف العلة، وهي الواو والياء والألف، وأدخل بعض
العلماء الهمزة؛ لأنّها تقارب تلك الأحرف بكثرة التغيير^(١).

والياء تُقلب إما واواً، وإما ألفاً، وإما همزة، وهذه الموضع معروفة مألوفة،
أفضض فيها العلماء، وبسطوا شروطها، وأشاروا في طيات حديثهم إشاراتٍ
عاشرةً إلى أن الياء قد تصير إلى هيئة لا يؤمنُ فيها القلب، ثم تُصان منه.

والصّون في اللغة يعني: الوقاية أو الحفظ، جاء في العين^(٢): "الصّون: أن
تقي شيئاً مما يُفسده"، وقال ابن فارس: "الصاد والواو والنون أصلٌ واحد،
وهي كُنْ وحفظ، من ذلك: صُنْتُ الشيء أصونه صَوْنًا وصيانته"^(٣).
وأما في الاصطلاح فيمكن تقريب مفهومه بأنه: تصحيح الحرف المعرّض
للقلب بالحيلولة دون العلة الموجبة لقلبه.

وتبدو العلاقة جليّة بين المعنى اللغوي والمفهوم الاصطلاحي؛ فتصحيح
الحرف يعني وقايته من القلب أو حفظه منه.

ومصطلح الصّون لم يكن شائعاً عند علماء التصريف بهذا اللفظ في
مواضع القلب، وإنما كان يُفهم من كلامهم، وقد صرّح به السيوطي في

(١) ينظر شرح الأشموني مع حاشية الصبان: (٤/٣٩٢)، وعلم الصرف الميسّر: (٢٣٢).

(٢) ١٥٧/٧.

(٣) معجم مقاييس اللغة (صون): (٣٢٤/٣).

إحدى المسائل، فقال: "إِنْ كَانَ عَيْنَ مَفْعُولٍ يَأْكُسْرَتُ الضَّمْمَةَ الْمَنْقُولَةَ صُونًاً مِنْ إِبْدَالِ الْيَاءِ بَعْدَهَا، نَحْوَ: مَيْئِعٌ^(١)، وَقَدْ يُعَبَّرُ عَنْهُ بِالصِّيَانَةِ^(٢)، أَوْ بِالسَّلَامَةِ^(٣)، أَوْ بِالْتَّصْحِيحِ^(٤)، وَنَحْوُ ذَلِكَ.

(١) هَمْ الْهَوَامِعُ: (٤٧٨ / ٣).

(٢) يَنْظُرُ مثلاً شَرْحَ مَرَاحَ الْأَرْوَاحِ لِدِيْكِنْقُوزَ: (١٤١).

(٣) يَنْظُرُ مثلاً لِلنَّصْفِ: (٢٩٧ / ١).

(٤) يَنْظُرُ مثلاً شَرْحَ الْمَفْصِلِ لِابْنِ بَعِيشَ: (٧ / ١١٢).

المبحث الأول: مظاهر صون الياء من القلب:

تُصان الياء إِمَّا من قلبها واوًأ، وِإِمَّا من قلبها أَفَأً، وِإِمَّا من قلبها همزة، والأول هو الكثير، والثاني قليل، والأخير الأقل، على النحو الآتي:

أولاً: صون الياء من قلبها واوًأ:

أَجَلُ ما يُفزع إلى تصحيح الياء حين تكون سانحةً لقلبها واوًأ، ومَرْدُ ذلك - في معظمها - أن الواو ثقيلة، والياء أخفّ، قال الأَبْنَارِي: "إِنَّمَا وَجَبَ قَلْبُ الْوَوْ إِلَى الْيَاءِ دُونَ قَلْبِ الْيَاءِ إِلَى الْوَوْ؛ لِأَنَّ الْيَاءَ أَخْفَّ مِنَ الْوَوْ" ^(١)، وَقَالَ أَيْضًا: "وَلَمْ يَقْلِبُوا الْيَاءَ إِلَى الْوَوْ؛ لِأَنَّ الْيَاءَ أَخْفَّ وَالْوَوْ أَتَقْلَلَ" ^(٢)، وَلِأَجَلِ هَذَا كَانَ "انْقَلَابُ الْوَوْ إِلَى الْيَاءِ أَكْثَرَ مِنْ انْقَلَابِ الْيَاءِ إِلَى الْوَوْ" ^(٣).

وَهَذَا الْمَظْهَرُ مَوَاضِعُهُ غَفِيرَةٌ - كَمَا تَقْدِمُ - وَسُوفَ أُورِدُ فِيمَا يَلِي مِنَ النَّمَادِجِ مَا يُجْلِي صُورَتَهُ:

- بِيْضُ:

لَوْ بَنَيْتَ مِنَ الْبَيَاضِ اسْمًا عَلَى زَنَةِ (فُعْلٍ) نَحْوَ: (بُرْدٌ)، فَإِنَّكَ تَقُولُ: (بِيْضُ)، وَالْأَصْلُ: (بِيْضُ)، أَبْدَلَتِ الْضَّمَّةُ كَسْرَةً لِتَسْلِمِ الْيَاءَ مِنَ الْقَلْبِ،

(١) الإنْصَاف: (١٤/١٣).

(٢) أَسْرَارُ الْعَرَبِيَّةِ: (٦).

(٣) الْمُمْتَعُ: (٣٤٥).

وهذا مذهب سيبويه^(١) في كل ياء هي عين ساكنة مضموم ما قبلها -قريبة من الطرف -أن تقلب الضمة كسرةً لتصح الياء^(٢).

ولا فرق في هذا المذهب بين المفرد -كما تقدّم^(٣) - والجمع نحو: (بيض)، واحده (أبيض)، وأصله: (بيض)، على وزن (فعل)، ك(أحمر) و(حمر)^(٤)؛ فالياء تُصان من القلب في الحالين.

أمّا الأخفش^(٥) فيُفرق بين المفرد والجمع، وتفصيل ذلك: أنّ اللفظ إذا كان مفرداً فإن الضمة تُقْرُّ على حالها، وتقلب الياء واواً؛ فلو بنيت من البياض اسماً على (بُرْد) قلت: (بُوض)، وإن كان اللفظ جمّاً أُبدلت الضمة كسرةً ؛ لتسليم الياء من القلب، فيقال: (بيض) جمع (أبيض).

وحجّة الأخفش: "أن قلب الضمة كسرة قد استقرّ في الجمع، نحو: (بيض) في جمع (أبيض)، ولم يستقرّ في المفرد، والقياس يقتضي التفرقة؛ لأنّ الجمع أثقل من الواحد، فهو أدعى للتخفيف؛ فلذلك قُلبت الضمة كسرةً في

(١) الكتاب: (٤ / ٣٥٩)، ويُعرى هذا المذهب للخليل. ينظر المقتضب: (١ / ٢٣٩)، والمنصف: (١ / ٢٩٧)، والممتع: (٤ / ٣٠٤).

(٢) وإن كانت الياء بعيدةً من الطرف قُلبت واواً، نحو: (مؤقّن)، والأصل: (مُيقّن). ينظر المفصل: (٤ / ٥٢٨)، والممتع: (٩ / ٢٩٩).

(٣) وذلك في (بيض) التي بنيت من البياض على نحو (بُرْد).

(٤) ينظر المقتضب: (١ / ٢٣٩)، والمنصف: (١ / ٢٩٧)، والممتع: (٤ / ٣٠٤).

(٥) تنظر المراجع السابقة.

الجمع لتصحَّ الياء، ولم تُقلب الياء واوًّا؛ لأن الياء أخفٌ من الواو، وأمّا المفرد فلكونه أخفٌ من الجمع يُحتمل فيه الواو^(١).

ويرى بعضهم أن ما ذهب إليه سيبويه هو القياس؛ لأن الضرورة مُلجمةٌ في اجتماع الياء والضمة إلى تغيير إحداهما، وتغيير الحركة أولى من تغيير الحرف؛ لأن الحافظة على الحرف أولى من الحافظة على الحركة^(٢)، وهذا تعليلٌ حسن.

- (معيَّشة).

تحتمل (معيَّشة) عند الخليل وسيبوه^(٣) أن تكون على أحد وزنين: الأول: (مَفْعِلَة)، والأصل: (معيَّشة) نقلت حركة الياء- وهي الكسرة- إلى الساكن الصحيح قبلها، فصارت (معيَّشة).
والثاني: (مَفْعِلَة)، والأصل: (معيَّشة)، نقلت حركة الياء- وهي الضمة- إلى الساكن الصحيح قبلها، فصارت (معيَّشة)، ثم أبدلت الضمة كسرةً لئلا تُقلب الياء واوًّا.
أمّا الأخفش^(٤) فيرى أن هذه اللفظة لا تحتمل إلا وزناً واحداً، وهو (مَفْعِلَة)، ولو كانت على (مَفْعِلَة) لقيل: (مَعُوشة)، كما قال الشاعر:

(١) ينظر المatum: (٣٠٤).

(٢) ينظر الكناش: (٢٧٠/٢).

(٣) ينظر الكتاب: (٣٤٩/٤)، والمقتضب: (٢٣٩/١)، والأصول في النحو: (٣٤٨/٣)، والتعليق على كتاب سيبويه: (٣٠/٥)، والمنصف: (٢٩٦/١)، وشرح التصريف للشمايني: (٤٦٦).

وكثُر إذا جاري دعا مضمُوْفةٌ أشْمَرْ حتى يبلغ السَّاقَ مئزري^(٢)
 قال ابن حني: "فَأَمَّا قول الشاعر ففيه تعلُّقٌ لأبي الحسن في قوله في
 (مفعولة) من (عِشْتَ مَعْوَشَةً)؛ لأنَّ (مَضْوِفَة) (مَفْعُلَة)، من (ضِفْتَ الرَّجُل)؛
 إذا نزلت به؛ لأنَّ معناها ما ينزل بالإِنسان ويضيقه من نوائب الدهر،
 وأصلها: (مَضِيَّفَة)، ثم نُقلت الضمة إلى الضاد، وانقلبت الياء واواً لسكنها
 وانضمَّ ما قبلها"^(٣).

فالأَخفش لا يرى غضاضةً في قلب الياء واواً متى ما وقعت عيناً ساكنةً
 مضموماً ما قبلها في لفظِ مفرد، وعلته في ذلك: أن المفرد خفيفٌ، فيُحتمل
 فيه القلب، بخلاف الجمع؛ فإن الياء فيه تُصان من القلب كما صُينت في
 نحو: (يُضِّنْ) جمع (أَيْيَضْ)^(٤).

(١) ينظر الأصول في النحو: (٣٤٨/٣)، والتعليق على كتاب سيبويه: (٣٠/٥)، والمصنف: (٢٩٧/١)، وشرح التصريف للشمامي: (٤٦٧).

(٢) من الطويل، وهو لأبي جنْدَب المذلي. ينظر ديوان المذلين: (٩٢/٣)، ولسان العرب (جور): (١٥٤/٤)، وورد بلا نسبة في المصنف: (١/١)، والممعن: (٣٠٥)، وحاشية الصبان على شرح الأشموني: (٤/٤٣٢)، ويرى: (المضيفة)، و(المضافة).
 (٣) المصنف: (١/١)، (٣٠١).

(٤) ينظر التعليقة على كتاب سيبويه: (٣٠/٥)، وشرح التصريف للشمامي: (٤٦٧)، ومسألة (يُضِّنْ) السابقة.

ويَرِدُ على مذهب الأخفش أمران: أحدهما: أن (مَضْوِفة) شاذة، فلا ثُبُنَى عليها القواعد^(١). والآخر: أن قياسه في (مَعِيشَة) يُخالف قياسه في (مَيْعَة)، إذ الأصل فيه: (مَبْيُوعَة)، على زنة (مَفْعُول)، نُقلت الضمة إلى الباء فقيل: (مَبْيُوعَة)، ثم أبدلت الضمة كسرة لتسسلم الياء من القلب، فقيل: (مَبْيُوعَة)، ثم حُذفت الياء لانتقاء الساكدين، فقيل: (مَبْيُوعَة)، ثم قُلِّبَت الواو ياء للكسرة التي قبلها - كما قُلِّبَت في (مَيْزان) - فقيل: (مَيْعَة)^(٢).

والشاهد في هذه السلسلة من التغييرات أن اللفظ حين آل إلى (مَبْيُوعَة)، أبدلت ضمة الباء كسرة لئلا تُقلب الياء، ويلزم الأخفش هذا في (مَعِيشَة) فإن كان يقول: (مَعُوشَة) فيلزمـه أن يقول: (مَبْيُوعَة) فيخالف العرب أجمعين^(٣).

(١) ينظر المنصف: (٣٠١/١)، وشرح المفصل لابن يعيش: (٨٢/١٠)، وشرح الشافية للرضي: (١٣٤، ١٣٦)، وشرحها للركن: (٢/٧٨٠).

(٢) ينظر المنصف: (١/٢٨٧، ٢٨٧/١)، وحاشية الصبان على شرح الأشموني: (٤٧٧/٢).

(٣) ينظر الأصول في النحو: (٣٤٩/٣)، والمنصف: (١/٢٩٩، ٢٩٨)، وشرح المفصل لابن يعيش: (٨١/١٠).

- مَؤْوِنَة:

عُزِي لِلفراء^(١) أَن (مَؤْوِنَة) أَصْلُهَا (أَي ن)، مِن (الْأَيْنِ)^(٢)، ووزنُهَا: (مَفْعُلَة)، وَالْأَصْلُ: (مَأْيِنَة) نُقلَتْ حَرْكَةُ الْيَاءِ -وَهِيَ الْضَمَّة- إِلَى الْهَمْزَةِ قَبْلَهَا، فَصَارَتْ (مَأْيِنَة)، ثُمَّ قُلِّبَتْ الْيَاءُ وَأَوْا.

وَتَظَهَرُ ثَرَةُ الْخَلَافِ بَيْنَ مَذَهْبِ الْخَلِيلِ وَسَيِّبُوِيَّهِ وَمَذَهْبِ الْأَخْفَشِ -
اللَّذَّيْنِ تَكَرَّرَ ذِكْرُهُمَا قَبْلِ^(٣) فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ:

- فَأَمَّا الْخَلِيلُ وَسَيِّبُوِيَّهُ فَلَا يَتَمَاشِي مَا اخْتَارَهُ الْفَرَاءُ فِي (مَؤْوِنَة) -وَهُوَ أَنْهَا مِن (الْأَيْنِ) -مَعَ قَاعِدَتِهِمَا فِي الْإِعْلَالِ: الَّتِي تَقْتَضِي أَنَّ الْيَاءَ إِذَا وَقَعَتْ عَيْنًا سَاكِنَةً مَضْمُومًا مَا قَبْلَهَا -وَهِيَ قَرِيبَةُ الْطَرْفِ- أَبْدَلَتْ الْضَمَّةَ كَسْرَةً لِتَصْحَّحِ الْيَاءِ^(٤).

وَعَلَى هَذَا فَإِنَّ (مَؤْوِنَة) -عَلَى قَاعِدَتِهِمَا- لَوْ كَانَتْ مِن (الْأَيْنِ)^(٥) وَوزنُهَا (مَفْعُلَة) لِقِيلٍ: (مَعِيَشَة)، وَسِكُونُ الْأَصْلِ: (مَأْيِنَة) عَلَى

(١) يَنْظَرُ الْأَصْلُ فِي النَّحْوِ: (٣٤٩/٣)، وَالْمُحْتَسِبُ: (٢١٤/١)، وَالصَّحَاجُ: (مَأْن): (٢١٩٨/٦)، وَتَدَخُلُ الْأَصْوَاتِ الْلُّغُوِيَّةِ: (٤٠٢/١).

(٢) وَهُوَ التَّعْبُ وَالشَّدَّةُ. يَنْظَرُ الصَّحَاجُ (مَأْن): (٢١٩٨/٦).

(٣) فِي الْمَسْأَلَتَيْنِ السَّابِقَتَيْنِ.

(٤) يَنْظَرُ الْأَصْلُ فِي النَّحْوِ: (٣٤٩/٣)، وَتَدَخُلُ الْأَصْوَاتِ الْلُّغُوِيَّةِ: (٤٠٣/١)، وَمَسْأَلَةُ (مَعِيَشَةِ).

(٥) يُعَزِّي لِسَيِّبُوِيَّهِ أَنَّ (مَؤْوِنَة) مِنْ (م و ن)، يُقَالُ: (مُنْتُ الرَّجُلُ أَمْوَانِهِ)، وَأَصْلُهَا: (مَؤْوِنَة) بِلَا هَمْزَ، كَفَقْلُهُمْ: (فَقْوُم) مِنَ الْقِيَامِ، وَ(نَّوْم) مِنَ (النَّوْمِ)، ثُمَّ هُمْزَتْ الْوَاءُ الْأُولَى اسْتِحْسَانًا لِلِّزُومِ الْضَمَّةِ قَبْلَهَا، فَصَارَتَا عَلَى هَذِهِ الْمَيْنَةِ: (فَقْوُم) وَ(نَّوْم). يَنْظَرُ الْمُحْتَسِبُ: (١١/١)، وَتَدَخُلُ الْأَصْوَاتِ الْلُّغُوِيَّةِ: (٤٠٢/١).

زنة (مفعولة)، وهذا يستوجب أن تُنقل ضمة الياء إلى ما قبلها، فتصير: (مؤينة)، ثم تُقلب الضمة كسرةً لتسلم الياء من القلب، فتصير (مئينة)^(١).

- وأما الأخفش^(٢) فيجوز على قاعدته في الإعلال أن تكون (مؤونة) من (الأئن) - كما يرى الفراء - لأن الياء عنده إذا وقعت عيناً ساكنةً مضموماً ما قبلها قُلبت واواً في المفرد، فيقال: (مؤونة) كما يقال: (معوشه)، واستشهد بـ(مضوفة).

- (ضيزي):

الاختلاف في وزن (ضيزي) على قولين:
الأول: قول سيبويه^(٣)، وهو أنه على (فعلى)، وأصله: (ضيزي) أبدلت الضمة كسرةً لئلا تُقلب الياء واواً.

الثاني: قول الأخفش^(٤)، وهو أنه على (فعلى).
والفرق بين القولين: أن الأخفش أخذ بظاهر القول، وأما سيبويه فرده إلى وزن آخر، ويتصل بقول سيبويه ثلاثة أمور يرتبط بعضها ببعض:

(١) ينظر الأصول في النحو: (٣٤٩/٣)، وتدخل الأصوات اللغوية: (٤٠٣/١)، ومسألة (معيشة).

(٢) ينظر الخامش السابق.

(٣) الكتاب: (٤/٣٦٤)، وينظر المatum: (٣١٨)، وارتشاف الضرب: (١٩٠/١).

(٤) ينظر ارتشاف الضرب: (١٩٠/١).

أولها: أن (ضِيَّزِي) صفة، والقاعدة عند سيبويه أنه لا يوجد في الصفات (فُعْلَى)، وفيها (فُعْلَى) بضم الفاء، مثل: (خُبْلَى)، فلذلك أبدلوا من الضمة كسرةً في (ضِيَّزِي) لتصحّ الياء، على حدّ فعلهم في (بِيْض)، وأصله: (بُيْض)^(١).

وثانيها: أن الياء لم تُقلب واوًّا في (ضِيَّزِي) كما قُلبت في (طُوبِي)- وأصله: (طُبِّي)- لأن (ضِيَّزِي) صفة كما تقدّم، و (طُوبِي) اسم، والصفة أثقل من الاسم، فأرادوا التفرقة بينهما^(٢)، قال ابن يعيش: "وَخَصُّوا الاسم بالقلب للفرق؛ لأن الاسم أخفّ من الصفة، والصفة أثقل؛ لأنها في معنى الفعل، والأفعال أثقل من الأسماء، والواو أثقل من الياء، فجعلوها في الاسم الذي هو خفيف، ولم يجعل في الصفة؛ لئلا تزداد ثقلًا"^(٣).

وثالثها: أنه يُتحصلّ مما مضى أن (فُعْلَى) عند سيبويه لا يخلو من أن يكون اسمًا أو صفة؛ فإن كان اسمًا قُلبت فيه الياء واوًّا مثل: (طُوبِي)، وإن كان صفةً سلمت فيه الياء من القلب مثل: (ضِيَّزِي)؛ وهو مذهب الجمهور^(٤).

(١) ينظر الكتاب: (٤/٣٦٤)، والمقتبس: (١/٣٠٤)، والأصول في النحو: (٣٦٧/٣)، وشرح الكتاب للسيراقي: (٥/٢٧١، ١٢٩)، وشرح المفصل لابن يعيش: (١٠/٩٧، ٩٨).

(٢) تنظر المراجع السابقة.

(٣) شرح المفصل: (١٠/٩٧، ٩٨).

(٤) ينظر الكتاب: (٤/٣٦٤)، والمقتبس: (١/٣٠٤)، والأصول في النحو: (٣٦٧/٣)، وشرح الكتاب للسيراقي: (٥/٢٧١، ١٢٩)، وشرح التصريف للشناوي: (٥٣٦)، وشرح المفصل لابن يعيش: (١٠/٩٧، ٩٨)، والممعن: (٣١٨).

- (بغّيٰ) ^(١):

أصل (بغّيٰ): (بَعْوِي)، على زنة (فَعُول)، قال ابن عصفور: " فُقلبت الواو ياءً وأدغمت الياء في الياء، ثم قُلبت الضمة التي في العين من (بغّيٰ) كسرةً؛ لتصحّ الياء، والدليل على أن (بغّيٰ) (فَعُول): كونه للمؤنث بغير تاء، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغْيَيًّا﴾ ^(٢)، ولو كان (بغّيٰ) (فَعِيل) ^(٣) لكان بالباء ك(ظريفة) ^(٤).

- (مَرْمِيٰ) و(مُسْلِمِيٰ):

الأصل في (مَرْمِيٰ): (مَرْمُوِيٰ)؛ على زنة (مَفْعُول)، اجتمعت الواو والياء، وسبقت الأولى منهما بالسكون، فانقلبت الواو ياءً، فقيل: (مَرْمِيٰ)، ثم كسرت الميم لثلا تقلب الياء واؤاً؛ وذلك لسكونها وضمّ ما قبلها، فقيل: (مَرْمِيٰ)، ثم أُدغمت الياء في الياء، فقيل: (مَرْمِيٰ) ^(٥).

و قريبٌ من هذا اللفظ: (مُسْلِمِيٰ) في الرفع؛ أصله: (مُسْلِمُوِيٰ)، قُلبت فيه الواو ياءً، فقيل: (مُسْلِمِيٰ)، ثم أُبدلت الضمة كسرةً لتصحّ الياء، وأدغمت الياء في الياء فقيل: (مُسْلِمِيٰ) ^(٦).

(١) من بعث الأمة، أي: عهرت وزنت. ينظر لسان العرب (بغا): (١٤ / ٧٧).

(٢) [مرم]: [٢٨].

(٣) هو مذهب بعض النحويين، والخلاف مفصل في الدر المصنون: (٥٧٨/٧).

(٤) الممع: (٣٤٩).

(٥) ينظر المفتاح في الصرف: (٧٨)، وشرح الشافية للركن: (٧٨٩/٢)، والتصريح: (٣٣٨/٣).

(٦) ينظر شرح الكتاب للسيراقي: (١٦٣/٤)، وشرح الشافية للركن: (٧٨٩/٢).

- (أَرْمِيَة):

تقول في (أَفْعُلَة) من (رَمِيَّتُ): (أَرْمِيَة)، والأصل: (أَرْمِيَة)، بضم الميم، غير
أَنْهُمْ كسروها لتصح الياء^(١).

- (شِيْب):

(شِيْب) جمعٌ مفردٌ: (أَشِيْب)، وأصله: (شِيْب) - بضم الشين - ك(أَحْمَر)
و(أَحْمَر) - لكنها كسرت؛ لثلا ثقلب الياء^(٢).

- (نِيْب):

(نِيْب) جمعٌ مفردٌ: (نَاب)، وأصله: (نِيْب)، على زنة: (فُعْل)، ك(أَسَد)
و(أَسَد)، وقد كسرت النون لتسسلم الياء من القلب^(٣).

- (ضِيْفَان) و(شِيْخَان):

وهما جمعان مفردُهُما: (ضِيْف) و(شِيْخ)، وزنُهما: (فُعْلَان)، ويجوز أن
يكون وزنُهما: (فُعْلَان)؛ لأنَّ الأصل: (ضِيْفَان) و(شِيْخَان)، ثم كسرت فيهما
الضاد والشين؛ لتصح الياء^(٤).

(١) ينظر شرح الكتاب للسيرافي: (٣٤٥/٥).

(٢) ينظر تحليص الشواهد: (٧١).

(٣) ينظر الصحاح (نيب): (١/٢٣٠).

(٤) ينظر شرح الشافية للرضي: (٢/١١٧).

ثانياً: صون الياء من قلبها ألفاً:

ظهر في مواضع نزرة من كلام العلماء ما يُشير إلى أن قلب الياء ألفاً قد يقود إلى بعض الإشكالات، كحدوث اللبس، أو كثرة التغيير، أو التقاء الساكنين، ومن أجل هذا عُمد إلى تصحيح الياء، والخلولة دون العلة الموجبة لقلبها، وسوف يتضح أن بعض الإشكالات التي خيف منها كانت محل نظرٍ؛ لأن موجبات القلب لم تكتمل، وإنما تحقق بعضها، وانعدم بعضها، فكانت الياء في وقاءٍ من محاذير القلب.

- (بيضات):

إذا جمع نحو: (بيضة) - مما كان اسمًا معتل العين - بـألفٍ وتأءٍ قيل: (بيضات)، بـسكون الياء، ولا تحرّك الياء بالفتح كما حرّكت في (جفّنات) و(قرّات)؛ لأن التحرير يُؤدي بالياء إلا قلبها ألفاً، فتلتبس (فعّلة) ساكنة العين بـ(فعّلة) مفتوحة العين، كـ(دّارة)^(١) وـ(دّارات)، وـ(قّامة) وـ(قّامات)^(٢)، وهكذا الشأن في نحو: (جّوزة) - مما عينه واو - يقال فيه: (جّوزات)، قال ابن جني: "فأمّا تسكينهم الواو والياء في (جّوزات) وـ(بيضات) فإنما كرّهوا الحركة فيهما لئلا يصيروا إلى لفظٍ يجب معه القلب، وهو قولهم: (بيضات)

(١) هي ما أحاط بالشيء، وتطلق على الأرض الواسعة بين جبال. ينظر لسان العرب (دور): (٤) .(٢٩٦)

(٢) ينظر المنصف: (١/٣٤٣)، وشرح المفصل لابن عييش: (٥/٣٠)، وشرح الشافية للركن: (١) .(٤٣٢)

و(جَوَازَات)، ولو قلّبوا فقالوا: (باضات) و(جازات) لالتبس لفظه بلفظ ما واحدةٌ مقلوبٌ، نحو: (دارات) و(قارات)^(١) جمع (دارة) و(قارة)^(٢).
 والحقُّ أَنَّ هذا الإشكال لا يُرِدُّ؛ لأنَّ الياءُ والواوَ لا تُقلّبانُ ألفينَ إِلَّا إِذَا كانتُ حركتهماُ أصلية^(٣)، وحركتهما في (بياضات) و(جَوَازَات) عارضة، فكانتا في مأْمَنٍ ممَّا خيفَ مِنْهُ، ولهذا لم تُقلّبا في لغة هذيل^(٤)، قال ابن يعيش: "ومنهم من يقول: (جَوَازَات) و(بياضات)، فيفتح، ولا يقلب؛ لأنَّ الفتحة عارضة، كما لم يقلب الواوَ من ﴿وَالْوَأَسْتَقْمُو﴾^(٥) و﴿أَشْرَوْا أَضَلَّة﴾^(٦)، وهي لغة هذيل، قال الشاعر:
 أَخُو بَيَاضَاتِ رَائِحُ مُتَأَوِّبٍ
 رَفِيقُ بَمْسَحِ الْمَنْكِبَيْنِ سَبُوحٌ^(٧)
 وذلك^(٨) قليل، والأول^(٩) عليه الكثير^(١٠).

(١) الأرضي ذات الحجارة السُّود. ينظر لسان العرب (فقر): (٥/١٢٢).

(٢) المنصف: (١/٣٤٣).

(٣) ينظر المفتاح في الصرف: (٩٢)، وشذا العرف: (١٤٣).

(٤) تنظر هذه اللغة في الكتاب: (٣٠٠/٣).

(٥) [الجن: ١٦].

(٦) [البقرة: ١٦].

(٧) من الطويل، وقد عُرِي لشاعِي من هذيل في ارتشاف الضرب: (٥٩٢/٢)، وبلا نسبة في شرح الكتاب للسيراي (٤/٣١٩)، والمنصف: (١/٣٤٣).

(٨) أي: فتح الياء.

(٩) أي: تسكين الياء.

(١٠) شرح المفصل: (٣١، ٣٠/٥).

- (أين وكيف):

إذا أريد التخلص من التقاء ساكنين بتحريك أحدهما فإن الأصل في التحرير أن يكون للأول؛ وإنما قلنا: الأصل تحرير الأول من قبل أن تكون الأول منع من الوصول إلى الثاني، فكان تحريره من قبل إزالة المانع، إذ بتحريكه يتوصل إلى النطق بالثاني، وصار بمنزلة ألفات الوصل التي تدخل متحركةً توصلاً إلى النطق بالساكن بعدها^(١).

وقد خرج عن هذا الأصل: (أين) و(كيف)، حيث حرك الثاني منهما دون الأول، والعلة في ذلك أنه لو حرك الأول فيما وهو الياء - لأنقلبت ألفاً لتحررها وافتتاح ما قبلها، فيصير اللفظان على هذا النحو: (آن) و(كاف)، فيلتقي ساكنان، وهذا يستوجب تحرير النون والكاف، فيتواتي تغييران.

قال ابن يعيش: "فاما (أين) و(كيف) فمعدولٌ بما عن القياس بتحريك الساكن الثاني دون الأول مانع؛ وذلك أننا لو حررنا الأول - وهو الياء في (أين) و(كيف) - لأنقلبت ألفاً، لتحررها وافتتاح ما قبلها على حكم التصريف، إذ الحركة تقع لازمة، ولو قلبت ألفاً لزم تحرير النون؛ لسكونها وسكون ألف قلبها، فلما كان يؤذى تحرير الأول إلى تغيير بعد تغيير حركوا الثاني من أول الأمر، واستغنو بذلك عن تحرير الأول"^(٢).

(١) شرح المفصل لابن يعيش: (٩/١٢٥).

(٢) شرح المفصل: (٩/١٢٥).

وهذا فيه نظر؛ لأن الأول - وهو الياء - لو اختير تحريكها فقيل: (أين) و(كيف) فلن تكون معروضةً للقلب - وإن تحركت وانفتح ما قبلها - لأن ما بعدها ساكن، والياء لا تُقلب أَلْفًا إلا إذا كان ما بعدها متحرّكًا^(١)، فمهمي محروسةٌ مَا حُشِّي منه.

وقد يكون سبب تحريك الثاني هو استثنال الحركة على الياء لو قيل: (أين) و(كيف)، ونظير ذلك جمع (بَيْضَة)، فإن الأكثر فيه أن يُقال: (بَيْضَات) بتسكين الياء، وقل فتحها - وهي لغة هذيل - لشلل الحركة عليها^(٢).

- (ليَسَ):

(ليَسَ) في مذهب الجمهور فعل^(٣)، وأصله: (لَيْسَ)^(٤)، وكان حق الياء أن تُقلب أَلْفًا؛ لتحركها وانفتح ما قبلها^(٥)، لكنها سُكِّنت؛ لتسليم من القلب؛ لأنهم لم يريدوا أن يصرِّفوا هذا الفعل، قال ابن السراج: "وقال أصحابنا: إن (ليَسَ) أصلها (ليَسَ)، نحو (صَبِّدَ البعير)^(٦)، ولم يقلبوا الياء

(١) ينظر شذا العرف: (١٤٤).

(٢) ينظر شرح الشافية للركن: (٤٣٢/١)، وللمسألة السابقة.

(٣) ينظر التذليل والتكميل: (٤/١١٧).

(٤) ينظر التعليقة على كتاب سيبويه: (١٤٦/٥)، والمنصف: (١/٢٥٨).

(٥) ينظر الكتاب: (٤/١٠٩)، وشرحه للسيراي: (٤/٤٨٦).

(٦) أي: لا يستطيع اللتفات من داءٍ ونحوه. ينظر لسان العرب (صَبِّدَ): (٣/٢٦٢).

ألفاً؛ لأنهم لم يريدوا أن يصرّفواها فيستعملوا منها (يُفعِلُ)، ولا (فَاعِلٌ)، ولا شيئاً من أمثلة الفعل، فأسكنوا الياء وتركوها على حالها بمنزلة (لَيْتَ)"^(١).

(١) الأصول في النحو: (٣٤٥/٣).

ثالثاً: صون الياء من قلبها همزة:

موضع هذا المظهر قليلة جداً، وغاية ما وقفت عليه من ذلك - بعد طول استقراء - مسألتان، تلويق فيها قلب الياء همزة؛ حتى لا تلتقي همزتان.

- (جاءٌ) :

(جاءٌ) اسم فاعلٍ من (جاء)، وأصله: (جائِي)، مثل: (بايْع)، إلا أن الهمزة حلت فيها قلبٌ مكانيٌ، حيث قدمت إلى موضع العين، فقيل: (جائِي)، ثم أعلّت إعلال (قاضٍ)، فقيل: (جاءٌ)، وهذا مذهب الخليل^(١).

والذي حمل الخليل على القلب المكاني: أن الياء في (جائِي) وقعت عيناً لاسم فاعلٍ أعلّت في فعله، وهذا يقتضي قلبها همزة، ولو قُلبت الياء همزةً لقيل: (جائِي)، فيجتمع همزتان في الكلمة واحدة، وهذا لم يرد إلا في نادر الشعر^(٢)، كقوله:

فإنك لا تدري متى الموت جاءٌ إلينك ولا ما يحدي الله في غدٍ^(٣)
وذهب سيبويه^(١) إلى أن الياء في (جائِي) لم تخضع للقلب المكاني، بل قُلبت همزةً على مقتضى القياس، فقيل: (جائِي) مثل: بايْع، ثم أبدلت الهمزة

(١) ينظر الكتاب: (٥٤٩/٣)، وشرحه للسيراقي: (٤/٢٨٩)، والمنصف: (٥٢/٢)، والخصائص: (١٤٣/٣٢٧)، والممتع: (٣٣٥/١)، وارتشاف الضرب: (١٤٣/٣)، وشرح الشافية للركن: (٧٠٩/٢).

(٢) تنظر المراجع السابقة.

(٣) من الطويل، ولم أقف على قائله، ينظر الخصائص: (١٤٣/٣)، والمقاصد الشافية: (٨٢/٩).

الثانية ياءً، فقيل: (جائِي)، ثم أعلَّت إعلال (قاضٍ) فقيل: (جائِ)، على زنة (فاعِل).

قال ابن جنِي: "وكلا القولين حسن جميل"^(٢)، وقد حكى عن شيخه الفارسي أن قول الخليل هو الأقوى؛ لأن ما ذهب إليه سيبويه يترتب عليه إعلالان، وهو قلب العين همزة، وقلب الهمزة التي هي لام ياء^(٣)، و"تواتي إعلالين على الكلمة من جهة واحدة لا يوجد في كلام العرب إلا نادراً أو في ضرورة الشعر"^(٤).

والحق أن مذهب الخليل - وإن لم يرد عليه الإشكال السابق - لا يخلو من تكُّلف القلب^(٥)، بل يرى بعضهم أنه يُفضي إلى تواتي إعلالين أيضاً؛ لأن النقل يُوجَع في تأخير حرفٍ عن موضعه، ثم ردّه إلى أصله، وذلك إعلالان، وإقرار الكلمة على نظمها أولى^(٦).

- (خطايا):

(١) الكتاب: (٤/٣٧٧)، وعزا المبرد هذا المذهب إلى النحوين أجمعين. ينظر المقتضب: (١/٢٥٣).

(٢) المصنف: (٢/٥٣).

(٣) ينظر المرجع السابق.

(٤) المتمع: (٣٢٧).

(٥) ينظر المرجع السابق.

(٦) ينظر اللباب للعكيري (٢/٣١٢).

(خطايا) جمع (خطيئة)، وقد اختلف في أصل هذا الجمع^(١)، ومذهب الكوفيين أنه على زنة (فَعَالٌ)، وأصله: (خطايم)، وكان القياس أن تقلب الياء همزةً على حد قلبها في (صحيفة) و(صحائف)، و(كتيبة) و(كتائب)، غير أنهم قدّموا الهمزة لتسليم الياء من القلب، وذلك أنها لو قُلبت لقيل: (خطائِ)، فتجمع همزتان، وهو مرفوضٌ في كلامهم^(٢).

ولا يُعرض بقولهم: (درائي) في جمع (درية)^(٣)، وقولهم: (لفائي) في جمع (لفية)^(٤)، ونحوهما، فأولئك شوادٌ^(٥)، "وما كانت هذه سبيله وجب اطرافه، والتوقف عن لغة من أورده"^(٦).

(١) ينظر الكتاب: (٥٥٣/٣)، والمقتضب: (٢٧٧/١، ٢٧٨)، والأصول في النحو: (٤٠٣/٢)، وشرح الكتاب للسيرافي: (٤/٢٨٨)، وشرح التصريف للشمامي: (٤٤٩)، وشرح الشافية للركن: (٧١١/٢).

(٢) ينظر الإنصاف: (٨٠٥/٢).

(٣) هي حُلقة يُعَلَّمُ عليها الطعن. ينظر الصلاح (درأ): (٤٩/١).

(٤) هي كل بقعة لا لحم فيها. ينظر لسان العرب (لفا): (١٥٣/١).

(٥) ينظر الخصائص: (١٤٢/٣، ١٤٣)، وارتشاف الضرب: (١/٢٦٨).

(٦) الخصائص: (٢/٧).

المبحث الثاني: بواعث صون الياء من القلب:

تبينَّ ما مضى أن الياء قد يتحاشى قلبها واواً أو ألفاً أو هنزاً، وقد دفعَ إلى ذلك بواعثٌ مختلفٌ، لعلّي أسوقُ فيما يلي أبرزها:

١- مراعاة النظير:

من التصريفات ما تؤول معه الياء إلى القلب المحنور، ف يأتيُ اللفظ على هيئةٍ نادرةٍ، أو على وزن مهملٍ ليس له نظير، وقد احترز العلماء من ذلك بفرضٍ قيودٍ يؤمنُونَ بها هذا النوع من القلب.

ولعلَّ ما يدخلُ في هذا الصَّدد ما قيلَ في جمع (أَفْعَلَ فَعْلَاءَ)؛ فإنه يُجمع على زنة (فُعلٌ)، فَيُقالُ في (أَحْمَرَ وَحْمَرَاءَ): (حُمْرَ)، ويُجوزُ ضمُّ العين في الضرورة فيما صحت عينه ولا مهله لم يُضاعفُ^(١)، كقوله:

طوى الجديدانِ ما قد كُنْتُ أَنْشُرُهُ وَأَحْلَقْتُنِي ذواثُ الْأَعْيُنِ التُّبْجُلِ^(٢)
وقوله:

وَمَا انتَمِيتُ إِلَى حُورٍ وَلَا كُسْفٍ وَلَا لَثَامٍ غَدَةَ الرَّوْعَ أَوْزَاعٍ^(٣)

(١) ينظر شرح الكافية الشافية: (٤/١٨٣٠)، وتمهيد القواعد: (٩/٤٧٧٤)، وهو الموضع: (٣٥٢، ٣٥١).

(٢) من البسيط، وقد عُرِيَ إلى أبي سعيد المخزومي في الأمالي للقالي: (١/٢٥٩)، وبلا نسبة في شرح الكافية الشافية: (٤/١٨٣٠)، وتمهيد القواعد: (٩/٤٧٧٤٥)، وهو الموضع: (٣٥٢/٣).

(٣) من البسيط، وقد عُرِيَ لضرار بن الخطاب في المقاصد النحوية: (٤/١٦٤٣)، وبلا نسبة في شرح الكافية الشافية: (٤/١٨٣١)، وتمهيد القواعد: (٩/٤٧٧٥)، وهو الموضع: (٣٥٢/٣).

والشاهد في البيتين: (نجُل) و(كُشْف) فهما جمعان لـ(نَجْلَاء) و(أَكْشَف)^(١).

واحْتَرُز بصحّة: اللام من معنّتها^(٢)، نحو: (أَعْمَى) فإنّه يُجتمع على (أَعْمَى)، ولا تُضمُّ عينه؛ لأنّها لو ضُمّت لانقلبت ياءً وواوً، فِيقال: (أَعْمُو)، وهذا مرفوضٌ في كلامهم؛ لأنّه لا يوجد اسمٌ معرّبٌ آخره واوٌ لازمةً مضمومٌ ما قبلها، فَيُضطُرُّ إلى قلب الواو ياءً فِيقال: (أَعْمَى) ثم تكسر الميم لمناسبة الياء فِيقال: (أَعْمَى) على زنة (فُعل)، وهو مهمّل في الأسماء^(٣).

ونحو هذا: (أَيْدِي) فهو جمّ مفردٌ: (يَدِي)، كـ(ظَنِي)، وأصله: (أَيْدِي) على وزن (أَفْعُل)^(٤)، قُلبت فيه ضمة الدال كسرةً لتسليم الياء من القلب^(٥). وإنما صحّت الياء في هذا الجمع لأنّها لو قُلبت واوً -للضمة التي قبلها- فقيل: (أَيْدُو) لأدّي ذلك إلى بناءٍ ليس له نظير، فليس في العربية اسم معرّب آخره واوٌ لازمةً مضمومٌ ما قبلها، قال ابن يعيش: "جمعوا (يداً) على (أَفْعُل)،

(١) ينظر شرح الكافية الشافية: (٤/١٨٣١)، وتمهيد القواعد: (٩/٤٧٧٥)، و (الأكشاف): هو الرجل الذي لا تُرسّ معه في الحرب. ينظر الصبحان (كشاف): (٤/١٤٢٢).

(٢) واحْتَرُز بصحّة العين من نحو: (سُود) و(بَيْض) جمعي (أَسْوَد) و(سَوْدَاء)، و(أَبْيَض) و(بَيْضَاء)، وبال مضاعف من نحو: (عَرْ) و(جُمْ) جمعي (أَغْرَ) و(غَرَاء) و (أَجْمَ) و(جَمَاء) . ينظر تمهيد القواعد: (٩/٤٧٧٥).

(٣) ينظر تمهيد القواعد: (٩/٤٧٧٥)، وهو مع الموامع: (٣٥٢).

(٤) ينظر الكتاب: (٣/٣٥٨)، والمقتضب: (١/٣٦٤)، والأصول في النحو: (٣/٣٢٤)، وشرح الكتاب للسيراي: (٤/١١٢)، وشرح التصريف للشناوي: (٤١٤)، وإيجاز التعريف: (٧٨).

(٥) ينظر شرح المفصل لابن يعيش: (٥/٧٤).

وهو من أمثلة أقل العدد لما كان واحدُه (فعلاً)، والدالُ التي هي عين (الفعل) وإن كانت مكسورةً فأصلُها الضم، كما أنها في (كلب) و(أكُلُب)، و(كَعْب) و(أكُعْب) كذلك، وإنما عدلوا إلى الكسر لتصح الياء؛ إذ لو بقيت الضمة قبل الياء لانقلبت واوً، وكانت تصير إلى بناء ليس مثله في الأسماء^(١). ومثل ذلك أيضاً: (ترامي)؛ فإن قياس مصدره أن يكون على (ترامي)، لأنه (تفاعل)؛ فتكون الياء سانحةً لقلبها واوً، وقلبها يقود إلى وقوع واو قبلها ضمة لازمة في آخر اسم معرب، وهو مرفوض في كلامهم، ودرءاً لهذا الإشكال كسرت الميم لتصح الياء^(٢).

٢ - أمن اللبس:

اللبس محذور؛ لمنافاته القصد من وضع اللغة، والمراد به في اصطلاح النحويين: حصول إشكال في الكلمة أو الكلام يؤؤُل إلى عدم الفهم، أو سوء الفهم^(٣).

ومن المسائل التي قد يحصل فيها هذا الإشكال:

قلب الياء واوً في نحو: (اغزي)؛ فإن أصله: (أغزوِي) بوزن: (افتني)، فكرهوا الكسر على الواو لانضمام ما قبلها، فسكنوها، فاجتمع ساكنان:

(١) شرح المفصل: (٧٤/٥).

(٢) ينظر الباب للعكيري (٥١٦/١).

(٣) ينظر الأحكام النحوية المبنية على أمن اللبس أو الخوف منه من خلال شرح الرضي على الكافية: (١٠٧).

الواو والياء، فحذفوا الواو لالتقاء الساكنين، ثم كسروا الراء لتسليم الياء؛ لأنها علامة التأنيث^(١)، ولو قُبِّلت الياء واوًّا فقيل: (اغزو) لتوهم السامع أن الأمر للجماعة.

ووَقَرِيبٌ مِّنْ هَذَا مَا كَانَ عَلَى وَزْنِ (فُعْلَى) -مَا عَيْنَهُ يَاءٌ- فَإِنَّهُ لَا يَخْلُو مِنْ أَنْ يَكُونَ اسْمًا أَوْ صَفَّةً؛ فَإِنْ كَانَ اسْمًا قُبِّلَتْ يَاءُهُ وَاوًّا، نَحْوُ: (طُوبِي)، وَإِنْ كَانَ صَفَّةً سَلَمَتْ فِيهِ الْيَاءُ مِنَ الْقَلْبِ بِكَسْرِ مَا قَبْلَهَا -فَرْقًا بَيْنِ الْاسْمِ وَالصَّفَّةِ^(٢)- نَحْوُ: (مَشِيهٌ حِينِكِي)^(٣)، وَ(قَسْمَةٌ ضِيرَى)^(٤)، وَالْأَصْلُ: (حِينِكِي)، وَ(ضِيرَى)^(٥)، قَالَ سَيِّدُهُ: "وَذَلِكَ قَوْلُهُمْ: (امْرَأَةٌ حِينِكِي)، وَيَدِلُّكُ عَلَى أَنَّهُ (فُعْلَى) أَنَّهُ لَا يَكُونُ (فِعْلَى) صَفَّةً، وَمَثَلُ ذَلِكَ: (قَسْمَةٌ ضِيرَى)، فَإِنَّمَا فَرَقُوا بَيْنِ الْاسْمِ وَالصَّفَّةِ فِي هَذَا كَمَا فَرَقُوا بَيْنِ (فُعْلَى) اسْمًا وَبَيْنِ (فُعْلَى) صَفَّةً فِي بَنَاتِ الْيَاءِ الَّتِي يَأْتِي فِيهِنَّ لَامٌ، وَذَلِكَ قَوْلُهُمْ: (شَرْوَى) وَ(تَقْوَى) فِي الْأَسْمَاءِ، وَتَقُولُ فِي الصَّفَاتِ: (صَدْبِيَا) وَ(حَزْبِيَا)، فَلَا تُقْلِبْ"^(٦).

٣ - طَلَبُ الْخَفَّةِ:

(١) ينظر شرح الكتاب للسيراقي: (٣٦٧/٥)، والمنصف: (١/٥٥).

(٢) ينظر الكتاب: (٤/٣٦٤)، والمقتضب: (١/٣٠٦)، والأصول في النحو: (٣٠٣/٣)، وشرح الكتاب للسيراقي: (٥/٢٧١)، والممتع: (٣١٨)، وشرح الشافية للرضي: (٣/٨٦)، وشرحها للمركن: (٢/٧٧٨، ٧٧٩).

(٣) أي: مشية فيها تبختر. ينظر لسان العرب (حِيك): (٤١٨/١٠).

(٤) [النجم: ٢٢].

(٥) وهو المختار عند سيبويه. ينظر مسألة (ضِيرَى) في المبحث الأول.

(٦) الكتاب: (٤/٣٦٤).

دأبت العربية على الخفة في الكلام، وقد تجلّى في المبحث السابق أنّ أكثر المواطن التي تُلُوّي فيها قلب الياء هي تلك التي تكون فيها معرّضةً لقلبها واواً؛ وذلك أن الواو ثقيلة، والياء أخفّ، والخفيف لا يُنتقل منه إلى التقليل.

ومن أجل ذلك لم يرد من باب (فَعُلْ يَفْعُلْ) يائيُ العين ولا يائيُ اللام متصرّفًا^(١)؛ لأنّ مضارع (فَعُلْ) بالضم لا غير؛ فلو أتيا منه لاحتاج إلى قلب الياء واواً في المضارع نحو: (يَبْوَعْ) و(يَرْمُو) من البيع والرمي، فينتقل من التقليل إلى ما هو أثقل منه^(٢)، قال ابن حني: "ألا تراهم إنما تحاموا أن يبنوا (فَعُلْ) مما عينه ياء مخافة انتقالهم من الأثقل إلى ما هو أثقل منه؛ لأنّه كان يلزمهم أن يقولوا: بَعْثُ أَبْوَعْ، وهو يَبْوَعْ، وأنت أو هي تَبْوَعْ، وبُوْعاً وَبُوْغَا وَبُوْعِي، وهم يُبُونَ، وهم يُبُونُونَ، ونحو ذلك، وكذلك لو جاء (فَعُلْ) مما لامه ياء متصرّفًا للزم أن يقولوا: رَمْوَثُ وَرَمْوَتَ، وأنا أَرْمُو، ونحن نَرْمُو، وأنت تَرْمُو، وهو يَرْمُو، وهم يَرْمُونَ، وأنتما تَرْمُوانَ، وَهُنَّ يَرْمُونَ، ونحو ذلك، فيكثر قلب الياء واواً، وهو أثقل من الياء"^(٣).

(١) ينظر الممتع: (٢٨٩)، وشرح الشافية للرضي: (١/٧٦)، وقد قُيد يائي اللام بالتصريف تبيّناً على نحو: (قَضُوْرُ الرَّجُل وَرَمْوَتَ)، بمعنى: ما أقضاه و ما أرماه! فإنه مطرد، وهو غير متصرف. ينظر الخصائص : (٢/٣٤٨)، وتمهيد القواعد: (٨/٣٧٠٨).

(٢) ينظر شرح الشافية للرضي: (١/٧٦).

(٣) الخصائص: (٢/٣٤٨).

وقد شدَّ عن ذلك لفظ: (هَيْوَ) من قوله: (هَيْوَ الرَّجُلُ أَيْ: صار ذا هيئة^(١)، ولفظ: (هُوَ) من قوله: هُوَ الرَّجُلُ فَهُوَ هَيْوَ، إِذَا كَانَ كَامِلَ النُّهْيَةِ فِي الْعَقْلِ^(٢).

ولا يُشكِّلُ نحو: (سَرُوَ)^(٣) و(رَمُوَ)^(٤); لأنَّ الواوَ فيهما لم تُقلبَ عن ياءِ بَلْ هِيَ وَأَوْ فِي الْأَصْلِ - فَهُمَا فِي بَنَاءٍ لَا يَتَصَرَّفُ، لِمُشَابَهَتِهِ التَّعْجِبُ وَ(يَعْمَمُ) وَ(يَبْسَنُ) - فَلَمْ يُؤْتَ بِثَقْلِيْلٍ بَعْدَ خَفْيِفٍ^(٥).

(١) ينظر الخصائص: (٢/٣٤٨)، وشرح الشافية للرضي: (١/٧٦)، ولسان العرب (هَيْوَ): (١٨٨/١)، وارتشاف الضرب: (١٥٣/١)، وشذَا العَرْف: (٣٦).

(٢) ينظر لسان العرب (نَحِيَ): (١٥/٣٤٦)، وشرح الشافية للرَّكْن: (٢/٧٩٢)، وشذَا العَرْف: (٣٦).

(٣) سَرُوَ الرَّجُلُ: ارتفع، فهو رفيع. ينظر لسان العرب (سَرَا): (١٤/٣٧٨).

(٤) رَمُوَ الرَّجُلُ: جاد رَمِيَّه. ينظر المرجع السابق (هَيْوَ): (١/١٨٨).

(٥) ينظر الخصائص: (٢/٣٤٨)، والمنصف: (٢/١١٣)، والمقاصد الشافية: (٩/١٦٥).

٤- الحافظة على الغرض من الحرف:

اجتنبت بعض الحروف للدلالة على غرضٍ معينٍ، وهذا يعني أن حذف الحرف المختل أو تغييره بقليلٍ ونحوه ينافي الغرض الذي جاء من أجله ذلك الحرف.

ويسري هذا الحكم على الياء في نحو: (رجيل)، فالغاية من هذه الياء هي الدلالة على أن الكلمة مصعّرة، وقد وضع علماء التصريف قاعدةً مفادها: أنه لا يُصغّر اسم أقلّ من ثلاثة أحرف؛ لأنّه لو صُغّر وهو على حرفين لوقعت ياء التصغير ثلاثةً في الطرف، وهذا يستوجب تحريكها بحركات الإعراب، وهي لا تكون إلا ساكنة، وإذا تحركت ياء التصغير وانفتح ما قبلها قُلبت ألفاً، فينتفي الغرض منها.

قال ابن عييش: "اعلم أنه لا يجوز أن يُصغّر اسم على أقل من ثلاثة أحرف؛ لأن أدنى أبنية التصغير (فعيل)، وذلك لا يكون إلا من بنات الثلاثة؛ لأن ياء التصغير تقع ثلاثة ساكنةً، وأدنى ما يقع بعدها حرفٌ يكون حرف الإعراب، نحو: (رجيل) و (جميل)، ولو صُغّر ما هو على حرفين لوقعت ياء التصغير ثلاثةً طرفاً، فكان يلزم تحريكها بحركات الإعراب، وهي لا تكون إلا ساكنةً؛ لأنها رسيلة ألف التكسير^(١) في (رجال) و (جمال) و (جعافر)، و (مساجد)، وكان يُؤدي ذلك إلى

(١) أي: في حكمها، فكلّ منها ساكن.

قلب ياء التصغير ألفاً؛ لتحرّكها وانفتاح ما قبلها، أو حذفها إذا وقع بعدها تنوين، وكل ذلك محظوظ؛ لما يلزم فيه من نقض الغرض باحتلال باء التصغير^(١).

٥- الحافظة على القافية:

قد يتصرّف الشاعر في قصيده على النحو الذي يحفظ وزنها ويضبط قافيةها، وهذا التصرّف ربما لا يكون من وجهٍ واحد بل يكون مركباً، فيسري على اللفظ تغييراتٌ مختلفة، كالحذف، والإبدال، وتغيير الحركة، وقد جاءت هذه الثلاثة مجتمعةً في قول الرجز:

قواطناً مكّةً مِنْ ورق الحَمِيٍّ^(٢)

والشاهد: (الْحَمِي)، وأصله: الْحَمَام، حُذفت الألف تخفيفاً، فصار: (الْحَمَم)، فاجتمع مثلان، فأبدل من الثاني منهما باء^(٣) -استقالاً للتضييف - فصار: (الْحَمِي)، ثم كسرت الميم لتسليم باء من قبلها ألفاً، فقيل: (الْحَمِي)، ولو لا سلامه باء من القلب لاختلت القافية^(٤).

(١) شرح المفصل (١١٨ / ٥).

(٢) الرجز للعجاج، يصف فيه حمام الكعبة. ينظر الديوان: (٢٣٧)، والكتاب: (١/٢٦)، ولسان العرب (جم): (١٢/١٥٨)، وبلا نسبة في الخصائص: (٢/٤٧٢)، وروايته في الديوان: (أوّلًا مكّة...).

(٣) كما قالوا في (تظننت): تظننت، ينظر شرح الكتاب للسيراقي: (١/٢١)، والخصائص: (٢/٤٧٣)، وشرح التصريف للشمامي: (٨/٢١)، ولسان العرب (جم): (١٥٩/١٢).

(٤) هذا أحد الأوجه التي قيلت في البيت، وما قيل أيضاً: أن الشاعر حذف ميم (الْحَمَام)، وأبدل باءً بعد كسر ما قبلها. ينظر الخصائص مع هامشه: (٢/٤٧٢)، ولسان العرب (جم): (١٢/١٥٩).

٦. إرادة عدم التصرف:

وهذا ظاهرٌ في (ليس)؛ فأصله (ليس) عند الجمهور كما تقدم^(١)، وسكتت فيه الياء لِيُؤْمِنَ القلب؛ لأنهم أرادوا ألا يتصرف، قال ابن يعيش: " وإنما قلنا: إن أصله (فعل) بالكسر؛ لأنه لا يخلو من أن يكون على (فعل) أو (فعل) على ما ذكرنا، فلا يجوز أن يكون على (فعل) بالفتح؛ لأنه لو كان مفتوحاً لم يجز إسكانه؛ لأن الفتحة خفيفة؛ ألا ترى أنهم لا يخففون نحو (قَلَمْ) و (جَبَلْ) بالسكون؟ ولا يجوز أن يكون على (فعل) بالضم؛ لأن هذا البناء لم يأت من بنائه الياء، فلما امتنع أن يكون على (فعل) و (فعل) تعين أن يكون (فعل) بالكسر، وصحيح كما صَحَّح (صَيْدَ البعير) ، وليس المراد أن العلة واحدة، وإنما ذلك لإبداء النظير؛ وذلك لأن العلة في تصحيح (ليس) إرادة عدم التصرف، والعلة في تصحيح (صَيْد) إنما هو لأنَّه في معنى (أَصْيَدَ) كـ (عَوْرَ) و (حَوْلَ)، إذ كانا في معنى (أَعْوَرَ) و (أَحْوَلَ)^(٢).

٧- درء التقاء الهمزتين، أو التقاء الساكنين:

وهذان محظوران تقدما:

- فأما الأول ففي نحو: (جاء)^(٣)، وفي نحو: (خطايا)^(٤).
- وأما الثاني ففي نحو (أَيْنَ وَكَيْفَ)^(٥)، وقد تبيّن أن هذا المحظور كان مُحَلّ نَظَرٍ، لأن موجبات القلب لم تكتمل، فكانت الياء في حِرْزٍ منه.

(١) ينظر المظهر الثاني في المبحث الأول: صون الياء من قلبها أَلفاً.

(٢) شرح المفصل: (٧/١١٢).

(٣) ينظر المظهر الثالث في المبحث الأول: صون الياء من قلبها همزة.

(٤) ينظر المظهر الثالث في المبحث الأول: صون الياء من قلبها همزة.

(٥) ينظر المظهر الثاني في المبحث الأول: صون الياء من قلبها أَلفاً.

المبحث الثالث: طرق صون الياء من القلب:

ذكرت في مقدمة هذا البحث أن الحرف قد يكون ممكناً من القلب ثم يعمد إلى تصحيحه بالحيلولة دون العلة الموجبة لقلبه، والمتبعة المسائل المتعلقة بالياء يجد أن الطرق التي أتبعت في سبيل تصحيحها - وإن تعددت مظاهرها - لا تخرج في جملتها عن الطريقتين التاليتين:

الطريقة الأولى: إزالة العلة الموجبة للقلب:

وتتأتى هذه الطريقة بما يلي:

١- إبدال حركة ما قبل الياء: وهذا المسلك يُرَكَنُ إلى حين تصير الياء معَرَضةً لقلبها واواً؛ وذلك لكون ما قبلها مضموماً، فعندئذٍ تُبدل الضمة إما كسرة، وإنما فتحة، وإنما سكوناً، على التفصيل الآتي:

أ- إبدال الضمة كسرة، وهذا كثير^(١)، ومن أمثلته: (عِين)، جمع (أَعْيْن)، والأصل فيه أن يكون على (عِين)؛ لأن وزنه (فُعْل)، مثل: (أَسْوَد) و(سُوْد)، "إلا أنه كسر أوله، كراهيَة أن تصير الياء واواً، فتلبس ذوات الياء بذوات الواو"^(٢).

ب- إبدال الضمة فتحة: كما في (كَيْنُونَة)؛ وزنه عند الفراء (فُعْلُونَة)، فكان الأصل أن يقال: (كُونُونَة)، غير أنهم فتحوا ما قبل الياء؛ لأن

(١) ينظر مسائل المظاهر الأول في المبحث الأول: صون الياء من قلبها واواً.

(٢) ديوان الأدب: (٤١٧/٣).

أكثر نظائر هذا المصدر مصادرٌ ذات الياء-نحو: (صَيْرُوَة) و(سَيْرُوَة)- فلو أبقوا الضمة قبل الياء لصارت واواً^(١).

ج - إبدال الضمة سكوناً: وهذا ظاهر في نحو: (مُدْيَة)، فحين يُجمع بآلف وتأء مزيدين يمتنع أن تتبع العين حركة الفاء، فلا يكون على منهاج: (ظُلُّمَات)؛ لأن ذلك يُوجب قلب الياء واواً، ولكن يُسَكَّن فيُقال: (مُدْيَات)، ويجوز الفتح^(٢).

٢ - تسكين الياء: وهذه الطريقة يُرَكَّنُ إليها حين تكون الياء سانحةً لقلبها ألفاً؛ وذلك لتحركها وانفتاح ما قبلها، كما في (لَيْس)، قيل: إن أصله: (لَيْس)، أرادوا عدم تصرُّفه، فسَكَّنُوا الياء؛ لِمَا تُقلِّبُ ألفاً^(٣).

٣ - نقل حركة الياء، نحو: (بَيْع)، أصله: (بَيْعَ)، نُقلت كسرة الياء إلى فاء الكلمة بعد أن أُلْقِيَتْ ضممتها، فقيل: (بَيْعَ)، ونُقلَّ كسرة الياء أحسن من حذفها، لأنها إن حُذفت قيل: (بَيْعَ)، فتتقلب الياء واواً لسكونها وضمّ ما قبلها، فتصير إلى (بُوْعَ)، فيخرج الأخف إلى الأثقل^(٤).

(١) ينظر الإنصاف: (٧٩٩، ٧٩٨/٢).

(٢) ينظر المقتضب: (١٩٢/٢).

(٣) ينظر مسألة (لَيْس) في المبحث الأول.

(٤) ينظر الممتع: (٢٩٥).

٤ - تأخير الياء: وهذا تقدّم في (خطايا); فأصله عند الكوفيين: (خطايم)، وكان القياس أن تُقلب الياء همزة، فيقال: (خطائي)، مثل: (صحائف)، غير أنهم قدّموا الهمزة وأحرّروا الياء لثلا تُقلب الياء همزة فتلتقي همزتان^(١).

الطريقة الثانية: الاحتراس بمنع ما قد تحصل به علة القلب:

أحيطت بعض الألفاظ بسياح يمنعها من إحداث بعض التصريفات التي قد يتحقق بها سبب القلب، وبتتبع مسائل الياء في كلام العلماء أفتى أن ما احترسوا منه فمنعوه يكمن فيما يلي:

١ - منع الترخيم على لغة من لا يتظر، نحو: (حبليان) اسمًا لرجل^(٢)؛ لأن الياء في هذه اللغة ستُقلب ألفاً؛ فيقال: (يا حبلا)، وألف (فعلى) لا تكون منقلبة، بل زائدة^(٣).

٢ - منع تصغير ما دون ثلاثة أحرف، نحو: (بان) اسمًا؛ وذلك أنه لو صُغِّر لقيل: (يلّي) فتُحرّك ياء التصغير بحركات الإعراب، وينفتح ما قبلها، فتُقلب ألفاً، فيفوت الغرض منها^(٤).

٣ - منع الجمع على بعض الصيغ، نحو: (سقاء)، فلا يُكسر على (فعل)؛ لأن تكسيره عليه يُوجب قلب الياء واواً، فيصير إلى: (سُقو)، ولا يوجد

(١) ينظر مسألة (خطايا) في المبحث الأول.

(٢) وذلك عند أكثر البصريين. ينظر المتبع في شرح اللمع: (٤٩٩/٢).

(٣) ينظر اللمع: (٨٦).

(٤) لم يصرّح العلماء بهذا المثال، ولكنه يوافق ما ذكروه. ينظر شرح المفصل لابن عييش (١١٨/٥)، وينظر (الحافظة على الغرض من الحرف) في المبحث السابق.

في الأسماء المعربة واو لازمة مضموم ما قبلها، وهذا يقود إلى قلب الواو ياءً فـيقال: (سُفِي)، ثم تبدل الضمة كسرة لمناسبة الياء، فـيقال: (سُقِي) على زنة (فُعل)، وهو بناء تنكّبته العرب، ولا نظير له في الأسماء إلا ما جاء في الشواد^(١).

٤- منع الإتباع، نحو: (كُلْيَة)؛ فإنه إذا جمع بـألف وـباء مـزيدتين قـيل: (كُلْيَات)، وـ(كُلْيَات)، بـتسـكـينـ العـيـنـ أو فـتحـهاـ، "ـوـلاـ يـجـوزـ ضـمـهاـ إـتـبـاعـاـ" لـحـرـكـةـ الـفـاءـ؛ لأنـ ذـلـكـ يـسـتـوـجـبـ قـلـبـ الـيـاءـ الـتـيـ هيـ لـامـ وـاوـاـ لـانـضـمـامـ ما قـبـلـهاـ^(٢)، "ـفـيـشـقـلـ النـطـقـ بـهـاـ"^(٣)، قالـ سـيـبـوـيـهـ: "ـوـمـنـ قـالـ (خـطـوـاتـ) بـالـتـقـيـيلـ فـإـنـ قـيـاسـ ذـلـكـ فـيـ (كـلـيـاتـ)ـ:ـ (كـلـيـاتـ)،ـ وـلـكـنـهـمـ لـمـ يـتـكـلـمـواـ إـلـاـ بـ(كـلـيـاتـ)^(٤) مـخـفـفـةـ؛ـ فـرـارـاـ مـنـ أـنـ يـصـيرـواـ إـلـىـ مـاـ يـسـتـقـلـوـنـ"^(٥).

(١) يـنـظـرـ الـخـصـائـصـ:ـ (١٧٩ـ/ـ٣ـ)،ـ وـتـوـضـيـعـ الـمـقـاصـدـ:ـ (٤٤ـ/ـ٣ـ).

(٢) يـنـظـرـ التـذـيـيلـ وـالـتـكـمـيلـ:ـ (٥٠ـ/ـ٢ـ).

(٣) شـرـحـ المـفـصـلـ لـابـنـ يـعـيشـ:ـ (٢٣ـ/ـ٥ـ).

(٤) ضـبـطـ الـحـقـيقـ عـيـنـ الـكـلـمـةـ بـالـتـسـكـينـ،ـ وـيـجـوزـ الـفـتـحـ كـمـاـ تـقـدـمـ.

(٥) الـكـتـابـ:ـ (٤١ـ/ـ٤ـ).

خلص البحث إلى النتائج التالية:

- ١- صَوْنُ الياء من القلب يعني تصحيحها حين تكون معرَّضةً للقلب بالحيلولة دون العلة الموجبة لقلبها.
- ٢- مصطلح الصَّوْن لم يكن ذائعاً في استعمالات علماء التصريف في مسائل القلب بحذا اللفظ، وإنما كان يفهم من كلامهم، وقد صرَّح به بعض العلماء، وعَبَر عنده آخرون بالصَّيانة، والسلامة، والتَّصْحِيف، ونحو ذلك.
- ٣- صَوْنُ الياء من قلبها واوًّا هو الأَكْثَر؛ لأن الواو ثقيلة، والياء أَخْفَ، ولأجل هذا كان انقلاب الواو إلى الياء أَكْثَر من انقلاب الياء إلى الواو.
- ٤- يفهم من كلام بعض العلماء أن الياء متى ما تحرَّكت وانفتح ما قبلها كانت سانحةً لقلبها أَلْفَاً، وهذا فيه نظر؛ فقلب الياء أَلْفَاً لا يتأتَّى إلا بشروطٍ لو اخْتَلَّ أحدها لم تخضع للقلب.
- ٥- اختلف سيبويه والأخفش في الياء إذا وقعت عيناً ساكنةً مضموماً ما قبلها في كلمة مفردة وهي قريبة من الطرف؛ فمذهب الأخفش أن الياء تُقلب واوًّا، ومذهب سيبويه أن الضمة المتقدمة تبدل كسرة؛ لتسليم الياء من القلب.
- ٦- تبيَّن من هذه الدراسة أن صَوْنَ الياء من القلب إنما كان لبواعث مهمَّة، كمراقبة النظير، وأمن اللبس، وطلب الخفة، والتَّزام القافية، وغير ذلك.
- ٧- تبيَّن من هذه الدراسة أيضاً أن صَوْنَ الياء من القلب يتأتَّى بطريقتين: الأولى: إزالة العلة الموجبة للقلب؛ كإبدال الضمة قبل الياء كسرةً - وهو

الأغلب - أو فتحةً أو سكوناً، وكتسجين الياء، أو إدغامها، أو تأخيرها، أو نقل حركتها، والثانية: الاحتراض بمنع ما قد تحصل به علة القلب، كمنع ترخيم بعض الألفاظ على لغة من لا ينتظر، ومنع تصغير ما دون الثلاثة، ومنع الجمع على بعض الصيغ، ومنع إتباع العين ضمة الفاء فيما كانت لامه ياءً مما جمع باءً وفاءً مزيدتين، نحو: (كُلُّيات).
ويبقى أن أقول: إن موضوع الصّوّون في هذه الدراسة حُصر في حرفٍ واحدٍ من حروف القلب، وهو الياء، وهذا يعني التوصية بدراسة ما تلّويني قلبه من الأحرف الأخرى.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

ثبات المصادر والمراجع:

القرآن الكريم.

- الأحكام المبنية على أمن اللبس أو الخوف منه من خلال شرح الرضي على الكافية، للدكتور عبد الملك عبد الوهاب الحسامي، مجلة الدراسات الاجتماعية، جامعة العلوم والتكنولوجيا، اليمن، العدد الحادي والثلاثون، يوليو - ديسمبر ٢٠١٠ م.
- ارتشاف الضرب من لسان العرب، لأبي حيان الأندلسى، تحقيق وشرح ودراسة الدكتور رجب عثمان محمد، مراجعة الدكتور رمضان عبد التواب، مكتبة الحانجى بالقاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ، ١٩٩٨م.
- أسرار العربية لأبي البركات عبد الرحمن بن محمد بن أبي سعيد الأنباري، عُني بتحقيقه محمد بمحجة البيطار، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق، ١٣٧٧هـ - ١٩٥٧م.
- الأصول في النحو، لأبي بكر محمد بن سهل بن السراج النحوي البغدادي، تحقيق الدكتور عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.
- الأمثال، لأبي علي القالي، ويليه الذيل والنواذر للمؤلف، وكتاب التنبية لأبي عبد البكري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين: البصريين والковفيين، لكمال الدين أبي البركات عبد الرحمن بن محمد بن أبي سعيد الأنباري، ومعه كتاب الإنصاف من الإنصاف، لمحمد محيي الدين عبد الحميد، دار إحياء التراث العربي.
- إيجاز التعريف في علم التصريف، لمحمد بن عبدالله بن مالك الطائي أبي عبد الله جمال الدين، تحقيق محمد المهدى عبد الحي عمار سالم، منشورات عمادة البحث العلمي، بالجامعة الإسلامية، في المدينة المنورة، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.
- تخلص الشواهد وتلخيص الفوائد، لابن هشام، تحقيق الدكتور عباس الصالحي، دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

- تداخل الأصوات اللغوية وأثره في بناء المعجم، للدكتور عبد الرزاق بن فراج الصاعدي، عمادة البحث العلمي، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.
- التذليل والتكميل في شرح كتاب التسهيل، لأبي حيان الأندلسي، تحقيق الدكتور حسن هنداوي، دار كنوز إشبيليا، الرياض.
- التصريح بضمون التوضيح، للشيخ خالد زين الدين بن عبد الله الأزهري، دراسة وتحقيق الدكتور عبد الفتاح بحيري إبراهيم، الزهراء للإعلام العربي، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.
- التعليقة على كتاب سيبويه، لأبي علي الحسن بن أحمد بن عبد العفار الفارسي، تحقيق وتعليق الدكتور عوض بن حمد القوزي، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ - ١٩٩١م.
- توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك، لبدر الدين الحسن بن قاسم المرادي، تحقيق أحمد محمد عزوز، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.
- حاشية الصبان، محمد بن علي الصبان الشافعي على شرح الأشموني علي بن محمد بن عيسى الأشموني على ألفية ابن مالك، حققه وصححه وخرج شواهده إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.
- الخصائص، لأبي الفتح عثمان بن جني، تحقيق محمد علي النجار، دار الكتب المصرية، المكتبة العلمية.
- الدر المصون في علوم الكتاب المكتون، للسمين الحلبي، تحقيق الدكتور أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق، الطبعة الثالثة، ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م.
- ديوان الأدب، لأبي إبراهيم إسحاق بن إبراهيم الفارابي، تحقيق الدكتور أحمد مختار عمر، ومراجعة الدكتور إبراهيم أنيس، مؤسسة دار الشعب، القاهرة، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.
- ديوان العجاج، قدم له وحّقه سعدي ضناوي، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م.

- ديوان المذلين، تحقيق محمود أبو الوفا، دار الكتب المصرية.
- شذا العرف في فن الصرف، لأحمد الحملاوي، شرحه وحققه الدكتور ناجي عبد العال حجازي، مكتبة الرشد، الطبعة الأولى، ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م.
- شرح التسهيل المسمى تمهيد القواعد بشرح تسهيل الفرائد، لحب الدين محمد بن يوسف ابن أحمد المعروف بناظر الجيش، دراسة وتحقيق الدكتور علي محمد فاخر وأخرين، دار السلام، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م.
- شرح التصريف، لأبي القاسم عمر بن ثابت الشماني، تحقيق الدكتور إبراهيم بن سليمان البعيمي، مكتبة الرشد، الطبعة الأولى، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م.
- شرح شافية ابن الحاجب لرضا الدين محمد بن الحسن الاسترابادي النحوي، مع شرح شواهده، لعبد القادر البغدادي، حققه وضبط غريبه وشرح مبهمه محمد نور الحسن، ومحمد الرفراز، ومحمد محيي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية، بيروت.
- شرح شافية ابن الحاجب في علم الصرف، لأبي الفضائل ركن الدين الحسن الاسترابادي، تحقيق الدكتور عبد المقصود محمد عبد المقصود، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م.
- شرح الكافية الشافية، لابن مالك، حققه وقدم له الدكتور عبد المنعم أحمد هريدي، دار المؤمن للتراث، الطبعة الأولى، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م.
- شرح كتاب سبيويه، لأبي سعيد السيرافي الحسن بن عبد الله بن المربزيان، تحقيق أحمد حسن مهدي، وعلى سيد علي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٩ م.
- شرح مراح الأرواح، لديكنتقوز، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ١٣٧٩ هـ - ١٩٥٩ م.
- شرح المفصل، لموفق الدين يعيش بن علي بن يعيش، عالم الكتب - بيروت، مكتبة المتنبي - القاهرة.

- الصاحح ناج اللغة وصحاح العربية، لإسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملاتين، بيروت، الطبعة الرابعة ١٩٩٠ م.
- علم الصرف الميسر، لعمود عكاشة، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، مصر، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥ م.
- العين، للخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق الدكتور مهدي المخزومي، والدكتور إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الملال.
- كتاب سيبويه، لأبي بشر عمرو بن قتير، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى.
- الكناش، لأبي الفداء، عماد الدين إسماعيل بن علي بن محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه، الملك المؤيد صاحب حماة، دراسة وتحقيق الدكتور رياض بن حسن الخواص، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠٠٠ م.
- اللباب في علل البناء والإعراب، لأبي البقاء عبد الله بن الحسين العكبي، تحقيق غازي مختار طليمات، دار الفكر المعاصر، -بيروت، دار الفكر-دمشق ١٤٢٢هـ-٢٠٠١ م.
- لسان العرب، لأبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى.
- المتن في شرح اللمع، لأبي البقاء العكبي، دراسة وتحقيق الدكتور عبد الحميد حمد الروي، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي، الطبعة الأولى، ١٩٩٤ م.
- المختسب في تبيين وجوه شواد القراءات والإيضاح عنها، لأبي الفتح عثمان بن جني، تحقيق علي النجدي ناصف، والدكتور عبد الحليم النجار، والدكتور عبد الفتاح إسماعيل شلبي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ١٣٨٦هـ.
- اللمع في العربية، لأبي الفتح عثمان بن جني، تحقيق الدكتور سعید أبو معلى، دار مجده، ١٩٨٨ م.

- معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق وضبط عبد السلام محمد هارون، دار الفكر.
- المفتاح في الصرف، لعبد القاهر الجرجاني، حققه وقدم له الدكتور علي توفيق الحمد، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م.
- المفصل في صنعة الإعراب، لأبي القاسم الزمخشري، تحقيق الدكتور علي بو ملحم، مكتبة الهلال، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٣ م - ١٤٩٣ هـ.
- المقاصد الشافية في شرح الخلاصة الكافية، لأبي إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي، تحقيق الدكتور عبد الرحمن بن سليمان العثيمين وآخرين، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، جامعة أم القرى، الطبعة الأولى، ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م.
- المقاصد النحوية في شرح شواهد الألفية، المشهور بشرح الشواهد الكبرى، لبدر الدين العيني، تحقيق الدكتور علي محمد فاخر، والدكتور أحمد محمد السُّوداني، والدكتور عبد العزيز محمد فاخر، دار السلام، الطبعة الأولى، ١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م.
- المقضب، لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد، تحقيق محمد عبد الحالق عضيمة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، الطبعة الثالثة ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م.
- الممتع في التصريف، لابن عصفور الإشبيلي، تحقيق الدكتور فخر الدين قباوه، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م.
- المنصف، شرح أبي الفتح عثمان بن جني النحوي لكتاب التصريف لأبي عثمان المازني النحوي البصري، تحقيق إبراهيم مصطفى، وعبد الله أمين، دار إحياء التراث القديم، الطبعة الأولى، ١٩٥٤ م.
- همع المقام في شرح جمع الجماع، لجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، تحقيق عبد الحميد هنداوي، المكتبة التوفيقية، مصر.

جائحة كورونا وأثرها في الشعر السعودي الروية والتشكيل
شعراء جازان نموذجاً

د. سعيد بن عبدالله بن عبدالله آل ناصر القرني
قسم اللغة العربية – كلية الآداب
جامعة بيشة

جائحة كورونا وأثرها في الشعر السعودي الرؤية والتشكيل

شعراء جازان نموذجاً

د. سعيد بن عبدالله بن عبدالله آل ناصر القرني

قسم اللغة العربية – كلية الآداب
جامعة بيشة

تاريخ تقديم البحث: ٢٦ / ٨ / ١٤٤٢ هـ

ملخص الدراسة:

يتناول هذا البحث رؤية الشعراء لجائحة كورونا التي اجتاحت العالم وحصدت الأرواح وأدت إلى شلل في الحياة الاقتصادية والاجتماعية، ويتبين كيف صور الشعراء التداعيات والأثار السلبية لهذا الوباء وكيف عجز العلماء عن مواجهته والرؤية الدينية لهذه الجائحة وتقدير جهود المملكة في مواجهته ومحاصرته.

ينطلق من إشكالية تمثل في مدى قدرة الشعراء على التفاعل مع أحداث العصر، ويعتمد المنهج التحليلي الذي يعني بتحليل الظاهرة الشعرية واستقراءها واستخلاص مضامينها وأبعادها الفنية، ويشتمل على مبحثين، تقدمهما تمهيد مختصر عن الأوبئة في التاريخ والأدب، تناول الأول رؤية الشعراء لحوية الوباء ونشأته وآثاره وتداعياته، وتناول الثاني التصوير الفني والسمات الأسلوبية واللغوية، وانتهى البحث بخاتمة تتضمن أبرز النتائج أعقبها ثبت المصادر المراجع.

الكلمات المفتاحية: جائحة، كورونا، الشعراء، الرؤية، التصوير، السمات.

The Impact of Corona Pandemic on Saudi poetry: It's Vision and Formation, Jazan Poets as a Model

Dr. Saeed bin Abdullah Al-Qarni

Department of Arabic Language - College of Arts

Bisha university

Abstract:

This study deals with a group of poets' vision of the Corona pandemic that swept the world, claimed thousands of lives and led to a great paralysis in economic and social life. It traces how these poets portrayed the pandemic's negative impacts, the scientists' inability to end it, the religious vision of this pandemic, and appreciating the Kingdom's efforts to control it. It is initiated by the issue of the extent of the poets' ability to interact with contemporary events, the accuracy of their poetic vision in depicting this pandemic, and their agreement and disparity in this vision while achieving the elements of originality and innovation. It adopts the analytical approach for analyzing the components and artistic dimensions of this poetic phenomenon. It has two sections, preceded by a brief introduction to epidemics in history and literature. The first section deals with the poets' vision of the epidemic's identity, origin, negative effect, and repercussions; their disparity in presenting disturbing and positive visions of the pandemic, highlighting its religious explanation, and appreciating the Kingdom's role in controlling it. The second section explores the artistic vision, concentrating on two important elements: the artistic depiction and the stylistic and linguistic features. The study ends with a conclusion stating the prominent findings, followed by a list of references.

key words: pandemic, Corona, poets, vision, depiction, features

مقدمة

يتناول هذا البحث رؤية مجموعة من الشعراء لجائحة كورونا التي اجتاحت العالم وحصدت آلاف الأرواح وأدت إلى شلل كبير في الحياة الاقتصادية والاجتماعية. ويتبعد البحث كيف صور هؤلاء الشعراء التداعيات والآثار السلبية لهذا الوباء وكيف عجز العلماء عن مواجهته والرؤية الدينية لهذه الجائحة وتضرعهم إلى الله لدفع هذا البلاء وتقدير جهود المملكة في مواجهته ومحاصرته.

● أهمية البحث:

يستمد البحث أهميته من كونه يتناول موضوعاً جديداً كان للشعراء قصب السبق في تناوله وتصوирه والتعبير عنه لاسيما وقد فاجأت هذه الجائحة العالم كله وأربكته.

● مشكلة البحث:

ينطلق هذا البحث من إشكالية تمثل في مدى قدرة الشعراء على التفاعل مع أحداث العصر ومدى دقة رؤيتهم الشعرية في تصور هذه الجائحة ومدى اتفاقهم وتفاوتهم في هذه الرؤية.

● أهداف البحث

يسعى البحث إلى تحقيق عدة أهداف منها الوقوف على موقف الأدب والتاريخ من الأوبئة، والكشف عن أبعاد وملامح الرؤية الشعرية لهذا الوباء، وإبراز دور الشعر في التفاعل مع الأحداث الجديدة، وقياس قدرة الشعراء على تصوير هذه الجائحة وسعيهم إلى تحقيق عنصري الأصالة والابتكار.

● منهجة البحث:

يعتمد البحث على المنهج الوصفي التحليلي الذي يعني بتحليل الظاهرة الشعرية واستقرائها واستخلاص مضامينها وأبعادها الفنية، مع الاستعانة بالمنهج الأسلوبي.

ويشتمل على مبحثين، تقدمهما تمهيد مختصر عن الأوبئة في التاريخ والأدب. وجاء الأول منهما بعنوان (الرؤى الشعرية) وتناول رؤية الشعراء لهوية الوباء ونشأتها والتفسير الديني وآثاره وتداعياته السلبية وتفاوتهم بين الرؤية المزعجة للوباء والرؤية الإيجابية له مع إبراز الرؤية الدينية والوعظ وتقدير دور المملكة في حماسته، وجاء الثاني بالرؤية الفنية من خلال التركيز على عنصرين مهمين هما: التصوير الفني والسمات الأسلوبية واللغوية.

وانتهى البحث بخاتمة تتضمن أبرز النتائج أعقبها ثبت المصادر المراجع.
والله أعلم التوفيق والسداد.

تمهيد: الأوبئة في التاريخ والأدب:

اجتاحت الأوبئة مناطق كثيرة من العالم على مر العصور ومن أقدمها طاعون عمواس في بلاد الشام التابعة للخلافة الراشدة في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه سنة ١٨ هـ بعد فتح بيت المقدس، ويعد أول وباء يظهر في الدولة الإسلامية وقيل إنه أودى بحياة ثلاثين ألفاً وقيل سبعين ألفاً في ثلاثة أيام، وراح ضحيته عدد من الصحابة منهم أبو عبيدة عامر بن الجراح ومعاذ بن جبل ويزيد بن أبي سفيان والفضل بن العباس بن عبد المطلب وغيرهم.^(١) وتروي كتب التاريخ أن وباء قاتلاً اجتاج البشرية عام ٧٤٩ هـ، عُرف باسم (الفناء العظيم أو الموت الأسود)، وقد جاء من بلاد المغول في شرق آسيا، واشتد على الناس في بلاد عديدة، وتحدثت كتب أخرى عن الطاعون الذي أهلكآلاف الأرواح، وأنه صُليت الجنائز في أحد أيام الجمع على مئات الأشخاص دفعة واحدة في الجماع، وتحدث بعض المؤرخين عما ألحقه وباء الطاعون بالدولة المملوكية وما أعقبه من مجاعة وخراب وانهيار اقتصادي.

وقد ظلت وجهة النظر الغالبة لدى الفقهاء والعلماء أن الطاعون بلاء من الله بسبب فساد العباد ولابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢ هـ) الذي توفي ثلث من بناته بالوباء كتاب يسمى (بذل الماعون في فضل الطاعون)

(١) يُنظر: تاريخ الرسل والملوك، أبو جعفر الطبرى، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢، دار التراث بيروت، ١٣٨٧هـ / ٦٠

ولم تكنجائحة (كورونا) التي تجتاح العالم كله في أيامنا هذه إلا امتداداً لهذه الأوبئة القاتلة حيث يعيش العالم محنّة وباء جديد هو (كورونا) وهو فيروس غامض لا يعرف أحد حقيقته أو أسباب ظهوره، وقد بدأ في الصين ثم انتشر بسرعة مذهلة في أنحاء العالم، فحصد أرواح الآلاف من البشر وأدى إلى إغلاق الحدود بين الدول وتعليق حركة الطيران حول العالم وتوقف حركة التجارة العالمية وتدهور الاقتصاد العالمي وإجبار المواطنين على البقاء في منازلهم واتخاذ إجراءات الحجر الصحي وحدوث شلل تام في جميع أشكال الحياة وكان الكرة الأرضية توقفت فيها الحياة.

الأوبئة والأدب

وكما كانت الأوبئة مادة للمؤرخين فإنها وفرت كذلك مادة خصبة للأدباء عربياً وعالمياً ومن ذلك ما ذكره د. طه حسين في كتابه (الأيام) الذي يمثل سيرته الذاتية عن انتشار وباء الكوليرا في قريته في مطلع القرن العشرين ووصف لوعة أسرته بموت أخيه الأوسط طالب الطب الشاب بالوباء الذي هبط إلى مصر ففتك بأهلهما فتاكا ذريعاً ودمراً مدننا وقرى ومحى أسرأً كاملاً.^(١) وقد تناولت الشاعرة العراقية نازك الملائكة في قصيدتها المشهورة (الكوليرا) هذا الوباء الذي اجتاح مصر عام ١٩٤٧ وقالت فيها:^(٢)

(١) الأيام د. طه حسين، دار المعارف بمصر ٦٤/٣

(٢) الأعمال الشعرية الكاملة، نازك الملائكة ط. المجلس الأعلى للثقافة بمصر ١٢٠٠٢

سكن الليل
أصغ إلى وقع صدى الأنات
في عمق الظلمة تحت الصمت على الأموات
صرخات تعلو تضطرب
حزن يتدفق يلتهب
يتعثر فيه صدى الآهات
في كل فؤاد غليان
في الكوخ الساكن أحزان
في كل مكان روح تصرخ في الظلمات
في كل مكان يبكي صوت
هذا ما قد منقه الموت
الموت الموت الموت
يا حزن النيل الصارخ مما فعل الموت

.....

الكوليرا
في كهف الرعب مع الأشلاء
في صمت الأبد القاسي حيث الموت دواء
استيقظ داء الكوليرا

حقدا يتدفق موتورا
هبط الوادي المرح الوضاء
يصرخ مضطربا مجنونا
لا يسمع صوت الباكيانا
في كل مكان خلف مخلبه أصداء

وتردلت أصداء هذا الوباء في الأدب العالمي فكتب الأديب الكولومبي غابرييل جارسيا ماركيز روايته (الحب في زمن الكولييرا) وكتب الأديب الإنجليزي دانيال ديف روايته (روبنسون كروزو) وما نشرته مجلة (عام الطاعون) التي عرضت لوقوع لندن في قبضة الطاعون وصورت انتشار الوباء القاتل فيها في القرن السابع عشر.

وقد حظي وباء كورونا باهتمام الشعراء فوجدنا في (ملتقى شعراء جازان)^(١) عدداً غير يسير من القصائد التي خصصها الشعراء لهذا الغرض صوروا فيها خطورة هذا الوباء وآثاره المدمرة وما خلفه من تداعيات سلبية طالت البشرية وما أثاره في نفوس الناس من خوف ورعب وهلع، وقد اتخذ الباحث من هذه القصائد عينة للدراسة في هذا البحث.

(١) قصائد كورونا في ملتقى شعراء جازان الأرشيف، مجلة ملتقى شعراء جازان الافتراضية ١٩٦٥ - ٢٣٢ وللتواصل مع أمينه د. جبران سحاري ٢٩٧٥٩٨٥ ، ومن خلال الروابط الإلكترونية التالية:

j500..j@hotmail.com

moltaqa37@hotmail.com

<https://twitter.com/moltaqa37>

المبحث الأول: الرؤية الشعرية

اهتمت الرؤية الشعرية برصد هوية هذا الوباء ونشأته وجهود العلماء لمكافحته وآثاره السلبية وجهود المملكة في محاصرته واعتصام الناس بالدين والتضرع إلى الله لكشف هذه الغمة.

منشأ الوباء:

حرص الشعراء على تتبع هوية هذا الوباء ومعرفة أصله وموطنه فأشاروا إلى ظهوره أول الأمر في ولاية (ووهان) بالصين التي كانت موطنه وبؤرة انتشاره وتفضيه في العالم، يقول مهدي حكمي^(١):

يقال لنا من هناك ابتدأت فهل سيقال هناك انتهيت
ظهرت بـ(ووهان) صبح الخميس وصلت عصرا شمال الكويت
وبت على قبة الفاتيكان فماذا سمعت؟ وماذا رأيت؟
ويؤكد ابن الجمي في لاميته هذه الحقيقة فيقول^(٢) :
قد سمعنا عنه في الصين فإذا هو في الأرجاء فورا قد وصل
ويطرح الشاعر مجدي الشافعي تساؤلاته عن كنه هذا الوباء وهوبيه وأصله
وأسباب نشأته فيقول^(٣) :
من أين جئت إلينا؟ يسأل الفزع وهل ستقضى علينا؟ يطرق الملع

(١) قصائد كورونا في ملتقى شعراء جازان ١٩٦/٥

(٢) المصدر السابق ٢١٤/٥

(٣) المصدر السابق ٢١٨/٥

من أنت؟ ما أنت؟ ما الفيروس؟ هل مرض من التجارة لما بارت السلع
هل أنت "حرب اقتصاديات عالمنا؟" حتى تحدد عند الغالب البيع
أم أنت غلطة دكتور بمختبر فاحت فلم يستطع تجميعها الوسع
أم أنت نذر لنا أم أنت منذرنا؟ ضاقت بنا الأرض فيما أنت تتسع
والشاعر في طرحة هذه الأسئلة يكشف عن استيعابه كل الظروف التي
ترددت في الأوساط العلمية والطبية والثقافية والاقتصادية عن كنه هذا الوباء
فهي أسئلة الحيرة والدهشة والفجيعة وقد وظف الشاعر المجاز بمهارة فشخص
الفيروس وحاوره وحاكمه وشخص الفزع وأسند إليه الأسئلة. وعبرت صيغ
الاستفهام بدوالها عن هذه الحيرة العميقه فتنوعت بين دلالة العاقل (من أنت
(ودلالة غير العاقل (ما أنت) مما يحمل دلالة الحيرة ويعمقها. وقد وظف
الشاعر بعض المصطلحات الحديثة التي طرحت لتفسير وجود هذا الوباء
ومنها (حرب اقتصاديات العالم) فنمة من يبرر وجود هذا الفيروس بخطط
الحرب الاقتصادية لاسيما بين الصين وأمريكا. وقد مضى الشاعر في طرحة
الأسباب المفترضة لنشأة هذا الوباء ومنها ما يتعدد من أنه نشأ بسبب خطأ
معجمي لم يتمكن العلماء من السيطرة عليه أو محاصرته ولم يفت الشاعر أن
يبرر هذه النشأة تبريرا دينيا فرآه نذرا أو نذيرا لمعاقبة البشر الذين انشغلوا
بالماديات عن القيم الدينية والإنسانية.

التفسير الديني:

طغى التفسير الديني لنشأة هذا الوباء على غيره من التفسيرات فرأى
بعض الشعراء أن هذا الفيروس جند من جنود الله أرسله لردع الطغاة الذين

يَقْمِعُونَ أَهْلَ الدِّينِ وَيَتَسَلَّطُونَ بِصَفَةِ خَاصَّةٍ عَلَى عِقِيدَةِ الْإِسْلَامِ وَيَرْبِطُونَ انْطِلاقَهُ مِنَ الْصِّينِ بِمَا حَدَثَ مِنْ قَمْعٍ وَبَطْشٍ بِالْمُسْلِمِينَ مِنْ أَهْلِ الْإِيْغُورِ وَقَدْ عَبَرَ حَمْدُ صَدِيقٍ مُحَمَّدٍ طَاهِرٍ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ^(١) :

اللَّهُ أَكْبَرُ جَنْدُ اللَّهِ يَرْسُلُهَا
بِعِلْمِهِ تَأْخُذُ الطَّاغِي عَلَى حِينِ
هِيَا ادْفَعُوا يَا قَوْيَ الدِّنِيَا تَسْلَطُهَا
أَمَا تَسْلَطَتْمُ فِي قَمْعِ ذِي الدِّينِ
بِمَا أَذْقَنْتُمْ بَنِي الْإِيْغُورَ بِطَشْكَمْ
ذُوقُوا - قَتْلَتُمْ - فَلَا رَفِقَ بِمَأْفَوْنِ
وَبِرِّيْ ابْنِ النَّجْمِيِّ أَنْ هَذَا الْوَبَاءُ قَدْرُ مِنَ اللَّهِ وَأَنْ مَنْ مَاتَوْا بِسَبِيلِهِ كَانَ
مَقْدِرًا لَهُمْ ذَلِكَ يَقُولُ^(٢) :

قَدْرُ اللَّهِ وَمَنْ كَانَ بِهِ
مَوْتُهِ مَاتَ وَلَوْ حَلَ زَحْلٌ
نَبْذُ الْأَسْبَابِ فِي دُفَعِ الْبَلَا وَتَعْلَقُنَا بِمَوْلَانَا الْأَجْلِ

وَبِرِّيْ أَحْمَدُ دَهَاسُ أَنْ هَذَا الْوَبَاءُ إِنَّمَا حَلَّ بِالْبَشَرِ بِسَبِيلِ خَطَايَاهُمْ وَذُنُوبِهِمْ
وَمَا ارْتَكَبُوهُ مِنْ مَعَاصِي، فَأَنْزَلَ اللَّهُ سُخْطَهُ عَذَابَهُ وَعَقَابَهُ جَزَاءَ بِمَا ارْتَكَبُوهُ^(٣) :

يَا إِلَهِي قَدْ غَدَتْ مِنَا الْخَطَايَا
كَجَبَالِ رَاسِيَاتِ فِي الْبَوَادِي
إِنْ يَكُنْ هَذَا الْوَبَاءُ أَنْزَلَتْ سُخْطَا
وَعَذَابًا مِنْكَ يَا مَنْشِي الْغَوَادِي
فَارْضُ عَنَا وَهَبْ الْمَخْطَيِّ عَفْوًا
وَاهْدُهُ لِلْحَقِّ وَلِدُرُبِ الرَّشَادِ

(١) المَصْدَرُ السَّابِقُ ٢٢٣/٥

(٢) المَصْدَرُ السَّابِقُ ٢١٤/٥

(٣) المَصْدَرُ السَّابِقُ ١٩٩/٥ - ٢٠٠

ولم يغفل الشعراء الإشارة إلى جهود العلماء في مكافحة هذا الوباء وتسابقهم في أمريكا وأوروبا للتوصل إلى لقاح يجنب البشرية ويلاته، يقول مهدي حكمي^(١):

وخلف المحيط ارتباك شديد على قطرتين لقاح وزيت

فالشاعر واع بما يواجهه العلماء من تخبّط وارتباك وعجز أمام سطوة هذا الوباء وقد ألمح كذلك إلى ما يواجهه العالم من ارتباك اقتصادي نتيجة هذا الوباء وتخبط في أسواق النفط العالمية.

آثاره وتداعياته السلبية:

اهتم الشعراء بوصف أضرار هذا الوباء وآثاره وتداعياته السلبية على العالم كله فقد اجتاحت الكرة الأرضية وأصابها بالدمار وأزهق الأرواح ولم ينج من سطوهه كبير أو صغير، يقول مهدي حكمي^(٢):

تلوك المسنين مثل الزيّب وتردد الكهل كالبسكويت

فهلا قنعت بما قد أصبت وهلا شاعت وهلا ارتويت

تهاوت بكفك أعني القلاع وخر لها بحر الإيتيكيت

وهذا محمد البهكلي يلتفت إلى أضرار أخرى ألمّ بها هذا الوباء بالعالم، يقول^(٣):

وهبّ في الأرض يطويها على عجل فما نجى عرب منه ولا عجم

(١) المصدر السابق ١٩٧٥

(٢) المصدر السابق ١٩٧٥

(٣) المصدر السابق ٢٠٥٥

يسري ويفتك بالإنسان إذ فشلت كل الوسائل وانهارت به الأمم
وقطع الوصل بين الناس فانقطعت دور العبادة والجيران والرحم

فالشاعر يشير إلى سرعة هذا الوباء في الانتشار وفتكه بالبشر وفشل كل الوسائل الطبية في محاصرته والقضاء عليه، وقد انسحب آثاره المدمرة لا على أمة بعينها بل على الأمم كلها، وقد امتدت آثاره السيئة على العلاقات الاجتماعية بين الناس، فانقطع التواصل بينهم وتبعده الجيران وذوو الأرحام وأغلقت دور العبادة، ويشير ابن الجمي إلى هذه الآثار السلبية فيقول^(١):

عطلت من أجله ما عطلت من علاقات وعلم وعمل
ومحاريب خلت من أجله صار في عالمنا شبه الشلل
لزم الناس به من خوفهم دورهم كل طليق معتقل

وقد أضاف الشاعر هنا عناصر أخرى إلى تلك الآثار السلبية للوباء، فأشار إلى تعطيل العلم وإلى إغلاق المدارس والجامعات. وأشار بالمحاريب إلى دور العبادة كافة على اختلاف الأديان. وكان دقيقاً في وصف ما أصاب العالم بما يشبه الشلل وأضاف كذلك ما ألم بالناس من خوف أدى بهم إلى التزام بيوقتم، وعبر عن ذلك تعبيراً جيلاً بقوله (كل طليق معتقل).

ويؤكد أحمد المتوكل النعمي على أهمية الالتزام بالبقاء في البيوت حرصاً على الصحة والسلامة^(٢):

(١) المصدر السابق ٢١٤ / ٥

(٢) المصدر السابق ٢٠٨ / ٥

لقد عقلنا فلم نربح منازلنا توكلني إن هذا خير صمام
فالبقاء في المنازل خير صمام وضمان لمحاصرة الوباء والحد من انتشاره.
ويربط نواف الحكمي بين الإحساس بالذعر الذي بلغ حد الهوس وبين
الالتزام الناس بالبقاء في منازلهم فيقول^(١):

فمنذ متى وكل الناس تشكوا الذعر والهوسا

جلوسا في خنادقهم ليسلم كل من جلسا

والشاعر هنا يصور الموقف وكأنه معركة حرية ضارية ولذلك شبه البيوت
بالخنادق التي يختتمي بها الجنود للنجاة من العدو.

وألح الشاعر على وصف حالة الهلع والذعر التي أصابت سكان الكراة
الأرضية من الأسلحة الفتاكـة لهذا الوباء وسيطرته وسرعة حصاده للأرواح
والأنفس، فقال عبدالصمد المطهري الحازمي^(٢):

يا رب رحـمـاكـ من ضيقـ ومن عـلـلـ
ومن بلـاءـ فـشـاـ في سـائـرـ الـمـلـلـ
فـيـرـوـسـ لـاـ تـبـصـرـ الـأـحـدـاقـ هـيـبـتـهـ
فـلـاـ يـرـونـ سـوـىـ أـعـرـاضـ مـنـتـقـلـ
الـنـاسـ فـيـ حـلـهـاـ تـمـشـيـ عـلـىـ حـذـرـ
وـلـيـسـ تـدـرـيـ بـمـغـتـالـ عـلـىـ عـجـلـ
يـنـسـلـ فـيـ غـفـلـةـ يـسـعـيـ إـلـىـ رـئـةـ
وـيـسـكـ السـمـ فـيـ صـمـتـ إـلـىـ أـجـلـ
حـتـىـ إـذـاـ فـارـ فـيـ التـنـورـ مـوـعـدـهـ
يـهـتـزـ كـالـرـيـحـ فـيـ جـوـفـ عـلـىـ عـجـلـ
لـاـ عـهـدـ أـوـ مـلـتـقـىـ بـادـ إـلـىـ سـلـمـ
يـجـتـاحـ بـالـسـرـ مـنـ حـضـنـ وـمـنـ قـبـلـ

(١) المصدر السابق ٢٠٧/٥

(٢) المصدر السابق ٢٠٩/٥

كم كامن يرقب الإنسان في وكن والناس في دربها تسعى إلى أمل وقد استهل الشاعر قصيده بالإشارة إلى ما ينتاب الناس من ضيق وملل من هذا الوباء الذي تفشي فيسائر الأمم. وهو فيروس فتاك على الرغم من أنه لا يرى بالعين المجردة- فإنه يbedo في أعراضه التي تصيب الجسم بالوهن والإعياء. ويصف الشاعر وصفا دقيقا ما يفعله هذا الوباء بجسم الإنسان حيث ينسلي غفلة مستهدفا رئة الإنسان فينشأب أظافره فيها ويؤدي إلى انطباقها وفشلها مما يؤدي إلى وفاة الإنسان، وكان الشاعر دقيق الوصف في قوله (يسكب السم في صمت إلى أجل) وقوله (يهتز كالريح في جوف على عجل)، ويصف كمونه ومراقبته للإنسان، وهو وصف يدل على وعي الشاعر بأبعاد هذا الداء ودقته في وصفه والتعبير عن خطورته.

ويتبع ابن النجمي نشأة هذا الوباء وتفشييه في العالم كله ليحصد أرواح الناس. يقول⁽¹⁾:

وأتى داء (كورونا) ومضى يحصد الناس فكم منهم قتل
وغدا العالم في حيرته كلهم بالفيروس الخافي انشغل
لا يرى بالعين لكن له هجمة تعجز أرباب الحيل
حار فيه الطب واهتزت له هذه الدنيا وكم فيها انتقل

وقد حرص الشاعر هنا على ذكر هذا الداء بسماه (كورونا) كما وصفه ب (الفيروس الخافي) الذي لا يرى بالعين المجردة، ومع ذلك فهو يمتلك

(1) قصائد كورونا في ملتقى شعراء جازان ٥/٢١٤

قدرات خارقة على إيذاء البشر ويصف عجز العلماء وحيرة الأطباء عن مقاومته، بل حيرة العالم أجمع وانشغاله بهذا الداء عن كل شيء.

ويلتفت الشاعر إلى ما ثار من جدل في العالم حول حقيقة هذا الوباء، وما تناقلته الأنبياء عن كونه مخلقاً أو مصنوعاً لأهداف سياسية واقتصادية خسيسة فهو – في نظر الشاعر – سلاح فتاك اخترعه المتعادون، ولكتهم اضحوا من ضحاياه، كما لم يفت الشاعر الإشارة إلى أنه شيء مقدر يقول^(١):

رب جنبنا عذاباً نزلت منه ما قد ظهرت بعض العلل

هو تقدير ولكن ربما كان مصنوعاً معداً منتحل

وسلاحاً قاتلاً من غدرهم صاغه أعداؤنا أهل الدجل

رده الله إليهم فهم من ضحاياه ومن صب نهل

الرؤبة المزعجة:

اهتم الشاعر بوصف ما أصاب الناس في شتى أقطار العالم من هلع وذعر نتيجة لشراسة هذا الوباء وسرعة تفشيه وحصدآلاف الأرواح فقال موسى الشافعي^(٢):

من أين أبدأ يا شعري وانطلق والكون يرسف في أعماقه النزق

من أين والأرض وجه قاتم ويد شلاء يرقص في أعصابها القلق

(١) المصدر السابق ٢١٥/٥

(٢) المصدر السابق ٢٢١/٥

والخوف يركض عريانا هنا وهنا وفي مخالبه من لحمنا مرق
أكاد أشعر أن الأرض أجمعها مما تعالج أرض الصين تختنق

والشاعر يتتجاوز الرؤية المحلية إلى الرؤية الكونية، فيصف ما ألم بالكون كله ويصور وجه الكرة الأرضية وقد علته القتامة واكتسى بالسوداء، ويصور انعكاس حالة الهلع على الجسد الإنساني وما أصابه أعضاءه وأعصابه من قلق وشلل، ويصور الخوف في صورة وحش مفترس ينشب مخالبه في لحوم البشر ويتضاعد الهلع حتى لتبدو الأرض كلها في حالة اختناق.

وفي نغمة تشبه التشفي والانتقام يصف الشاعر نفسه ما أصاب الدول الكبرى التي تجبرت وتتكبرت، فيقول^(١):

بيث من جبروت الله في دمهم شيئاً يربينا سماهم وهي تحترق
كم أهروا الناس والدنيا بصنعتهم واليوم في الناس من تطاوفهم شفق
أضحت منازهم للموت مائدة والموت مضطجع فيها ومتغبي
حتى الحكومات تسعى وهي جاهدة إلى النجاة ولكن ما هي الطرق؟
وهذا الموقف من الآخر — من وجهة نظري — لم يرتفق إلى مستوى الحدث الإنساني أو العالمي فالجائحة لم تفرق بين الدول أو الالتماءات أو الأجناس أو العقائد. فقد اكتسحت دول العالم وأنشبت مخالبها في الإنسانية كلها، ولم ينج من شرورها أحد ومن ثم فلا مجال للتشفي أو الحزارات التي تجعل الشاعر يتشفى في سماهم وهي تحترق. وقد أكد هذا الموقف ضد الآخر باستخدام

(١) المصدر السابق ٥ / ٢٢٢

ضمائر الغياب الدالة على الجمع مثل (دمهم - سماهم - صنعتهم - تطوافهم - منازلهم). وبذلك اهتزت الريشة في يد الشاعر لأن الجائحة لم تقتصر على قوم دون قوم وإنما استباحت جميع البشر.

وقد تجاوز معظم الشعراء هذه النظرة وصدروا عن رؤية شاملة كما نرى في قول مهدي الحكمي^(١):

حروفك تتد في شطر بيت ورعبك يمتد في كل بيت
رميت على الأرض ثوب السكون فعلمنا اليوم حي كميت

فالشاعر ينطلق من رؤية كافية، تشمل العالم كله. وقد تضافت اللغة والأساليب في تحسيد هذه الرؤية، ففي مقابل ضمائر الغياب الدالة على الآخرين في الأبيات السابقة نجد هنا ضمائر الجمع الدالة على الحضور كقوله (علمنا يطول بنا) فضلاً عن صيغة الجمع في قوله (في كل بيت). وبذلك اتسعت رؤية الشاعر لحالة الهلع لتشمل العالم كله.

وهذه الرؤية الكلية نجدها كذلك عند الحسين الحازمي إذ يقول^(٢):

وصمتنا نسمع الصوت الذي ملأ الدنيا بما يرعبنا
ما دهانا مثله فيما مضى نبأ أجمل منه سمعنا
ذاك (كورونا) أتى يقذفنا ببلاد ناره تحصدنا

(١) المصدر السابق ١٩٦/٥

(٢) المصدر السابق ٢٠٦/٥

فالرؤية هنا رؤية كونية جمالية عبرت عنها الضمائر الدالة على الجمع في قوله (يرعنينا — سمعنا — يقذفنا — تحصدنا).

وهذه الرؤية ترى أن البلاء عم وطم وشل العالم كله فامتلأت الدنيا ربما وتحول الوباء إلى قذائف حرية تهدف نيرأها فتحصد أرواح البشر. ومثل هذه النظرة نجدها لدى أحمد دهاس^(١):

قد شكى العالم كورونا وأضاحى منه يحيى كل يوم في ارتعاد أزهق الآلاف ما أبقى بلا دأ يهنا الأهلون فيها بالرقاد

فالناظرة الكلية تتمثل في لفظة العالم، فهو الذي يشكو ويرتعد ولا يهنا أهلوه بالنوم أو الراحة. ويحذو الشاعر أحمد المتوكل حذو أضرباته الشعراء في تصوير ما أصاب العالم كله من هلع وفرج وهلاك^(٢):

عظم المصاب وقد تفشي الداء ودهي البسيطة بال المصاب بلاء

والكون أظلم في النهار وقد سرت بالضر فينا الليلة الليلاء

وحياة أهل الأرض صارت مرتعا للموت واستلقي به الأحياء

وروى أحاديث المصائب خائف متغير وعلى الوجوه شقاء

فتطيش آلاف العقول بما جرى وتضيق عنا الأرض وهي فضاء

فاللغة هنا تؤكد الرؤية الشاملة التي صدر عنها الشاعر كقوله (عظم المصاب - دهى البسيطة - الكون أظلم - حياة أهل الأرض)، فهذه الدوال

(١) المصدر السابق / ٥ ١٩٩

(٢) المصدر السابق / ٥ ٢٠٨

تؤكد شمولية الأضرار التي ألحقها الوباء بالبشر وتشير الأفعال إلى ما أصاب الكون من كارثة كقوله (عظم- تقشى- دهى- أظلم- تطيش- تضيق)، وتحتشد الأبيات بصور الظلام والموت والخوف والذهول والإحساس بالكآبة، حتى ليحس الناس بأن الأرض قد ضاقت عليهم بما رحبت في إحالة إلى الآية القرآنية "وضاقت عليهم الأرض بما رحبت" ^(١). ويمضي الشاعر في تصوير آثار هذا الوباء ^(٢):

دمع العيون وترجف الأعضاء تجريي الدماء على يديه وتذرف الـ

بأنامل ما فاض منها ماء وبهزنا هز الزلازل خيفة

إلا النفوس فإنها الأنواء في مقفر لا نجم في ظلماته

نارا بنا ويميت كيف يشاء يصبو إلى سحق الورى فيشبها

إن الشاعر ينسج هنا تفاصيل عالم كابوسي مزعج ويرسم صوراً مخيفة لهذا العالم فهذا الوباء الفتاك حصد أرواح الضحايا الأبراء وأسال الدماء وترك حالة هائلة من الحزن والهلع، فأبكي العيون وارتجفت الأعضاء خوفاً ورعباً وأحدث زلزالاً هائلاً في الكرة الأرضية فصارت حياة الناس مفقرة مظلمة وصارت النفوس مرتعة لهذا الوباء يقصد منها ما يشاء.

ويشبه الشاعر نواف الحكمي هذا الوباء بالحصار الذي يطوق البشر فلا يستطيعون منه فكاكاً ^(٣):

(١) سورة التوبة ١١٨

(٢) قصائد كورونا في ملتقى شعراء جازان ٥ / ٢٠٨

(٣) المصدر السابق ٥ / ٢٠٧

يحاصرنا صباح مسا
ويختنق دوننا النفسا
وتتسقطنا ولا حرس
صغير أرهب الحرسا
هو المخلوق من لا شيء لكن جاء مفترسا
يطوف الأرض يحمل سمه الموبوء والشرسا
تساوى عنده المرؤوس إذ لا فرق والرؤسا
فمنذ أتى وكل الناس تشكو الذعر والهوسا

هذا الوباء الفتاك يحاصر البشر حصارا تماما ويزهق النفوس ويحصد الأرواح، وتنجس المفارقة في كونه على صغره وضآله يرهب الحراس، كما تتمثل في كونه وهو مخلوق من لا شيء لديه القدرة على الافتراس والفتوك والانتشار في الكرة الأرضية يحمل سموه بشراسة لا نظير لها دون أن يفرق بين رئيس ومرؤوس، مما أرهب الناس وأحال حياتهم جحيم لا يطاق وأصابهم بالذعر والهوس.

الإحساس بالملل

أدى تفشي وباء كورونا إلى تغيير أنماط الحياة فعاش الناس حياتهم في ظل حظر كلي أو جزئي وأغلقت المدارس وتوقف النشاط الرياضي، ولم يعد هناك مجال للسهر خارج البيت أو لقاء الأصحاب في مجالس السمر أو المقاهي وغيرها.

وقد أفرزت هذه الأجواء تداعيات سلبية فأشاعت الإحساس بالملل، يقول مهدي حكمي:

يطول بنا الوقت حد الملل
فتقضيه ما بين ماذا وليت

ينام الصغير على يا ما كان
ويغفو الكبير على كيت كيت

وقد عبر الشاعر عن الإحساس بالملل تعبيراً لطيفاً من خلال حديثه عن قضاء الوقت بين(ماذا وليت) وهي كناية بدعة عبرت عن المعنى الكبير باللفظ القليل فحملت دلالة الثرة والحديث (بماذا عن السؤال (وماذا بعد الآن؟) ماذا سيحدث بعد ذلك؟ ماذا ننتظر؟) كما عبر بقوله (ليت) عن الأمنيات بانقشاع هذه الغمة وانحسار الوباء والأمل في النجاة منه.

وعبر الشعرا عن الأحساس المتناقضة التي تتنازعهم فبعضهم أحس بأن الحظر حرمه من الملاذات ومجالس الأنس واللهو. قال عبدالمطلب النجمي (٢):

حال كورونا بيننا فاعتلنا
جلسة أنت أنسها والمواسي

(١) المصدر السابق ١٩٦/٥

(٢) المصدر السابق ٢١٠ / ٥

ويزيح الحديث وطأة كرب
فتري البشر طافحا وترانا
غمة سوف تنجلي عن قريب وبعيد- بإذنه- دون باس
فقد أدى الحظر إلى حرمان الشاعر من ملذاته وجلسات الأنس فأخذ
يستحضر ما كان -قبل الحظر- من مظاهر التمتع بالحياة ويتمنى بانكشاف
الغمة.

ونرى إحساسا آخر مناقضا لهذا الإحساس، إذ أدى الهلع والخوف من
هذا الوباء إلى دخول بعض الشعراء في حالة اكتئاب وسيطر عليهم
الإحساس بالموت ليكونوا من ضحايا هذا الوباء القتال، وعبر عن هذا
الإحساس الشاعر الحسن بن أحمد النجمي فقال^(١):

هذه لامية أنساها دافعي في قوله خطب أجل
إذا ما قد طوى شاعرها قدر الموت ووافاه الأجل
وقرأتم شعره فادعوه ثم قولوا ذاك نجم قد أفل
وغدا تحت الشري مررتنا بالذى قدم قبلا من عمل
وأسأوا الرحمن أن يرحمه وبأن يمحو له كل الزلل

فقد أحس الشاعر بأنه سيكون حصيدا لهذا الوباء وأن الأجل سيوافي
قريباً، وعبر عن إحساسه بذاته وقدره بصورة جلية في قوله ذاك نجم قد أفل
وأخذ يلتمس الدعاء له بالرحمة والمغفرة.

(٣) المصدر السابق / ٥-٢١٧-٢١٨

الرؤية الإيجابية

بالرغم من الرؤية السلبية المتشائمة والنظرة القاتمة التي صدر عنها معظم الشعراء في تصوير الآثار السلبية الناجمة عن هذا الوباء ووصف الأضرار الخطيرة التي أحاقت بالبشر من جرائه، فإن بعض الشعراء انطلق في تناول هذا الموضوع من رؤية إيجابية ترى أن هذا الوباء كشف عن جوانب ذات فوائد عديدة، وقد عبر عنها جبران سحاري في لامية مطولة قال في مطلعها^(١):

شكرا (كورونا) على ما صفت من مثل علمت تقنية التعليم في عجل
فمن الجوانب الإيجابية التي رصدها الشاعر: الاهتمام بتقنية التعليم وإبراز
أهمية استخدام التعليم عن بعد:

أبرزت عبء ذوي التعليم عن بعد وأن ناقدهم وافاك في عجل
ومن الجوانب الإيجابية كذلك زيادة الاهتمام بالنواحي الصحية والحرص
على النظافة في سائر المجالات:

شكرا وزارتنا في البذل ما فترت تعليمنا صحة مع سائر الجمل
شكرا نظافتنا زادت معالمها في البيت في البنك وسط السوق في العمل
كما كشف هذا الوباء عن قدرة المملكة على إدارة الأزمات ومواجهة
هذا الخطر الداهم باتخاذ التدابير الصائبة والسياسة الحكيمية.

(١) المصدر السابق / ٥ - ٢١٢ - ٢١١

شكراً كرونا لقد أظهرت ملوكنا
بصائب الرأي والتدبر في الدول
ويرى الشاعر أن هذا الوباء قد أدى إلى زيادة التلاحم الأسري من خلال
الحظر بما حرقته من فوائد اجتماعية:

تجمعات الورى أضحت معطلة فلا نرى نادياً أو حفل محتفل
عادوا إلى العزلة المثلثي فكم كسبوا من الفوائد يا طوبى لمعتزل
كما رأى الشاعر أن إغلاق المساجد كان واجباً تحاشياً لتفشي الوباء،
كما أفتى بذلك الفقهاء:

شكراً أخيراً إذا ارتات مساجدنا فأغلقت ليس تعطيلاً لمبتهل
وإنما خوف نشر للوباء كما أفتى بما أهل علم سادة نبل
ومن الجوانب الإيجابية لهذا الوباء عكوف الناس في منازلهم التي أصبحت
عاصمة بتلاوة القرآن وحفظه:

شكراً جعلت بيوت الناس عامرة بالذكر والوعي والقرآن والنذر
ورأى الشاعر أن هذا الوباء قد أظهر تفاهة الدنيا وضآلتها وأنها لا
تستحق التكالب عليهما:

شكراً أبنت عن الدنيا دناءتها فلا تساوي شراكاً كان في النعل
ورأى الشاعر كذلك أن هذا الوباء كشف النقاب عن طائفة من التجار
الذين يستغلون الأزمات في تحقيق أرباح طائلة برفع الأسعار:
شكراً كشفت لنا تجارة أزمتنا في همهم رفع أسعار بلا خجل

على هذا النحو يمضي الشاعر في قصيده كاشفاً بعدها الدقيقة
الجانب الإيجابي الآخر الذي أظهره هذا الوباء، من تلامح المجتمع وزيادة
الروابط الأسرية وكشف المثالب الاجتماعية وغير ذلك من مناقب:
شكراً وشكراً لست أحصرها هذى مناقب كورونا فلا تسل

تقدير جهود المملكة في مواجهة الوباء:

قدر الشعرا تقديراً كبيراً للجهود العظيمة التي بذلتها الدولة أيدها الله في
مواجهة هذا الوباء الفتاك وافتخرنا بموافقت ولاة الأمر في بذل كل الإمكانيات
للحفاظ على صحة المواطنين، عبر عن ذلك الحسين بن أحمد النجمي
فقائل (١):

من مثل دولتنا؟ ومن كولاتنا
تلük الحقائق مثل شمس ظهيرة
حكامنا وقفوا بكل جهودهم
ولقد عهداهم بماض سالف
فتعالج المرضى وترعاهم على
والحجر في أحلى الفنادق للذى
هي دولتى العظمى فليس يضرها
قد قدموا ما لم يقدمه أحد
تعمى الذي غطى الحقيقة أو جحد
عونا لكل مواطنى هذا البلد
كانوا لنا في كل نازلة مدد
نفقاها مواطن أو من وفد
يحتاجه مهما يزيد بها العدد
من قلبه بالغلو والخقد اتقد

(١) المصدر السابق ٢٠١ / ٥

الشاعر يؤكد في هذه الأبيات موقف المملكة وجهودها المثمرة في محاصرة الوباء وتوفير الأمان والأمان للمواطنين وتقديم العون للمحتاجين، وهذا دأبهم دائماً في كل موقف. ويشيد الشاعر بجهود المملكة في رعاية المرضى والمصابين على نفقةٍ دون تفرقة بين مواطنٍ ووافد، ويشيد كذلك بالإجراءات التي اتخذتها في الحجر الصحي، حيث وفرت أفخم الفنادق للإقامة مهما كان العدد، ومثل هذه الجهود تجعل الشاعر يفتخر بدولته العظمى التي ترتفع مكانتها في العالم وتعلو على حقد الحاقدين.

ويشيد شاعر آخر بالجهود العظيمة التي بذلتها المملكة فيقول الحسين

النجمي^(١):

وولاة أمر مخلصون ودعمهم
في كل نازلة يزيد ويكبر
من قد أصيروا عولجوا وبكل ما
قد وفرته بلادنا أو بحروا

(١) المصدر السابق / ٥٤٠

مفاهيم ومصطلحات جديدة

أفرز هذا الوباء مفاهيم ومصطلحات جديدة تداوّلها الشعراء منها وصم عصّرنا بأنّه (عصر كورونا)، وهو عصر مرعب عجز فيه العلماء والطب عن مواجهة هذا الوباء الشرس يقول الحسين النجمي^(١):

والليوم نحن بعصر (كورونا) التي
فيروسها يسعى ولا يتقهقر
فيها وليس يراه إلا المجهر
ومضى بإمكاناتها يتأنّر
قد أعجز الدنيا بكل علومها
والطب قد أغفى له مستسلما
حصد البرية منه موت أحمر

ومن المصطلحات الجديدة التي صاحبت ظهور هذا الوباء مصطلح (الجيش الأبيض) في إشارة إلى جهود الأطباء وهيئة التمريض، تقديراً لدورهم الفعال وتضحياتهم في مواجهة الخطر وتقديم الرعاية الصحية للمرضى ولم يفت الشعراء الإشادة بهذا الجهد ومن ذلك^(٢):

دول بكل سلاحها وجيوشها
باتت تحذّر منه وهو الأصغر
لكن جيشاً أثيضاً وقفوا له
والكل يزجي الجهد لا يتغدر
جيش حكومي وزارة صحة
عن دورها الحيوى لا تتأخر
منهم أطباء وتمريض لهم
دور من الجهد العظيم يقدر

(٢) المصدر السابق ٥ / ٢٠٣ - ٢٠٤

(٣) المصدر السابق ٥ / ٢٠٤

إشادة الشاعر هنا واجبة بدور الجيش الأبيض الذي لا يقل دوره في محاربة هذا الوباء المخيف عن دور الجيوش العسكرية، كما يشيد بجهود وزارة الصحة ودورها الحيوي في محاصرة هذا الوباء.

مواقف طريفة

لقد نتج عن تفشي هذا الوباء مواقف طريفة وقفها الشعراء وعبروا عنها في قصائدهم ومن ذلك اقتراح الشاعر حمد صديق لعلاج شعبي لهذا الداء وتقديم صفات من الطب الشعبي ومن ذلك قوله^(١):

كل التمر وارشف قهوة زنجيلية وشيشاً من السوداء واغتبق السدرا
أوثر حليب الإبل مع لحم حاشها ولا تسمعن فيها منغصها قدرا
وأكثر إذا كشنت محمر فلفل وعالج لحوم الدخن أو ذرة حمرا
ولا ترشف الشاهي إذا شيب سكرا ومن دونه فارشف أطالم بذا عمرا
ولا تحسن بالبطن ما يحبس الدما وسلم حياة بعد أن تحسن الكرا
وبالله يا من سمه شرب ثاعن توقف تلاحظ كيف أنت ولو شهرا
وهذه الوصفة المقترحة تعتمد على أكل التمر واحتساء القهوة بالزنجيل مع الحبة السوداء وعسل السدر وشرب حليب الإبل وأكل لحومها مع الإكثار من الفلفل الأحمر والذرة الحمراء وشرب الشاي بدون سكر وهذه الوصفة شائعة في الأوساط الشعبية ولها فوائد صحية، لكن لا علاقة لها بالشفاء من هذا الوباء.

(٢) المصدر السابق ٢٢٤ / ٥

ومن طرائف الشعراء كذلك الالتفات إلى جوانب طريفة نتجت عن
شيوخ هذا الوباء^(١):

شكرا فكم (مشغل) أغلاقت فاتضحت ذات الجمال بلا صبغ ولا كحل
وفرت مبلغ تجميل لصاحبه فصار يرضي بخداً أصفر أسل
ولا نرى أي (حلاق) لينفخ في شعور قوم ويرمي باللحى الجزل
يكشف الشاعر هنا عن حس فكاهي طريف وميل إلى الظرف والدعاية،
فيiri أن إغلاق محلات التجميل في زمن كورونا كشف عن عادة بعض
النساء الالاتي يبالغن في استعمال أدوات التجميل كما وفرت ما كان ينفق
على الخالقين وما يصدر عنهم. ومن هذه الطرائف تناول الشاعر حمد صديق
ملوق المرأة من هذا الوباء وتصويرها وهي تحتشد في مظهرها لمواجهته،
ويصور ذلك تصويراً دقيقاً طريفاً فيقول^(٢):

تقفّزت لثمت فاها بكمام تدرّعت ستة شدت بإحكام
وأرددت بين سروالين واعتجرت عليهما بغلظ النسج مبرام
وجمعت بمقص شعرها وعلت ما قد علا جسمها فضفاض إحرام
وفوق ذا كله أرخت عباءتها رأساً وليست على الأكتاف كالشام
وبالغت إذ لنصف الساق جزمتها مع الجوارب إحراناً لأقدام
وبرقعت وجهها ما ضاق فتحته مع الخمار وقالت كيف هندامي

(١) المصدر السابق / ٥٢١

(٢) المصدر السابق / ٥٢٠

فالشاعر يرسم صورة كاريكاتورية طريفة لتلك المرأة وقد لبست قفازها وأحکمت لثامها وبالغت في ملابسها وهو ما دعا الشاعر إلى انتقاد مبالغتها فقال^(١):

لَنْ دُعَا دَاءَ كُورُونَا تُبْرِجَنَا فَذِي الْوَقَايَةِ مِنْ دَاعِ لِأَسْقَامِ
فَقُلْتَ سَبْحَانَ مِنْ بِالشَّرِّ يَبْلُغُنَا خَيْرًا وَيَرْجِعُنَا لِلْمَلْبُسِ السَّامِيِّ
لَكُنْ رُوِيدَكَ قَدْ بَالَّغْتَ فَاقْتَصَدَيِّ فِي الْتَوْسُطِ يَهْنِي عِيشَ إِسْلَامِيِّ
وَعَضْيِ الشَّاعِرِ فِي دُعَابَاتِهِ فِيَخَاطِبُ الْمَرْأَةَ بِقُولِهِ^(٢):
وَإِنْ سِجَّا الْلَّيْلَ فَاسْتَغْنَى بِعَزْلَتِنَا لَا تَلْبِسِي غَيْرَ ثُوبَ النَّوْمِ قَدَامِيِّ
وَعَقْمِي بِاسْتَعَاذَاتِ مُخْدَنَتِنَا وَعَانِقِي سَهْرِيِّ يَا سَعْدَ أَحْلَامِيِّ
وَهَكَذَا كَشَفَ تَفَشِّي هَذَا الْوَبَاءِ مُثْلِ هَذِهِ الْجَوَانِبِ الْطَّرِيفَةِ فِي الشِّعْرِ.

(٣) المصدر السابق ٢٠٨ / ٥

(١) المصدر السابق ٢٠٨ / ٥

الرؤية الدينية:

انطلق الشعرا في مواقفهم حيال هذا الوباء من رؤية دينية خالصة فأرجعوا تفشي هذا الوباء إلى أسباب دينية منها: الإسراف في الذنوب والمعاصي وإيشار الدنيا على الآخرة والإهمال في العبادات والطاعات، ورأوا أنه لا خلاص من هذا الوباء إلا بالرجوع إلى الله والاعتصام بالدين فقال ابن التجمي ^(١):

ليس للأمة غير الدين حل كل من عز بغير الله ذل

ديننا فيه نجاة للورى وسوى هذا هراء ودجل

فالدين هو النجاة من هذا الوباء والخلاص من هذه الغمة التي أظلمت الدنيا وأشاعت الهلع والذعر في النفوس.

وحرص الشعرا على تأكيد موقف الدين من الإجراءات التي اتخذتها الدولة في مواجهة هذا الوباء فقال مجدي الشافعي ^(٢):

والناس كلهم أضحووا يدا بيدٍ يرجون رحْمُ فيما به فجعوا

لا يملكون بهذا الاحتياط سوى ما يأملونه في الرحمن حين دعوا

عليهم الآن أن لوذوا بدينكم فيه أطيعوا ولِي الأمر واتبعوا

قال الرسول (فصلوا في رحالكم) كذلك قادتنا قالوا كما سمعوا

قال الرسول (وقروا في بيوتكم) كذلك قادتنا اسمعوه وعوا

(٢) المصدر السابق / ٥٢٤

(٣) المصدر السابق / ٥٢٩

قال الرسول (بألا تخرجوا أبدا) كذاك قادتنا فالحجر إذ يقع
ف موقف الدولة فيما اتخذته من إجراءات لحماية المواطنين والمحافظة على
سلامتهم نابع من الدين ومت_sq مع الشريعة الإسلامية ويستند إلى القرآن
الكريم وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، فكل موقف رسمي أو إجراء
حكومي له سند من الدين الإسلامي وذلك درءاً لنفسي الوباء.

الجانب الوعظي:

امتزجت الرؤية الدينية بجانب وعظي عند بعض الشعراء فأخذوا يدعون الناس إلى الالتزام بأوامر الله وتجنب ما نهى عنه والعمل لآخرة ليفوزوا بجنة الخلد وينعموا فيها بما وعدهم الله من نعيم. عبر عن ذلك ابن النجمي^(١):

فاللتزم أمر إلهي واجتنب نكبيه في كل قول أو عمل
من على دين المهدى عاش به وعلى منهجه حتى ارتحل
هو من وفقه ربى إلى جنة الخلد وحور وحلل

وفي سياق هذا الوعظ يؤكد الشاعر أن الدنيا ليست بدار قرار، وإنما هي جسر يعبر منه الناس إلى الحياة الباقية في الآخرة ولذلك فهي لا تستحق التكالب عليها ولا بد من زراعة الخير والاعتصام بالدين:

هذه الدنيا عبور وبها نزع الخير إلى يوم جلل
خلق الله لنا الدنيا وما قد حبنا من متاع وفضل
جعل الدين لنا يسمو بنا كل من خالفه زل وضل
وبه هذبنا خير الورى من دعا أمهه دون كلل
ولاشك في أن هذا الابتلاء الذي مني به العالم قد أثار مثل هذه الجوانب
الوعظية وعمق رؤية الشعراء الدينية.

(١) المصدر السابق / ٥٢١

التضرع إلى الله:

كان التضرع إلى الله أن يزيل البلاء ويكشف الغمة تعميقاً للرؤبة الدينية عند الشعراء فإذا كان التضرع إلى الله مطلوباً في كل وقت فإن الحاجة إليه تزداد في أوقات المحن والشدائد وإذا كان العلم قد عجز عن مواجهة هذا الوباء فإن الله خالق كل شيء هو وحده القادر على دفع هذا البلاء ولذلك أكثر الشعراء من المناجاة والتسل بالدعاء إلى الخالق لإنقاذ البشرية من هذا الوباء، ومن ذلك قول أَحْمَد دهاس^(١):

ربنا يا رافع السبع الشداد يا عظيم اللطف يا رب العباد
نحونا يترى ويجربي بازدياد يا كريما خيره المدرار دوما
غيره ندعوه ونرجو وننادي يا إلها ما لنا في الكون رب
عنا ما نشكوه في هذى البلاد قد برانا الضر يا مولانا فارفع
وادفع البلوى ومنّ اليوم والطف وارجع الإشراق في كل الوهاد
فالشاعر يتسل بالخالق الذي خلق السماوات والأرض أن يرأف بالعباد
بعظيم لطفه وكرمه وأن يكشف الضر ويرفع البلوى حتى يعم الفرح في كل
مكان.

ويستمد الشعراء معانيهم من القرآن الكريم ومن القصص الديني الحافل
بالعظات وال عبر كقول موسى الشافعي^(٢):

(٢) المصدر السابق ١٩٨ / ٥ - ١٩٩

(١) المصدر السابق ٢٢٢ / ٥

لَا عاًصِمُ الْيَوْمِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ لَنَا كَفٌ بِأَسْبَابِ عَفْوِ اللَّهِ تَلْتَصِقُ
وَإِنْ تَنَاهِي إِلَيْنَا مَا نَحْذَرُهُ فَنَحْنُ فِي اللَّهِ -لَا فِي عِلْمَنَا- نَنْقُ
فَقُولُ الشَّاعِرِ (لَا عاًصِمُ الْيَوْمِ) اسْتِدْعَاءٌ لِمَا جَاءَ فِي قَصْةِ نُوحَ وَالْطَّوفَانِ
وَكَأَنَّ الشَّاعِرَ يَرَى أَنَّ مَا يَحْدُثُ الْآنَ إِنَّمَا هُوَ طَوفَانٌ مِنْ نَوْعٍ جَدِيدٍ وَلَذِكْ
فَلَا نَجَاهَ مِنْ هَذَا الْوَبَاءِ إِلَّا بِالْتَّدْخُلِ الإِلَهِيِّ.

وَيَؤَكِّدُ الْحَسَنُ الْحَازِمِيُّ هَذَا الْمَعْنَى فَلَا شَيْءٌ بِقَادِرٍ عَلَى رَدْعِ هَذَا الْوَبَاءِ
سُوْنِ الْقَدْرَةِ الإِلَهِيَّةِ (١):

فَأَفْيِقُوا يَا عِبَادَ اللَّهِ لَا تَدْعُوهُ كَاهْبَا يَنْشُرُنَا

حِيثُ لَا يَوْجِدُ مِنْ يَرْدِعُهُ غَيْرَ رَبِّ قَادِرٍ يَحْفَظُنَا

فَارْفَعُوْنَ اللَّهُ كَفَا ضَارِعاً وَحْدَهُ سَبَحَانَهُ يَرْحَمُنَا

فَالشَّعْرَاءُ يُؤْمِنُونَ بِأَنَّهُ لَا خَلاصٌ وَلَا نَجَاهَ مِنْ شَرِّ هَذَا الْوَبَاءِ سُوْنِ بِقَدْرَةِ
اللَّهِ فَهُوَ الْمُغِيْثُ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَكْشِفَ الْغَمَّةَ وَيَعْيَدَنَا إِلَى مَسَاجِدِنَا (٢):

يَا إِلَهُ الْكَوْنِ يَا رَبِّ الْبَرَيَا يَا مَغِيْثَا فِي رِزَاعِيَا الشَّدَادِ

يَا حَلِيمَا نَرْجِيِّ الرَّضْوَانَ مِنْهُ وَالْمَعَافَةَ إِلَى يَوْمِ الْمَعَادِ

قَدْ جَأَنَا لَكَ فِي ذَلِّ وَلَذِنَا وَرَفَعْنَا لَكَ يَا رَبِّ الْأَيَادِي

فَاكْشِفُ الْغَمَّةَ وَاحْفَظْنَا وَعْنَا مِنْ إِلَهِيِّ ذَا الْوَبَاءِ بِالْاِبْتِعَادِ

وَأَعْدَنَا مَسَاجِدِنَا فِيْنَا قَدْ بَرَانَا الشَّوْقُ مِنْ طَوْلِ الْبَعْدِ

(٢) المَصْدَرُ السَّابِقُ / ٥

(٣) المَصْدَرُ السَّابِقُ / ٥

ليعم الفرح أرجانا ونخيا في روابينا بحب ووداد

ويستدعي الشاعر عبده جمالي قصة (أيوب) وما تعرض له من ضر وأذى
لولا تدخل العناية الإلهية لشفائه يقول^(١):

فأذن إلهي بتفريح لكربتنا وامسح كآبتنا فاللأياس قد رانا

أنت الملاذ لنا مما ألم بنا يا رب أيوب فاكشف ضرنا الآنا

ويرى مهدي حكمي أن ابتلاء البشر بهذا الوباء إنما هو نذير وقضاء ومن

ثم فلا خلاص إلا بالرجاء في عفو الخالق^(٢):

فيما رب هذا نذير مبين وأنت أمرت وأنت نحيت

قضايا ذاك عبادك نحن وراضون منك بما قد قضيت

فمد لنا مسربا من رجاء فقد حان وقت (آهد فيمن هديت)

وينطلق ابن النجمي - في تضرعه - من هذه الرؤية ويقرن ما يحدث

بالذنب والمعاصي ويدعو الله أن يرفع البلاء ويكشف الضر^(٣):

ما لنا إلاك يا رب السما أنت من نقصد في الخطب الجلل

ولنا يا رب ما تعرفه من ذنوب ومعاصي وزلل

فاعف عنا وارفع الضر فمن مال منا آب خوفا واعتدل

(١) المصدر السابق ٢١٣ / ٥

(٢) المصدر السابق ١٩٧ / ٥

(٣) المصدر السابق ٢١٥ / ٥

ويعتمد عبده جمالي في تضريمه على المعانى القرآنية فيقول مناجيا
الخالق^(١):

أن بدلوا حا لهم جهلا وعصيانا
ملاذ من ثاب واسترضاك مولانا
وقلت (لا تيأسوا) فاللطف آوانا
وقلت (إني قرير) تستجيب لنا فارحم دعوناك من داء تغشانا
فالشاعر يقتبس من الآيات القرآنية في تضريمه راجيا عفو الخالق ورحمته
لإنقاذ العالم من هذا الوباء الفتاك.

(٥) المصدر السابق ٥/٢١٣

المبحث الثاني: التشكيل الفني

يتناول هذا المبحث عنصرين من عناصر التشكيل الفني، هما: الصورة والأساليب.

الصورة الفنية:

لعل الجاحظ كان من أوائل النقاد القدامى الذين استخدموا مصطلح التصوير وذلك في تعريفه للشعر بأنه "صناعة وضرب من النسج وجنس من التصوير".^(١)

وأتسع مفهوم الصورة عند عبد القاهر الجرجاني فشمل الكلام كله أو الأجناس الأدبية، فقال: "ومعلوم أن سبيل الكلام سبيل التصوير والصياغة وأن سبيل المعنى الذي يعبر عنه الشيء الذي يقع التصوير والصوغ فيه كالفضة والذهب يصاغ منها خاتم أو سوار".^(٢)

أما حازم القرطاجي فقد ربط الصورة بالخيال فقال: "والتخيل أن تتمثل للسامع من لفظ الشاعر المخيّل أو معانيه أو أسلوبه ونظامه وتقوم في خياله صورة أو صور ينفع لتخيّلها وتصورها".^(٣)

(١) الحيوان الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، ط. دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٣٢-١٣١: ٣.

(٢) دلائل الإعجاز عبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمد شاكر مطبعة المدى، القاهرة، ١٧٥-١٣٢

(٣) منهاج البلاغة وسراج الأدباء حازم القرطاجي / تحقيق محمد الحبيب بن خوخه ط. تونس ١٩٦٦ ص ٨٩

ويتسع مفهوم الصورة عند عبد القادر القط فيشمل الشكل الفني بكل عناصره فيقول إن الصورة "هي الشكل الفني الذي تتخذه الألفاظ والعبارات بعد أن ينظمها الشاعر في سياق بياني خاص ليعبر عن جانب من جوانب التجربة الشعرية الكاملة في القصيدة مستخدما طاقات اللغة وإمكاناتها في الدلالة والترakinب والإيقاع والحقيقة والمجاز والترادف والتضاد والمقابلة والتجانس وغيرها".^(١)

(١) الاتجاه الوجdاني في الشعر العربي المعاصر د. عبد القادر القط ط. دار المضمة العربية بيروت

٤٣٥ ١٩٨٧

مصادر الصورة:

لا شك أن الصورة عنصر أساس في الشعر يبتكر من خلاله الشاعر عناصر وعلاقات جديدة ومركبة تمنح الشعر جمالاً ويتبع لخيال الشاعر أن ينطلق ويخلق ليشكل صوره من خلال خياله النشط ومن خلال واقعه وبيئته بحيث تسهم هذه العناصر جميعاً في نقل تجربة الشاعر والتعبير عنها تعبيراً فيها يعكس مهارته الفنية وشخصيته الإبداعية.

وقد اشتق الشعراء صورهم من واقعهم المكاني والزمني ومن تراثهم الديني والشعبي ومن الطبيعة المحيطة بهم أرضاً وسماءً، وما أحدثته الثورة العلمية من مصطلحات وآلات لها كبير الأثر في تشكيل الصورة لديهم.

رسم الشعراء صوراً خفيفة لداء كورونا فشبهه بعض الشعراء هذا الوباء (بالغول المخيف) الذي يحمل لواء ويلتهم كل من يصادفه يقول أحمد المتوكلي^(١):

قد عمّ كل الأرض واستشرى بها
غولاً يخيف وفي يديه لواء
وبزر أيضاً في صورة الوحش الذي يفتلك بجسده الإنسان يقول محمد
البهكلي^(٢):
يسري ويفتك بالإنسان إذ فشلت
كل الوسائل وانهارت به الأمم
ويقول عبده جمالي^(١):

(١) قصائد كورونا في ملتقى شعراء جازان ٥/٢٠٩

(٢) المصدر السابق ٥/٢٠٥

وقد نشا في الورى يغتال بمحجتهم وطاf بالأرض كل الأرض ما هنا
وتخيله نواف الحكمي في صورة الأفعى التي تحمل السم وتقتل الناس في
شراسة (٢):

يطوف الأرض يحمل سمه الموبوء والشرسا
تساوى عنده المرؤوس إذ لا فرق والرؤسا

ويصوّره عبد الصمد المطهري في صورة ثعبان ينسّل في غفلة ويُسْكِب
سمومه في رئة الإنسان (٣):

ينسل في غفلة يسعى إلى رئة ويُسْكِب السم في صمت إلى أجل
ورآه حمد صديق في صورة تنين هائل ذي أنياب يفترس بحاكل الناس (٤):
إليك نضرع في سر وفي علن أن تنقذ المبتلى من ناب تنين
وبرز هذا الوباء عند شعراء آخرين في صورة وحش أسطوري ذي أحذاق
مخيفة ووجه عبوس مرعب وهو يقذف نيرانه ويشعل الحرائق يقول الحسين
الحازمي (٥):

ذاك (كورونا) أتى يقذفنا ببلاء ناره تحصدنا
ذو عيون حانقات قد بدا عابسا علينا بما يرهبنا

(١) المصدر السابق / ٢١٣

(٢) المصدر السابق / ٢٠٧

(٣) المصدر السابق / ٢٠٩

(٤) المصدر السابق / ٢٢٣

(٥) المصدر السابق / ٢٠٦

أَلْجَمُ الدُّنْيَا فَمَانِ نَاصِحٌ
بِالَّذِي يَنْفَعُنَا يَنْصَحُنَا

وَتَرَدَّدَتْ صُورَةُ هَذَا الْوَبَاءِ الْمَدْمَرِ الَّذِي يَشَبُّ النَّبِرَانَ وَيَسْحَقُ الْوَرَى يَقُولُ

أَحْمَدُ الْمُتَوَكِّلُ (١) :

يَصْبُو إِلَى سَحْقِ الْوَرَى فَيَشْبِهُنَا نَارًا بَنَا وَيَمْتَ كَيْفَ يَشَاءُ

وَتَخِيلُهُ حَمْدٌ صَدِيقٌ وَهُوَ فِي صُورَةٍ مِنْ يَحْمِلُ شَفَارَ الْمَوْتِ (٢) :

مَلْوَحٌ بِشَفَارِ الْمَوْتِ يَبْصُرُهَا قَلْبٌ تَقْطَعُ إِذْ تَخْفِي عَلَى الْعَيْنِ

وَبِدَا عِنْدَ ابْنِ النَّجْمِيِّ فِي صُورَةٍ مِنْ يَحْصُدُ أَرْوَاحَ النَّاسِ (٣) :

وَأَتَى دَاءُ كَرْوَنَا وَمَضِيٌّ يَحْصُدُ النَّاسَ فَكُمْ مِنْهُمْ قُتْلٌ

كَمَا رَكَزَ الشَّعْرَاءُ فِي صُورَهُمْ عَلَى تَخْفِي هَذَا الدَّاءِ وَشَخْصُوهُ فِي صُورٍ

عَدِيدَةٍ يَقُولُ عَبْدُ الصَّمْدِ الْمَطَهْرِيُّ (٤) :

فِيْرُوْسٌ لَا تَبْصُرُ الْأَحْدَاقَ هَيْئَتِهِ لَا يَرَوْنُ سُوْيِّ أَعْرَاضٍ مُّنْتَقَلٌ

وَيَشْخُصُهُ أَحْمَدُ الْمُتَوَكِّلُ فِي صُورَةِ شَخْصٍ لَّهِيْمَ مُسْتَبِدٍ (٥) :

وَازْدَادَ لَؤْمًا وَاسْتَبِدَ وَنَالَ مِنْ خَلْقِ فَنَالَتْ مِنْهُمُ الْأَدْوَاءُ

وَتَخِيلُهُ آخْرُونَ فِي صُورَةِ الْمَوْتِ الَّذِي يَغْتَالُ النُّفُوسَ بِسُرْعَةِ هَائِلَةٍ يَقُولُ

عَبْدُ الصَّمْدِ الْمَطَهْرِيُّ (١) :

(١) المَصْدَرُ السَّابِقُ / ٥ / ٢٠٨

(٢) المَصْدَرُ السَّابِقُ / ٥ / ٢٢٣

(٣) المَصْدَرُ السَّابِقُ / ٥ / ٢١٤

(٤) المَصْدَرُ السَّابِقُ / ٥ / ٢٠٩

(٥) المَصْدَرُ السَّابِقُ / ٥ / ٢٠٨

الناس في حلها تمشي على عجل وليس تدري بمعتال على عجل
وتخيل الحسين الحازمي أن الناس يركبون سفينة فجأة هذا الوباء ليخرقها
فأخذت تمثيل بمن فيها وتواجه الغرق^(٢):

وأفقنا من ذهول لا نعي حيث قد مال بنا مركبنا

وقد تشكلت صور الشعرا من عدة وسائل منها الاستعارة وهي أعمق
من التشبيه في التصوير الشعري نظرا لقدرها الفائقة على التخييل والنفاذ إلى
العلاقات الخفية والجوهرية بين الأشياء كما أنها أكثر إيجازاً من التشبيه
لاعتمادها على حذف أحد الطرفين ولذلك فهي "من أعظم أدوات رسم
الصورة الشعرية لأنها قادرة على تصوير الأحساس العائرة وتجسيدها بتجسيدها
يكشف عن ماهيتها وكتها بشكل يجعلنا نتفعل افعلا عميقا بما تنطوي
عليه"^(٣).

ومن ميزات الاستعارة التكثيف حيث "تحقق عامل الاقتصاد اللغوي بما
تتيح من صياغة مركزه لعناصر الدلالة المتعلقة بالمعنى العادي لكلمة معينة
وتحقق تلازم مع المعنى الجديد الذي يفرضه السياق".^(٤)

(١) المصدر السابق ٢٠٩ / ٥

(٢) المصدر السابق ٢٠٦ / ٥

(٣) التصوير الشعري (التجربة الشعرية وأدوات رسم الصورة الشعرية) د. عدنان قاسم ط١.
المنشأة الشعبية للنشر والتوزيع، ١٩٨٠ ص ٨١

(٤) علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته د. صلاح فضل، الهيئة المصرية العامة للكتاب ص ٢٥٧

وقد توسل الشعراء بالاستعارة في تشكيل صورهم عن هذا الوباء كقول محمد البهكلي^(١):

وقطع الوصل بين الناس فانقطعت دور العبادة والجيران والرحم
ففي قوله قطع الوصل استعارة حيث تخيل الوصل شيئاً حسياً وتخيل
الوباء كائناً يقطع هذا الوصل.

ومن ذلك قول مهدي حكمي^(٢):

رمت على الأرض ثوب السكون فاعلمنا اليوم حي كمي
فقد تخيل للسكون ثوباً ألقاه الوباء على الأرض فلفها الصمت
والسكون.

ومن ذلك قول ابن النجمي^(٣):

رب جنبنا ضلالات الهوى ليس يرضى بالهوى من قد عقل
ففي قوله ضلالات الهوى استعارة حيث تخيل الأهواء إنساناً قد ضل
طريق الحق.

ومن ذلك أيضاً قول أحمد دهاس^(٤):

وأعدنا لمساجدنا فإنما قد برانا الشوق من طول البعد
ففي قوله برانا الشوق استعارة شخص فيها الشوق في صورة حسية.

(١) قصائد كورونا في ملتقى شعراء جازان ٥ / ٢٠٥

(٢) المصدر السابق ٥ / ١٩٦

(٣) المصدر السابق ٥ / ٢١٥

(٤) المصدر السابق ٥ / ٢٠٠

ويعدم الحسين النجمي إلى التشخيص فيقول^(١):

والاليوم نحن بعصر كورونا التي فيروسها يسعى ولا يتقهقر

فقد شخص الفيروس وأضفى عليه سمة إنسانية فأسنده إليه صفة السعي

وعدم التقهر.

وفي سياق الشكر للمملكة وجهودها يتسلل بالاستعارة فيقول^(٢):

شكرا جيوش بلادنا وحماتها ولكم زهور الحب منا نثر

فقد شخص المعنوي وهو الحب وجعله في صورة حسية هي صورة (الزهور التي تنشر) في مقام الشكر، وذلك لإقامة مقارنة بين شيئاً بينهما علاقة أو جامع يربط بينهما وهو في ذلك يتتسق مع السليقة الشعرية العربية حيث عول الشعراً كثيراً على التشبيه ولذلك قال المبرد: "إن التشبيه جارٌ كثيراً في كلام العرب حتى لو قال قائل: هو أكثر كلامهم لم يبعد".^(٣)

وقد جاءت التشبيهات بسيطة غير مركبة، تجذب إلى الواقع ومن ذلك قول

مهدي حكمي^(٤):

تلوك المسنين مثل الزبيب وتردد الكهل كالبسكويت

(١) المصدر السابق / ٥٢٠

(٢) المصدر السابق / ٥٢٠

(٣) الكامل في اللغة والأدب لأبي العباس المبرد ط. مصر ٣ / ٩٣

(٤) قصائد كورونا في ملتقى شعراً جازان ٥ / ١٩٦

فالشاعر يشبه الوباء بناقة تلوك المسنين وتجعل منهم طعاماً وتلتذ بـهذا الأكل الذي يشبه الزيبيب وهي صورة بسيطة ذات طابع شعبي ومثلها صورة الابتلاع التي تشبه البسكويت.

ومن تشبيهاتهم البسيطة كذلك قول الحسين النجمي^(١):

فأفيقوا يا عباد الله لا تدعوه كالمها ينشرنا

وكذلك قول أحمد دهاس^(٢):

يا إلهي قد غدت منا الخطايا كجبال راسيات في البوادي

وكذلك تشبيه الفيروس بالبرق كما عند أحمد المتوكل^(٣):

فيروسه كالبرق إلا أنه ما لاح إلا لاحت الأدواء

فالتشبيه بالبرق هنا للدلالة على سرعة انتشار الوباء الخاطفة التي تحكي سرعة انتشار ضوء البرق في الأجواء.

ونقع على هذه الصورة الشعبية صورة شراك النعل في قول جبران سحاري^(٤):

شكراً أبنت عن الدنيا دناءً كما فلا تساوي شراكاً كان في النعل

وتتردد صورة الشمس في سياق المعاني الدينية كقول عبده جمالي مشبها

الرسول صلى الله عليه وسلم بالشمس^(١):

(١) المصدر السابق / ٥ / ٢٠٦

(٢) المصدر السابق / ٥ / ١٩٦

(٣) المصدر السابق / ٥ / ٢٠٨

(٤) المصدر السابق / ٥ / ٢١٢

وكان كالشمس يسدي نوره ألقا وبلغ الدين أقصاناً وأدنانا
 كما تتردد صورة الشمس في تشبيه جهود الملكة في مكافحة الفيروس
 الحسين النجمي^(٢):

تلك الحقائق مثل شمس ظهيرة تعمي الذي غطى الحقيقة أو جحد
 فالتشبيهات — كما نرى — مالت إلى البساطة والواقعية وابتعدت عن
 الموضوع والإيغال.

وتسلل الشعراء بالكناية في تشكيل صورهم وهي — كما وصفها ابن
 رشيق "من غرائب الشعر وملحه وبلاغة عجيبة تدل على بعد المرمى وفروط
 المقدرة".^(٣) وميزة الكناية أنها لحمة دالة واختصار وتلويح وتعريف.
 وقد عمد بعض الشعراء إلى استخدام الكناية في الحديث عن وباء كورونا
 فكثروا عنه بكنایات عديدة منها (النازلة) في قول محمد البهكلي^(٤):

يارب هون علينا كل نازلة فليس يا ربنا إلاك معتصم
 وكنوا عنه بـ(المفزعـة) كقول حمد صديق^(٥):

وقيت يا رئتي من كل مفزعـة الله خالق كورونا هو الحامي

(١) المصدر السابق / ٢١٣

(٢) المصدر السابق / ٢٠١

(٣) العمدة في محاسن الشعر ابن رشيق القيرواني تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد طبعة
 دار الجليل بيروت ١٩٨١ ص ٣٠٢

(٤) قصائد كورونا في ملتقى شعراء جازان ٥ / ٢٠٥

(٥) المصدر السابق / ٢٠٨

وكنى عنه مجدي الشافعي بـ (ابن الطواعين)^(١):
تجمع الكون والدنيا بمنزلهم يا ابن الطواعين والحمى بك اجتمعوا
وتشكلت بعض الصور من الحواس ومن ذلك حاسة الشم في قول
الحسين النجمي^(٢):

وصلة ربي للحبيب نبينا وسلامه قد فاح منه العنبر
فرائحة العنبر الركية اقتربت بالصلوة والسلام على النبي صلى الله عليه
وسلم، كما ارتبطت هذه الصور الشمية بالمعانى الدينية كقول ابن
النجمي^(٣):

رب وفقنا لجنت الشدا ربنا حقق لنا أغلى أمل
فاجنان قد اقتربت بالشدا وكل رائحة طيبة تبهج النفوس.
ونجد بعض الصور المستمدة من حاسة التذوق كقول حمد صديق^(٤):
ما أذقتم بني الإيغور بطشكם دوقوا -قتلتكم- بلا رفق بآفون
فحاسة التذوق هنا تحمل دلالة المراة والتشفي بسبب ما تعرضت له
طائفة الإيغور المسلمة من بطش.

ونقع كذلك على بعض الصور الصوتية كقول الحسين الحازمي^(٥):

(١) المصدر السابق ٢١٩ / ٥

(٢) المصدر السابق ٢٠٥ / ٥

(٣) المصدر السابق ٢١٧ / ٥

(٤) المصدر السابق ٢٢٣ / ٥

(٥) المصدر السابق ٢٠٦ / ٥

وصمتنا نسمع الصوت الذي ملأ الدنيا بما يرعبنا

فالصوت هنا كناية عن الدوي الهائل الذي أحدثه الوباء وارجح له أركان
العالم، وك قوله أيضاً^(١):

وتعالت في الورى أصواتنا حسبنا أفراحنا تصحبنا

فالصوت هنا يقترن بالفراحة. ونجد كذلك بعض الصور الحركية كقول
موسى الشافعي^(٢):

من أين والأرض وجه قاتم ويد شلاء يرقص في أعصابها القلق

والخوف يركض عريانا هنا وهنا وفي مخالبه من لحمنا مرق

ينقل الشاعر هنا صورة الكرة الأرضية بعد أن ضربها هذا الوباء فبرزت
بوجه قاتم ويد أعصابها الشلل وأعصاب مختلة سيطر عليها القلق وبدأ الخوف
في صورة حسية مخيفة وهو يركض عريانا وقد استحال وحشا كاسرا مخيفا
يحمل في مخالبه لحوم البشر وبذلك هيمنت الحركة على الصورة فهناك حركة
الاهتزاز المبعثة من الشلل وهناك حركة الرقص وحركة الركض.

ومن الصور الحركية كذلك قول عبد الصمد المطهري^(٣):

حتى إذا فار في التنور موعده يهتز كالريح في جوف على عجل

(١) المصدر السابق / ٥٢٠٦

(٢) المصدر السابق / ٥٢٢١

(٣) المصدر السابق / ٥٢٠٩

فالشاعر يوظف الحركة في وصف الوباء كحركة فوران النور وهي صورة قرآنية كنى بها عن أهوال الوباء وكأنه يوم القيمة وشبه حركة اهتزازه بحركة الرياح الهوجاء العنيفة المصحوبة بالصوت.

واعتمد الشاعر في تشكيل صورهم على الصور اللونية المستمدة من مختلف الألوان بما تحمله من رموز ودلالات "إذ تتعدى دلالة اللون نطاقها الوضعي المطابق إلى ما هو أعم حيث تتسع دائرة إيحاء اللون للتفسير والتأويل".^(١)

وقد تنوّعت الصور اللونية في قصائد (جائحة كورونا) وجاء اللون الأحمر في طليعتها من خلال صورة الدماء المقترنة بهذا الوباء القاتل ومن ذلك قول أحمد المتوكل^(٢):

تجري الدماء على يديه وتذرف ال دمع العيون وترجف الأعضاء
فالدماء هنا تقترن بهذا الوباء حيث يرمز اللون الأحمر إلى الدماء ويعد من "الألوان الساخنة المستمدة من وهج الشمس واشتعال النار والحرارة الشديدة وهو من أطول الموجات الضوئية"^(٣)

ونجد صورة الدم كذلك في قول موسى الشافعي^(٤):

يیث من جبروت الله في دمهم شيئاً يرینا سماهم وهي تحرق

(١) الصورة الشعرية والرمز اللوني، د. يوسف حسن نوفل دار المعارف بمصر ص ١٦

(٢) قصائد كورونا في ملتقى شعراء جازان ٥ / ٢٠٨

(٣) اللغة واللون د. أحمد مختار عمر طبعة عالم الكتب طبعة ١ ١٩٩٧ ص ٢٠١

(٤) قصائد كورونا في ملتقى شعراء جازان ٥ / ٢٢٢

فقد اقترب لون الدماء هنا بالاحتراق واحتدام النار.

ونجد صورة الموت الأحمر في قول الحسين النجمي^(١):

والطب قد أغضى له مستسلما حصد البرية منه موت أحمر

فقد وصف الشاعر هذا الوباء بالموت الأحمر دلالة على اقترانه بالدماء

وقد يخرج اللون الأحمر عن هذه الدلالة المرعبة إلى دلالة أخرى مضادة

كما في قول ابن النجمي^(٢):

واثق بالله راض بالذى قدر الرحمن وردي الأمل

فصورة الأمل الوردي صورة تبعث على التفاؤل والبهجة.

كما استمد بعض الشعراء صورهم من اللون الأسود بما يحمله من دلالة

القتامة والتشاؤم معبرين بذلك عن حالة العالم بعد هذا الوباء فقال أحمد

المتوكل^(٣):

الكون أظلم في النهار وقد سرت بالضر فيما الليلة الليلاء

والصورة بالغة الدلالة على ما أحدثه هذا الوباء من ضرر وأذى حتى تخيل

الشاعر أن الظلام قد عم الكون في النهار وقد حاصرت الناس ظلمة الليل

وهي كنایة عن القتامة والجحامة والرعب.

واقتربن اللون الأسود بالظلام كذلك في قوله^(٤):

(١) المصدر السابق / ٥٢٠٤

(٢) المصدر السابق / ٥٢١٦

(٣) المصدر السابق / ٥٢٠٨

(٤) المصدر السابق / ٥٢٠٨

في مفتر لا نجم في ظلماته إلا النفوس فإنها الأنواء

فالصورة هنا تختشد بدلالة القتامة والسوداد إذ استحالت الكرة الأرضية —

بفعل هذا الوباء — إلى أرض مقرفة مظلمة لا نجوم فيها.

وفي مقابل هذا اللون الأسود نجد اللون الأبيض الذي "يرتبط عند معظم الشعوب — بما فيهم العرب — بالطهر والنقاء واستخدمه العرب القدماء في تعبيرات تدل على ذلك"^(١)

ومن الصور اللونية التي تشكلت من اللون الأبيض قول الحسين النجمي^(٢):

لَكْ جِيشاً أَبْيَضَا وَقَفُوا لَهُ وَالْكُلُّ يَزْجِي الْجَهَدَ لَا يَتَعْذِرُ

فقد كفى الشاعر عن الأطباء وهيئة التمريض الذين تصدوا لهذا الوباء بالجيش الأبيض.

وافتتن اللون الأبيض بالنور والسناء كقول ابن النجمي^(٣):

جَنَّةُ الْخَلْدِ أَعْدَتْ لِلَّذِي فِي لِبَاسِ النُّورِ وَالْتَّقْوِيِّ رُفْل

فقد تشكلت الصورة من الاستعارة في قوله (لباس النور والتقوى) إذ شبه الشاعر من صدق إيمانه وعمله بمن يزهو في حلل النور في جنة الخلد.

وأطل اللون الأبيض بدلاته غير المباشرة في قول الحسين الحازمي^(٤):

(١) اللغة واللون ص ٧٥

(٢) قصائد كورونا في ملتقى شعراء جازان ٥ / ٢٠٤

(٣) المصدر السابق ٥ / ٢١٦

(٤) المصدر السابق ٥ / ٢٠٦

شع فجر والسناء يخضننا حيّثما أحلامنا تصحّكنا

فاللون الأبيض مستمد من صوري (الفجر والسناء) وترددت صورة السناء في قول حمد صديق^(١):

منها يشع السناء نحو الدين وبها يظل وارف توحيد وتمكين
فالجبار والمحروم منها يعود على الملائكة حيث صورها الشاعر بأنها مصدر
النور والإشعاع والتوحيد.

وقد يأتي اللون الأبيض ماثلاً في النور في مقابل النار كما في قول ابن النجمي^(٢):

أنقذ الناس من النار وقل ها كما النور هنا درب الأمل
ونقع على اللون الأخضر في قول الحسين النجمي^(٣):
جيshan في بلدي فيجيش أخضر يحمي الحدود يرد من يتختر
فصورة الجيش الأخضر صورة جديدة في وصف الجيش دلالة على الخير
والنماء والنصرة.

وعلى هذا النحو كان للصورة الفنية بأنماطها ووسائلها المختلفة دور بارز
في تشخيص المعاني وتجسيدها "فالصورة كلام مشحون شحناً قوياً يتألف من

(١) المصدر السابق / ٥٢٢

(٢) المصدر السابق / ٥٢٦

(٣) المصدر السابق / ٥٢٠

عناصر محسوسة، خطوط ألوان، حركة ظلال تحمل في تضاعيفها فكرة أو عاطفة أي أنها توحى بأكثر من المعنى الظاهر" (١)

سمات أسلوبية ولغوية

لكل أديب أسلوبه الخاص الذي يميزه ويطبع أدبه بطبع خاص فالأسلوب هو "الوسيلة المادية لما ينتجه الأديب، والمظهر لما يدور في نفسه من معان وأفكار تظهر النهاية على شكل جمل مصاغة بلغة وألفاظ تكون جيئها الصلة المادية بين الأديب والمتلقي ويعرض من خلالها إحساسه بالحياة والإحياء والكون والكائنات ومشاعره تجاه هذا العالم وما فيه من ظواهر وأحداث وكليات" (٢).

وتتنوع الأساليب بين أساليب إنسانية وخبرية، وباستقراء النماذج الشعرية الخاصة بجائحة كورونا نجد أن أكثر الأساليب الإنسانية كثافة وحضوراً هو أسلوب الاستفهام حيث يتردد في القصائد بنسبة كبيرة وهذه الكثافة تعكس ما يحمله الاستفهام من دلالات كالتعجب والإنكار والدهشة والخيرة وغيرها، ومن أمثلته قول مجدي الشافعي (٣) :

(١) بناء الصورة في البيان العربي كامل حسن البصير طبعة المجمع العلمي العراقي ١٤٠٧ هـ ص ١٢٧

(٢) مدخل إلى دراسة الأدب د. مريم بغدادي الكتاب الجامعي الطبعة الأدبية للمملكة العربية السعودية ١٩٨٢ ص ٤٥

(٣) قصائد كورونا في ملتقى شعراء جازان ٥ / ٢١٨ - ٢١٩

من أين جئت إلينا؟ يسأل الفزع وهل ستقضى علينا؟ يطرق الهلع
 من أنت؟ ما أنت؟ ما الفيروس؟ هل مرض؟ من التجارة لما بارت السلع
 هل أنت حرب اقتصadiات عالمنا؟ حتى تمرر عند الغالب البيع؟
 أم أنت غلطة دكتور بمختبر؟ فاحت فلم يستطيع تجميعها الوضع؟
 أم أنت نذر لنا أم أنت منذرنا؟ ضاقت بنا الأرض فيما أنت متسع
 فأسلوب الاستفهام يهيمن على الأبيات بكثافة لافتة وبصيغ مختلفة
 (من - ما - هل - أين) لتعكس الإحساس بالحيرة والتباطط والدهشة
 والتعجب، وتتنوع بين (ما باله - ما بالهم - أين) التي ترددت أربع مرات
 لتعكس الإحساس بالذهول والتعجب والإنكار حيث عجزت كل الأسلحة
 الفتاكية عن مواجهة هذا الوباء القاتل

وقد يكون السؤال بـ (ماذا) أو بـ (كيف) كقول مهدي حكمي^(١) :
 وبت على قبة الفاتيكان فماذا سمعت وماذا رأيت
 وكيف استشرت اشتهر العجو ز تجاعيدها الملمس تدعوك: هيـت
 وكثيراً ما يحمل الاستفهام دلالة الحيرة والتعجب كقول أحمد المتوكـل^(٢) :
 من أين جاء وكيف جاء كأنما جمعـت به الـأسـاء والـضـراء
 وقد يحمل دلالة التباـهي والـفـخر كـقول الحـسـين النـجمـي^(٣) :

(١) المصدر السابق / ٥

(٢) المصدر السابق / ٥

(٣) المصدر السابق / ٥

من مثل دولتنا؟ ومن كولاتنا؟
قد قدموا ما لم يقدمه أحد
وقد يخاطب الشاعر الوباء بأسلوب يحمل دلالة الحث على التوقف عن
أفعاله المميتة كقول مهدي حكمي^(١) :

فهلا فنعت بما قد أصبت وهلا شبعت وهلا ارتويت
وفي سياق وصف كثرة الأرواح التي حصدتها الوباء يستخدم الشاعر
(كم) الخبرية كقول نواف الحكمي^(٢) :

فكم روح قد انطفأت وكم متحرك ييسا
وكم من أجله انتفضت شعوبكم قسا وقسا
ومن الأساليب الملفتة استخدام التكرار وهو "في حقيقته إلحاح على جهة
هامة في العبارة فالتكرار يسلط الضوء على نقطة حساسة في العبارة يكشف
اهتمام المتكلم بها"^(٣)

والتكرار له فوائد ومقاصد عديدة فهو يؤدي دوراً تعبيرياً واضحاً "فتكرار
لفظة ما أو عبارة ما يوحي بشكل أولي بسيطرة هذا العنصر المكرر وإلحاحه
على فكر الشاعر وشعوره أو لا شعوره ومن ثم فهو لا يفتأ ينبع في أفق رؤياه
من لحظة لأخرى"^(٤)

(١) المصدر السابق / ٥ ١٩٦

(٢) المصدر السابق / ٥ ٢٠٧

(٣) قضايا الشعر المعاصر نازك الملائكة ص ٢٤٢

(٤) عن بناء القصيدة العربية الحديثة د. علي عشري زايد ص ٥٨

وقد عمد بعض الشعراء إلى التكرار في صورته البسيطة باستخدام عبارة تتكرر كثيراً للإلحاح على معناها وإبراز أهميته كقول جبران سحاري^(١):

شكراً كرونا على ما صفت من مثل علمت تقنية التعليم في عجل
 شكرنا وزارتنا في البذل ما فترت تعليمنا صحة مع سائر الجمل
 شكرنا نظافتنا زادت معالمنا في البيت في البنك وسط السوق في العمل
 شكرنا كرونا لقد أظهرت ملكي بصائب الرأي والتدبير في الدول
 شكرنا جعلت بيوت الناس عامرة بالذكر والوعي والقرآن والنزل
 شكرنا أبنت عن الدنيا دناءتها فلا تساوي شواكاً كان في النعل
 شكرنا كشفت لنا تجار أزمتنا من همهم رفع أسعار بلا خجل
 شكرنا وشكراً وشكراً لست أحصرها هذى مناقب كورونا فلا تسل
 فقد كرر الشاعر كلمة شكرنا عشر مرات وهي نسبة كثافة عالية تؤكد
 إلحاحه على فكرة معينة هي رؤية الجانب الإيجابي التي كشف عنها هذا
 الوباء.

وقد عمد بعض الشعراء إلى المفارقة وهي "من البنى الأثيرة للإبداع الأدبي بصفة عامة والشعري بصفة خاصة"^(٢)، وتعتمد المفارقة على إظهار المعنى

(١) قصائد كورونا في ملتقى شعراء جازان ٥ / ٢١٢ - ٢١١

(٢) بناء المفارقة دراسة بلاغية تحليلية شعر المتنبي نموذجاً د. رضا كامل مكتبة الداب القاهرة

وضده وعلى المرواغة اللغوية وإظهار المتناقضات بصورة مضحكة من خلال بنية تعتمد على ثنائية دلالية.

ولا شك أن وجود وباء كورونا وتفشييه يمثل مفارقة صارخة وصادمة فكيف بهذا الشيء الصغير الذي لا يرى بالعين الاجردة يحمل الموت والخراب إلى العالم وتعجز عن مواجهته أقوى الدول وأعتى الأسلحة. وقد عبر الشعراء عن هذه المفارقة فقال ابن النجمي^(١):

لا يرى بالعين لكن له هجمة تعجز أرباب الحيل

فالمفارقة تمثل في كون هذا الفيروس المتخفي الذي لا يمكن رؤيته قد أعجز كل العلماء.

ومن المفارقة كذلك قول نواف الحكمي^(٢):

يحاصرنا صباح مسا وينحق دوننا النسا
ويسقطنا ولا حرس صغيراً أرهب الحرسا
هو المخلوق من لا شيء لكن جاء مفترسا

والمفارقة واضحة في الأبيات فهذا الفيروس الذي خلق من لا شيء يملك قدرة الافتراض ويحاصر الناس ويرهب الحراس والأقوياء على الرغم من ضعفه. وقد وشّى الشعراء أساليبهم بالمعاني القرآنية وأكثروا منها اتساقاً مع واقع الحال ومواجهة هذا الوباء بالتضليل والابتهاج وتفاوت طرائقهم وأساليبهم في

(١) المصدر السابق / ٥٢١٤

(٢) المصدر السابق / ٥٢٠٧

ذلك، فاستدعي بعضهم قصص الأنبياء الذين تعرضوا للابتلاء كالإشارة إلى سيدنا أيوب الذي مسه الضر فكشفه الله عنه وفي ذلك يقول عبده جمالي^(١):

أنت الملاذ لنا مما ألم بنا يا رب أيوب فاكتشف ضرنا الآنا
فالشاعر يتضرع إلى الله ويلوذ به أن يكشف عنا البلاء كما كشفه عن أيوب عليه السلام.

ولمح أحمد دهاس إلى قصة أيوب فقال^(٢):

قد برانا الضر يا مولاي فارفع عنا ما نش��وه في هذی البلاط
واستدعي حمد صديق قصة ذي النون يونس عليه السلام فقال^(٣):
الله أكبر ما الغرقى كذى النون فينقدون ويرجى نبت يقطين
واستدعي شعراً آخرين قصة نوح والطوفان واضعين الحاضر بإزاء الماضي
متضرعين إلى الله أن يعصمهم كما عصم نوحاً وقومه يقول موسى الشافعي^(٤):

لا عاصم اليوم إلا أن تكون لنا كف بأسباب عفو الله تلتصق
وعلم شعراً آخرون إلى اقتباس الآيات القرآنية التي تناسب المقام ومن ذلك قول عبده جمالي:

(١) المصدر السابق / ٥ ٢١٣

(٢) المصدر السابق / ٥ ١٩٩

(٣) المصدر السابق / ٥ ٢٢٢

(٤) المصدر السابق / ٥ ٢٢٢

وقلت (لا تقنطوا) أمنت خائفنا وقلت (لا تيأسوا) فالطلف آوانا
وقلت (إني قريب) تستجيب لنا فارحم دعوتك من داء تغشانا
فالشاعر يوظف الآيات التي تتفق وواقع الحال وتدعوه إلى عدم القنوط أو
اليأس وتأكد أن الله قريب يجيب دعوة الداعي إذا دعاه فتوجه المسلمون
بالدعاء أن ينجيهم الله من هذا الداء والوباء.

ويقتبس شاعر آخر من الآي القرآني، فيقول مهدي حكمي^(١):

في رب هذا نذير مبين وأنت أموت وأنت هيت

وعدل شعراء آخرون إلى الحديث النبوى يقتبسون منه ما يؤيد الإجراءات
التي اتخذتها الحكومة لمواجهة هذا الوباء ومن ذلك قول مجدى الشافعى^(٢):

قال الرسول (فصلوا في رحالكم) كذلك قادتنا قالوا لما سمعوا

قال الرسول (وقرروا في بيوتكم) كذلك قادتنا قالوا اسمعوه وعوا

قال الرسول (بألا تخرجوا أبداً) كذلك قادتنا فالحجر إذ يقع

فالشاعر يتخذ أحاديث الرسول حجة تؤكد أن ما اتخذته المملكة من
إجراءات العزل والحجر إنما تتفق مع أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم.
وفيما يتصل باللغة الشعرية فقد جنحت القصائد عموماً إلى اللغة السهلة

المباشرة التي تحقق التواصل فخلت من الغموض والألفاظ الصعبة وجاء
المعجم الشعري متتسقاً مع موضوع الجائحة فترددت ألفاظ (كورونا -

(١) المصدر السابق / ٥ ١٩٧

(٢) المصدر السابق / ٥ ٢١٩

الفيروس - الوباء - الطاعون - النازلة - الداء الخطير - الداء العضال) وترددت الألفاظ المتصلة بمهنة الطب مثل (أطباء - تمريض - كمامات - الصحة - الحجر) وفي حقل تداعيات الداء ترددت ألفاظ مثل (الرعب - الفزع - الرزايا - البلايا - الهلع - ارتعاد - البلوى) وترددت أسماء (المساجد - المطاعم - القاعات - تقنية التعليم - التجار)

ملحوظات لغوية:

رصد الباحث عدداً من الملحوظات اللغوية، وإجمالها ما يلي:

١- الجنوح إلى اللغة النثرية

مالت لغة الشعر أحياناً إلى النثرية ومن ذلك قول ابن النجمي^(١):

قد سمعنا عنه في الصين فإذا هو في الأرجاء فورا قد وصل
فكلمة (فورا) مالت بالأسلوب إلى النثرية.

ومن ذلك أيضاً قول الحسين النجمي^(٢):

لكن معاجلة الوباء تفاوت والناس مختلفون في هذا الصدد
فجملة (هذا الصدد) فيها نثرية واضحة.

٢- تضمين ألفاظ أجنبية

تضمنت بعض القصائد ألفاظاً أجنبية مختلفة منها لفظة (الفيروس) التي
ترددت كثيراً في القصائد كقول حمد صديق^(٣):

فيروس قرن له من فعل سالفه مؤشرات بويارات الطواعين
وقول ابن النجمي^(٤):

وغدا العالم في حيرته كلهم بالفيروس الخافي انشغل

كما ترددت لفظة (كورونا) كثيراً كقول عبده جمالي^(١):

(١) المصدر السابق / ٥٢٠١

(٢) المصدر السابق / ٥٢١٦

(٣) المصدر السابق / ٥٢٢٣

(٤) المصدر السابق / ٥٢١٤

لم يعهد الناس أمثلاً لسيطرته ومن شناعته أسموه كورونا
 ومن الألفاظ الأجنبية لفظة (الإيتبيكت) في قول مهدي حكمي^(٢) :
 تهاوت بفك أعنى القلا ع وخر لها برج الإيتبيكت
 وقول حمد صديق^(٣) :

أرى كل ما قيل في ذا الوباء كصاعد وعر على بسكليت
 ومن ذلك كلمة (بسكويت) في قول مهدي حكمي^(٤) :

تلوك المسنين مثل الزبيب وتردد الكهل كالبسكويت

٣ - تضمين ألفاظ شعبية

حرص بعض الشعراء على النزول بلغة الشعر إلى لغة السوقه والعوام
 كاستخدام لفظة (صبة) ولفظة (الكيف). يقول عبدالمطلب النجمي^(٥) :

حال كورونا بيننا فاعتزلنا جلسة أنت أنسها والمواسي
 (صبة) منك تعدل (الكيف) عصرا فيفيء المساء سهل المواسي
 ومن ذلك (خدمتنا) في قول حمد صديق^(٦) :

وعقمي باستعذات مخدتنا وعاني سهري يا سعد أيامى

(١) المصدر السابق / ٥ ٢١٣

(٢) المصدر السابق / ٥ ٢١٦

(٣) المصدر السابق / ٥ ١٩٨

(٤) المصدر السابق / ٥ ١٩٧

(٥) المصدر السابق / ٥ ٢١٠

(٦) المصدر السابق / ٥ ٢٠٨

ومن ذلك كلمة (حلاق) في قول جبران سحاري^(١):

لَا نرِي أَيْ حلاقٍ لينفخُ فِي شعورِ قومٍ ويرمي باللّحى الجزل
وكلمة (مشغل) في قوله أيضاً:

شَكْرَا فَكِمْ مِشْغَلْ أَغْلَقْتَ فَاتَّضَحَتْ ذَاتَ الْجَمَالِ بِلَا صِبْغٍ وَلَا كَحْلٍ

٤- نحت ألفاظ جديدة

عمد بعض الشعراء إلى نحت ألفاظ جديدة ومن ذلك لفظة (تففرت) و
(كمام) كقول حمد صديق^(٢):

تَفَفَرَتْ لَثَمَتْ فَاهَا بِكَمَامْ تَدْرِعَتْ سَتْرَةَ شَدَتْ بِإِحْكَامْ

٥- وجود أخطاء لغوية

لَمْ تَخْلِ بَعْضُ الْقَصَائِدِ مِنْ أَخْطَاءَ لَغْوَيَةٍ وَاضْحَةٍ وَمِنْ ذَلِكَ مَا جَاءَ فِي
قولُ أَحْمَدَ دَهَاسَ^(٣):

مَا اسْتَطَاعَتْ دُولَةٌ تَوْقِفَهُ كَلَا بَلْ بَقَتْ مِنْ فَعْلِهِ مِثْلُ الْجَمَادِ
فَقُولُهُ (بَقَتْ) خَطَأٌ لَغْوِيٌّ وَتَسْكِينُ الْفَعْلِ (تَوْقِفَهُ) لَجْبُ الْوَزْنِ خَطَأٌ لَغْوِيٌّ
لأنَّهُ لَمْ يَتَقَدَّمْ جَازِمٌ.

وَمِنْ الْأَخْطَاءِ الْلَّغْوِيَّةِ قَوْلُ عَبْدِهِ جَمَالِي^(٤):

أَحْاقَنَا بَغْتَةً فِي حِينِ غَفْلَتِنَا وَكَرَّ فِي سَاحَنَا بِالْخَوْفِ أَصْلَانَا

(١) المصدر السابق / ٥ ٢١٢

(٢) المصدر السابق / ٥ ٢٠٧

(٣) المصدر السابق / ٥ ١٩٩

(٤) المصدر السابق / ٥ ٢١٣

فال فعل (أحاق) لا يتعدى بنفسه والصواب أحاق بنا.
ومن الأخطاء أيضا قول الحسين النجمي^(١):
لكن جيشاً أبضاً وقفوا له والكل يزجي الجهد لا يتغدر
فكلمة أبضاً ممنوعة من الصرف ولكن الشاعر صرفها كما أضاف الألف
واللام على كل وهو خطأ.

(١) المصدر السابق / ٥٢٠٤

خاتمة البحث ونتائجـه

درس الباحث رؤية مجموعة من الشعراء المعاصرـين لجائحة كورونـا التي اجتاحتـ العالم واهتمامـهم بتـتبع هذهـ الجائحة وكـشف أبعـادـها، واهـتمـ البحث بـدراسةـ هذهـ الظاهرةـ الجديدةـ فيـ الشـعرـ منـ نـاحـيـتـيـ المـضـمـونـ وـالـشـكـلـ.

وقدـ استـخلـصـ الـبـحـثـ التـائـجـ الآـتـيـةـ:

- ـ ١ـ كـشـفـ الـبـحـثـ عنـ قـدـرـةـ هـذـهـ الـمـجـمـوـعـةـ مـنـ الشـعـرـاءـ عـلـىـ الإـحـاطـةـ بـأـبـعـادـ هـذـهـ الـجـائـحةـ وـمـتـابـعـتـهاـ عـلـىـ الـمـسـتـوـيـاتـ الـعـلـمـيـةـ وـالـاـقـتـصـادـيـةـ وـالـاجـتمـاعـيـةـ.
- ـ ٢ـ اـتـفـقـ مـعـظـمـ الشـعـرـاءـ عـلـىـ الرـؤـيـةـ السـلـبـيـةـ هـذـهـ الـجـائـحةـ وـعـلـىـ إـظـهـارـ خـطـورـهـاـ وـآـثـارـهـاـ الـمـدـمـرـةـ عـلـىـ الـعـالـمـ كـلـهـ.
- ـ ٣ـ كـانـتـ رـؤـيـةـ الشـعـرـاءـ فـيـ الـأـغـلـبـ الـأـعـمـ رـؤـيـةـ كـوـنـيـةـ شـامـلـةـ تـحـاـوزـتـ الـحـدـودـ الـمـخـلـيـةـ وـشـمـلـتـ الـإـنـسـانـيـةـ كـلـهـاـ.
- ـ ٤ـ عـكـسـ الشـعـرـاءـ فـيـ قـصـائـدـهـمـ مـاـ أـصـابـ الـعـالـمـ مـنـ حـيـرـةـ وـتـخـبـطـ إـزـاءـ هـذـهـ الـجـائـحةـ وـعـجـزـ الـعـلـمـاءـ عـنـ مـوـاجـهـتـهـاـ.
- ـ ٥ـ أـبـرـ الشـعـرـاءـ الدـورـ الـدـينـيـ فـيـ مـوـاجـهـهـ هـذـهـ الـجـائـحةـ وـأـكـثـرـواـ مـنـ التـضـرـعـ إـلـىـ اللـهـ لـدـفـعـ هـذـاـ الـبـلـاءـ.
- ـ ٦ـ قـامـ الشـعـرـاءـ بـدـورـ وـعـظـيـ مـلـحوـظـ، فـحـرـصـواـ عـلـىـ دـعـوـةـ النـاسـ إـلـىـ الـالـتـزـامـ بـأـوـامـرـ اللـهـ وـتـجـنـبـ مـاـ نـهـىـ عـنـهـ وـالتـزـهـيدـ فـيـ الدـنـيـاـ وـالـعـمـلـ لـلـآـخـرـةـ.
- ـ ٧ـ نـهـضـ الشـعـرـاءـ بـدـورـ اـجـتمـاعـيـ فـيـ دـعـوـةـ النـاسـ إـلـىـ الـالـتـزـامـ بـالـإـجـرـاءـاتـ الـاحـتـراـزـيـةـ وـالـبـقـاءـ فـيـ مـنـازـلـهـمـ لـلـمـحـافـظـةـ عـلـىـ سـلـامـتـهـمـ.

- ٨- أشاد الشعراء بالدور الرائع الذي قامت به المملكة العربية السعودية في مواجهة هذه الجائحة وعدم تفريقها بين مواطن ووافد، وأكدوا أن المملكة استندت في كل الإجراءات التي اتخذتها على مبادئ الدين الإسلامي.
- ٩- جنح أغلب الشعراء إلى التعبير المباشر عن الجائحة، ومع ذلك لم يهملوا التصوير، فعبروا عن هذه الجائحة بصور مختلفة غالب عليها البساطة والواقعية.
- ١٠- انحاز الشعراء في قصائدهم إلى اللغة الواضحة السهلة الخالية من الغموض والتعقيد، فاستخدموها لغة تواصلية تصل إلى المتلقي بيسر وسهولة وأكسبوها طابعا شعبيا وإن لم تسلم من بعض الأخطاء اللغوية.

التعريف بالشعراء^(١)

- ١- أحمد المتوكل بن علي النعيمي، متocado من الاتصالات السعودية عام ٢٠١١، إمام وخطيب جامع حرجه ضمد، بدايته الحقيقة مع الشعر كانت تقريباً في عام ١٤٠٩ هـ. شارك في عدد من الأمسيات قديماً وحديثاً، من دواوينه المخطوطة (ديوان المتوكل النعيمي) و(قصائد من الشرق).
- ٢- أحمد بن هادي دهاس من مواليد ١٣٨٨ هـ بمحافظة بيش بكالوريوس آداب وتربيـة ١٤١٠ من جامعة الملك سعود فرع أبها تخصص تاريخ، شجـعه الأستاذ حسن أبو عـلـه على كتابـةـ الشـعـرـ فيـ الصـفـ الثـانـيـ المـتوـسـطـ،ـ كـمـاـ شـجـعـهـ فيـ المـرـحـلـةـ الثـانـوـيـةـ جـارـهـ وـصـدـيقـهـ الأـسـتـاذـ مـحـمـدـ النـعـيـيـ.ـ نـشـرـ قـصـائـدـهـ فيـ الصـحـفـ وـالـمـجـلـاتـ وـشـارـكـ فيـ العـدـيدـ مـنـ الأـمـسـيـاتـ الشـعـرـيـةـ دـاـخـلـ الـمـنـطـقـةـ وـخـارـجـهـاـ.ـ كـتـبـ العـدـيدـ مـنـ الأـوـبـرـيـاتـ الشـعـرـيـةـ،ـ لـهـ قـنـاةـ فـيـ الـيـوـتـيـوبـ باـسـمـ قـنـاةـ الشـاعـرـ أـهـمـ دـهـاسـ.ـ تـشـرـفـ بـإـلـقـاءـ قـصـيـدـةـ الـحـفـلـ الـذـيـ أـقـامـتـهـ مـحـافـظـةـ بـيـشـ فـيـ الـرـيـاـرـةـ الـأـوـلـىـ لـأـمـيـرـ الـمـنـطـقـةـ الـأـمـيـرـ مـحـمـدـ بـنـ نـاـصـرـ بـنـ عـبـدـ الـعـزـيـزـ.ـ لـهـ دـيـوـانـ تـحـتـ الـطـبـعـ بـعـنـوـانـ (ـوـهـجـ الـشـاعـرـ).
- ٣- الحسين بن إسماعيل الصلهي الحازمي، يعمل معلماً في المعهد العلمي في صبيا التابع لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. من مواليد الظبية عام ١٣٨٧ هـ. نال شهادة البكالوريوس في التاريخ من جامعة الإمام محمد بن

(١) أمين ملتقي شعراء جازان د. جبران سحاري ٢٩٧٥٩٨٥، ٢٠٠٥، ومن خلال الروابط الإلكترونية التالية:

j500..j@hotmail.com

moltaqa27@hotmail.com

<https://twitter.com/moltaqa27>

سعود الإسلامية. عضو نادي جازان الأدبي. له ثلاث مجموعات شعرية معدة للطبع. له العديد من الأمسيات والقصائد المنشورة في المواقع والمنتديات الشبكية.

٤- جبران بن سلمان جابر سحّاري، بكالوريوس من كلية الشريعة، ماجستير في الفقه من كلية الشريعة، دكتوراه في الفقه من كلية الشريعة، أستاذ مساعد بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، شاعر وأديب وناقد، مؤسس مدرسة الميزان للنقد الأدبي في الرياض، وعضو نادي جازان الأدبي، وشاعر ملتقي أبناء جازان في الرياض، والمشرف العام على ملتقي شعراء جازان، شارك في عدة ندوات وأمسيات أدبية وثقافية ومؤتمرات علمية في الداخل والخارج، ومثل المملكة العربية السعودية في (ندوة الشباب العربي وتحديات العصر) التي عقدت في السودان عام ١٤٢٩هـ، شارك في ورشة الأمن الفكري المنبثقة عن مجلس شؤون الأسرة والطفل في مركز الملك عبدالعزيز للحوار الوطني. شارك في الملتقى الدولي الأول لمحبي اللغة العربية في مصر والذي كان بعنوان (اللغة العربية بين العراقة والتحدي)، قدم العديد من البحوث والمشاركات الأكاديمية وأشرف على عدة لجان بحثية، وله العديد من الدواوين الشعرية والكتب والمؤلفات والبحوث المطبوعة والمخطوطة.

٥- حسين بن أحمد بن يحيى النجمي، يلقب بعاشق الفل وعاشق الوحين، ولد عام ١٣٨١هـ في قرية النجمية التابعة لحافظة صامطة من منطقة جازان شاعر مكثر له ستة دواوين مطبوعة هي: ديوان ألم وأمل عام ١٤٠٥هـ، ديوان خفقات قلب عام ١٤٠٦هـ، ديوان عيناك في وقت الرحيل عام

١٤٠٩ هـ، ديوان تأملات على مرافع الغربية عام ١٤١٧ هـ، ديوان باقة من فل جازان عام ١٤٢٢ هـ. ديوان قُبْلَة على جبين الوطن عام ١٤٢٧ هـ.

٦- حمد بن صديق بن محمد بن طاهر، ولد عام ١٣٨٦ هـ في قرية الرجيع ساحل الجعافرة، درس الابتدائية في قريته، درس المتوسطة والثانوية في المعهد العلمي في صبيا، والبكالوريوس في كلية اللغة العربية جامعة الإمام فرع أبها، عمل معلماً عاماً واحداً بأبها وأربعة وعشرين عاماً بجامعة مدارس تحفيظ القرآن الكريم بصبيا، إمام وخطيب القرية من عام ١٤١٣ من محبي فقهاء العلم وشعراء الفقه.

٧- عبدالصمد أحمد زنوم آل مطهر بن حازم، مواليد منطقة جيزان محافظة ضمد، الابتدائية في مدرسة الملك فيصل ثم التحق بالمعهد العلمي في ضمد، ثم التحق بجامعة أم القرى قسم الدراسات الاجتماعية، أوفد إلى مملكة البحرين حيث عمل في ثانوية الوحدة للبنين لمدة أربع سنوات ثم انتقل بعدها لتعليم المنطقة الشرقية مكتب شرق الدمام معلماً ثم مشرفاً، ومن أعماله الأخرى: مدرب للتنمية البشرية، عضو في هيئة تطوير التعليم، مدير صحيفة هام الالكترونية في البحرين، حصل على درع التميز في محافظة ضمد عام ١٤٣١، تم اختياره للمشاركة بقصيدة وطنية بعد شفاء الملك عبدالله رحمه الله وعودته للبلاد، شارك بالعديد من الاحتفالات الاجتماعية والوطنية سواء بالسعودية أو في البحرين، حصل على العديد من خطابات وشهادات ودروع التكريم على مستوى الوطن وخارجه، حصل على جائزة نادي المنطقة الشرقية في المسابقة الرمضانية، حصل على المركز الأول في مسابقة ملتقي هاملت الأدبي عن قصيدة الغربية، ومن أعماله الأدبية: ديوان مطبوع بعنوان

إسراء شاعر، رواية تحت الطبع بعنوان على جناح الريح، عضو في نادي المنطقة الشرقية الأدبي.

٨- عبدالمطلب بن علي النجمي من أعيان قرية (النجامية) وهو استشاري الطب النفسي، وعضو الجمعية السعودية للطب النفسي، له عدد من المشاركات الشعرية في مناسبات ثقافية ورسمية بمنطقة جازان وخارجها، وله ديوان شعر منشور في شبكة المعلومات باسمه.

٩- عبده بن عواجي محمد جمالي، من مواليد قرية الجمالية بصبيا عام ١٣٩٩هـ. كانت الدراسة الجامعية في كلية المعلمين بجازان، ماجستير في أصول التربية من جامعة طيبة بالمدينة المنورة، دكتوراه في أصول التربية من جامعة القصيم.

١٠- مجدي بن علي الشافعي ولد عام ١٣٩٤هـ متخرج من الكلية التقنية، تخصص محاسبة، عضو سابق في جمعية الثقافة والفنون ونادي جازان الأدبي، مشرف صالون خيال الثقافي، له ديوانا شعر هما: صبيا والرحيل إلى.. ونواول ليست سلمي.

١١- محمد بن علي البهكلي من مواليد ١٣٦٤ للهجرة، من كبار شعراء منطقة جازان الرواد، له قصائد ومشاركات منشورة في الصحف آخرها قصيدة ميمية في جائحة كرونا منشورة في ملتقى شعراء جازان، من أسرة علم وأدب وشعر.

١٢- مهدي بن أحمد حكمي، جازان، مزهرة، أستاذ النحو والصرف والعروض بالمعهد العلمي بجازان، عمل أستاذًا متعاونًا في جامعة الملك خالد، صدر له ديوان شعري، شارك في أمسيات وندوات ومؤتمرات ومهرجانات وطنية، عضو في عدد من المؤسسات الأدبية والثقافية والاجتماعية، درس شعره عدد من الباحثين.

١٣ - موسى بن مروعي بن علي شافعي، بكالوريوس رياضيات، يعمل معلماً في مدرسة العيدابي الابتدائية، له العديد من المشاركات الشعرية: في مهرجان الدرب السياحي، المنتدى الأدبي بالظبيبة، ومهرجان سراة عبيدة للتنشيط السياحي، ومسابقة الشعر الفصيح ببنجع، ومسابقة الشعر العربي ببيشة، وحاز على جائزة سيف آل خشيل مدير التعليم بها آنذاك، وشارك في الأيام الثقافية السعودية اليمنية في مؤسسة العفيفي الثقافية بالعاصمة صنعاء، كما شارك في برنامج أوراق شاعر على إذاعة الرياض وأحيا العديد من الأمسيات الشعرية بعدد من المناطق آخرها كانت بإثنينية الزاهد النعمي، وديوانية الشيخ إبراهيم النروي، نشر بعض القصائد في الصحف.

٤ - نواف بن أحمد الحكمي، أستاذ مشارك في كلية الآداب بشورة، حاصل على درجة (الماجستير) في النحو والصرف، وحصل على الدكتوراه في النحو كذلك، وكلاهما من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، له أربع مجموعات شعرية هي (مرايا تتنفس) و(نجاوي عشق) و(عندما تسافر العبرات) و(تضاريس البياض).

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر:

١- قصائد كورونا في ملتقى شعراء جازان، الأرشيف، مجلة ملتقى شعراء جازان الافتراضية ١٩٦٥ - ٢٣٢ وللتواصل مع أمينه د. جبران سحاري ٠٥٠٢٩٧٥٩٨٥، ومن خلال الروابط الإلكترونية التالية:

j500@hotmail.com

moltaqa37@hotmail.com

<https://twitter.com/moltaqa37>

ثانياً: المراجع:

٢- الاتجاه الوج다اني في الشعر العربي المعاصر د. عبد القادر القط دار النهضة العربية ١٩٨٧ م بيروت

٣- أسرار البلاغة عبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمود شاكر، مطبعة المدini، القاهرة ١٩٩١ م

٤- أصول النقد الأدبي أحمد الشايب دار نهضة مصر القاهرة الطبعة السابعة

٥- الأعمال الشعرية الكاملة نازك الملائكة ط المجلس الأعلى للثقافة مصر ٢٠٠٢ م

٦- الأيام طه حسين، دار المعارف بمصر

٧- بدائع الزهور في وقائع الدهور محمد بن أحمد بن إيسا الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٤ م

٨- بناء الصورة في البيان العربي كامل حسن البصير طبعة المجمع العلمي العراقي ١٤٠٧ هـ

٩- بناء المفارقة دراسة بلاغية تحليلية شعر المتنبي نموذجاً د. رضا كامل مكتبة الآداب القاهرة ط ١، ٢٠١٠ م

١٠- تاريخ الرسل والملوك أبو جعفر الطبرى، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ط ٢، دار التراث بيروت ١٣٨٧ هـ

١١- تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ابن بطوطة ط. بيروت

- ١٢ - التصوير الشعري (التجربة الشعورية وأدوات رسم الصورة الشعرية) د. عدنان قاسم، المنشاة الشعبية للنشر والتوزيع الطبعة الأولى ١٩٨٠ م
- ١٣ - الحيوان المحاطح تحقيق عبد السلام هارون ط دار الكتاب العربي بيروت ط ٣
- ١٤ - الخطيبة والتکفیر، عبد الله الغذامي، النادي الأدبي الثقافي جدة ١٩٨٥ م
- ١٥ - السلوك لمعرفة الدول والملوك المقربي، ط. مصر
- ١٦ - الشعر العربي المعاصر (قضايا وظواهره الفنية) د. عز الدين إسماعيل، دار العودة بيروت الطبعة الثالثة ١٩٨١ م
- ١٧ - الصورة الشعرية والرمز اللوني، د. يوسف حسن نوفل دار المعارف بمصر
- ١٨ - الصورة الفنية في التراث القدي والبلاغي عند العرب د. جابر عصفور المراكز الثقافي العربي بيروت الطبعة الثالثة ١٩٩٢ م
- ١٩ - عجائب الآثار في الترجم والأخبار الجيزي، الهيئة المصرية للكتاب
- ٢٠ - علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته د. صلاح فضل، الهيئة المصرية العامة للكتاب
- ٢١ - علم النص جوليا كريستيفا ترجمة فريد الراهي طبعة دار توبقال الدار البيضاء ١٩٩١ م
- ٢٢ - العمدة في محسن الشعر ابن رشيق القمي تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد طبعة دار الجليل بيروت ١٩٨١ م
- ٢٣ - عن بناء القصيدة العربية الحديثة د. علي عشري زايد، مكتبة الآداب مصر
- ٢٤ - قضايا الشعر المعاصر نازك الملائكة، بيروت.
- ٢٥ - الكامل في اللغة والأدب لأبي العباس المبرد ط. مصر
- ٢٦ - كتاب الصناعتين أبو هلال العسكري تحقيق علي محمد البحاوي و محمد أبو الفضل أبراهيم ط. عيسى البابي الحلبي القاهرة ١٩٧١ م
- ٢٧ - اللغة واللون د. أحمد مختار عمر طبعة عالم الكتب ط ١، ١٩٩٧ م
- ٢٨ - مدخل إلى دراسة الأدب د. مريم بغدادي الكتاب الجامعي الطبعة الأدبية المملكة العربية السعودية ١٩٨٢ م

- ٢٩- منهاج البلغاء وسراج الأدباء حازم القرطاجني، تحقيق محمد الحبيب بن خوجة
ط. تونس ١٩٦٦ م
- ٣٠- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ابن تغري بردي، الهيئة المصرية العامة
للكتاب
- ٣١- النقد الأدبي الحديث د. محمد غنيمي هلال د. هبة مصر القاهرة.



تجليات التناص في رسائل أبي بكر الخوارزمي الأشكال والآليات

د. عبد الخالق بن عبد الرحمن بن عبد الخالق القرني
قسم اللغة العربية – كلية الآداب
جامعة بيشة



تجليات التناص في رسائل أبي بكر الخوارزمي "الأشكال والآليات"

د. عبد الخالق بن عبد الرحمن بن عبدالخالق القرني

قسم اللغة العربية – كلية الآداب
جامعة بيشة

تاريخ قبول البحث: ١٤٤٢ / ٦ / ١٦ هـ

ملخص الدراسة:

ينهض البحث برصد تجليات التناص في رسائل أبي بكر الخوارزمي، ودراسة أبرز أشكال التفاعلات النصية، وأليات تداخل الأجناس الأدبية في رسائله، وتحليل أثرها في صناعة الكتابة، وإثراء الإبداع؛ ولتحقيق هذه الغاية تناول البحث في إطاره النظري مفهوم التناص لدى نقاد العرب القدامى، وأهم مصطلحاته النقدية، وأثرها في تحديد الكتابة، وتطوير أساليبها النشرية، والتي تُعدّ نواة للدراسات الحديثة التي توسيّع في دراسة التفاعلات النصية للعمل الأدبي، وأصبحت مقوّماً أساسياً من مقوماته، كما تناول البحث أشكال التناص في رسائل الخوارزمي وأثرها في إنتاجية النص الرسائلىي، وتوليد المعانى، وبحث علاقات تداخل هذه الأجناس ومستوياتها الفنية، والوقوف على آليات توظيفها في خطاب الرسالة، والكشف عن كيفية إعادة بناء النصوص المستحدثة في فضائلها الأدبي، وأثرها في جمال الصياغة، وإثراء المعنى، وتنوع الأسلوب لدى علم من أعلام كتاب الرسائل ذي الثقافة الأدبية والفكيرية الواسعة.

الكلمات المفتاحية: الرسائل الأدبية، الخوارزمي، التناص الأدبي، التناص الديني، الأمثال، آليات التناص.

THE MANIFESTATIONS OF INTERTEXTUALITY IN ABI BAKR ALKHAWARIZMI'S LETTERS FORMS AND MECHANISMS

Dr. Abdulkhaleq Abdulrhman Alqarni

Department: Arabik language - Faculty :Arts

University of Bisha

Abstract:

This research paper attempts to observe the manifestations of the most prominent types of textual interactions; the overlap mechanisms of literary genera and analyzes its impacts on the writing industry and creative enrichment. The research discussed the theoretical framework, the views of the ancient Arab critics of the intertextuality concept. Its most important critical terms, its impact on writing renovation, and developing its prose styles, which is considered the core of modern studies that studied in detail the textual interactions of literary work and became one of its essential components. The research also dealt with the different intertextual forms in Abi Bakr Alkhawarizmi's letters and its impacts on the productivity of letter text, generation of meaning, the relationship of genera overlap, and the mechanisms of using it in the letter text. The research also uncovered how innovative texts are rebuilt in their literary space, and their impact on the aesthetics of wording, enrichment of meaning, and style variation of one of the most prominent literary figures who have great literary and intellectual knowledge.

key words: literary letters, Alkhawarizmi, literary intertextuality, religious intertextuality, proverbs, intertextuality mechanisms.

المُقدَّمة

تتعدد نظريات الأدب الحديث ومناهجه، وتتنوع مدارسه النقدية ومصطلحاته، نظراً إلى الجهود العلمية التي نبع فيها كثيرون من الأدباء والتقاد من جهة، وإلى الروايد العلمية والثقافية، والتواصل المحمود مع المدارس الغربية من جهة أخرى، وقليل منها ما يعني برصد ظواهر نقدنا القديم الفنية، وتتبع مصطلحاته النقدية، ونظاراته الفاحصة، وآرائه الدقيقة التي تعدّ أصولاً لكثير من الاتجاهات النقدية الحديثة لاسيما مع وفرة النصوص الإبداعية في الأدب العربي التي تقتضي جهوداً جادةً، ودراسات متواصلة؛ لسبر أغوارها، وقراءة إبداعها قراءة حديثة، ورصد ما كان للقدماء من آراء وملحوظ سبقو إليها بمصطلحات نقدية متنوعة.

لقد ظهرت في الساحة الأدبية مقاربات نقدية جديدة تتفاعل مع النص الأدبي، وتجعله منطلقاً أساسياً لدراسة أعمقه ودواخله، وأشكال تناصه مع غيره من النصوص، حتى أصبحت هذه النظريات في النصف الثاني من القرن العشرين ذات طابع مختلف عما ظهرت عليه في العصور قبله بعد أن كانت تهتم الدراسات بالمرسل أكثر من الاهتمام بالنص نفسه، ثم جاءت مدرسة على خلاف الأولى حيث جعلت الاهتمام بالنص دون صاحبه إلى أن جاءت تلك المدرسة التي تعدّ حركة نقدية بدئعة تجعل النص سلسلةً من العلاقات مع نصوص أخرى سابقة أو معاصرة له، وهذه النظرية هي التي أطلق عليها (نظرية التناص).

وإنَّ رسائل أبي بكر الخوارزمي (ت ٣٨٣ هـ) ترعرع بالتناصات المتنوعة، والأشكال والآليات المختلفة سابقة أو متزامنة له على وجه الاختلاف والاختلاف، وتمدّها ثقافةً أبي بكر الخوارزمي الموسوعية، وطاقته الإبداعية بجماليات أسلوبية من خلال تداخل التصوّص الغائبة مع رسائله، وتجعلها ميدانًا لتعانق الأجناس الأدبية، والدينية، والفكريّة، والتفاعلات التصيّة، والسيّاقات الأسلوبية البدعة التي تثري رسائله بالإيحاءات، وتولد لها المعاني والأفكار المتتجددة.

ولقد قللَت الدراسات التي تناولت أدب أبي بكر الخوارزمي بعامة مع مكانته الأدبية البارزة في الأدب العربي القديم شعراً ونثراً، فلم أجده سوى بعض الدراسات التي اتجهت إلى مكانته الشعرية، وتحقيق ديوانه الشعري، كدراسة وتحقيق حامد صدقى، ولكنها لم تتناول نثره ورسائله الأدبية، ولم أجده من الدراسات المتعلقة بالجانب النثري إلا القليل، كدراسة مأمون الجنان بعنوان، أبو بكر الخوارزمي بين شعره ونثره، من طباعة دار الكتب العلمية في بيروت، وهي ترکز في جانبها النثري على أشكال النثر في القرن الرابع، وأغراض الخوارزمي النثرية، ودراسة للباحثة صبيحة قاسي بعنون: الاستشهاد بالشعر في رسائل أبي بكر الخوارزمي، ولم أتمكن من الوصول إلى هذه الدراسة، وهو كما يظهر من عنوانه وملخصه يهتم بالشاهد الشعري ووظائفه، والتحولات والقيم الجديدة في رسائله، كما ووّقفت على عدد من الرسائل العلمية لنيل درجة الماجستير، تهم بالجانب التاريخي، ودراسة خصائص أدبه الفنية العامة الشعرية والتثريحية، ومنها: - أبو بكر الخوارزمي: حياته وأدبه، للباحث عائض بن سعد الحارثي، وإشراف الدكتور محمد نبيه حجاب، جامعة أم القرى عام ١٣٩٨هـ.

- أبو بكر الخوارزمي: حياته وأدبه، للباحث محمود صالح الضمور، وإشراف الدكتور محمود غناوي الزهيري، جامعة بغداد، عام ١٩٧٩ م.
- أبو بكر الخوارزمي وأثاره الأدبية: دراسة تحليلية نقدية، للباحث فاروق الطيب بشير، إشراف الدكتور طلال أحمد العوض، جامعة أم درمان الإسلامية، عام ٢٠٠٦ م.

وما سبق يلحظ بأن الدراسات لم تتناول دراسة التفاعلات النصية، والأشكال والآليات الأسلوبية، وتدخل الأجناس الأدبية في رسائل الخوارزمي، وهذا ما يعزز البحث على تحليلتها من خلال تقسيم البحث إلى ثلاثة مباحث، يتناول المبحث الأول الإطار النظري للدراسة من الكشف عن مفهوم التناص قدیماً وحديثاً، ولحة موجزة عن أبي بكر الخوارزمي ومكانته الأدبية، ومن ثم يتناول المبحث الثاني تحليلات التناص الأدبي في رسائل الخوارزمي، ويندرج تحت هذا المبحث التناص الشعري، والتناص مع الأمثال العربية، والتناص مع الشخصيات الأدبية، والنصوص البليغة، والعبارات الجاهزة المتناصحة مع نصوصه، والتناص الديني وأنواعه، كالتناص مع الآيات القرآنية، والأحاديث البوية، والمصطلحات الدينية التي تتكرر في رسائله، والتناص الفكري وأشكاله المختلفة التي امترزت مع ثقافة أبي بكر الخوارزمي، فولدت عدداً من المعاني والأفكار الجديدة في شتى العلوم والمعارف، كما سيتناول المبحث الثالث آليات وأشكال توظيف التناص في رسائله، ويندرج تحته أنواع الاقتباسات، والتضمين، والإحالات والتلميح، وسيختتم البحث بخاتمة تتضمن أهم النتائج والتوصيات، ثم قائمة مصادر البحث ومراجعه.

المبحث الأول: الإطار النظري المفاهيم والمنطلقات

١) مفهوم التناص قدماً وحديثاً

إنَّ (التناص) أو التداخل النَّصي الذي يمثل اشتغالاً على نصوص أخرى لا يقلل من أهمية النَّص الذي ينهض جديداً، ولا يؤثُّر على قيمته الإبداعية، وجماله الأسلوبي "بل على العكس يُؤكِّد سماته المتميزة بوصفه نصاً قائماً بذاته تحاوز غيره، أو تخطّاه" (١).

ومصطلح (التناصية) لقي عدداً من الاختلافات المنهجية، وكثرة التعاريف منذ لحظة انطلاقه مع رؤية كريستيفا (Kristeva) لكترة الأقلام التي تناولته في النقد الغربي والعربي على السواء، فأشارت فيه التعدد غير المحدود؛ وإن كان من الممكن أن يقرأ هذا الاختلاف والتعدد في السياق الإيجابي، إذ يوضع في جانبٍ من الشراء المعرفي لدراسة النصوص، وتعدد قراءاتها تبعاً لاختلاف الأشكال والآليات، وتعدد المناهج والنظريات، فهناك التناص الديني والأسطوري، والتناص الأدبي، والفكري، والأسلوبي ونحوها، والنصّ مهما كان ليس وليد ذاته، وإنما هو يلتّح مع عدد من الرؤى والنظارات، و يأتي بمدلولات جديدة، وسياقات بدّيعة، ولعلَّ مفهوم التناص وتعدد أشكاله وآلياته تتضح من خلال الإشارات الموجزة لمسيرة هذا المصطلح النقدية.

لقد ظهر مصطلح التناص في الكتابات النقدية الغربية لدى طائفة من أبرز النقاد أمثال باختين Bachtine وجيرار جنите G.Genette ورولان بارث

(١) نجم مفید، التناص ومفهوم التحويل من شعر محمد عمران، موقف الأدب، العدد ٣١٩، ١٩٩٧م، ص ٤٧.

وجوليا كريستيفا Kristeva و تعد كريستيفا الفرنسية ذات الأصول البلغارية رائدة هذا المصطلح، والتناصية لديها هي إحدى مميزات النص الأساسية، والتي تحيل على نصوص أخرى سابقة عنها، أو معاصرة لها، وظهرت التناصية عندها مع التحليلات التحويلية في النص الروائي^(١).

ويكون كل نص لديها كمزاييك (فسيفييساء) من الاستشهادات، كل نص هو امتصاص وتحويل نص آخر، ويقرأ الكلام الشعري على الأقل ككلام مضاعف^(٢). وتحدد النص كجهاز يعيد توزيع النص بالربط بين كلام تواصلي يهدف إلى الإخبار المباشر، وبين أنماط عديدة من الملفوظات السابقة عليه، أو المتزامنة معه، فالنص إذن إنتاجية، وإعادة توزيع، وهو ترحال للنصوص وتدخل نصيّ، وتتقاطع في فضاء نص معين ملفوظات عديدة مقطعة من نصوص أخرى^(٣). وبعد شيوع التناصية لدى كريستيفا تسارع الكتاب إلى "تبني هذا المصطلح منهم: تودوروف، وريفاتير، وجيار جينيت، ومشيل أريفي... وعندما وجدت كريستيفا شيوع مصطلح التناص، واستخدامه بالمعنى المبتذل، أي في نقد مصادر نص ما، فضلت عليه مصطلحًا آخر هو المناقلة، أو التحويل Transposition^(٤)".

(١) ينظر: سعيد علوش، معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، ط١، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٥م، ص٢١٥.

(٢) ينظر: محمد خير البقاعي، آفاق التناصية، المفهوم والمنظور، ط١، جداول، الكويت، ٢٠١٣م، ص١٢٠.

(٣) ينظر: جوليا كريستيفا، علم النص، ترجمة: فريد الزاهي، ط٢، دار طوبقال، ١٩٩٧م، ص٢١.

(٤) محمد عزام، النص الغائب تجليات التناص في الشعر العربي، من مشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠١م، ص٨٦.

وعلى هذا فإن رائدة هذا المصطلح ترى أن التناصية تحويل التعبيرات السابقة أو المتزامنة إلى أساليب جديدة، وأن كلّ نصٍ يتشكل من نصوصٍ عديدة حيث يغدو النص (التناص) خلاصةً لعدة نصوصٍ، لم يبق منها سوى مادتها بصياغة جديدة، فهو علاقة (تفاعل) بين نصوصٍ سابقة، ونصٍ حاضر، أو هو تفاعل نصوصٍ مع نصٍ، حدث بكيفيات مختلفة لتمنحه روحاً جديدةً، وتميزاً فريداً.

وإن كان هذا المصطلح قد ظهر لدى أعمال النقد الغربي، فلا ينفي وجود مصطلحات عديدة في النقد العربي القديم تتوافق مع هذا المفهوم، إذ هو مصطلحٌ جديدٌ لظاهرةٍ أدبيةٍ ونقديةٍ قديمةٍ فـ"ظاهرة تداخل النصوص هي سمة جوهرية في الثقافة العربية حيث تتشكل العوالم الثقافية في ذاكرة الإنسان العربي مترسبةً ومتداخلةً في تشابكٍ عجيبٍ ومذهلٍ"^(١)، ومن يتبع الكتب النقدية القديمة في تراثنا العربي يجد لقضية (التناص) وجوداً بصورٍ واضحةٍ، وأصولاً بسمياتٍ مختلفةٍ، وبأشكالٍ تقترب بمسافةٍ كبيرةٍ من المصطلح الحديث.

فقد فطنت الشّعرية العربية القديمة لعلاقة النص بغيره من النصوص منذ الجاهلية، فالمقدمة الطللية مثلاً تعكس شكلاً لسلطة النص، وقراءةً أوليةً لعلاقة النصوص ببعضها، وللتداخل التناصي بينها، فـ"المقدمة الطللية تقتضي ذات التقليد الشعري من الوقوف والبكاء على الأطلال، وذكر الدّمن، فهذا إنما

(١) عبدالله الغذامي، ثقافة الأسئلة (مقالات في النقد والنظريات) ط٢، النادي الأدبي الثقافي، جدة، ١٩٩٢، ص ١١٩.

يفتح أفقاً واسعاً لدخول القصائد في فضاء نصي متشابك، ووجود تربة خصبة للتفاعل النصي^(١).

كما أنَّ الموازنة التي أقامها أبو القاسم الآمدي (ت ٣٧٠ هـ) بين أبي تمام (ت ٢٣١ هـ) والبحتري (ت ٢٨٤ هـ) تعكس شكلاً من أشكال (التناسق) بمفهومه الجديد، وكذلك المفاضلة بين المتنبي (ت ٣٥٤ هـ) وخصومه عند القاضي الجرجاني (ت ٣٩٢ هـ) في كتابه الوساطة تعد جانباً من جوانبه، وإنَّ ما تردد في كتب النقد القديم من مفاهيم متعددة لدى النقاد تؤكد مفهوم التفاعل النصي، كمصطلاح السرقات الشعرية، والمعارضات الأدبية التي تعددت مدلولاتها عند كثيرٍ من النقاد، كالأخذ والاجتلاب والإغارة لدى ابن سلام الجمحي (ت ٢٣٢ هـ)^(٢)، والأخذ والتنازع عند الجاحظ (ت ٣٥٥ هـ)^(٣) والأخذ والاتباع عند ابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ)^(٤) ونحوها، ولكن لفظ السرقة شاع لديهم بشكل واسع، كسرقات أبي تمام للقطريلي، وسرقات البحتري من أبي تمام لبشر بن يحيى النصيبي، والإبانة عن سرقات المتنبي للعميدى (ت ٤٣٣ هـ) وسرقات الشعراء وما اتفقوا عليه لابن السكيت (٢٤٠ هـ) وغيرهم.

(١) ينظر: محمد بنيس، الشعر المعاصر، ط ١، دار توبقال، المغرب، ١٩٩٠ م، ص ١٨

(٢) ينظر: ابن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، تحقيق: محمود محمد شاكر، دار المدى، جدة، د.ت، ١٤٨١ و ٢٣٣/٢

(٣) ينظر: أبو عثمان الجاحظ، الحيوان، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٦ م، ٣١١/٣، وينظر: البيان والتبيين، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، ط ٧، مكتبة الماخنji، القاهرة، ١٩٨٣ م، ٣٧/٣

(٤) ينظر: ابن قتيبة، الشعر والشعراء، تحقيق: أجمد محمد شاكر، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٦ م، ١١١/١ و ٢٠٨/١

وإنّ هذه المصطلحات المتداولة في كتب التراث تُظهر بشكلٍ جليٍ مدى تأصل مصطلح (التناص) في التراث العربي، يقول ابن رشيق (ت ٤٥٦هـ) في العمدة: "وهذا باب متّسع جداً لا يقدر أحدٌ من الشّعراء أن يدّعى السّلامة منه، وفيه أشياء غامضة، إلا عن البصير الحاذق بالصناعة... وقد أتى محمد بن الحسن الحاتمي (ت ٣٨٨هـ) في حلية المحاضرة بألقاب محدثة تدبرتها ليس لها محصول إذا حفقت، كالاصطراق، والاجتلاح، والاحتلال، والاهتمام، والإغارة، والمرافدة، والاستلحاق، وكلها قريب، وقد استعمل بعضها في مكان بعض"^(١).

ولا تُعد السّرقة من مساوى الشّعراء؛ لشيوعه وذيوعه بينهم من جهة؛ ولأنه يضيف للنص الجديد جمالاً وإبداعاً من جهة أخرى، يقول صاحب الموازنة: "إنْ من أدركه من أهل العلم بالشّعر لم يكونوا يرون سرقات المعاني من كبير مساوى الشّعراء، وخاصة المتأخرين، إذْ كان هذا باباً ما تعرى منه متقدمٌ ولا متأخراً"^(٢)، وإن كان شيوع هذا المفهوم لدى النقاد قديماً قد ظلم إلى حد كبير مسيرة مصطلح التناص، وتفاعل النصوص الإيجابي الذي يعدّ تجديداً للكتابة، وإثراء للمعنى.

ويؤكّد هذا المعنى صاحب الموسّح حيث يقول: إنَّ الشّاعرَ لا يُعذر في سرقته حتى يزيد في إضاءة المعنى، أو يأتي بأجزل من الكلام الأول، أو ينسخ له بذلك معنى يفضح به من تقدّمه ولا يفتش، وينظر إلى ما قصده نظر

(١) ابن رشيق، العمدة في محسن الشعر وآدابه ونقدّه، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، ط٥، دار الحيل، بيروت، ١٩٨١م، ٢٨٠/٢.

(٢) الأدمي، الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري، تحقيق: أحمد صقر، ط١، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦١م، ٣٢٦/١.

مستغن عنـه لا فقير له^(١)، فهو يرى السرقة إعادـة إنتاج للمـعنى، وتحـويل السـيـاقـات الأـسلـوبـيـة والمـوضـوعـيـة إـلـى سـيـاقـات جـديـدة. كما أـنـ نـظـرة أـبـي عـبـدـالـلـهـ المـرـبـيـانـيـ (تـ٤٣٨ـهـ) الـمـبـكـرـةـ تـوـمـيـ إـلـى وـظـيـفـةـ التـنـاصـ وـتـحـليـاتـ إـذـ النـصـ الجـديـدـ هوـ مـجـمـوعـةـ أـصـوـاتـ مـنـ نـصـوصـ سـابـقـةـ، وـهـيـ إـشـارـةـ بـأـنـ لـفـظـ السـرـقـةـ لـمـ يـعـدـ المـصـطـلـحـ الجـديـرـ بـالـتـعـبـيرـ عـنـ نـظـرـيـةـ تـعـانـقـ النـصـوصـ، وـتـدـاـخـلـ الـأـجـنـاسـ الـتـيـ وـقـفـواـ عـلـيـهـاـ عـنـدـ قـرـاءـتـهـمـ الـنـقـدـيـةـ، وـلـهـذاـ نـجـدـهـمـ يـصـنـفـونـ السـرـقـاتـ، وـيـضـعـونـ لـهـاـ مـصـطـلـحـاتـ كـثـيـرـةـ مـتـدـرـجـةـ، مـاـ يـشـيـ بـقـصـورـ مـصـطـلـحـ السـرـقـةـ بـمـفـهـومـهـ السـلـبـيـ عـنـ بـلـوغـ مـرـادـهـمـ؛ لـذـاـ تـتـابـعـتـ الـأـبـحـاثـ، وـتـطـوـرـ النـظـرـاتـ عـبـرـ مـسـيـرـةـ الـنـقـدـ الـأـدـبـيـ باـحـثـةـ عـنـ مـصـطـلـحـاتـ الـمـنـاسـبـةـ لـلـقـضـاـيـاـ الـأـدـبـيـةـ، وـالـدـرـاسـاتـ الـنـقـدـيـةـ.

وـهـذاـ ماـ يـفـسـرـ ظـهـورـ عـدـدـ مـصـطـلـحـاتـ الـتـيـ تـتـقـارـبـ وـتـخـتـلـفـ تـحـتـ مـسـمـيـاتـ نـقـدـيـةـ مـتـمـاثـلـةـ فـيـ الـنـقـدـ الـقـدـيمـ، كـالـأـنـتـحـالـ وـالـإـغـارـةـ، وـالـمـوـارـدـ وـالـمـرـاـفـدـ، وـالـجـتـلـاحـ وـالـسـتـلـاحـ، وـالـاـصـطـرـافـ وـالـاهـتـمـامـ، وـيـضـيـفـ الـحـاتـمـ إـلـىـ جـانـبـ هـذـهـ مـصـطـلـحـاتـ مـصـطـلـحـ الـاشـتـراكـ فـيـ الـلـفـظـ"ـ وـقـدـ اـعـتـبـرـ قـومـ هـذـاـ سـرـقـاـ، وـلـيـسـ بـسـرـقـ، وـإـنـماـ هـيـ أـفـاظـ مـشـتـرـكـةـ مـحـصـورـةـ يـضـطـرـ إـلـىـ الـمـوـارـدـ فـيـهـاـ...ـ فـأـمـاـ الـحـكـمـ فـيـ الـاحـتـذـاءـ وـالـاتـبـاعـ، فـإـنـ الـحـتـذـيـ إـذـ تـنـاـوـلـ الـمـعـنـىـ فـكـشـفـ قـنـاعـهـ، وـأـصـفـيـ شـرـبـهـ، وـطـوـيـ سـرـبـهـ وـأـرـهـفـ لـفـظـهـ، وـأـحـسـنـ الـعـبـارـةـ عـنـهـ، وـاـخـتـارـ الـوزـنـ الـرـشـيقـ لـهـ، حـتـىـ يـكـوـنـ بـالـأـسـمـاءـ أـشـدـ عـلـقـاـ، وـفـيـ الـنـفـوـسـ أـلـطـفـ مـسـلـكـاـ، كـانـ أـحـقـ بـهـ،

(١) محمد بن عمران المرزباني، الموسّح في مأخذ العلماء على الشّعرا، أخرجه: محي الدين عبد الحميد، ط٢، مطبعة السلفية، ١٩٣٧م، ص٣٨٨.

ولا سيما إذا أخفى مسراه وأسر مجراه وذكر الاتباع والاقتفاء والالتقاط والتلفيق، وهي ترقيع الألفاظ وتلفيقها^(١).

وعلى الرغم من دراسة الموازنات والسرقات والجدل الطويل الذي دار بين النقاد القدامى حول هذه المصطلحات، ودراسة أهم ظواهرها النقدية التي تتفاوت فيها الصلة بين النص الجديد والنص القديم، إلا أن هذا المجهد يدل على انشغال الثقافة العربية القديمة بعلاقة النصوص بعضها البعض، وإدراك النقاد القدامى "للغة والأسلوب من جهة، وبنية الخطاب من جهة أخرى، وهكذا أنزلوا الأولى منزلة السرقة، والثانية منزلة الإجبار الذي هو شرطٌ أسبق في بناء الخطاب"^(٢)، وبذلك قد أدرك النقاد العرب القدماء مضمون (التناص). وإن تردد هذه المصطلحات في التراث العربي لا يعد أمراً غريباً؛ لأنَّ التناص بمعناه المختلف أمرٌ لا بدّ منه في العمل الأدبي، و"ذلك لأنَّ العمل الأدبي يدخل في شجرة نسب عريقة ومتدة تماماً مثل الكائن البشري، فهو لا يأتي من فراغ كما أنه لا يفضي إلى فراغ، إنَّه نتاج أدبي لغوی لكل ما سبقه من موروث أدبي، وهو بذرة خصبة تؤول إلى نصوص تنتج عنه"^(٣).

وإنَّ دراسة التناص في الأدب الحديث قد انصبت أول الأمر في حقول الأدب المقارن، ثمَّ دخل الباحثون العرب في إشكالية المصطلح نتيجة لاختلاف الترجمات والمدارس النقدية، فمحمد بنيس يطلق عليه مصطلح (النص الغائب)

(١) محمد بن الحسن الحاتي، حلية المحاضرة في صناعة الشعر، تحقيق: جعفر الكناني، دار الرشيد، بغداد، ١٩٧٩ م، ٢ / ٩٢.

(٢) محمد بنيس، الشعر المعاصر، مرجع سابق، ص ١٨٣.

(٣) عبدالله الغذامي، ثقافة الأسئلة، مرجع سابق، ص ١١١.

والتدخل النصي، وهجرة النص، ومحمد مفتاح يعرفه بـ(التعليق النصي) فقال "التناص هو تعاقب - الدخول في علاقة- نصوص مع نص حدث بكيفيات مختلفة" ^(١).

وقد آثر سعيد يقطرين استعمال مصطلح التفاعل النصي، ويرى أنه أعمّ من التناص، وأفضل من "التعاليات النصية، التي تقابل Transtextualite عند جنبيت؛ لدلائلها الإيحائية البعيدة، فيما أن النص ينبع ضمن بنية نصية سابقة، فهو يتعاقب بها، ويتفاعل معها تحوياً أو تضميناً أو خرقاً، وبمختلف الأشكال التي تتم بها هذه التفاعلات" ^(٢).

وقد عرفه أحمد الزعبي في دراسة تناولت التناص نظرياً وتطبيقياً بتعريف شامل للمفهوم والأشكال، وبمصطلحات التراث العربي بقوله: هو "أن يتضمن نص أدبي ما نصوصاً أو أفكاراً أخرى سابقة عليه عن طريق الاقتباس أو التضمين أو الإشارة أو ما شابه ذلك، من المفروء الثقافي لدى الأديب بحيث تندمج هذه النصوص أو الأفكار مع النص الأصلي، وتدعم فيه ليتشكل نصٌ جديدٌ واحدٌ متكامل" ^(٣).

بل نجد الزعبي يؤكد ما نعتقد، وما سبق الإشارة إليه بأنّ مصطلح التناص وغيره كثير من المدارس الأدبية الحديثة لها أصول في النقد العربي القديم بسميات

(١) محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري، استراتيجية التناص، ط٣، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ١٩٩٢م، ص١٢١.

(٢) سعيد يقطرين، افتتاح النص الروائي، ط٢، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ١٩٨٩م، ص٩٨.

(٣) أحمد الزعبي، التناص نظرياً وتطبيقياً، ط٢، مؤسسة عمون للنشر، عُمان، ٢٠٠٠م، ص١٢.

مختلفة تأتي في نهاية الأمر إلى مدلول واحد، فيقول: "إنَّ مَوْضِعَ التَّنَاصِ لَيْسَ جَدِيدًا تَمَامًا فِي الْدِرَاسَاتِ النَّقْدِيَّةِ الْمُعَاصِرَةِ، وَإِنَّ جَذْوَرَهُ تَعُودُ فِي الْدِرَاسَاتِ الْشَّرْقِيَّةِ وَالْغَرْبِيَّةِ إِلَى تَسْمِيَاتِ وَمَصْطَلِحَاتِ أُخْرَى، كَالْاقْتِبَاسِ وَالتَّضْمِينِ وَالْاِسْتَشَاهَادِ وَالْقَرِينَةِ وَالْتَّشْبِيهِ وَالْمَحَازِّ وَالْمَعْنَى وَمَا شَابَهُ ذَلِكَ فِي النَّقْدِ الْعَرَبِيِّ الْقَدِيمِ، فَهِيَ مَصْطَلِحَاتٌ أَوْ مَسَائِلٌ تَدْخُلُ ضَمِّنَ مَفْهُومِ التَّنَاصِ فِي صُورَتِهِ الْحَدِيثَةِ، لَكِنَّهُ يُؤَشِّرُ إِلَى مَسْأَلَةٍ هَامَةٍ تَمَثَّلُ فِي التَّفَاوْتِ الْحَاصِلِ فِي رِسْمِ حَدُودِ الْمَصْطَلِحِ وَتَحْدِيدِ مَوْضِعَاتِهِ، وَلَعِلَّ هَذِهِ الْإِشْكَالِيَّةُ الْمُنْهَجِيَّةُ تَتَجَاهُزُ مَفْهُومَ التَّنَاصِ إِلَى غَيْرِهِ مِنَ النَّظَرِيَّاتِ النَّقْدِيَّةِ الْحَدِيثَةِ وَمَا بَعْدَ الْحَدِيثَةِ نَظَرًا لِتَعْدِدِ الْإِبْحَاهَاتِ وَالْتِيَارَاتِ النَّقْدِيَّةِ الَّتِي تَنْشَأُ دَاخِلَ كُلِّ نَظَرِيَّةٍ مِنْ تَلِكَ النَّظَرِيَّاتِ" (١).

وَعَلَى هَذَا النَّحْوِ، فَقَدْ أَضَافَ النَّقَادُ الْعَرَبُ الْمُعَاصِرُونَ الْكَثِيرُ مِنَ الْإِضَافَاتِ حَوْلَ مَصْطَلِحِ (الْتَّنَاصِ) وَتَنَاوِلُوهُ بِالدِّرَاسَةِ وَالتَّعْرِيبِ، وَهِيَ دِرَاسَاتٌ ذَاتَ قِيمَةٍ لَا تَتَسْعُ هَذِهِ الْدِرَاسَةِ، وَهِيَ فِي مَقَامِ التَّمَهِيدِ لِبَسْطِ هَذِهِ الْآرَاءِ وَتَتَبَعُهَا كُلُّهَا تَدُورُ حَوْلَ جُوهرِ التَّنَاصِ الَّذِي يَصْبُرُ فِي الْتَّهَايَا فِي كُونِهِ ثَأْرُ نَصٍّ بِنَصٍّ سَابِقٍ، أَوْ مَعَاصِرُ بِأَشْكَالٍ وَآلَيَّاتٍ مُخْتَلِفَةٍ، وَهِيَ مَا سَتَحَاوَلَ الْدِرَاسَةُ تَنَاوِلُهُ مِنْ خَلَالِ رَسَائِلِ أَبِي بَكْرِ الْخَوَارِزْمِيِّ.

٢) أبو بكر الخوارزمي ومكانته الأدبية

هُوَ أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدٍ بْنِ العَبَّاسِ الْخَوَارِزْمِيِّ الْمُعْرُوفُ بِأَبِي بَكْرِ الْخَوَارِزْمِيِّ، الشَّاعِرُ الْمُشْهُورُ يُقَالُ لَهُ: الطَّبَرِخِيٌّ؛ لَأَنَّ أَمَّهُ كَانَتْ مِنْ خَوَارِزْمٍ، وَأَبُوهُ مِنْ

(١) المرجع نفسه، ص ١٩.

طبرستان، فنسب إلى البلدين جميعاً، وكان أوحد عصره في حفظ اللغة والشعر، وهو ابن أخت أبي جعفر بن جرير الطبرى^(١).

ولد أبو بكر الخوارزمي سنة ٣٢٣هـ، وخرج من وطنه في حداثته، وطوف البلاد، ولقي سيف الدولة بن حمدان وخدمه، وورد بخارى، وصاحب الوزير أبا عليّ البلعمي فلم يحمسه وهجاه، وبنيسابور اتصل بالأمير أحمد الميكالي ومدحه، وقصد سجستان، ومدح إليها طاھر بن محمد، ثم هجاه فحبسه، ثم خلص وسار إلى غرشستان، فاتفق له مع إليها ما اتفق له مع والي سجستان، وفارقه حاجياً له، وعاد إلى نيسابور فقصد حضرة الصاحب، فربحت بخارته^(٢).

وتحول مكانة أبي بكر الخوارزمي الأدبية قال عنه التّعالى إلّه: "بُحُرُّ الْأَدَبِ، وَعَلِمَ النَّشَرَ وَالنَّظَمَ، وَعَالَمَ الْفَضْلَ وَالظَّرْفَ، وَكَانَ يَجْمِعُ بَيْنَ الْفَصَاحَةِ الْعَجِيْبَةِ وَالْبَلَاغَةِ الْمَفِيْدَةِ، وَيَحْضُرُ بِأَخْبَارِ الْعَرَبِ وَأَيَامِهَا وَدَوَّاْنِهَا، وَيَدْرِسُ كُتُبَ الْلُّغَةِ وَالنَّحْوِ وَالشِّعْرِ، وَيَتَكَلَّمُ بِكُلِّ نَادِرَةٍ، وَيَأْتِي بِكُلِّ فَقْرَةٍ وَدَرَةٍ، وَيَلْعُغُ فِي مَحَاسِنِ الْأَدَبِ كُلَّ مَبْلَغٍ، وَيَغْلِبُ عَلَى كُلِّ مُحَسِّنٍ بِحُسْنِ مَشَاهِدَتِهِ، وَمَلَاحَةِ عِبَارَتِهِ، وَبِرَاءَةِ جَدِّهِ، وَحِلَاوَةِ هَزْلِهِ، وَدِيَوَانِ رَسَائِلِهِ مُحَمَّدِ سَائِرِ، وَكَذَلِكَ دِيَوَانَ شِعْرِهِ"^(٣).

(١) ينظر: ابن خلkan، وفيات الأعيان، تحقيق، إحسان عباس، ط١، دار صادر، بيروت، ١٩٧١م، ٤٠٠/٤.

(٢) ينظر: جلال الدين السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغوين والنحاة، تحقيق: أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، لبنان، ١٢٥/١.

(٣) الشّعالى، يتيمة الدهر في محسن اهل العصر، تحقيق: محمد مفید قمیحة، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٢م، ٢٢٣/٤.

وكلام الشّعالي شامل كافٍ لبيان براعته في فني الأدب شعراً ونثراً، كما أنه امتدح ديوان رسائله الذي خلّد لدى الناس؛ لتنوع موضوعاته وأغراضه، وجمال صياغته وصناعته، وجمعه بين ملاحة العبارة، ومحاسن الأدب في الجد والهزل، والشعر والثر.

وعن سعة ثقافته، وغزارة علمه وأدبه أورد ابن خلkan خبراً عن الخوارزمي يكشف جانباً من علوّ مكانته، وسمو منزلته بين أدباء عصره، وأنّه كان إماماً في علوم اللغة والأنساب، وأحد مشاهير عصره في الشعر والثر حيث يقول: "يحكى أنّه قصد حضرة ابن عبّاد وهو بأرجان، فلما وصل إلى بابه قال لأحد حجاجه: قل للصاحب على الباب أحد الأدباء، وهو يستأذن في الدخول، فدخل الحاجب وأعلمته، فقال الصّاحب، قل له: قد ألمت نفسي أن لا يدخل عليّ من الأدباء إلا من يحفظ عشرين ألف بيت من شعر العرب، فخرج إليه الحاجب وأعلمته بذلك، فقال له أبو بكر: ارجع إليه وقل له: هذا القدر من شعر الرجال أم من شعر النساء، فدخل الحاجب، فأعاد عليه ما قال، فقال الصّاحب: هذا يريد أن يكون أبو بكر الخوارزمي، فأذن له في الدخول، فدخل عليه فعرفه وانبسط له^(١)، وقد أقام الخوارزمي بالشّام مدةً، وسكن حلب، وتوفي بنيسابور سنة ٣٨٣ هـ^(٢).

(١) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، تحقيق: إحسان عباس، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ٢٠٠٣ م، ٦ / ٢٥٤٣.

(٢) ابن خلkan، وفيات الأعيان، مرجع سابق، ٤ / ٤٠٠.

المبحث الثاني: تجلّيات التّناص في رسائل أبي بكر الخوارزمي: الأشكال
يلحظ النّاظر في رسائل أبي بكر الخوارزمي اعتماده بشكل لافت على التّفاعلات النّصيّة، وتدخل الأجناس الأدبيّة والدينيّة والفكريّة مع نصوصه، حتّى لا تكاد تخلي رسالة من الاتّكاء على عدد من المتناصات المختلفة التي التّحمّت مع النص إبداعيّة كاتبها الذي أخفى مسراه، وأسرّ مجراه، حتّى أضحت نصّاً واحداً، وكانت كما أشار إليه التّقاد من قبل بالأسماع أشدّ علّقاً، وفي النّفوس ألطاف مسلّكاً.

كما أنّ الخوارزمي بثقافته الموسوعيّة نسج رسائله بأنواع الثقافات العلميّة واللغويّة، والفكريّة والطبيّة وغيرها، ووظّف أشكال التّراث بمهارة إبداعيّة، وبآليات تتنوع بين المباشر وغير المباشر، وبين الإحالّة والتّلميح، والاقتباس والتّضمين كما يتضح ذلك في موضعه من هذه الدراسة، ولم يكن هذا التّناغم والتّفاعل النّصي يقلّل من قيمته الإبداعيّة، وإنما أضفى لأسلوبه جمالاً وإبداعاً، وللمعنى تأكيداً ورسوخاً، ويؤكّد نظرية الحوار بين الأجناس الأدبيّة التي تقوم على عدم انغلاق الجنس الأدبي على نفسه.

ولعلّ أبرز هذه الأشكال التي تصدرت رسائله، وتفاعلّت مع نصوصه كانت على التّحو التّالي:

١) التّناص الأدبي

شكّل النّص الأدبي بقوالبه المتنوعة ظاهرة فنيّة، ودلالة معنوية بارزة في رسائل أبي بكر الخوارزمي، حيثُ كان حضور هذه الأجناس الأدبيّة متفاوتاً حسب ما يستدعيه المقام، وما تنسجم معه الأساليب، فتارة يشري الرّسالة

بالشعر العربي الذي تتنوع آليات توظيفه في سياقات مختلفة، حيث نجد في موضع يذكر الشاعر وأبياته التي تتفاعل مع غرضه، وتارة أخرى يستدعي البيت دون إشارة إلى قائله، أو يذكر صدر بيت أو عجزه متداخلًا مع أسلوبه، كما نجد أسماء الشعراء والكتاب تتماهي مع موضوعاته التي يؤكد بها أفكاره، ويشري بها موضوعه، ومن ناحية أخرى يتضمن كلامه أطراً من بلغة كلام العرب، كالأمثال والأقوال البليغة التي تتداخل مع نصوصه بأسلوب فني بديع.

إن تعدد الأصوات الأدبية، وتدخل وتحاور الأجناس المأثورة في رسائل الخوارزمي هو ما يعرف بالنظرية الحوارية التي أسسها باختين Bachtine في النص الروائي، إذ كل خطاب لديه ذو صيغة حوارية: "يمكن أن تجد مكانها بدون أن تكون لها نبراتها في مجموع الأجناس الشعرية بما في ذلك الشعر؛ لكنها داخل الجنس الروائي، وفيه وحده تستطيع أن تتطور، وأن تصبح معقدة وعميقة، وفي نفس الآن تدرك اكتتمالها الأدبي" (١).

وعلى هذا النحو بني الخوارزمي رسائله على أساس من التفاعل مع نصوص التراث الأدبي، فظاهرة" تداخل النصوص هي سمة جوهرية في الثقافة العربية حيث تتشكل العوالم الثقافية في ذاكرة الإنسان العربي ممتزجة ومتداخلة في تشابك عجيب ومذهل" (٢)، لذا كان ارتباط الخوارزمي بالتراث الأدبي ارتباطاً وثيقاً على اختلاف أشكال هذا التناص الأدبي الذي يأتي تارة ظاهراً، لا سيما

(١) ميخائيل باختين، الخطاب الروائي، ترجمة: محمد برادة، ط١، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٨٧م، ص ٥٣.

(٢) عبدالله الغذامي، ثقافة الأسئلة (مقالات في النقد والنظرية) مرجع سابق، ص ١١٩.

في الشعر، بحيث" يعرض فيها المحاور الشواهد من أقوال الغير مثل النقل، والتضمين، والحكاية، والعنعنة، والشرح، والاقتباس والتعليق"^(١)، وقد كثر هذا النوع في رسائله؛ إذا نجده يباشر النص بلغته، وهو ما يسمى أيضاً التناص المباشر، وهو" أن يقتبس النص بلغته التي ورد فيها، مثل الآيات والأحاديث والأشعار والقصص"^(٢)، وقد يأتي غير ظاهر في النص، وسنحاول الكشف عن أبرز تجلياته على النحو التالي:

١-١: التناص الشعري:

يعدُّ الشعر ديوان العرب، وسجلَ حضارتهم، ورمز بيامهم وفصاحتهم، وقد جعله عمر الفاروق رض: "علمَ قومٍ لم يكن لهم علمٌ أَصَحَّ مِنْهُ"^(٣) وهو ما جعل العرب تؤدب أولادها على روايته وحفظه، فيقولون: "رووا أولاً دَكُّم الشِّعْرَ، فَإِنَّهُ يَحْلِّ عَقْدَةَ الْلِّسَانِ، وَيَشْجَعُ قَلْبَ الْجَبَانِ، وَيَطْلُقُ يَدَ الْبَخِيلِ، وَيَحْضُّ عَلَى الْخَلِقِ الْجَمِيلِ"^(٤).

وقد تنبأَ النقاد والكتاب القدامى لأهمية الشعر ومنزلته، وأنه مستودع العلوم والمعارف، وحافظ الآداب والشمائل، فيقول ابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ) مبيناً أهمية الشعر عند العرب، وأنَّ الله تعالى أقامه: "مَقَامُ الْكِتَابِ لِغَيْرِهَا، وَجَعَلَهُ لِعِلْمِهِمَا

(١) طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتحديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط ٣، ٢٠٠٧ م، ص ٤٧.

(٢) عبدالباسط مراشدة، التناص في الشعر العربي الحديث (السياب ودنقل ودرويش أمودجا) ط ١، دار ورد للنشر والتوزيع، عمان، ٢٠٠٦ م، ص ٦١.

(٣) ابن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، مرجع سابق، ٢٤/١.

(٤) ابن رشيق القيرواني، العمدة في محسن الشعر وآدابه، مرجع سابق، ٢٧/١.

مستودعاً، ولآدابها حافظاً، ولأنساقها مقيداً، ولأخبارها ديواناً لا يرث على الدّهر، ولا يبيد على مرِّ الزَّمان، وحرسه بالوزن والقوافي، وحسن النَّظم، وجودة التَّحبير، من التَّدليس والتَّغيير، فمن أراد أن يُحدِّث فيه شيئاً عَسْرَ ذلك عليه، ولم يخف له كما يخفى في الكلام المنشور^(١).

وإنَّ الخوارزمي قد أجاد في توظيف الشعر العربي في رسائله، والإفادة من تضمينه لنصوصه؛ لكونه شاعراً مجيداً يدرك جماليات الشعر وفنونه، ولما يتسم به من ثقافة واسعة، وذاكرة أدبية حافظة، فنجده قد لَوَّن نصوصه التثرية بألوان من الأبيات الشعرية التي تتوافق مع مقاصده وغاياته من جهة، وبنائه الفني، وأسلوبه التثري الذي بلغ فيه شأواً بعيداً من الإجاده والإبداع من جهة أخرى. كما إنَّ أبا بكر الخوارزمي لم يقف عند نصٍّ معينٍ أو شاعر محدَّد حين وظَّف الشعر في رسائله، بل نجده قد أطلق العنوان للأجناس الأدبية أن تتجاور وتتحاور في تناغم بديع تقوده مهارة المبدع، وقدرته الأسلوبية، حتى إنَّه حقق الغاية من تداخل هذه الأجناس معنى ومبني، واستطاع أن يسحر هذه النصوص لخدمة أغراضه وموضوعاته، وجعلها ناطقة بسانه وأسلوبه، ولا تتأتَّى إلا لمن يملك الموهبة الأدبية الكاملة، والمقدرة الأسلوبية البارعة، ولن تستطيع هذه الدراسة الموجزة أن تقف على كلِّ الاستدعاءات الشعرية في رسائله؛ لكثرتها وتنوعها، وتحتاج إلى دراسة مستقلَّة تتناول سياقاتها وأبياتها الأسلوبية، وسأنتخب منها ما يمثل جوهر التناص، وتداخل الأجناس فحسب، ولعلَّ أول

(١) ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، شرحه: السيد أحمد صقر، ط٣، المكتبة العلمية، المدينة المنورة، ١٩٨١.

تفاعل شعريّ نجده في رسائله قوله من رسالة إلى الحاجب أبي إسحاق يواصيه في نكتته: "وأقضى بذلك حق عضتك، وأخرج من عهدة ما يلزمني في هدايتك، وبين ألين مسّ قولي لك، فتبقى في نفسي حاجة من نصيحتك، فرأيت الأول علىّ أوجب، وإلى الصواب أقرب، هذا وأنا أقول:
أخوك الذي إن أجرضتني ملمة من الدهر لم يبرح لبّك واجما
ولا أقول:

وليس أخوك بالذى إن شعّبت عليك أمور ظلّ يلحاك دائما
أصحاب المرقش - أئدك الله - في بيت الواجم، ولم يُصب في بيت اللائم^(١)،
فإن توظيف بيتي المرقش يأتي في سياق النّصح والإرشاد لأبي إسحاق الحاجب،
لذا عمد الخوارزمي إلى هذين البيتين لدعم غرضه، لما للشعر في نفس المتلقى
من مكانة، وما يمثله البيتان من تخلية الأخوة الصادقة وضدّها في نفسه، فكان
هذا الاستدعاء أفضل إقناعاً، وأقوى تأثيراً، وقد نسب البيتين للشاعر في سياق
الرسالة لما له من قيمة بين شعراء العصر الجاهلي، وليس هذا الاعزاء مطّرداً في
كل استشهاداته الشعرية.

وفي الرسالة نفسها يقع التناص الشّعري في سياق آخر دون أن ينسب
البيتين لصاحبهما، وذلك حين يطرح قضيّة تطلب الدعم والاستدلال، فمقابلة
الإحسان بالذكران، والمعروف بالبغى والعدوان من القضايا التي تقتضي تأكيداً
واستدلالاً، لا سيما حين يُستعان على المحسن بما أسداه للمنكر من التّعّم،

(١) أبو بكر الخوارزمي، رسائل أبي بكر الخوارزمي، تصحيح: محمد قطة العدوبي، مطبعة الجواب، ١٢٩٧م، قسطنطينية، ص ٣-٤.

فيقول: " ولا تكتب حسته في جريدة سيئته، ولا تسلّ عليه من لسانك سيفاً
يده صقلته، ولا تُشرع إليه من كلامك رحماً كفه قومه:

لقد جازيت بالإحسان سوءاً إذن وصيغت عزفتك بالسّواد
وسررت أسوق عيّر اللّؤم حتى أنتك الّكفر في دارِ الجهاد^(١)
فيا أيّها الرّجل، وكلكم ذلك الرجل، كم تهتكون حجب العوارف بيد
الّكفران، وكم تصافحون النّعم بالبغى والعدوان"^(٢).

إنَّ هذا التناص أتى ممزوجاً بالغرض، ومناهضاً للموضوع الذي أراد
الخوارزمي ترسیخ دعائمه بذین البيتين، فمجازاة الإحسان بالكفران والمحظوظ
في الرسالة يشابه من يصبح المعروض بالسّواد في البيتين، ومن ينبع كفران النعمة
في دارِ مجاهدتها معنى مستعار من بيت أبي تمام؛ ليصور به حال المتلقى، ويدعم
به سياق الرسالة النّثري تأكيداً للمعنى، وجّالاً وتنوعاً في الأسلوب.

ومن بديع التناص الشّعري لدى الخوارزمي الذي أخذ بعدها مزدوجاً في
الدّلالة والتّضمين ما نجده في استدعايه بيته الحكمة المتناقضين لأبي الطّيب
المتنبي^(٤)؛ ليصل من خلاهما إلى أنه لا يمدح حين يمدح إلا من حبّ
وفاء، ولا يتقلب في الطّباع مع المدوح طلباً للنيل والعطاء، يقول: " ونظرتُ
إلى أبي الطّيب المتنبي، وإلى تناقض حكمته، وتفاوت طرفي فعلته، حيث قال
في سيف الدّولة (٣٥٦هـ):

لا تطلبنَّ كريماً بعد رؤيته إنَّ الّكرام بأسخاهم يداً ختموا

(١) الخطيب التبريزى، شرح ديوان أبي تمام، تحقيق: راجي الأسمى، ط٢، دار الكتاب العربي، بيروت، ٢٠١١م، ١٩٩٤.

(٢) أبو بكر الخوارزمي، الرسائل، مصدر سابق، ص. ٥.

وقال في كافور الإخشيدى:

قواصد كافور توارك غيره ومن قصد البحر استقلَّ السوقيا

فقد باع من الوفاء علَّقاً خطيرًا، واعتراض من الطمع ثُنَّا يسيراً، وحال ضباب الحرص والرجاء بينه وبين العهد والوفاء... فلا جرم أنَّ الناس كما استحسنوا قوله، استقبحوا فعله، وكما أعجبوا بشعره، تعجبوا من غدره^(١).

فقد كان التناص الشعري مع بيته المتنبي مقترباً بالنقد له لتناقض موقفه، وتغير نظرته في المدح مع تغير حاله، وقد كان هذا التصوير في سياق إثبات وفائه في مدح الوزير، وأنَّ وفاءه له لا يحمله على مدح وشكر غيره، كما فعل المتنبي، وأنَّه لا ينطق لسانه بشكررين، ولا يتسع قلبه لحبة اثنين، وإنَّما فتح له مغاليق فكره، ودفع إليه مقاليد نظمه ونشره.

ولما يتبوأه المتنبي من مكانة لدى الخوارزمي، وما لشعره وحكمه من ذيوع وقبول في نفوس النّاس، نرى الخوارزمي يكثر من التناص مع شعره في سياقات مختلفة من رسائله، منها سالة له في التعزية لأحد أصدقائه يقول: "الموت خطب ثُلُّ حتى خف، وكثُر حَتَّى قل، وهان على الباقي، لما رأه بالماضي، وعلى المعزي لما رأه في المعزى، ودخل الجميع تحت قول المتنبي:
يُدفَنُ بعضُنا بعضاً ويعشي أواخرُنا على هام الأولى

(١) المصدر نفسه، ص٦، والبيت في ديوان المتنبي، بشرح أبي البقاء العكيري، تحقيق: إبراهيم السقا وآخران، ط١، دار المعرفة، بيروت د.ت، ٢٢/١.

وشيخي أعرف بالله، وأقرأ لكتاب الله، وأروي لأخبار رسول الله، من أن يتأدب بغير أدب الله، ولا يسلّم لقضاء الله^(١).

فقد استطاع الكاتب أن يطّوّع الشّعر لمقصده في التّعزية، والتّخفيف من ألم صديقه ومصابه بمهارة الاستدعاة المواقف لسياق الغرض، وبجمال تعانق جنسّي الأدب لتجليّة المعنى وتأكيده، وإن كان الخوارزمي قد وافق مع المتنبي في رسالة التّعزية هذه، فإنّ نجده يحمل عليه في رسالة تّعزية أخرى، حيث استخدم عنصر المقارنة بين تعزّيته لأخت الوزير ابن عباد، وبين تّعزية أبي الطّيب المتنبي في أخت سيف الدولة، وأراد من خلال تناصّه مع المتنبي طرح قضيّتين في التّعزية بالنساء، فلا مجال لديه من ذكرهن وذكر ما ترثّن في المجالس، ولا من عظ الوزير وتذكيره وتنبيهه في هذا المقام كما فعل المتنبي، وأنّه لو أراد ذلك لأسعفته قريحته بالخواطر، يقول: "المصيبة التي قرعت صفة الوزير في المتوفاة ركّى الله عملها، وحقّق في المغفرة أملها... فإنّي أغار لجنة الوزير من ذكر النساء أولاً، وأتطير لنعمته من أن تخللها التعازي والمراثي ثانياً، وأنف له من أن أقيمه مقام من يوعظ وينبه ثالثاً، وإن فالقرىحة بحمد الله تعالى متقدّقة، والخواطر مجيبة، والشّعر ليس بعازب، والشّيطان ليس بغائب، والطّريق الذي نجده الوزير لنا في الأدب عامر، ومسلوك لا متروك، وقد كان أبو الطّيّب عزّي سيف الدولة

(ت ٣٥٦هـ) عن أخت له، فقال:

يَعْلَمْنَ حِينَ تُحْيَى حُسْنَ مَبْسِمِهَا وَلَيْسَ يَعْلَمُ إِلَّا اللَّهُ بِالشَّنَبِ

(١) أبو بكر الخوارزمي، الرسائل، مصدر سابق، ص ٤٧١، والبيت في ديوان المتنبي، شرح العكّيري، ١٦٦١.

ولو عرّاني إنسانٌ في أختٍ لي بمثل هذا لألحقته بما، وضررتُ رقبته على قبرها، ولا مجال للهمّ والغمّ بين عزاء الأمير وبهائه^(١)، وقد وافق الخوارزمي في نقده للمنتبى أبو منصور الشعابى (ت ٤٢٩ هـ)، فعدّه من سوء الأدب بالأدب، حيث يسلم على حرم الملوك، ويدرك منها ما يذكره المغزل^(٢).

ونجد التناص الشعري لدى الخوارزمي يتتنوع بتنوع أغراض الرسالة، وموافق الأصدقاء والكتاب، من ذلك قوله في رسالة له إلى حاجب الوزير بن عباد حين انقطعت عنه كتبه: "ولا أنسى تلك الأيام الطويلة القصيرة بصحبته، واللائي المظلمة المقرمة بطلّته، ولا تفكّر في صغر حجم المقام، وتقارب خطوط تلك الأيام، إلا أنسّدت":

لِمْ أَسْتَمِّ عَنْ أَقَهُ لِلْقَاهِ حَتَّى ابْتَدَأْتُ عَنْ أَقَهُ لِوَدَاعِهِ
وَإِذَا كَانَ فِي قَصْدَةِ الشَّعَرَاءِ، وَفِي شَرِيْطَةِ الْوَصَافِينَ وَالْبَلَغَاءِ، أَنَّ الْوَقْتَ الطَّيِّبَ
قَصِيرٌ وَإِنْ لَمْ يَقْصُرْ، كَمَا أَنَّ عَيْرَهُ كَبِيرٌ وَإِنْ لَمْ يَكُبِرْ، فَعَلَى هَذَا الْقِيَاسِ إِنْ أَيَامَنَا
قَصِيرَةٌ مَرْتَينَ، وَقَلِيلَةٌ مِنْ جَهَتِينَ^(٣).

لقد كان التفاعل النصي مع بيت لأبي الفتح محمود بن الحسين المعروف بـ**كُشاجم** (ت ٣٦٠ هـ) في قصر الزيارة، وقد عدّ أبو منصور

(١) أبو بكر الخوارزمي، الرسائل، مصدر سابق، ص ٨٤.

(٢) ينظر: الشعابي، أبو الطيب المنتبى وماته وما عليه، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مكتبة الحسين التجارية، القاهرة، ص ٨٧.

(٣) أبو بكر الخوارزمي، الرسائل، مصدر سابق، ص ٨٤.

الشعالي (ت ٤٢٩ هـ) من أحسن محسنه في خفة الزيارة^(١)، وقد كان موافقاً للمعنى الذي أراده الكاتب حيث أراده استشهاداً على قصر مدة التلاقي بينهما، وجعل المقياس هو كلام الشعراة والبلغاء، بل نجده يردد هذا البيت في سياق الشّوق، وسرعة الوداع في رسائل أخرى، ويصرح باسم الشاعر وكثرة إنشاده بيته الشّعري الذي يوافق مقصدده، كقوله لأبي سعد أحمد بن شبيب: "ما كان أقرب المسافة بين لقاء صاحب الجيش وبين فراقه، وما أكثرت ما أنشدتُ بيت كُشاجم في وداعه وفراقه:

لم أستتمّ عنقه للقائه حتى ابتدأت عنقه لوداعه
 كأنّه كان ذلك الرجل قاتماً معنا، أو كأنّه قال هذا البيت لنا، ولقد كانت الأيامُ بلقاء صاحب الجيش طويلة الوعد، قصيرة الرّفد، فإنّها طلتنى بلقائه سنين طويلة، ثم أسعفتني به ساعات قصار، في بينما أشكو مطلعها، إذ صرّت أشكو بخلها، وبينما أنا استدرك عليها الماضي، إذ أصبحت اطلب إليها الباقي، وبينما أنشد:

أيا ليلة الوصول لا تنفدي ويا ليلة لبعد لا تنفدي^(٢)
 غدوتُ أنشد:

(١) ينظر: أبو منصور الشعالي، أحسن ما سمعت، ضبط حواشيه: خليل عمران المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٠م، ص ٢٤.

(٢) هذا البيت منسوب لابن أبي فنن. ينظر: أبو هلال العسكري، ديوان المعاني، شرح وضبط: أحمد حسن بسج، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٤م، ص ٣٣٣.

هذا الذي قيل له أطيب ما كان فني^(١)

ولعمري إني موسر من الصبر، قوي بنية القلب والصدر^(٢).

إن المتأمل في هذا النص يجد الأصوات المتعددة تتفاعل لتوسيع غرض الكاتب، وتعبر عن مكونه، بل نراه نظرية الاندماج في التناص حقق غايته حين يتخيل الكاتب الشاعر كشاجم حاضرًا لقاءهم، وواصفًا حالمهم، وهذا التناص بلغ غايته في التحاوار بين الجناس الأدبيّة، بحيث "تندمج هذه النصوص أو الأفكار مع النص الأصلي، وتُدعَّم فيه ليتشكل نصٌّ جديدٌ واحدٌ متكامل"^(٣).

كما نجد تداعي التناص يبرز في رسائله في مقام التعازي، فتتعدد الأصوات التثريّة والشعرية لتصور حالة فقدان، وألم المصاب، وتتحدّد وتتكامل لتمثل قوة التأثير في نفس المتكلّمي، ولعل ذلك يبرز جليًا في رسالته لرئيس بحثه بابن أخيته وبنته، فتتحول الرسالة إلى حوار بين النثر والشعر، كقوله: "إِنَّ سُرَّ الْعُورَاتِ مِنَ الْحَسَنَاتِ، وَدُفِنَ الْبَنَاتُ مِنَ الْمُنْكَرَاتِ، وَنَحْنُ فِي زَمَانٍ إِذَا قَدِمَ أَهْدَنَا فِي الْحَرَمَةِ، فَقَدْ اسْتَكْمَلَ النَّعْمَةُ، وَإِذَا زُفَّ كَرِيمَةٌ إِلَى الْقَبْرِ، فَقَدْ بَلَغَ أَمْنِيَتِهِ مِنَ الصَّهْرِ، وَقَالَ الْأَوَّلُ:

(١) لم يعرّ لأحد، وقد ذكره الخوارزمي كذلك في الأمثال المولدة، ولم يعرّه لشاعر. يُنظر: أبو بكر الخوارزمي، الأمثال المولدة، تحقيق: محمد حسين الأعرجي، ط٢، الجمع الثقافي، أبو ظبي، ٢٠٠٣م، ص٣٢٢.

(٢) أبو بكر الخوارزمي، مصدر سابق، ص٧٤.

(٣) أحمد الرعبي، التناص نظريةً وتطبيقيًّا، مرجع سابق، ص١٢٠.

وَلَمْ أَرِ نِعْمَةً سَمَلْتُ كَيْمًا كَنْعَمَةَ عَوْرَةٍ سُرَرْتُ بِقَبْرٍ^(١)

وقال الثاني:

تَحْوِي حَيَاةً وَأَهْوَى مَوْتَهَا شَفَّاقًا وَالْمَوْتُ أَكْرَمُ نَزَالَ عَلَى الْحَرَم^(٢)

وقال الثالث:

وَدَدْتُ بُنَيَّتِي وَدَدْتُ أَنِّي وَضَعَتُ بُنَيَّتِي فِي لَحْدِ قَبْرٍ^(٣)

وقال الرابع:

سَمَّيْتُهَا إِذْ وُلِدْتُ تَمُوتُ وَالْقَبْرُ صَهْرٌ ضَامِنٌ وَبَيْثٌ^(٤)

وقد كنتُ على أن أفرد في معناها كتاباً إلى الشيخ ثم تطيرت له من تناسق التعزيتين، كما توجعث له من تواتر المصيبيتين^(٥).

لقد أكرم الإسلام المرأة، وحفظ لها حقوقها، وجعل هبة البنات من التعم، كما صور القرآن الكريم حال أهل الجاهلية الأولى الذين يتوارون عن القوم من سوء ما يُشّروا به من الإناث، قال الله سبحانه: **وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُثْنَيْنِ طَلَّ**

(١) لم أجده قائله فيما عدته إليه من مظان مع كثرة الاستشهاد به.

(٢) نسبة أبو إسحاق القيروان لإسحاق بن خلف البهري. ينظر: زهر الآداب وثغر الألباب، تحقيق: يوسف علي الطويل، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧، ٤٣٢/١.

(٣) لم أجده قائله فيما عدته إليه من مظان مع كثرة الاستشهاد به في كتب الأدب.

(٤) لم أجده قائله فيما عدته إليه من مظان.

(٥) أبو بكر الخوارزمي، كتاب الرسائل، مصدر سابق، ص٧٤.

وَجَهْهُرٌ مُسَوَّدًا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَرَّى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ^{١)}
أَيْمَسْكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْرَدُسُهُ فِي الْتُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا تَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾.

وقد استدعي الخوارزمي في تتابع بديع عدداً من التناصات الشعرية تشمل كل الأحوال والأعراف المتوارثة لتعزية صديقه، وهذا التوارد والاجتالب أراد به التخفيف من ألم المصاب، فنوع له خطابات التعزية مستعيناً بالخطاب الشعري وقوّة تأثيره بعدهما فرغ من خطابه التشيّي الذي رأى حاجته إلى الاقتران بالشعر؛ لقوّة التعبير، وبلاعنة التأثير.

كما لجأ أبو بكر الخوارزمي إلى التناص الشعري في ختام إحدى رسائله، وهو نوع من أنوع حسن الختام الذي أجاد فيه الخوارزمي على نظير الشعراء في حسن المقطع في القصيدة، وقد فطن لذلك النقاد القدامى، وكان محلّ عنایتهم بحيث لا يقل عن المطلع في الجودة والإحكام، فكما أنّ المطلع مفتاح النص، فالمقطع قفله وختامه، بل قد يكون أحرى بالاهتمام؛ لأنّ "خاتمة الكلام أبقى في السمع، وألصق بالنفس؛ لقرب العهد بها؛ فإن حسنت حسنه، وإن قبحت قبح"^{٢)}.

يقول الخوارزمي في ختام رسالته له إلى أبي الحسن علي بن داية: " وهذا التطويل كله ارتياه لعذرِ أجده لسيّدي، وإن رجلاً اعتذر عنه إلى قلبي، وأبرز

(١) سورة النحل، الآية رقم: ٥٩٥٨.

(٢) ابن رشيق القيرواني، العمدة في محسن الشعر وآدابه، مرجع سابق، ٢١٧/١.

ذنبه في معرض ذنبي، لأعظم في عيني من كل عظيم، وأكرم على قلبي من كل كريم، وكأنه في وفيه قيل:

إذا مرضنا أتيناكم نعودكم وتذنبون فنأتيكم ونعتذر^(١)

وقد تكررت هذا التناصات الشعرية في خاتمة بعض رسائله، ويطوعها بكل اقتدار إلى موضوعه ومقصده على نحو قوله في خاتمة رسالة له إلى وزير خوارزم شاه لما نُكب "أنت أيدك الله تعالى أغنی خوارزم يوم تصير أفقرهم، وأكبّرهم ساعةً تظنّ أصغرهم، وهو الوزير يوم يُعزل، والمصون ساعة يتبدل، والكبير بنفسه وإن انفرد عن غيره، والمستأنس بفضله وإن استوحش من دهره:

إنّ الأمير هو الذي يُضحي أميرًا عند عزله

إنْ زال سلطانُ الولَاية فهو في سلطانِ فضيله^(٢)

لقد أدخل الخوارزمي معنى البيتين في سياق الرسالة، وكأنهما جزءٌ منها لا ينقطع، وهذه من حذاقته في التحسين، وبراعته في الاختيار والتضمين، وهو يكشف عما وصل إليه فن الترسل من البراعة والإحكام، وما بلغه تداخل الأجناس الأدبية من تنوع والتحام " وهو تداخل متعدد المستويات، متشعب الأسلوب؛ لأنّ وضع المترفظ فيه يصبح مزدوجًا جامعًا بين الناثر ووضع

(١) أبو بكر الخوارزمي، الرسائل، مصدر سابق، ص ٢٦. والبيت منسوب للمؤمّل بن أميل بن أسيد المخاري الكوفي، شاعر كوفي من مخضمي شعاء الدولتين الأموية والعباسية، ومن نسبه إليه أبو منصور الشعالي في التمثيل والمحاضرة، تحقيق: عبد الفتاح محمد الحلو، ط ٢، الدار العربية للكتاب، بيروت، ١٩٨١م، ص ٩.

(٢) أبو بكر الخوارزمي، الرسائل، مصدر سابق، ص ٣٠. وقد تردد البيتان في بعض مصادر الأدب، ولم ينسبا لشاعر.

الشاعر؛ ولأنَّ الجنس الأدبي الذي ينبع من هذا التداخل يصبح جنساً مولَّداً أو ممزوجاً^(١).

ونجد نزعة الكاتب إلى إغلاق الرسالة بهذا التناص يتكرر في مقام آخر ما يؤكِّد أنَّ هذا التعاقد بين الجنسين الأدبيين ليس غرضه التحسين فحسب، وإنما كونه قوة ناظمة للمعنى لا سيما في خاتمة الرسالة، من ذلك قوله في ختام رسالته إلى حاجب الوزير بن عباد، وقد انقطعت كتبه: "الحمد لله الذي جعل الحاجب يضرب في المحسن بالقبح المعلى، ويسمو فيها إلى الشرف الأعلى... ما أشرف الجود لولا الاقتار، وما أَحَمَّ مغبة الصبر لولا فناء العمر، وما أطيب الدُّنيا لو دامت واستقامت:

ما أعلم الناس أنَّ الجود مكسبة للحمد لكنه يأتي على الشَّب^(٢)

وعلى هذا النحو فإنَّ التناصات الشعرية في رسائل أبي بكر الخوارزمي لا تكاد تحصر في مواطن متفرقة في سياق مقاصد الترسيل وأغراضه، وتتحقق أن تفرد بدراسة مستقلة؛ لأنَّ الخوارزمي بقدرته الأدبية الفائقة، وطاقته الشاعرية البارعة استطاع أن يوظف الشعر توظيفاً بدِيعاً في خدمة نصوصه من جودة

(١) صالح بن رمضان، الرسائل الأدبية ودورها في تطوير النثر العربي القديم، ٢١، دار الفارابي، بيروت، ٢٠٠٧م، ص ٣٢٨.

(٢) أبو بكر الخوارزمي، الرسائل، مصدر سابق، ص ٤٠. والبيت منسوب إلى منصور التميري ت ١٩٢هـ، أحد شعراء العصر العباسي المحدثين. يُنظر: ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، ط ١، دار صادر، بيروت، ١٩٩٦م، ١٧٩/٢.

الاستشهاد والتمثيل، والإقناع والتدليل، وما يمثله تداخل النصوص من جمال الصياغة، وجودة الأسلوب.

٢-١: التناص بين الترسل والأمثال العربية

إنّ تداخل الأجناس الأدبية سمة بدعة لعقد صلات التخاطب فيما بينها كما لحظنا في التناص الأدبي بين الترسل والشعر في المقام الأول، ولكن سعة ثقافة الكتاب، ومقدارهم الأدبية جعلت المترسلين يميلون إلى الحكم والأمثال والأقوال المأثورة في إنتاج خطاب الرسالة، ولذا يلحظ الباحثون أنه قد "تحول التلفظ ذو الصبغة الحكمية إلى قاعدة من قواعد إنتاج خطاب الرسالة، وهي قاعدة يظهر من خلال استعمالها حرص الكتاب على إرجاع مختلف المعاني الأدبية إلى منظومة من القيم المشتركة، والموضع المشتركة (Lieux communs) التي تمنح الخطاب طابعاً أخلاقياً، وتظهر فيه هيمنة الذات الكاتبة الجماعية"(١).

وإنّ المتأمل في رسائل أبي بكر الخوارزمي يجد أنه وظّف الأمثال العربية، والأقوال البليغة في رسائله بشكل مكثّف؛ لتكون أداة من أدوات التواصل، وقوة قوله خطاب الترسل، يقول من رسالة إلى أبي الحسن الحكمي: " فأمّا الجاهل فإنّه إذا هجر لم يبق في القوس منزعاً، ولم يترك للصلاح موضعًا، والحمد لله الذي وفقني في أثناء هذه الحالة حتى كبحت فرس الغرامة، وغمدته سيف الشكوى واللامة"(٢).

(١) صالح بن رمضان، الرسائل الأدبية ودورها في تطوير النثر العربي القديم، مرجع سابق، ص ٥٤٢.

(٢) أبو بكر الخوارزمي، الرسائل، مصدر سابق، ص ٢٣.

لقد وظَّفَ الكاتب المثل السائِر "ما ترك في القوس منزعاً" ^(١) في سياق الإقناع بقبول العذر، إذ العاقل يعود إلى ما يرفو به الخلاف، فيقبل العذر، ويراجع الوصل، وأما الجاهل فلم يبقَ لذلِكَ مكاناً، ولا للقول منزعاً، وهذا الاستخدام جعل لاعتذاره قوَّةً قوليةً لتصوير حاله مع صديقه، وإقناعه بصدق وصله، وقد تكرر هذا التناص في قوله من رسالة له أخرى لما عادت الوزارة لابن عباد ^(٢)، وعفا عن ندماء ابن العميد ^(٣): "لولا أن أمورهم أفضت إلى رجل عليه من التوحيد والعدل مانع، ولديه من الحلم والحياة وسيلة وشافع، هذا وقد ولعوا في دمه، ورتعوا في لحمه، وخبوا واعتقوا في دمه، بل في شتمه، فلم يبقوا في القوس منزعاً، ولم يتركوا للصلح موضعًا، فلما دفع الاقبال ربّتهم إليه، وصارت حياتهم وموتهم بين يديه، أسبل عليهم ستُر العفو والمغفرة، وأسبغ فيهم حكم الصحيح بعد المقدرة" ^(٤).

فقد كان هذا التوظيف في سياق الإشادة بقيم الوزير، وتصوير عدله وحمله مع هؤلاء الندماء، وقد أبَسَّهم الخذلان ثيابه، فكان منهم البغي والعدوان، والحقُّ والبهتان، وقد أسبغ عليهم الوزير بالصفح، وقابلهم بقبول الصلح، وهم لم يبقوا للقوس منزعاً، ولا للصلح موضعًا.

وقد يعمد الخوارزمي في سياق الرسالة إلى تحويل الأمثال للدلالة على مضمونه، لما للأمثال من قوَّةٍ ناظمة للإقناع، وقيمة أخلاقية مشتركة على نحو

(١) ينظر: أبو القاسم الزمخشري، أساس البلاغة، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨م، ٣٧٣/٢.

(٢) أبو بكر الخوارزمي، الرسائل، مصدر سابق، ص٨٧.

قوله: " وما زال توسط الجيب دليلاً على تقدم المجاب، أم لأنّ إخوانه الذين استظرفthem بعدي، واعتراضهم مني، قد شغلوا يده عني، فما كنت أظُنّ أنّه يحفظ لكلّ جديد لذّة، وينسى لكلّ عتيق حرمة" (١).

إنّ التناص مع المثل السائِر " لكلّ جديد لذّة، ولكلّ عتيق حرمة" (٢)، يأتي في شكل من أشكال العتاب للصّديق الذي استبدل به غيره، وكأنّه يحفظ ويردد لكلّ جديد لذّة، ويعاقبه بالمثل الآخر الذي تناصاه صديقه " لكلّ عتيق حرمة" ففروط في صداقته، ونقض عهد موّدته.

وقد تأتي الأمثال في سياق النّصّح والإرشاد في رسائل الخوارزمي، فيصاغ هذا المعنى صياغة حكميّة تؤتي رسالتها بقوّة ناظمة، ودلالة دقيقة، نجد مثل ذلك في رسالته لوكيل الوزير ابن عباد وقد ولي سوق الطعام: "كتابي إليك وقد علم الله أنّ أمرك مستول على أفكاري، وشاغلي عن ساعات ليلي ونحاري... ولا تمر بك ساعة إلا وقد توفّرت عليها بقسمها، ولا تؤخر عمل اليوم إلى الغد، ولا تحمل نفسك في شغل السبت إلى الأحد، فإنّ الأشغال إذا تزاحمت أعمت النّاظر، وشغلت القلب والخاطر" (٣).

يعدّ الكاتب إلى تقوية خطاب الرّسالة بهذا التناص لعلمه بأنّ المثلّي يتقبّل هذه القوالب المتوارثة؛ لأنّها قوّة من قوى الإقناع في سياق النّصّح، لا

(١) المصدر نفسه، ص ٢٣.

(٢) ينظر: المفضّل الضّيّ، أمثال العرب، تحقيق: إحسان عباس، ط ٢، دار الرائد العربي، بيروت، ١٩٨٣م، ص ١٤١، وأبو بكر الخوارزمي، الأمثال المولدة، مرجع سابق، ص ١١٧.

(٣) أبو بكر الخوارزمي، الرسائل، مصدر سابق، ص ٤٥.

سيما أنه يدرك بأنّ المخاطب إن عجز عن الوفاء بما أوكل إليه لم يعذر، وإن وقّي به لم يُشكّر، فأنت العبارة المثلية " لَا تُؤْخِرْ عَمَلَ الْيَوْمِ لِغَدٍ" ^(١) في سياق الرسالة، وكأنّها جزء منها؛ لتوّدّي المعنى المراد من النصّ والتوجيه، والمحثّ على الإنجاز.

وقد يصرّح في مقام آخر باستخدام صيغة الحكم الأمثل، والعبارات الجاهزة؛ لتأكيد المعنى، وتقوية الخطاب على نحو قوله: " وقد كانت العرب تزاوج بين كلماتٍ تتمثل مبانيها، وتتكافأً مقاطعها ومباديهَا، فنقول: العلة ذلة، والوحدة وحشة، والغلب سلب، واللحظة لفظة، والهوى هوان، والأقارب عقارب، وأنا أقول: المرض حرض، والرمد كمد، والعلة قلة، والقاعد مقعد" ^(٢).

إنّ هذه العبارات الجاهزة أتت في ختام رسالة كتبها لأبي القسم، وقد أخدمت داره ونجا منها، وهي تقوم مع ما تتضمّنه من قوة الخطاب "بتلخيص معانيها في صيغة حكمية عامة تفهم المخاطب، وتضع رأي المتكلم في إطار الحقائق العامة التي تتضمّنها صيغة الحكم" ^(٣).

وقد يأتي المثل في ختام الرسالة تلخيصاً للمضمون الذي بُنيت عليه الرسالة، وذلك بتحويله لمقصده، وإغلاق الرسالة بحقائق مشتركة ومتداولة بين الناس على نحو قوله: " على أني أظنّ العدو إذا ظللته تلك الراية المنصورة يخطو خطوة

(١) ينظر: الميداني، مجمع الأمثال، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت، ٥٥٧/٢.

(٢) أبو بكر الخوارزمي، الرسائل، مصدر سابق، ص ٧١.

(٣) صالح بن رمضان، الرسائل الأدبية ودورها في تطوير النثر العربي القديم، مرجع سابق، ص ٥٥١.

أو لها جرجان، وآخرها خراسان، تقبلاً لأوليه، وجرياً على و蒂رة أبيه، فإنه أعقل من أن يقذف أمه ويختلف أباه، ومن خالف والده فقد نفاه، سيمهم من رجل طالما هزم، وينهم ابن رجل طالما اهزم، ومن أشبه أباه فما ظلم^(١).

إن هذا المثل العربي "من أشبه أباه فما ظلم"^(٢) يُضرب في تقارب الشبه، فمن أشبه أباه فقد وضع الشبه في موضعه، وإلا كان ظالماً، وإن كان هذا الشبه في هذا السياق أتى على خلاف المأثور حيث صور به الكاتب اهتزام المخاطب وضعفه، وأوجز ذلك كله في الختام حيث يشبه أباه في جبنه، فهو يجري على وتيته، ويسير على خطاه، فإنه طالما اهزم أمام قوة الوزير وشجاعته، وفارس الميادين وبسالته، فقد كانت "يده تحيل قدحي الشجاعة والكرم، وتحمّع بين السيف والقلم، وتحذق آداب العرب والungen" فالكاتب يجمع بين معينين متقابلين هما أصالة وشجاعة المدحود، وجبن وضعف المهجو، واستعمل المثل ليختتم به ويوجز هذا المعنى المتأصل فيه.

وقد يأتي التناص مع المثل العربي في ختام الرسالة؛ لينطق بحقيقة عامة، وقيمة مشتركة يفيد منها المخاطب، ويؤمن بقبوتها، والتسليم بها لا سيما في مقام المدح حيث يصور المدحود بالتميز والتفرد عن غيره، ويستعين بالمثل السائر لتقوية هذا المعنى وتأكيده، على نحو قوله: "ولقد سلك الأمير من الكرم طريقاً يستوحش فيها لقلة سالكها، وعمر للمعروف داراً لا يستأنس بها لعدم ساكنها... أعاذه الله على صعوبة الطريق، وقلة الرفيق، وألهمه صبراً يهون

(١) أبو بكر الخوارزمي، الرسائل، مصدر سابق، ص ٥٩.

(٢) ينظر: الميداني، مجمع الأمثال، مرجع سابق، ٢٤٤/٢.

عليه احتمال المغامر، ويقرب عليه مصافة المكارم، فالصّبر ثُنَالُ الْعُلَى، وعند الصّبَاحِ يَحْمِدُ الْقَوْمَ السَّرِّيِّ^(١).

لقد استخدم الكاتب هذا المثل "في الصّبَاحِ يَحْمِدُ الْقَوْمَ السَّرِّيِّ"^(٢) في ختام الرسالة ليوجز به تفَرِّد الممدوح وتَمِيزه، ويصور صبره وجلده حتى أطبق الجميع على ذكر محسن قوله وفعله، وكرمه وجوده، فقد عَمِّر داراً للمعروف، وسلك طريقاً للكرم لا يستطيع غيره أن يسلكها لولا صبره على مكافحة الأمور لما في عواقبها من الحامد.

كما نجد أبا بكر الخوارزمي (ت ٣٨٣ هـ) يوجّه الأمثال ذات الدلالة الثابتة بقدرته الفنية إلى معنى جديد في سياق الرسالة على نحو قوله لأبي علي البلعيمي حين استبطأ جوابه على أبيات بعث بها إليه: "قد حلّت إلى حضرة الشيخ أبياتاً عاتبته بها، بل أعتبته فيها، وهي عروس كسوتها القوافي، وحليلتها المعاني... فإن كانت حظيت ورضيت في الرفاء والبنين، مائة سنة على معين، وإن كتمن الأخرى فقد يصبر الكريم على ولا يحبه، ولا يميل إليه قلبه، والعاقل إذا أبغض أنصف، وإذا أحبّ ألطاف"^(٣).

(١) أبو بكر الخوارزمي، الرسائل، مصدر سابق، ص ١١٤.

(٢) ينظر: أبو عبيد القاسم بن سلام، كتاب الأمثال، تحقيق: عبد الحميد قطامش، ط١، دار المأمون للتراث، دمشق، ١٩٨٠م، ص ١٧٠.

(٣) أبو بكر الخوارزمي، الرسائل، مصدر سابق، ص ٩٤.

لقد كان التناص مع المثل القائل: " بالرِّفَاءِ وَالْبَنِينَ" ^(١) الذي يضرب للاتفاق والهدوء والسكون، وهو مأخوذ من رفاء الثوب إذا رُفِعَ بعضه إلى بعض، ولكن الكاتب هنا وجّهه إلى معنى جديد يحمل معنى العتاب على تأخر الإجابة، وهو يشبه رسالته بالعروس المتوضحة بالقوافي، وجميل المعاني، ويأمل أن تحظى بالإيجاب والقبول، فيكون الرِّفَاءِ وَالْمَوْافِقةُ، وحينها ستكون الإجابة منه على رسالته التي شبهها بالبنين في توالد المعاني، وإنجاح القوافي" وعلى كل حال فإن وجد الشيخ حرّة فليسق إلى مهرها" في إشارة لعدم رده، واستبطاء جوابه.

وقد يجنب الكاتب إلى المثل حين يعجب بالمدح، فيستدعي من الأمثال ما يتناص به مع خطاب الرسالة؛ لإشراك العقل الجماعي في دعم رأيه، والاقتناع بخطابه، نجد مثل ذلك في قوله: " كتبتُ ولولاية التي شرفت بالأمير ولم يشرف بها، وتسبّب له ولم يتسبّب لها، ... ولا زال الملك سليمه و نتيجه، والعزّ صنيعه و خريجه، حتى يملك الأقاليم، ويفترش السرير العظيم، فيعطي القوس باريها، ويملك الزعامة من يليق بها ويحسن فيها" ^(٢).

إن التناص مع المثل القائل: " أَعْطِ الْقَوْسَ بَارِيهَا" ^(٣) يلخص مراد الكاتب، ويوجز رأيه، ويستدعي رأي الجماعة لقوّة التأثير من خلال الأمثال المتداولة بجدارة الأمير بالولاية، وأهليته لها، وأنّه بما يمتلكه من حذافة وشجاعة أهل لها،

(١) أبو هلال العسكري، جمّة الأمثال، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم وعبد الجيد قطامش، ط١، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٨، ٢٠٦/١.

(٢) أبو بكر الخوارزمي، الرسائل، مصدر سابق، ص ١٦٦.

(٣) ينظر: أبو عبيد القاسم بن سلام البغدادي، كتاب الأمثال، مرجع سابق، ص ٢٠٤.

ورسخ هذا المعنى جمال التناص، ومهارة الكاتب في توظيفه حيث أتى موافقاً للسياق الدلالي، والمحسن البلاغي.

وعلى هذا النحو فقد بُرِزَ التناص مع الأمثال العربية والعبارات الجاهزة في رسائل الخوارزمي بشكل مكْتَفٍ، وأتى متعدد الوظائف لا سيما في خاتم الرسائل التي كان لها طابع بارز في قوة التأثير، وجمال التعبير، وتلخيص المعاني بهذه الصيغ المثلية في إطار الحقائق العامة التي تقنع المتلقي، وتنطق بالعقل الجمعي، وإنَّ إكثار الكاتب من هذه التناصات يدل على سعة ثقافته، وقدرته الأدبية على الجمع بين الأجناس، فسيقت له الألفاظ، وانقادت له المعاني، "فإذا أكثر صاحب هذه الصناعة من حفظ الأمثال السائغ استعمالها انقادت إليه معانيها، وسيقت إليه ألفاظها في وقت الاحتياج إلى نظائرها من الواقع والأحوال، فأودعها في مكانها، واستشهد بها في موضعها، والطريق في استعمالها في النثر كما في حل الأشعار واستعمالها إلا أنَّ الأمثال لا يجوز تبديل ألفاظها، ولا تغيير أوضاعها؛ لأنَّها بذلك قد عُرِفت واشتهرت" ^(١).

وعلى هذا لحظنا بأنَّ الأمثال العربية، والعبارات الجاهزة في رسائله، قد أضفت إلى أسلوبه قوة وإحكاماً، وتأثيراً وإنقاضاً؛ لأنَّه يضع الحقائق العامة، والمسَّمات المتدالوة من خلال هذه الحكم والأمثال في سياق إقناع المخاطب، وقوة التأثير فيه بما تتضمنه من دلالة الخطاب الجمعي الذي يدفع إلى القبول والتسليم.

(١) أحمد بن علي القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنسنا، تحقيق: يوسف الطويل، ط١، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٧م، ٣٥٤/١.

٢) التناص الديني

تنوعت مصادر التناص الديني في رسائل أبي بكر الخوارزمي، وتعددت أشكالها، وآليات توظيفها في خطاب الرسالة، وهذه المتناصات الدينية تمثل المرجعية الفكرية والثقافية الثابتة لدى الكتاب من جهة، وجمال الأسلوب، وجودة الصياغة من جهة أخرى، فقد كان هذا التفاعل مع النصوص الدينية سمة بارزة تمنح النصوص ثراء دلائلاً ومعرفياً، وبعدها إقناعياً لقداسة النص الديني، وقوّة أسلوبه، وقد عدّه النقاد ركناً من أركان الكتابة، وشرطًا من شرائط الصناعة التي ينبغي أن يعني بها الكتاب والمرسلون، وألا تخلو رسائلهم من "معنى من معاني القرآن الكريم، والأخبار النبوية؛ فإنّها معدن الفصاحة والبلاغة" (١).

٢- ١: التناص مع القرآن الكريم

لقد أدرك الكتاب والمرسلون مدى قوة التأثير القرآني في النفوس، فاتخذوه أسلوبًا للإقناع، ووسيلة من وسائل التأثير في المتلقين؛ لكونه الكلام الذي «لَا يَأْتِيهُ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ حَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ» (٢) وتيقّنوا بأنه يُكسب النّص بهاء ورونقًا، وينحه حجة وإقناعًا، "فحجّته كافية"

(١) ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: محمد محبي الدين عبدالحميد، ط١، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٩٥م، ٨٩/١.

(٢) سورة فصلت، الآية رقم: ٤٢.

هادية لا يحتاج مع وضوحها إلى بينةٍ تدعوها، أو حجةٍ تتلوها، وإنَّ الذهابَ عنها، كالذهاب عن الضروريات، والتشكُّك في المشاهدات^(١).

إنَّ أبا بكر الخوارزمي كغيره من المترسلين اتخذ من القرآن الكريم مصدراً للإلهام، ومنهلاً للقيم، وذلك لأنَّ الآية الواحدة تقوم في بلوغ الغرض، وتوفيقه المقاصد ما لا تقوم به الكتب المطولة، والأدلة القاطعة^(٢)، فأكثر من الاقتباسات القرآنية المباشرة، وغير المباشرة في سياقات مختلفة، فنجده يأتي في باب الاستشهاد والتدليل كثيراً، كما يكون في سياقات نصية أخرى دون الإشارة إلى أنه من باب الاستشهاد، وحينئذ يكون موافقاً لسياق الرسالة الأسلوبي، ونظامها السجعى الذي يهيمن على رسائله.

ونجد مثل ذلك في قوله لأبي إسحاق الحاچب: "وأراد الله تعالى أن يرفع من حكمتك، ويقوم من قبور حدبتك، فينظر كيف تعملون **﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبَدِّلُونَ وَمَا تَكُونُونَ﴾**^(٣) فاتصلت بوليّ نعمتك برجل لو اتصل به الأدبار لتقدم الإقبال، ولو خدمه النّقص لفضل الكمال" وفي الرسالة ذاتها يأتي الاقتباس في سياق العتاب كقوله: "فلما جازت النعمة بالكفران، ونسيت **﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِلْحَاسِ إِلَّا الْإِلْحَاسُ﴾**^(٤) نظرت إليك الأيام شزاراً، وأبدلتك

(١) أبو بكر الباقياني، إعجاز القرآن، تحقيق: السيد أحمد صقر، ط٣، دار المعرف، القاهرة، ١٩٦٣م، ص٣.

(٢) الفلقشتندي، صبح الأعشى في صناعة إنشا، مرجع سابق، ٢٣١/١.

(٣) سورة المائدة، الآية رقم: ٩٩.

(٤) سورة الرحمن، الآية رقم: ٦٠.

باليسر عسراً، فأصبحت تلك البارقة، وهي صواعق، واستحالت تلك المواتب، وهي مصائب^(١).

إنَّ الكاتب قد اقتبس هاتين الآيتين في سياق عتابه لأبي إسحاق الحاجب لما نكبه الوزير بن عباد، فاختار من الآيات ما يعبر عن أسباب هذه النكبة التي لحقته، فقد كان قبل اتصاله بالوزير يصبح في إقلال لحاجته، ويمسي في إدبار لقلة ناصره، ولكنه قابل الفضل بالجحود، والإحسان بالإساءة، فتبذلت أحواله، وأظهر الله ما كان يكتمه ويضممه، فنال جزاءه، ولقي مصيره، وهل جزاء المحسن إلا الإحسان، ومصافحة النعم بالشكر والعرفان.

وقد يعمد إلى الاقتباس القرآني في سياق التعزية، وهو غرض تكرر فيه التناصات وتدخل النصوص لما يتضمنه من التسلية على المتلقي، وقوة التأثير، والمحث على الصبر والتسليم، لا سيما في مقام الرسائل الإخوانية، نجد مثل ذلك في رسالة بعث بها إلى رئيس طوس يعزيه في وفاة شقيق له: "ثم تذكرت ما نزل بسيدي من الوحشة لفقدده، والغمة من بعده، والتحسر على قربه بعده... ثم رجعت إلى أدب الله تعالى فقلت: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾^(٢)، اللهم لا شكایة لقضائك، ولا استبطاء لجزائك، ولا كفران لعمتك، ولا مناصبة لقدرتك^(٣).

(١) أبو بكر الخوارزمي، الرسائل، مصدر سابق، ص ٤٣.

(٢) سورة البقرة، الآية رقم: ١٥٦.

(٣) أبو بكر الخوارزمي، الرسائل، مصدر سابق، ص ١٦.

ويتكرر هذا التناص كذلك في مقام التعازي في رسالة أخرى مقتنة بالدعاء، ومعاني التسليم بالقضاء، والدعوة للصبر وحسن العزاء، على نحو قوله: " ثم تنجزت موعود الله تعالى بالصبر والعزاء، ثم بالتسليم للقضاء، وقلت: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾^(١) كما أمرت، وانتظرت الصلاة والرحمة كما وعدت"^(٢).

إنّ هذا التناص القرآني يتواافق مع حال المخاطب، ويعث العاطفة الدينية، والإيمان بقضاء الله وقدره، والصبر والتسليم بأمره، وقد اقترب هذا السياق بالدعاء المناسب للحال، وهو من أمارات الصناعة الحكمة التي أشار إليها النقاد قديماً " وما يجب على الكاتب أن يتحرّى في الدعاء الألفاظ الرائفة، والمعاني اللائقة، ويتوخى من ذلك ما يناسب الحال، ويشاكل المعنى، ويتوافق المخاطب"^(٣).

وقد يعمد الخوارزمي إلى الاقتباس من باب المبالغة في تصوير حاله، وتواضعه أمام المخاطب، فلم يجد بدأً من الاستعانة بالاقتباس؛ لدقة التصوير، وبلاهة التأثير، يقول من رسالة كتبها جواباً لأبي محمد العلوي: " ذكر السيد أنه لا يرضي لمكاتبتي عفو كتابته، لا ينزل فيها على حكم بالاغته، وهذا كلام لولا أنه جرى به بناؤه، ونطق به لسانه، لقلت: ﴿تَكَادُ الْسَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرُنَّ مِنْهُ﴾

(١) سورة البقرة، الآية رقم: ١٥٦.

(٢) أبو بكر الخوارزمي، الرسائل، مصدر سابق، ص ١٦٦.

(٣) أبو القاسم الكلاعي، إحكام صنعة الكلام، تحقيق: محمد رضوان الديّة، ط ١، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٦م، ص ٧٣.

وَتَنْشَقُ الْأَرْضُ وَتَحْرُكُ الْجِبَالُ هَدًا ﴿١﴾ وَ**﴿لَقَدْ جَهُّتُمْ شَيْئًا إِذًا﴾** ﴿٢﴾

الكتابة - أئيَّدَ الله تعالى السَّيِّد - صناعة مجانستي لها مجانسة النور للظلم، ومناسبتي لها مناسبة الأوز للنعم، ولم أقرع بابها، ولم أعُقْ بأسبابها، ولم أعاشر أربابها وأصحابها^(٣).

إنَّ الخوارزمي لم يشر إلى اقتباسه القرآني، وإنما أتى به ملتحمًا ببنية الرسالة دون ترتيب للايات، وإنَّه وإن أشار إلى المعنى المقصود في السياق التثري وجد نفسه محتاجًا لإثراء النص جماليًا ودلاليًا بالشاهد القرآني الموافق للمعنى؛ ليعبر عن مدى تعلقه بالممدوح، وعن رغبته في تصوير بيانه وبلاعنته التي لا تضاهى، ولم يتأتَّ له هذا المعنى إلا بالاستعانة بالاقتباس بما يحمله من توليد للمعنى، وقوَّة التأثير في المتلقٍ.

ونجد الخوارزمي يجعل التفاعل النصي مع القرآن الكريم في ختام رسالته؛ لإثراء الإبداع، وحسن الختام، وقوَّة التأثير، بل إنَّه يستعين به على جمال الإغلاق، وعدم الإطالة في الرسالة، وقد اتَّخذ النقاد القدامى هذا التداخل النصي ركناً من أركان الصناعة، حيث يقول ابن الأثير: "فما وجدت أعنون الأشياء عليها إلَّا حلَّ آيات القرآن الكريم والأخبار البوية، وحلَّ الأبيات الشعرية"^(٤) على نحو قول الخوارزمي في ختام رسالته لأحد تلاميذه فوَّض إليه

(١) سورة مريم، الآية رقم: ٩٠.

(٢) سورة مريم، الآية رقم: ٨٩.

(٣) أبو بكر الخوارزمي، الرسائل، مصدر سابق، ص ١٦٦.

(٤) ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، مرجع سابق، ٩٢/١.

أعماله، ولم يلق منه الوفاء" ما ظنك بقوم هم صيارة أخلاق الرجال، وسماسرة النقص والكمال، بل ما ظنك بقوم هم أمراء الكلام يقصرون طويله، ويختفون ثقيله، ويقصرون مددوده، ولم لا أقول ما ظنك بقوم يتبعهم الغاون، وفي كل واد يهيمون، ويقولون ما لا يفعلون"^(١).

إن المتأمل في هذا التناص يجد أن الخوارزمي داخل بين النصوص في ختام الرسالة، وهذا النوع من التناص الجزئي لم يكن مباشراً، كما سيأتي بيانه في موضعه من هذا البحث، وإنما استعان بمدلول الآية القرآنية في التهكم بأولئك الأصدقاء الذين يقولون ما لا يفعلون، ووجه الشاهد في سياق خطابه، هو الكشف عن أحوالهم، وتجليّة مواقفهم، فهم قوم "إذا ذموا ثلموا، وإذا مدحوا سلبوا، وإذا رضوا رفعوا الوضيع، وإذا غضبوا وضعوا الرفيع" كما أن الاقتباس في الختام نوع من أنواع جمال الصياغة، وحسن الختام، وهو ذو وظيفة تأكيدية للمعنى المقصود من الخطاب.

ونجد مثلاً آخر يأتي فيه التناص القرآني في خاتمة الرسالة في سياق الاعتذار من اختصار الرسالة، وعدم الإسهاب والإطالة، ويؤكد بأن الصغير ما صغر قدره، لا ما صغر حجمه، ودعم هذا التبرير من قصر رسالته بالتناص في الخاتمة حيث أتت الآية القرآنية خاتمة تقنع المخاطب بعظم مكانته، وسمو منزلته، وإنه وإن صغر المكتوب، فقد أفاد، وجاؤه المراد، حيث يقول: "أعتذر سيدتي من صغر الكتاب واختصاره، فقد أغناه الله تعالى عن تكليفه من اعتذاره... وأسائل

(١) أبو بكر الخوارزمي، الرسائل، مصدر سابق، ص ١٢.

الله تعالى أن يجعل أخوتنا متصلة في الدنيا بأخوتنا يوم الدين، فإنَّ **﴿الْأَخْلَاءَ﴾**

يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿١﴾.

ومن جمال التناص في الختام أن يأتي بالآية في مقطع الرسالة، لتزيد المعنى المقصود معنى، وتحكمه مبني، وقد أشار إلى ذلك النقاد القدماء كقول أبي هلال العسكري (ت ٣٩٥ هـ) في الصناعتين: "ثم يأتي بالمقطع فيزيد معنى آخر يزيد به وضوحاً وشرعاً، وتوكيداً وحسناً" ^(٢)، ومن ذلك قوله من رسالة إلى فقيه في تعهد مسجد "فإنَّ صيانة هذا المكان صيانة الدين، بل صيانة الإسلام والمسلمين، وكتب الكفر والكافرين، وما ظنك في موضع هو بيت من بيوت الله، ومظنة لقراءة وحي الله، تصف فيه الأقدام بين يدي الله، ويتميز فيه أولياء الله من أعداء الله، وهو من **﴿بُيُوتِ أَذْنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذَكَّرَ فِيهَا أَسْمُهُ﴾** ^(٣)، وهو مسكن الأبرار، ومجلس من مجالس الأخيار... وإنما يوفى المحسن أجره بغير حساب، وتذكّر قول الله تعالى: **﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ﴾** **﴿الْأَخِرِ﴾** ^(٤).

(١) المصدر نفسه، ص ٦٤. والآية من سورة الزخرف، رقم: ٦٧.

(٢) أبو هلال العسكري، الصناعتين، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، وعلي البحاوي، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٨٦ م، ص ٣٨٠.

(٣) سورة النور، الآية رقم: ٣٦.

(٤) أبو بكر الخوارزمي، الرسائل، ص ١٦٣. والآية من سورة التوبة، الآية رقم: ١٨.

إن التناص في هذا النص متعدد الدلائل، فقد ورد في سياق مكانة المساجد في الإسلام، ورفة من يتعهدها، ومن يقوم على صيانتها، وإن ذلك من دلائل الإيمان؛ لأنها عنوان الدين، ومسكن المحسنين، كما أشار إلى جزاء هؤلاء المحسنين، وما لهم من أجر عظيم بتناص جزئي آخر من قوله تعالى: «إِنَّمَا يُؤْفَى الْصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ»^(١) ثم ختم الرسالة بالتناص التام الذي يزيد هذا المعنى رسوحاً، وتأكيداً وجمالاً بحيث لا يتطرق المتلقى بعده إلى زيادة، ولا يتطلع بعده إلى إقناع أو إضافة.

وقد كان الختام بالتناص القرآني في رسائل الخوارزمي ظاهرة تشير إلى شغفه بالأسلوب القرآني، وقوته تأثيره، وما يبعثه في النفوس من تقبل وإقناع، فجعله آخر ما يبقى في الأسماع في ختام سائله، وهي اقتباسات جزئية مطردة تمثل ركناً أساسياً من أركان صناعته، تتنوع تبعاً لتنوع أغراضه، وسياقاتها المعنوية، ومن ذلك قوله من رسالة إلى رئيس دامغان^(٢): " وقد خرقت فيك حجاب الجاملة، ولبست لك ثوب المكاشفة، فإن أذبكي ذلك فمُؤدب العاقل إخوانه، ومرأته

(١) سورة الزمر، الآية رقم: ١٠.

(٢) دامغان: بلد كبير بين الريّ ونيسابور، وهو قصبة قومس، وهي مدينة كثيرة الفواكه، والرياح لا تقطع بها ليلاً ولا نهاراً، وبها مقسم للماء كسريري عجيب، يخرج ماؤه من مغارة في الجبل ثم ينقسم إذا انحدر عنه على مائة وعشرين قسماماً وعشرين رستاناً لا يزيد قسم على صاحبه. ينظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ط ٢، دار صادر، بيروت، ١٩٩٥ م، ٤٤٣/٢.

زمانه، ووسط الفرس الجواد عنانه، وإن أبى فأنا باخعٌ نفسي ﴿عَلَىٰ إِثْرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسْفًا﴾^(١).

وفي سياق الهجاء يأتي التناص القرآني مصوّراً حال الكاتب وخيبة الأمل الذي يناط بالصديق، ما جعله يتجاوز العتاب إلى الهجاء، ويستدعي من الآيات القرآنية، وفضاءاتها الدلالية ما يصور سخطه وغضبه، ويشري بها خطابه وأسلوبه، يقول من رسالة كتبها إلى أبي الحسن البديهي الشاعر: "لست أعاتبك - عافاك الله تعالى - لأن العتاب يصلح منك، أو يعمل فيك، أو لأن جهلك جهل يعالج بالعذل، أو يداوى دواؤه بالقول، كلا - عافاك الله تعالى - جهل الناس عرض، وجهلك جسم لا يزول إلا بالفعل... ولا تشمت إبليس بنا، ولا تعطه مراده فيما ﴿وَلَا تَمْسِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَحْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾^(٢) لي - رحمك الله - حوائج فإن قضيتها كنت قد تسلفت شكري ورضائي، وإن ردتني عنها فقد رأيت أنموذج سخطي وشكواي"^(٣).

إن الخوارزمي يكتب لشاعر يدرك وجوه الكلام، ودلالة الألفاظ؛ لذا كان خطاب الرّسالة مختلفاً من حيث الطّول فقد بلغت عدّة صفحات، ومن حيث الأسلوب والمحاورة حيث جنح إلى التفاعلات النصيّة من الآيات، وأقوال العلماء

(١) أبو بكر الخوارزمي، الرسائل، ص ١٨٦ . والآية من سورة الكهف، الآية رقم: ٦ .

(٢) سورة الإسراء، الآية رقم: ٣٧ .

(٣) أبو بكر الخوارزمي، الرسائل، ص ٢٠٢ .

والأدباء وال فلاسفة، والانفتاح على أجناس من الخطاب السردي الذي يجلّي به جهل المخاطب، ويكشف له حقيقته، ولكنّه يؤكّد بأنّها ترد منه "على عين عمّياء، وأذن صماء" لذا استعان بالكثير من الشّواهد والنّصوص المتداخلة.

وعلى هذا النّحو فقد كان التّناص القرآني سمةً أسلوبيةً، وظاهرةً فنيةً في رسائل أبي بكر الخوارزمي تختلف مقامات التّوظيف باختلاف السّياق، وتنوع الأغراض، وقد أضفت على الصياغة نوعاً من الجمال والتجدد مع ما تنتجه من توليد للمعنى، وقوّة في التّأثير، وبما تحمله من قناعات مسلّمة لدى المتلقّي، يستعين بها الكاتب في الخطاب الحجاجي للإقناع بمضمون الرّسالة، أو في إغلاق المعاني في المقطع لما تنسّم به من قوّة ناظمة للمعنى توافق المقام، لذا كانت هذه التّناصات ظاهرةً أسلوبيةً في رسائله، ومتعدّدة مستويات الاستعمال، وآليات التّوظيف، فمنها ما كانت صريحة تأتي فيها الآية في سياق المعنى كاملاً دون الإشارة إلى أنّها نصٌّ قرآنٌ؛ ليترك للمتلقّي قدرة التّمييز بين تداخل هذه الأجناس، ويفاجئه باختلاف الأساليب، ومستويات الخطاب، وبل نجده أحياناً يمعن في الحفاء ف يأتي الاقتباس غير مباشر بحيث يتداخل أسلوب الكاتب مع النّص القرآني، ويتحدّد معه في نظام السجع، وهذا يتطلّب من المتلقّي دقة في التّمييز، وثقافةً جيدة لفهم أساليب القول، وتداخل الأجناس، وهو الأكثر استعمالاً في رسائله.

٢- التناص مع الحديث النبوي

بعد الحديث النبوي الشريف من الروايد النصية التي كان له حضور ناطق بالأساليب البياتية، والقيم الأخلاقية في خطاب الترسّل؛ ولكن المتأمل في رسائل أبي بكر الخوارزمي يجد أنها أقلّ حضوراً من التناص القرآني، وقد كان توظيفه ضمنياً يعتمد على تحويل صياغته ليوافق النّظام الأسلوبي للرسالة مع بقاء قوة التأثير، وبراعة الاستشهاد عامل أساسي في توليد المعاني، وتجديد الكتابة.

إنّ أول ما يمثل هذا التناص ما ورد في مستهل رسالته لأحد تلاميذه، وقد فوّض إليه بعض أشغاله، فلم يقم بما حقّ القيام، يقول: "كتابي ولو استقبلت من أمري ما استدبرت، وقدمت من رأيي ما أخرت، لما أمضى الفراق فيما حكمه، ولا أنفذ فيما سهّمه" (١).

نجد الكاتب يجعل التناص مع الحديث النبوي مدخلاً يفتح به النّص، ويشير به إلى حاله مع المخاطب من عدم الرضى والقبول، باستدعائه نصّ الحديث "إني لو استقبلت من أمري ما استدبرت لم أسوق الهدي ولجعلتها عمرة" (٢) واصفاً به حاله في مستهل الرّسالة، والنّدم على تفويضه له، وخيبة أمله، فهو كما يقول من ذات الرّسالة "كالقاطع يده بيده، والفاجع نفسه بنفسه" لذا كان الاقتباس مدخلاً موافقاً لمضمون الرّسالة، وكاشفاً للمعنى المقصود.

(١) المصدر نفسه، ص ١٠.

(٢) يُنظر: سنن أبي داود، تحقيق: عزت عبيد الدعاس، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٨٩هـ، ١٠/١.

ونجد مثلاً آخر يتخذ منه الخوارزمي شاهداً يقنع به أحد أصدقائه، ويبير به عدم قبول هديته، حيث أهدى إليه صديقه جارية حسناء، ولكنه بعث بها مع شاب لا يؤمن جانبه، فأنكر عليه ذلك، وأقام عليه الحجة بالاستدلال بالحديث النبوي لإدراكه بأنه مُسلّم القبول على نحو قوله: "وصلت الجارية ورددتها؛ لأنّي رأيتك موصّلها شاباً، وإذا اجتمع الشّابان، فقد اجتمعت النّار والخلفاء، بل اجتمع الظّمآن والماء، وهذا ميدان لأبليس فيه مجال، وزاوية له فيها أفعال، وإنّ النساء لحم على وضم، وصيده في غير حرم، إلا أن تلاحظ عين غيور، وتلائم بنفس يقظ حذور" ^(١).

إن التناص مع الحديث النبوي "النساء لحم على وضم" ^(٢) في ختام الرسالة يؤكد به حجته، ويبير به موقفه، وينقل المتنقلي إلى نص مألف التسليم، ومتيقن القبول؛ لتحقيق كامل الإقناع من عدم قبول الهدية، وقد أخضع النص للمعنى المقصود بما يمتلكه من قوة الاستشهاد، وبلاجة التأثير.

وقد يعمد الكاتب إلى إسناد النص إلى النبي ﷺ في سياق الاعتذار ليؤكد به خطابه، ويبير به حسن صنيعه، كما أنه يضفي على أسلوبه الجمال البياني، والإعجاز الدلالي من تداخل الأجناس على نحو قوله: "وما أردت بما قلته غير الشفقة، ولا نطقت إلا بلسان المقة، وإنما اتبعت فيه السنة، فقد كان رسول

(١) أبو بكر الخوارزمي، الرسائل، ص ٧٥.

(٢) ينظر: أبو محمد الزيلعي، تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشاف للزمخشري، تحقيق: عبدالله بن عبد الرحمن السعد، ط١، دار ابن خزيمة، الرياض، ٤١٤٣ هـ، ٣٣٧/٣. وقال: حديث غريب مرفوعاً.

الله صلى الله تعالى عليه وسلم يحب الفأل ويكره الطيرة، وهذه مزحة خفيفة، وإن كانت ثقيلة عليه، وظرفية وإن كانت سخيفة لديه، ومحببة إلى سامعها وإن كانت وإن كانت بغية إليه، وقد اعتذر العذر وإن قل، دواء كل ذنب وإن جل، والسلام^(١).

يستعين الكاتب بالتناص في ختام الرسالة في مقام الاعتذار بما يحمله من جمال التعبير، وبراعة التأثير، وما يدركه من حسن التقبيل، وقوة التسليم، لاسيما إذا كان الاعتذار عن كلام كان له بالغ التأثير في المخاطب، فيحتاج الكاتب إلى دفع مظنة الغضب بالتدخل النصي ذي الصبغة الإقناعية، كال الحديث النبوى الذى ورد في الختام "كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحِبُّ الْفَأْلَ الْحَسَنَ، وَيُكْرِهُ الطِّيرَةَ"^(٢).

كما أن الخوارزمي يعمد إلى صيغ الأدعية التي استعاد منها رسول الله ﷺ في سياق العتاب الساخر، وهو من التجديد في الكتابة بما يتضمنه هذا الاستعمال من تقوية الصلة بين عبارات الدعاء وسياق الرسالة، وما يحمله من توليد للمعنى المقصود، يقول: "يا سوء القضاء، وجهد البلاء، ودرك الشقاء، يا شماتة الأعداء، وحسد الأقرباء، وطوارق الأرض والسماء"^(٣).

(١) أبو بكر الخوارزمي، الرسائل، ص ٨٩.

(٢) أحمد بن حنبل، المسند، تحقيق: السيد أبو المعاطي النوري، ط١، عالم الكتب، بيروت، ١٩٩٨م، ٢٧٤/٣.

(٣) أبو بكر الخوارزمي، الرسائل، مصدر سابق، ص ٢٠٠.

وعلى هذا النحو، فقد كان التناص مع الأحاديث النبوية متنوع الأشكال، متعدد الوظائف، يكشف عن ثقافة الخوارزمي، وبراعة صنعته، وجمال أسلوبه من جهة، وقوة التأثير، وكمال الإقناع للمتلقي من جهة أخرى.

٣: التناص الفكري

إن الثقافة الموسوعية التي عرف بها أبو بكر الخوارزمي طبعت رسائله بالغنى والتنوع، ومنتها فضاءً فكريًا وثقافيًا متعدد المصادر، ومتتنوع الرؤى، إذ كانت لديه القدرة البالغة على التَّنَاغُم بين مخزونه الفكري، والأفكار المتناصبة التي تتماهي مع أغراضه، وتفاعل مع موضوعاته.

ولعل الفكر الديني يأتي في مقدمة الأفكار المتناصبة مع خطاب الترسل من خلال الاقتباسات المباشرة وغير المباشرة من القرآن والسنة النبوية كما سبق، وكذلك الأسماء الدينية التي تتداعى في مواطن متفرقة من رسائله، على نحو قوله: "وليس بيبي وبينه بعد الخافقين، ولا سدّ ذي القرنين، ولا جبل قاف، ولا سورة الأعراف"^(١).

ونجد تداعي الفكر الديني في سياق التَّعْزِيَة المقتنة بالدعاء، وهي سمةٌ تكثُر في غرض التَّعْزِيَة لدى المترسلين مقتنة بالتهوين والصَّبر والاحتساب، على نحو قوله: "إِنْ تَكُنْ حَلَقْتَ أَنْثِي لَقْدْ خَلَقْتَ كَرِيمَةً غَيْرَ أَنْثِي الْعُقْلُ وَالْحَسْبُ، فَرَحِمْهَا اللَّهُ تَعَالَى رَحْمَةً تَلْحِقُهَا بِمِرْيَمْ وَآسِيَةَ فِي الْأَوَّلِينَ، وَبِخَدِيجَةَ وَفَاطِمَةَ فِي الْآخِرِينَ، وَبِأَمْ دَرْدَاءَ وَرَابِعَةَ فِي نِسَاءِ الصَّحَابَةِ رَحْمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى أَجْمَعِينَ"^(٢).

(١) المصدر نفسه، ص ٧٤.

(٢) أبو بكر الخوارزمي، الرسائل، مصدر سابق، ص ٢٠.

وقد يجنب التناص في سياق التعازي إلى معاني الصبر والاحتساب، والتسليم بالقضاء والقدر، وسرد الألفاظ الإسلامية، والآيات القرآنية التي تحقق قوة التأثير في المخاطب، والتهوين عليه من ألم المصاب، وذلك بتذكيره بقراءة كتاب الله، ورواية سنة نبيه ﷺ على نحو قوله: "وشيخي أعرف بالله، وأقرأ لكتاب الله، وأروي لأخبار رسول الله من أن يتآدب بغير أدب الله، ولا يسلم لقضاء الله ... جعلنا الله تعالى من ينجز بالصبر ما وعده من البشري، والصلوات والرحمة والهدى، فإنه تعالى ذكره ذكر الصابرين، فقال: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَواتٌ مِّنْ رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهَتَّدُونَ﴾^(١) وألمتنا العزاء عما استأثر به، والشكر على ما أخلف به، والسلام^(٢).

ومن التناص الفكري ما نجده لدى الخوارزمي من تجسيده لأعلام الفكر والطّب والفلسفة، لا سيّما إذا اقترب ذلك لديه بالسُّخرية من المخاطب على نحو رسائله في هجاء أبي الحسن المعروف بالبدائيه التي تعدّ من أطول رسائل ديوانه، وأكثرها توظيغاً لأشكال التناص، فمن التناص التاريخي قوله: " حتى كأنك جعلت من مائدة عيسى بن مريم غدائك، ومن كبش اسحق عشاءك، وحتى كأنك أمرت شداد بن عاد، ببناء أرم ذات العماد، التي لم يُخلق مثلها في البلاد، وحتى كأن خالد بن الوليد قاتل تحت رايتك، وقتييبة بن مسلم فتح البلاد ببركة دعوتك... وحتى كأنك كشفت لبطليموس الفلك حتى نظر إليه، ومثلت

(١) سورة البقرة، آية رقم: ١٥٧.

(٢) أبو بكر الخوارزمي، الرسائل، مصدر سابق، ص ١٤٧.

الجاليوس تركيب الجسد حتى وقف عليه، وحتى كأنك أورثتبني أسد العيافة، وبني مدح القيافة، وعلمت شقا وسطيحا الكهانة، وحتى كأنك علمت حاتم بن عبد الله السخاء، والسموأل بن عادياء الوفاء، وقيس بن زهير المكر والدهاء، وإياس بن معاوية الفطنة والذكاء، وأخذ عنك سيف بن ذي يزن أخذ الثأر، والإدراك بالأوتار^(١).

إنَّ المتأمل في هذا النص يجد الخوارزمي واسع الثقافة، حيثُ عرض من كلٍّ فنَّ أعلامه، ومن كلٍّ علم رموزه إمعانًا في السخرية بالمخاطب، وتعريضاً بجهله، وذلك في حشده رموز هذه العلوم ودلالاتها في النيل من البديهي، وبيان جهله وضلاله، كما أتَّ توظيف عنصر المقابلة بين هؤلاء الأعلام وبين المخاطب يدلُّ على قلة شأنه، ودنو منزلته من جهة، والاعتداد بسعة ثقافة الكاتب، وإيمانه بالعلوم والمعارف التاريخية من جهة أخرى.

ويتابع الخوارزمي هذه التناصات في الرسالة نفسها بقوله: "وكأنَّ البحر يمْدُّ إذا أمرته، ويجزر إذا زجرته، وحتى كأنَّ كسرى أنوشروان صاحب نفقة اصطبلك، ونمرود بن كنعان قهرمانك على ولدك وأهلك، وحتى كأنَّ تكريت محلَّ دارك، والدرة اليتيمة أحسن سوارك، وحتى كأنَّ رستم بن دستان عجز عن مدد قوسك، واسفنديار بن كرستاسب ضعف عن حمل سيفك وترسك"^(٢).

وعلى هذا النحو نجد الخوارزمي يستعرض ثقافته الواسعة في التنوع بين هذه التناصات التاريخية لتصوير جهل المهجو والتقليل من شأنه، وبالمقابل فلن

(١) المصدر نفسه، ص ١٩٨.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٩٨.

يتمكن الكاتب من توظيف التناص الفكري بأبعاده المعرفية ما لم يكن ذا ثقافة واسعة بشتي العلوم والمعارف المتنوعة، ومقدرة بدعة في تطوير هذه الثقافات في سياق رسالته، وخدمة غرضه.

ومن التناص الفكري الأدبي ما نجده في جواب رسالة له اقترب فيها المدح بالعتاب وصلت إليه من أحد الكتاب، وقد بزرت فيها مقدرتها الفنية، وثقافته الأدبية، وتفننها بسرد أعلام الأدب، ومشاهير النظم والنشر أمام المخاطب؛ ليبرز له قدرته الأسلوبية في العتاب إن أراد عتاباً، وفصاحتته وإبداعه إن أراد رداً وجواباً، ولكنه أعرض عن ذلك ل مكانة المخاطب، وعظم منزلته لديه، فكان جوابه في الرسالة يتماهي بين المدح والعتاب تبعاً لتذبذب المخاطب بين الوصل والإعراض، والانبساط والانقباض، يقول: "وكيف تساعدني ببني، على ما يخالفني فيه جناني، وكيف يطعني بعضي فيما يعصيني فيه كلّي، ولو كنت أحمد بن يوسف في البلاغة، وعبدالحميد بن يحيى في اتساع الكتابة، وعمر بن يحيى في الاختصار، وأبا الريبع في التوسيع والإكثار، وأبا العيناء في العارضة، وأبا العناية في البديهة، وابن المعتز في التشبيهات، وأبا نواس في الحمراءات والطرديات، والعتابي في المعاتبات، والنابغة في الاعتذارات، وصربيع الغواني في الاستعارات، والفرزدق في الفخريةات، وجريراً في المهاجاة، وغلبت في المخاطبة صعصعة بن صوجان، وقمعت في الفصاحة خالد بن صفوان، ونطقت بيتمة ابن المفعع مرتجلاً، وأتيت بعجز آل رقية مبتدعاً، وبعذراء آل خارجة مقتضياً، وضرب بي المثل في المقامات لا بسجحان وائل، وبوهي بي في العي لا بباقل، وحفظت حفظ الشعبي، وحضرت محاضرة ابن القرية التمري، وأبدعت إبداع

أبي قام الطائي، وواعظت عظة الحسن البصري، وجادلت جدل النظام في الكلام، وصنفت تصنيف الجاحظ في الجد والهزل، وأربست على إيس بن معاوية في الذهن والعقل، وبهرجت الأصمعي رواية، وزفت أبا عبيدة حفظاً ودراءة^(١).

إنَّ الكاتب وظَّفَ التناص الأدبيَّ في هذا النص توظيفاً بدِيعاً حيثُ حقَّ من خلاله اعتداده بذاته، وكشفَ مدى ثقافته ومقدراته الأدبية التي صورها بأَنَّها تفوقَ أبرز أئمَّة البلاغة والفصاحة، وأعلام الأدب والكتابة، وهو يُؤكِّد بِهذا الاستعراض الدقيق قدرته على الرد، وإفحام الخصوم، وأنَّه لا يعجزه بيانه، ولا تعيه درايته ودهاؤه، فهو أكثر إبداعاً وارتجالاً من مشاهير الشِّعراء، وجدلاً وتصنيفًا ومحاورة من مبدعي الكتاب، كما أنَّ التناصات مع هؤلاء الأعلام وفنونهم الأدبية تكشف المهارة التَّقدِيَّة لدى الخوارزمي حيثُ جعل لكل فنٍ تقسيماته الدقيقة التي ذكرَ أبرز أعلامها، كرواية الأصمعي، وحفظ ودراءة أبي عبيدة معمر بن المثنى، وهجاء جرير، وفخر الفرزدق، وعتاب العتaby، وبديبة أبي العتاهية ونحوهم من كان لهم سبق وتميُّز في جزئيات دقيقة من النقد والأدب في التاريخ.

ويتابع الخوارزمي في سياق اعتداده بذاته، وفخره بقدرته وإبداعه تناصه مع أعلام الفنون، ويرى بأَنَّهم منه يتعلمون، وإليه يعودون، فيقول: "وأخذ عَيْ بِطَلْمِيُوسَ عَلَمَ الْهَيَّةِ، وَأَرْسَطَ طَالِيُسَ عَلَمَ الْفَلَسْفَةِ، وَبَلْنِيَّاسَ بَابَ الْطَّلْسَمِ

(١) المصدر نفسه، ص ١٨٣.

والحيلة، وقرأ على سيبويه نحو البصريين، والفراء نحو الكوفيين، واختلفت إلى الهند في تعليم الحساب، ودرس على أبو عثمان المازني علم التصريف والإعراب، واقتبس مني الخليل عروض الشعر، وكان هاروت وماروت تلميذي في السحر، وضرب على قالب خطى خط ابن مقلة، وتوارث الكتابة أهل بيتي كما توارثها بنو ثوابة، وأمليت على ابن الكلبي شجرو النسب، وعلى أبي عمرو بن العلاء أيام العرب، وأوتيت الحكمة وفصل الخطاب، وكنت الذي عنده علم من الكتاب، وعددت في الراسخين في العلم عدا، وقال لي موسى هل اتبعك على أن تعلماني مما علمت رشدا، ثم حملت بعد هذا كله على أن يمضي بي في عتاب الإخوان لساني، أو يجري فيه بناي، لقصر عن ذلك عناي، ولأربك فيه عقلي وبيان^(١).

إنَّ أبا بكر الخوارزمي مع استعراضه الثقافي البديع، ورصده لكل الأعلام الأقدمين ذو مقدرة فائقة على تخفيض الألفاظ البليغة، وتطويعها لأسلوبه السجعى الذي عرف به "إنه الأسلوب الجديـد، أسلوب الرسائل الشخصية عند الأستاذ الأديب أبي بكر الخوارزمي، الذي اشتهر بالبلاغة والبيان في عصره، لما كان يسوق في رسائله من مثل هذه العبارات المرصوصة، التي تدل على التصرف والمبالغة، كما تدل على ضرب من الإفراط في استخدام الجمل، والتركيب المسجوعة، وأكير الظن أنه كان يعمد إلى ذلك عمداً، حتى يجمع لتلاميذه في رسائله جميع صور التعبير، التي يمكن أن يستخدموها في فكرة من الأفكار"^(٢).

(١) المصدر نفسه، ص ١٨٤.

(٢) شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في النثر العربي، ط ١٣، دار المعارف، القاهرة، د.ت، ص ٢٣٦.

وإنَّ المبالغة والتهويل في هذا النَّص هو نوع من التصنيع الذي عرف به الخوارزمي، واعتماده على الإشارات التاريخية، والتناصات الفكرية الكثيفة تكشف عن الثقافة الواسعة التي يعتمد عليها في ترسُّله لاسيما إذا كانت في مقام الفخر أو التعريض بالمخاطب، ولكنه قد يوقعه هذا الاجتالب للعلوم والمعارف، وتراكم العبارات والتراكيب في الخروج عن الطرق الطبيعية في التعبير الفني^(١).

ومن التناص الفكري استعماله مصطلحات العلوم، وعبارات المؤلفين على نحو قوله: " وقد قرأتُ على متعلم غير عالمٍ لا يدرِّي، ولا يدرِّي أَنَّه لا يدرِّي، فرأوها زاء، وميمها حاء، وطاؤها ظاء... ومن آفة العلم خيانة الوارقين، وتخلف المعلمين، كما إنَّ من آفة الدين فسق المتكلمين، وجهل المتعبدين"^(٢)، وعلى نحو قوله من رسالة أخرى إلى تلميذه له: " ثم رجعتُ إلى الحقائق فعلمتُ إنَّ الإنسان ابن أُمّه وأُبّيه، لا ابن أُيامه وليليه، وإنَّ قول الناس أبناء الدهر لفظ مجازي، ومعنى اصطلاحي"^(٣).

فقد تضمن النَّص تناصًا معرفياً مع بعض مصطلحات العلماء في تصنيف أحوال الناس، كقول الخليل بن أحمد "ورجل لا يدرِّي ولا يدرِّي أَنَّه لا يدرِّي، فذلك جاهمٌ فارفضوه"^(٤)، وكذلك تحويله مصطلحات التأليف السائدة لدى

(١) يُنظر: المرجع نفسه، ص ٢٣٦.

(٢) أبو بكر الخوارزمي، الرسائل، ص ١٢١.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٢٥.

(٤) ابن قتيبة، عيون الأخبار، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٨هـ / ٢٠١٤م.

المؤلفين كلفظ المجاز والاصطلاح ونحوهما إلى سياق أدبي فريد يريد به الثناء على نجابة تلميذه، وأنه ابن زمانه، وعالم دهره، إلا أنه بعد التأمل، والعودة للحقائق، فإنّ الزمان لا أبناء له، لولا ما تعارف عليه الناس مجازاً، أو تناقلوه اصطلاحاً. وبهذا فإنّ أبي بكر الخوارزمي كان على دراية بالعلوم والمعارف ومدلولاً لها المعنوية، وكان ذا ثقافة عميقة نلحظ أثراها في تطوير فن الترسل لديه، وإثرائه بالتفاعلات النصية المختلفة، كما أضاف إلى رسائله عمّا وثراء، وغنى وتنوعاً متعدد المصادر، ومتتنوع المناهيل، وهذه التعالقات النصية بمستوياتها الدلالية والشكلية منحت خطاب الرسالة تطويراً وإبداعاً ليس في مقام الأغراض والمقاصد فحسب، وإنما في الأساليب التعبيرية، والخطابات الإقناعية والمحاججية، وإثراء الأجناس التي تتفاعل داخل النص، وتسهم في إنتاج خطاب الرسالة، وتوليد المعاني، والقيم المشتركة.

المبحث الثالث: تحليلات التناص في رسائل أبي بكر الخوارزمي: الآليات
 إن للتناص آليات وأصواتاً تتفاعل داخل الخطاب الأدبي بديناميكية (Dynamic) فاعلة يمارسها المبدع مع مختلف الفنون؛ لتكون متفاعلة مع بعضها، وقد كشف أعلام التناص عن بعض هذه الآليات التي تساعد الناقد على مقاربة النص الأدبي، وسبر أغواره، واستكناه خفاياه، فمنهم من جعلها داخل النص وخارجها، وآخرون جعلوا للنص أنماطاً تنفي النصوص المتناصية نفياً كلياً، أو جزئياً، أو متوازياً كما رأت جوليا كريستيفا، ومن خلال رسائل أبي بكر الخوارزمي سنقف على أبرز هذه الآليات التي تكشف عن عمق التفاعلات النصية في خطاب الترسل لديه.

١) الاقتباس

وهو ما يعرف لدى جوليا كريستيفا بالنفي المتوازي^(١)، ولدى البلاغيين أن يضمن الكلام شيئاً من القرآن، أو الحديث لا على أنه منه^(٢)، ويأتي على أنماط وصور متعددة، من ذلك الاقتباس المباشر، حيث يأخذ الكاتب النص القرآني، أو الحديث النبوي، ويدرجه في الرسالة بطريقة صريحة، وقد كثر هذا النوع في رسائل الخوارزمي كما سبق في موضعه من هذا البحث على نحو قوله متناصاً مع آي القرآن الكريم: "وأسأل الله تعالى أن يجعل أخوتنا متصلة في الدنيا بأخوتنا يوم الدين، فإنَّ 《الْأَخْلَاءَ يَوْمَئِنْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا

(١) ينظر: جوليا كريستيفا، علم النص، مرجع سابق، ص ٧٨.

(٢) ينظر: الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق: بهيج غزاوي، ط٤، دار إحياء العلوم، بيروت، ١٩٩٨م، ص ٣٨١.

الْمُتَّقِرِّبَ ﴿٧﴾، فقد أخذ النّص القرآني بشكل مباشر دون تحوير، ومثله كذلك الاقتباس من الحديث النّبوي بطريقة صريحة، كقوله: "كتابي ولو استقبلت من أمري ما استدبرت، وقدمت من رأيي ما أحرّت، لما أمضى الفراق فيما حكمه، ولا أنفذ فيما سهّمه، ولا قمنا جمِيعاً، أو رحلنا معًا" ^(٢)، فقد اقتبس جزءاً من حديث النبي ﷺ بشكل مباشر، وإن لم يشر إلى أنه من الحديث النّبوي "إني لو استقبلت من أمري ما استدبرت لم أُسق المهدى ولجعلتها عمرة" ^(٣)، وقد تقدم هذا النوع من التناص الصريح الذي يأخذ فيه الكاتب النّص دون تغيير في النّص المقتبس على سبيل الاستشهاد والإدلال.

وقد يعمد إلى الاقتباس بشكل غير مباشر، كقوله: "ولكن لن تتجاوز الطّاقة ذرعها، ولن يكلّف الله نفساً إلا وسعها" ^(٤)، فقد غير النّص القرآني بما يوافق السّياغ، ويتحقق المراد، وعلى نحو قوله من رسالة أخرى: "ولا تحاسب نفسك على دخلك وخرجك، فإنّك بصدّد أضعاف ذلك من الشّواب، وإنّما يُوفّى المحسن أجره بغير حساب" ^(٥)، فقد أشار دون تصريح إلى الآية القرآنية «إِنَّمَا يُوفَى الْصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١﴾» ^(٦) مع تغيير موافق لسياق

(١) أبو بكر الخوارزمي، الرسائل، ص ٦٤. والآية من سورة الزخرف، رقم: ٦٧.

(٢) أبو بكر الخوارزمي، الرسائل، ص ١٠.

(٣) يُنظر: سنن أبي داود، مرجع سابق، ١٠/١.

(٤) أبو بكر الخوارزمي، الرسائل، ص ٢٢.

(٥) المصدر نفسه، ص ١٦٣.

(٦) سورة الزمر، الآية رقم: ١٠.

خطابه، وبيان مقصده، ومن ذلك قوله من رسالة إلى صاحب ديوان الخراج: "ولا أقل من أن يرضي بالجحان، إن لم يشتري بالأنثمان، وأن يمسك بالمعروف، أو يسرح بإحسان، وإن درهماً يؤخذ مني لدرهم ثقيل الوضع على السلطان، قبيح الأحداث في البلدان"^(١)، فالخوارزمي وظف بنية جزئية من الآية القرآنية «فإمساك بمعروفٍ أو تسريرٍ بحسنٍ»^(٢) داخل خطابه مع بعض النفي لأجزاء منه، مع بقاء قوة وهىمنة الشاهد القرآني في الدلالة والتأثير.

ومن التناص الجزئي الذي يأخذ بعض كلمات الآية القرآنية ويوظفها لغرضه، ويطوعها لأسلوبه، قوله: "فأبى الله تعالى وله الحمد إلا أن يقع في البئر من حفر، وأن لا يحيق المكر السيء إلا من مكر، وخرج الحاكم من غيابة تلك الأهوال، خروج المشرفي من الصقال"^(٣)، فإن الناظر يهياً إليه أنه اقتبس الآية القرآنية اقتباساً كلياً، ولكنه يدرك بعد التأمل هذا التحوير الذي وظفه الكاتب لموافقة نظام الرسالة السجعية، ولخدمة غرضه المعنوي، وقد كان التناص الجزئي من قوله تعالى: «ولَا تَحْيِقُ الْمَكْرُ الْسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ»^(٤) فقد أكسب النص رونقاً جماليًّا وفنيًّا؛ لكونه النص المفرد في إعجازه البلاغي، وتأثيره البياني.

وهذا التنوع في التوظيف الجزئي للآيات القرآنية في رسائل أبي بكر الخوارزمي يدلّ مع قوة الاستشهاد على تأثر المترسلين بلغة النص القرآني وبيانه،

(١) أبو بكر الخوارزمي، الرسائل، ص ٢٤.

(٢) سورة البقرة، الآية رقم: ٢٢٩.

(٣) أبو بكر الخوارزمي، الرسائل، ص ٤٤.

(٤) سورة فاطر، الآية رقم: ٤٣.

فلغة القرآن منهُلٌ عذب يرده المترسلون، وينهلون من ألفاظه وأساليبه صيغًا يُحكِّمون بها أساليبِهم، وينسجون بها صناعة أغراضِهم، نجد ذلك في قول الخوارزمي: "ولكن لن تتجاوز الطاقة ذرعها، ولن يكلّف الله نفسًا إلا وسعها، وما عندنا غير خلق لا يشتري بثمن، ولا يعارض بايده بقبيح ولا حسن، وهو الدعاء استجواب الله في الحاكم صالحه، وأسبغ عليه منايجه" (١).

إنَّ هذا الاستدعاء أتى في سياق الشُّكر للحاكم، والاعتذار عن عدم قدرته على رد جميله، وبلغ إحسانه إلَّا بالدعاء له، ولم يجد ما يقوى به مدلوله، ويكشف عن مقصدِه ومكتونِه إلَّا باللجوء إلى الاقتباس الذي أتى جزئيًّا من القرآن الكريم بما يتضمنه من قوة التأثير، وبلاعنة التعبير، فعمد إلى التَّحوير الموفق لسياق خطاب الرسالة، وبنائها الأسلوبي.

وإنَّ المتأمل في رسائل الخوارزمي يجد أنَّه أكثر من الاقتباسات القرآنية المباشرة وغير المباشرة في رسائله، كما تنوَّعت آليات التوظيف من حيث الإشارة إلى الآية إشارة مباشرةً أَنَّها من كلام الله تعالى، وكأنَّه يريده بها قوة الاستشهاد، والاستعانة بقداسة القرآن على غرضه، وتأكيد موضوعه، كما يأتي الاقتباس الكليًّا أحياناً دون الإشارة إلى أنَّه من كلام الله، وكأنَّه يترك للمتلقي قدرة التمييز، ويستخدم معه عنصر المفاجأة بتنوع الأسلوب، وتدخل الأجناس، ونجدَه كثيراً ما يقوم بتعديل بعض كلمات الآيات لمراعاة حسن النَّظام السجعى، والتوازن الصوتي، مع المحافظة على قوة الدلالة، وبراعة التوظيف.

(١) أبو بكر الخوارزمي، الرسائل، ص ٢٢.

٢) التضمين

إنَّ من آليات التناص التي لها حضور بارز في رسائل أبي بكر الخوارزمي التضمين، وقد عرَّفه البلاغيون بأنَّه تضمين شيءٍ من شعر الغير مع التنبيه عليه إنْ لم يكن مشهوراً عند البلغاء^(١)، وقد لا يقتصر المبدع على تضمين شيءٍ من مشهور الشِّعر في كلامه، بل يتعداه إلى تضمين بعض الأقوال المنشورة، والحكم والأمثال المتدالوة، ويعد ذلك من آليات التناص المضمن، كقول ابن الأثير في تعريفه: "هو أن يضمن الشاعر شعره، والتَّاثر نثره كلاماً آخر لغيره؛ قصدًا للاستعانة على تأكيد المعنى المقصود، ولو لم يذكر ذلك التَّضمين لكان المعنى تاماً"^(٢).

وقد تعدد آليات التضمين في رسائل الخوارزمي، وتنوعت مواقعها، وآليات توظيفها في رسائله، فنراه تارة يصرّح بذلك اسم الشاعر، وتارة أخرى يكتفي بالتضمين الشعري دون ذكر قائله، لا سيما إذا كانت من الأبيات السائرة التي ذاعت على ألسنة النَّاس، وتارة يأتي ذكر القائل بعد الشَّاهد لغرض التأكيد والمقارنة، كقوله: "هذا وأنا أقول:

أخوك الذي إنْ أجرضتك ملِمَةً من الدَّهر لم يُرِحْ لها الدَّهرُ واجما

ولا أقول:

وليس أخوك بالذي إنْ تَشَعَّبْتْ عليك أموْرٌ ظَلَّ يلْحَاكَ لائما

(١) ينظر: الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، مرجع سابق، ص ٣٨٣.

(٢) ابن الأثير، المثل السائِر في أدب الكاتب والشاعر، مرجع سابق، ٣٢٦ / ٢.

أصحاب المرقش - أئدك الله - في بيت الواجم، ولم يصب في بيت اللائم^(١)، ومثل هذا النوع كثير في رسائله حيث يصدر التناص بذكر قائله أو يعقبه به، مع إيراد البيت الشعري أو الأبيات دون تحوير، وقد ورد شيء من ذلك في أشكال التناص الأدبي من هذا البحث.

وقد تكون آلية التضمين إيراد بيت في سياق خطاب الرسالة دون إشارة لقائله، ولا أنه من الشعر، إلا أنه خلصه من سياق النّظام السجعى الذي انتظم الرسالة بأكملها على نحو قوله: " بل حالي وحال الأحرار فيها، وأصبح أقوام يقولون ما اشتهوا، وغاب أبو عمرو وغابت رواحله، وقد كنت آوي من الشيخ أيام مقامه بهذه الجنبة إلى كنفٍ رحيب، وجناب خصيـب^(٢)، فقد ضمن البيت الشعري:

وأصبح أقوام يُقْلُونَ مَا اشتهوا وَغَابَ أَبُو عَمْرُو وَغَابَتْ رَوَاحْلُه^(٣)

وقد يعمد إلى اجتزاء عجز بيت من مشهور الشعر دون أن يعزيه لقائله، والاكتفاء بالإشارة إلى أنه من الشعر، نجد مثل ذلك في قوله: " على أني أحمل الجمال على التجمّل، وأوثر البذل على التبدل، وأنشد شعراً: حنانيك بعض

(١) أبو بكر الخوارزمي، الرسائل، ص ٣-٢. والبيان في ديوان المرقش الأصغر. ينظر: ديوان المرقشين، تحقيق: كارين صادر، ط ١، دار صادر، بيروت، ١٩٩٨م، ص ١٠٠.

(٢) أبو بكر الخوارزمي، الرسائل، ص ١٣.

(٣) نسبة صاحب كتاب شرح نجح البلاغة لأبي القاسم المغربي ت ٤١٨هـ. ينظر: ابن أبي الحديد، شرح نجح البلاغة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط ٢، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي، ١٩٦٥م، ٦/١٤.

الشرّ أهون من بعض، وما أيسر دواء هذا الداء لو طاوعتني نفسي العاصية،
وتابعتني رجلي الآية^(١).

فقد كان التّناص جزئياً حيث أخذ عجز بيت طرفة بن العبد^(٢)، وضمّنه خطاب الرّسالة، لبيان حاله حين طلب منه حضور الديوان من غير رغبة، ولكنه رأى أنّ حضوره أهون لديه من الاعتذار، فدخل الديوان مصانعاً، وآخر الحضور مُدارياً.

كما يأتي التّضمين في افتتاح الرّسالة في سياق العتاب؛ وهو من براءة الاستهلال حيث أشرك صديقه المعاذب في قضيته، وأكّد ذلك بالرأي الجمعي من خلال التّضمين، فكلّ من تولّ ولایة فلابدّ يوماً من التفريط في أواصل الصّدقة، واستبدال الوصل بالجفاء على نحو قوله:

"وكلّ ولایة لا بدّ يوماً مغيرة الصديق على الصّديق

قد كنتُ أنتظر مصداق هذا البيت من سيدتي حتى حقق الله تعالى ظني،
ولو أكذّبه كان أحبّ إلىّي، وأوقع لديّ، فسبحان من جعل حصّتي من وفاء
الإخوان منحوسة، وبخاري فيما أعاملهم به ويعاملوني مركوسة"^(٣).

(١) أبو بكر الخوارزمي، الرسائل، ص ١٤.

(٢) يُنظر: ديوان طرفة بن العبد، شرح: مهدي محمد ناصر الدين، ط ٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٥م، ص ٥٣، والبيت:

أبا منذر أفننت فاستبقي بعضاً حنانيك بعضُ الشرّ أهونُ من بعضِ

(٣) أبو بكر الخوارزمي، الرسائل، ص ١٤. والبيت منسوب لأبي زيد الطائي، ينظر: أبو حيان التوحيدى، البصائر والذخائر، تحقيق: وداد القاضى، ط ١، دار صادر، بيروت، ١٩٨٨م، ١٠١/١.

لقد كان التضمين مدخلًا بليغاً افتتح به الكاتب النص، وهو مطرد لدى المترسلين عامةً، ولدى أبي بكر الخوارزمي على وجه المخصوص؛ لما فيه من براءة الاستهلال، وجمال الصياغة، وما يتضمنه من قوة التأثير في المتلقى باستدعائه القيم المشتركة، والرأي الجمعي في سياق الاستدلال والإقناع بالحجج المتوازنة. وكثيراً ما تأتي النصوص المضمنة لدى الخوارزمي في درج الكلام لغرض الاستشهاد دون تغيير في ألفاظها ما عدا التحوير الفيّ للشاهد الشعري، وتوجيهه لغرض الرسالة، وإثرائها بمادته الموروثة على نحو قوله: "وكلام الحبيب حبيب، وكلّ شيء من القريب قريب، قال جرير:

إِنَّ الْبَلِيلَةَ مِنْ تَمَّ كَلَامَهُ فَانْقَعَ فَوَادَكَ مِنْ حَدِيثِ الْوَامِقِ

وقال غيره:

وإِذَا كَرِهْتَ فَتَيْ كَرِهْتَ كَلَامَهُ وَإِذَا سَمِعْتَ غَنَاءَهُ لَمْ تَطْرِبِ
أَرْدَثُ مَكَاتِبَةَ الرَّئِيسِ ثُمَّ أَشْفَقْتُ عَلَى سَمْعِهِ أَنْ أَمْلَأَهُ بِالْكَلَامِ الْغَثِّ،
وَعَلَى نَاظِرِهِ أَنْ أَشْغَلَهُ بِالْخُطُّ الرَّثِّ^(١).

ونجد الكاتب قد وظّف الشّواهد لغرضه السّاخر بالمخاطب بطريقة تختلف عن إيراده لتنقية مضمونه حيث نجده ينشئ حواراً بين عدد من الأصوات، ويقوم بإدارة تحويرها لمقام غرضه، وخدمة مقصده، بل نجده في نص آخر يعاتب الشّاعر الّذي قال معنى الشّاهد الشّعري في غير المخاطب لغرض السّخرية منه، فكيف يُعير غيره ما ينبغي أن يكون له من المدح والثناء على نحو قوله: "إِنِّي

(١) أبو بكر الخوارزمي، الرسائل، ص ٤٢. ولم أجده قائل البيت الثاني فيما عدت إليه من مظان.

وفقدك فلا شيء أعز على منه، ولا أحسن منه، ما سمعت قول علي بن جبلة في أبي دلف:

إِنَّمَا الدِّنِيَا أَبُو دَلْفٍ بَيْنَ بَادِيهِ وَمَحْتَضِرِهِ
فَإِذَا وَلَّ أَبُو دَلْفٍ وَلَّتِ الدِّنِيَا عَلَى أَثْرِهِ
إِلَّا غَضِبْتُ عَنْكَ عَلَيْهِ، وَاعْتَقَدْتُ أَنَّهُ سَرَقَ صَنْعَتَكَ، وَأَعْارَ أَبَا دَلْفٍ
مَدْحَتَكَ، وَلَا سَمِعْتُ قَوْلَهُ:

إِنَّمَا الدِّنِيَا حَمِيدٌ وَأَيَادِيهِ الْجَسَامِ
فَإِذَا وَلَّ حَمِيدٌ فَعَلَى الدِّنِيَا السَّلَامُ
إِلَّا تَمَنَّيْتُ لَوْ عَرَفْتُ قَبْرَهُ فَرَجَمْتَهُ، أَوْ عَرَفْتُ بَيْتَهُ فَهَدَمْتَهُ، وَلَا سَمِعْتُ قَوْلَ
لِيلِيَّ:

فَتَّى كَانَ أَحْيَا مِنْ فَتَاهٍ حَيَّةٍ وَأَشْجَعَ مِنْ لَيْثٍ بَحْفَانَ خَادِرٍ
إِلَّا قَلْتُ، فَكَيْفَ لَوْ رَأَتْ لِيلِيَّ أَخَانَا، فَتَعْلَمَ أَيَّ دُعَواهَا مِنْ دُعَوَانَا، وَلَا
أَنْشَدْتُ قَوْلَ ابْنِ أَبِي الْعَسْلَافِ الرَّشِيدِ:

أَغْيَثًا تَحْمَلُ النَّاقَةُ أَمْ تَحْمَلُ هَرَوْنَا
أَمَّ الشَّمْسُ أَمَّ الْبَدْرُ أَمَّ الدِّنِيَا أَمَّ الدِّينَا
إِلَّا رَحْمَتَكَ مَا قَطَعَ عَلَيْكَ طَرِيقَ اسْتِحْقَاقِكَ، وَمَدْحُ غَيْرِكَ بِمَحَاسِنِ
أَخْلَاقِكَ، وَأَمَا قَوْلَ الطَّائِيِّ:

تَسُودُ أَقْوَامٌ وَلَيْسُوا بِسَادَةٍ بَلِ السَّيِّدِ الْمَقْدَامُ سَلْمُ بْنُ نُوفَلٍ
فَلَا شَكَّ أَنَّ الشَّيْطَانَ تَكَلَّمَ بِهِ عَلَى لِسَانِهِ، حَتَّى أَبْرَزَ وَصْفَكَ فِي غَيْرِ
أَوْانِهِ، وَلَوْ رَأَكَ عَلِمَ أَنَّ سَلْمَ بْنَ نُوفَلَ لَا يَسُودُ وَأَنْتَ حَيٌّ، وَأَمَّا قَوْلُ زَهِيرٍ:

لو كنت من شيء سوى بشرٍ كنت المنور ليلة القدر
 فإني والله أعجب منه كيف قاله في غيرك، ولم ترمي جهنّم بشرارها، ولم
 ترجمه الملائكة بأحجارها، وأعجب منه قول من قال في معن بن زائدة:
 مسحَتْ معدُّ وجهَ معنٍ سابقًا لما جرى وجرى ذُووا الأحسابِ
 كيف يسبق غيرك في حلبة أنت في عدادها، وكيف يكون غيرك سابق
 جيادها^(١).

إن النص من رسالة طويلة كتبها الخوارزمي لأبي الحسن البديهي الشاعر، وقد اتجهت اتجاهًا ساخراً متخذةً من التناص الشعري أسلوبًا مضادًا للمخاطب الشاعر، فأدت الرسالة محملة بالتناصات الشعرية، وكأن الخوارزمي مع توظيف هذه الأصوات لغرضه يتبااهي بقدرته الفنية، وثقافته الأدبية التي تفوق قدرة المخاطب الشاعر، وهذا يؤكد بأن العلاقة الأدبية بين المترسلين منحت الرسائل بعدها أدبيًا وفيها آخر تتفاعل فيه الأجناس الأدبية، وتتولد معه المعاني الجديدة، وتحوّل النصوص إلى مقاصد تخضع لإرادة المترسلين وخدمة موضوعاتكم.

ومن آليات التناص المطردة إعادة بناء البيت المضمن وتحويره بما يتناسب مع سياق الخطاب، والعمل على مفاجأة المتلقى، وتحفيز ذاكرته الأدبية لتلقي إعادة صناعة الموروث الأدبي في سياقات جديدة، نجد مثل ذلك في قوله: "فإلى أين المهرب من الفلك الدوار، ومن القدر الجبار، ومن خطر الليل الذي هو مدركي، وإن خلُتْ أَنَّ المتأمِّل عنَّه واسع"^(٢).

(١) المصدر نفسه، ص ٢٠٣.

(٢) المصدر نفسه، ص ٩٥.

لقد كان التناص غير مباشر حيث أعاد بناء بيت النابغة الذبياني الشهير، والتغيير في بعض ألفاظه بما يوافق خطابه الترسلي، وسياقه الفتني والمعنوي مع المحافظة على بعض ألفاظ النص الغائب:

فإِنَّكَ كَاللَّيلَ الَّذِي هُوَ مُذْرِكٌ وَإِنْ خَلَّتْ أَنَّ الْمُتَنَّى عَنْكَ وَاسْعُ^(١)
وَلَمْ يَقْتَصِرْ التَّعْدِيلُ وَإِعْادَةُ بَنَاءِ الْمُورُوثِ الْأَدْبَرِ عَلَى الشِّعْرِ فَحَسْبُ، وَإِنَّمَا
تَعْدِي ذَلِكَ إِلَى الْأَمْثَالِ الْعَرَبِيَّةِ الَّتِي تَلْزَمُ صِيَاغَةً وَاحِدَةً، وَذَلِكَ بِتَحْوِيرِهَا وَفَقَ
سِيَاقِ الرِّسَالَةِ مَعَ الْمَحَافَظَةِ عَلَى بَعْضِ الْأَلْفَاظِ الدَّالَّةِ عَلَى النَّصِّ الْغَائِبِ عَلَى
نَحْوِ قَوْلِهِ: "ثُمَّ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَلَّ تَلْكَ الْضَّبَابَةَ، وَقَشَعَ تَلْكَ السَّحَابَةَ، وَغَسَلَ
عَنْ وَجْهِي وَعَنْ وَجْهِ أَهْلِ الْحَقِّ تَلْكَ الْكَبَّابَةَ"^(٢).

وَهُوَ يُشَيرُ إِلَى الْمَثَلِ الْعَرَبِيِّ الْقَدِيمِ "سَحَابَةُ صَيْفٍ عَنْ قَلِيلٍ تَقْتَشَعْ"^(٣) الَّذِي
يُضَرِّبُ لِسُرْعَةِ انْقَضَاءِ الْأَشْيَاءِ وَزُوْهَا، وَقَدْ تَصَرَّفَ فِي بَنَاءِ الْمَثَلِ الْمَضْمَنِ تَصْرِفًا
يُوَافِقُ نَظَامَ الرِّسَالَةِ السَّجْعِيِّ، وَالْبَنَاءُ الْأَسْلُوْيِّ مَعَ الْمَحَافَظَةِ عَلَى الْأَلْفَاظِ الدَّالَّةِ
عَلَى الْمَثَلِ الْعَرَبِيِّ الَّذِي يَتَبَدَّلُ إِلَى ذَهْنِ الْمُتَلَقِّي عَنْدَ سَمَاعِهِ لِلنَّصِّ.

وَمِنْ إِعْادَةِ الْبَنَاءِ وَالتَّحْوِيرِ فِي الْأَمْثَالِ بِمَا يُوَافِقُ الْخَطَابَ، وَيَنْتَسِبُ الْمَقَامُ
قَوْلُهُ: "وَلَا زَالَ الْمَلْكُ سَلِيلَهُ وَنَتْيَجَهُ، وَالْعَزَّ صَنْيِعَتِهِ وَخَرِيجَهُ، حَتَّى يَمْلِكَ الْأَقْلَالِيْمَ،

(١) يُنْظَرُ: دِيَوَانُ النَّابِغَةِ الذَّبِيَّانِيِّ، تَحْقِيقُ: شَرْحُ عَبَّاسِ عَبْدِ السَّتَّارِ، طِّسَّار٢، دَارُ الْكِتَابِ الْعُلُومِيَّةِ، بَيْرُوت٢، ١٩٩٦م، صِ ٥٦.

(٢) أَبُو بَكْرُ الْخَوَارِزْمِيُّ، الرِّسَائِلُ، صِ ٤٥.

(٣) يُنْظَرُ: الْمَيَّدَانِيُّ، مُجَمِّعُ الْأَمْثَالِ، مَرْجِعُ سَابِقٍ، ١/٤٤٣.

ويفترش السرير العظيم، فيعطي القوس باريها، ويملك الزعامة من يليق بها ويحسن فيها".^(١)

فقد اتخد من المثل السائر "أعط القوس باريها"^(٢) مادة بناء أسلوبي جديد مع بقاء التأثير الدلالي لقوة المثل التي يستدعي به الرأي الجمعي، والجمال الفتّي الذي يعانق خطاب الرسالة، فيزيد المعنى ثراءً وعمقاً.

٣) الإحالة والتلميح

يدرك الكاتب وعي المتلقى وثقافته التي تمكّنه من فهم خفايا النص وإيحاءاته، فيقوم بتوظيف بعض الكلمات والعبارات الجاهزة التي توحّي بإشارات رمزية، أو إحالات مرجعية للحوادث التاريخية، والأحوال المعهودة، أو الأعلام البارزة في شتى الفنون والمعارف، وهذه الإحالة إذا وقعت "الموقع اللائق بها، فهي من أحسن شيء في الكلام، فلتذكّر ما مضى من الأمور التي يقل نظيرها في ما هي عليه من الأوصاف التي تميل إليها النفوس، أو تنفر عنها، موقع عجيب من النفوس".^(٣)

ولذلك نجد أبا بكر الخوارزمي يتخذ الإحالة من آليات التناص التي تشكّر في رسائله على صور مختلفة، وتحمل أبعاداً دلالية يستدعي بها ذاكرة المتلقّي، ويشير بها إحساسه تجاه تلك الرموز، ويربط بينها وبين سياقها الجديد الذي يعبّر

(١) أبو بكر الخوارزمي، الرسائل، مصدر سابق، ص ١٦٦.

(٢) ينظر: أبو الفضل الميداني، جمجم الأمثال، مرجع سابق، ٢/١٩.

(٣) حازم القرطاجي، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة، ط ٣، الدار العربية للكتاب، تونس، ٢٠٠٨، ص ١٦٨.

عنه خطاب الرسالة نجد مثل ذلك في سرده لشخصيات تاريخية ترتبط في ذهن المتلقي بأحداث وأخبار تمثل إليها النفوس كقوله: " وجلست من الدواوين بين آل الخراج وآل بويه، ومن بنى الحصيب وبني مقلة... وحضرت من الآخرة ابن المفع البصري، وسهل بن هارون الفارسي، وابن عبдан المصري، والحسن بن وهب الحارثي، وأحمد بن يوسف المأموني، ووُضعت عن يميني عهد أردشير بن بابكان، وعن يساري كتاب التبین والبيان"^(١).

فإن الخوارزمي تمكن من نقل هذه الأعلام من فضاءاتها الثقافية، وعوالمها التاريخية إلى سياقات جديدة؛ ليبعث في ذهن المتلقي قدرته ومكانته التي تفوق تلك الرموز، وما تحمله من محاسن وفون.

ونجد هذه الإحالات كذلك في قوله: " ولو أهديتُ إليه تاج كسرى، وخرج الدنيا، وخاتم سليمان، وذخيرة الهرمزان، وصدقة البصرة، وجوهر الشمسة، وكسوة الكعبة، مع الدرة اليتيمة، مع جواهر الخلافة، نعم ولو أتحفته بمال قارون الإسرائيли، وكنز النطف بن حبر التميمي، وملك عمرو بن حرث المخزومي"^(٢).

ويواصل هذه الإحالات المرجعية، والإسقاطات التاريخية التي تثري النص، وتكتفف المعنى، فيقول في سياق المدح، وأنه لا يستطيع أن يبلغ قدر مدحه، فيقول: " ولو قلت فيه ما قال حسان بن ثابت في آل جفنة، ومدحته بما مدح به زهير هرم بن سنان بن أبي حارثة، وشهدت له بما شهدت به الخنساء

(١) أبو بكر الخوارزمي، الرسائل، مصدر سابق، ص ٣٦.

(٢) المصدر نفسه، ص ٩٧.

لأخويها صخر ومعاوية، وصنفت فيه ما صنّفه الجاحظ في *محاسن أحمد بن أبي داود الإيادي*^(١).

فقد سرد مشاهير أعلام الأدب الذين عرفوا بالفصاحة والبيان؛ ليؤكّد علو المدح، وسمو منزلته، وأنّه لن يبلغ مدحه وإن ملك بلاغة هؤلاء الأعلام عبر العصور، وعلى الرغم من تعدد الشخصيات المستدعاة، وتنوع فنونهم إلا أنّ النص محكم البناء، ومترابط الأجزاء.

وقد يأتي هذا التعدد والاجتالب في سياق عتاب الأصدقاء لتأخر جوابهم، فيقترن بالمباغة والتهويل، حتى أنه يظنّ أنّ أحد الصعاليك قد سطا على المكتوب ونحبه، ثم ما يلبث أن يستدعي مشاهير صعاليك العرب في تتابع بديع، ونسقٍ بلٍغ، كقوله: "وليت شعري كيف سلط على كتبنا حتى اقتطعها دوننا سليك بن السلكة السعدي، وأوفى بن مضر المازني، وعمر بن بدقة الهمداني، والشنفرى الأزدي، وتأبط شرّا الفهيمي، والسمهري العلكي، ومالك بن الريب المزني، وشطاط وبرجان وكعب بن حدر، ومالك بن خزيم وعمر الكلب المذلي، وجحدر البكري، والمتشر بن وهيب الباهلي، وأبو النشاش الحنظلي، والقتال الكلابي، وأبو حربة والخطيم التميمي... هؤلاء لصوص العرب وصعاليكها الذين كانوا يسلبون الناس سلباً، ويأخذون كلّ سفينة غصباً^(٢).

(١) المصدر نفسه، ص ٩٧.

(٢) المصدر نفسه، ص ٩٧.

لقد أحال في هذا التص لكل لصوص العرب ظنية سرقة كتاب صديقه الذي تأخر عليه جوابه، وهو عتاب مقتنن بالسخرية، فكانت المبالغة في الاستقصاء لتلك الشخصيات التي قد ينوب عن استعراضها إشارة يسيرة لولا ما بينهما من صدقة تسع لذلك، فنجده يعزّو هذا التأخير إلى هؤلاء الصعاليك مبالغة وتحويلاً وإمعاناً في إحراج صديقه، ويؤكد ذلك بقوله من ذات الرسالة: "وَمَا بَعْدِ الْيَوْمِ إِذَا كَتَبْتُ إِلَى سَيِّدِي كِتَابًا قَرَأْتُ عَلَيْهِ الْمَعْذُوتَيْنِ، وَعَلِقْتُ فِي جِيدِه تَمِيمَتَيْنِ" كما أتَه يلمح إلى الآية الْكَرِيمَةُ **(يَأَخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا)**^(١) للبالغة في عتاب الصديق، وهذا الاتجاه الذي يقترن فيه العتاب بالأسلوب الساخر مطرد لدى الكثير من الكتاب، ولعلّ مرده الشوق بينهما، فتأتي هذه الرسائل محمّلة بالمعانى الجديدة، ومكتملة العناصر الفنية.

وقد يحيل إلى قول مؤثر في سياق الاعتزاز بالنصر، والصبر والثبات على الحق فيقول: "وَمَعَ الْيَوْمِ غَدٌ، وَبَعْدَ السَّبَّتِ أَحَدٌ، قَالَ عُمَرُ بْنُ يَاسِرَ رضي الله عنه يَوْمَ صَفِينَ: لَوْ ضَرَبُونَا حَتَّى نَبْلُغَ سَعْفَاتَ هَجْرٍ لَعْلَمْنَا أَنَا عَلَى الْحَقِّ، وَأَهْمَمْ عَلَى الْبَاطِلِ"^(٢)، فهو يستدعي من التناصات ما يوافق غرضه، ويقوّي موضوعه، وهو بهذه الإحالة ينقل المتكلّي إلى فضاء تارخيّ بكلّ مضمونه المعرفية، ثم يعود به إلى الغرض ذاته بقناعة محمّلة بالأدلة والحجج المسلّمة.

(١) سورة الكهف، الآية رقم: ٧٩.

(٢) أبو بكر الخوارزمي، الرسائل، مصدر سابق، ص ١٣٥. وقد ورد قول عمار رضي الله عنه في تاريخ الرسل والملوك، للطبرى، ط ٢، دار التراث، بيروت، ١٣٨٧هـ، ٥/٣٩.

الخاتمة

لقد كان هذا البحث محاولة لدراسة تجلّيات التناص في رسائل أبي بكر الخوارزمي دراسة تقف على أهمّ أشكال التناص المتفاصلة في رسائله، وأبرز آليات توظيف هذه الأشكال التي تعددت صورها، وتنوعت سماتها الفنية، والكشف عن أهمّ الظواهر الأسلوبية التي تزخر بها رسائله، والتي كان لها الأثر في تطوير النّثر العربي، وتوليد المعاني من خلال تداخل النصوص، وتعانق الأجناس الأدبية من جهة، وكافية النصوص المتفاصلة مع الخطاب الترسّلي من جهة أخرى.

وقد بدأ البحث في سياق الإطار النظري بتمهيد يتضمنّ لحة موجزة عن أبي بكر الخوارزمي ومكانته الأدبية بين كتاب القرن الرابع الهجري، وقيمة رسائله الفنية التي كان لها طابع خاص من حيث البناء الفني، والتنوع الأسلوبي، كما تناول التمهيد مفهوم التناص لدى النقاد العرب قديماً، وتبع مفاهيمه ومصطلحاته لديهم، كمصطلح السّرقات الشعرية، والمعارضات الأدبية التي تعددت مدلولاتها عند كثير من النقاد، كالاحتلال والإغارة لدى ابن سلام الجمعي، والأخذ والإغارة عند الجاحظ، والاتباع والأخذ عند ابن قتيبة، ونحوها كالاصطراف، والاحتلال، والانتحال، والمرافدة، والاستلحاق، وما تبعها من دراسات نقدية كموازنة الآمدي بين الطائين، وفضائلة الجرجاني بين المتبني وخصومه في الوساطة ونحوها، والتي كانت نواة للدراسات الحديثة التي بلغت شأواً بعيداً في دراسة النصوص، وتداخل الأجناس في الدراسات الحديثة فيما بعد.

وقد أشار البحث إلى تنازع المصطلح بين النقاد حديثاً بدءاً من رائدة هذا المصطلح التي ترى أن التناصية تحويل التعبيرات السّابقة أو المترادفة إلى أساليب

جديدة، وأنَّ كُلَّ نصٍ يتشَكَّل من نصوصٍ عديدة، ويعُد خلاصة لها، ثم ما لبَثَتْ أنْ فضلتْ عليه مصطلحًا آخر هو المُناقلة، أو التحويل Transposition بعد أن رأَتْ شيوخه لدى طائفَةٍ من النقاد أمثال تودوروف، وريفاتير، وجيرار جينيت، ومشيل ونحوهم، والتنازع بين مترجمي المصطلح بين النقاد العرب الذين تناولوه بالبحث والإثراء وتوثيق الصلة بين الدراسات النَّقدية القديمة، والمصطلحات الحديثة.

كما وقف البحُثُ على تحليلات التناص في رسائل أبي بكر الخوارزمي، وأهمَّ ظواهره الأسلوبية، وسماته الفنية، إذ يلحظ اعتماده على التفاعلات النَّصية المتكررة في أغلب رسائله، وكيف تمكن بقدراته الأدبية من نسج رسائله بأنواع الثقافات العلمية والدلالات اللغوية، والمعارف الدينية والفكريَّة والطبيَّة وغيرها، وتوظيف هذه الأشكال التراثية بمهارته الإبداعيَّة، ومقدراته الفنية، ويتصدر هذه التعالق النَّصي التناص الأدبي، حيث يتجلَّ في عدَّة أشكال أبرزها التناص الشعري نظرًا إلى أهميَّة الشعر العربي، فهو ديوان العرب، ومستودع علومها، وحافظ آدابها وأنسابها، وقد تفننَ الخوارزمي في هذا التوظيف، لكونه شاعرًا مجيدًا يدرك جماليات الشعر وفنونه، ولما يتسم به من ثقافة واسعة، وذاكرة أدبية حافظة جعلته يلُون نصوصه التثريَّة بألوان من النَّصوص الشعريَّة التي تتوافق مع مقاصده وغايياته، ونجدَه يعزُّو تارة الأبيات لقائلها في أغلب التناصات يتصدرها التناص مع أبي الطيب المتنبي، وتارة أخرى يذكر البيت دون نسبة لقائله نظرًا إلى شهرته وذريوعه، أو لعلَّه يريد مفاجأة المتلقِّي بالمعنى المراد، واهتمامه به، فهو يتَّنَوَّع بتنوع أغراض الرسالة، وموافق الأصدقاء والكتَّاب،

وقد أتى التناص الشعري لديه مقتنًا بأغراض الرسالة كالعتاب والاعتذار، والتعازي والتهادي، والفخر واللهم.

ومن أشكال التناص الشعري التي كان لها أثر بارز في تطوير فن الترسّل لدى الكتاب عامة، ولدى الخوارزمي خاصة هو افتتاح الرسائل بتناص شعري يستدعي به إحساس المخاطب، ويستهل به موضوعه، كما أنه يعتمد على التناص كذلك في خاتمة بعض رسائله، وهو نوعٌ من نوع حسن الختام الذي أجاد فيه الخوارزمي على نظير الشعراة في حسن المقطع في القصيدة، وقد فطن لذلك النقاد القدامى، وكان محل عنايتهم بحيث لا يقل عن المطلع في الجودة والإحكام، فكما أن المطلع مفتاح النص، فالمقطع قفله وختامه.

كما وقف البحث على نوع آخر من أشكال التناص الأدبي وهو توظيف الأمثل العربية، والأقوال والعبارات البليغة الجاهزة بشكل مكثف في سياق الإقناع بقبول الاعتذار، والنصح والإرشاد، وتأكيد المعنى، وقوة الدلالة، كما تأتي في ختام الرسالة لتلخيص المضمون، وإحدى الوسائل المستخدمة لإغلاق الرسالة، وقوة التأثير في المخاطب.

وكشف البحث عن التناص الديني بنوعيه الأكثر وروًداً في رسائل أبي بكر الخوارزمي، وقد تصدر هذا النوع من التناص مع القرآن الكريم؛ لقوة تأثير النص القرآني في النفوس نظراً إلى قداسته، والتسليم بقوله وإقناعه، كما يأتي في رسائله من باب الاستشهاد والتدليل على القضايا الواردة بأساليب مباشرة، وغير مباشرة، ويتصدر هذه الأغراض التعزية والتحث على الصبر والتسليم بقضاء الله تعالى في النوائب والملمات، ويأتي في ختام الرسالة لحسن إغلاق الرسالة، أو

الاستعانة به في عدم الإطالة، والنوع الآخر التناص مع الحديث النبوى، وهو قليل مقارنة بالاقتباس القرآنى متعدد الدلائل، ويتجلى ذلك في براعة الاستهلال في مقدمة الرسالة، والتأكيد وقوف التأثير في الخاتمة.

كما وقف البحث على تحليلات التناص الفكرى الذى طبعت به رسائل الخوارزمى نظرًا إلى ثقافته الواسعة، وكان الفكرى الدينى في مقدمة الأفكار التي لها حضور بارز في رسائله، ليس في الاقتباسات المباشرة وغير المباشرة فحسب، وإنما في سرده الأسماء الدينية، والسور القرآنية، والأدعية النبوية، والأقوال والواقع المأثورة التي تتردد في رسائله، ومن جهة أخرى نلحظ نوعًا من التناص الفكرى والأدبي من خلال سرده لأعلام الطب والفلسفة، ومشاهير الأدب والشعر، لاسيما في ثنائية السخرية بالمخاطب، والاعتداد بالذات.

كما تناول البحث آليات توظيف التناص، وكان من أبرزها حضورًا في رسائل الاقتباسات الصريحه، أو ما يسمى بالنفي المتوازي، وغير الصريحه، أو الجزئية، وكذلك التضمين، والإحالة والتلميح متعددة الصور، ومستويات التوظيف.

وبعد فإني آمل أن أكون قد وفقت في دراسة تحليلات التناص في رسائل الخوارزمى، والوقوف على أبرز أشكاله وآلياته، وأنا على يقين بأن هذه الرسائل تزخر بمادة بحثية جديرة بالدراسة من حيث البناء الفنى، والوظائف التداولية، والظواهر الأسلوبية المعرفية التي تضييف للمكتبة الأدبية قائمة من الأبحاث والدراسات القيمة.

قائمة المصادر والمراجع

المصادر:

- الخوارزمي، أبو بكر محمد بن العباس (١٢٧٩هـ) الرسائل، تصحیح: محمد قطة العدوی، ط١، مطبعة الجواب، القدسية.

المراجع:

- الامدي، الحسن بن بشر (١٩٦١م) الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري، تحقيق: أحمد صقر، ط١، دار المعارف، القاهرة.

- ابن الأثير، ضياء الدين (١٩٩٥م) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: محمد محبي الدين عبدالحميد، ط١، المكتبة العصرية، بيروت.

- باختين، ميخائيل (١٩٨٧م) الخطاب الروائي، ترجمة: محمد برادة، ط١، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة.

- الباقلي، أبو بكر (١٩٦٣م) إعجاز القرآن، تحقيق: السيد أحمد صقر، ط٣، دار المعارف، القاهرة.

- البقاعي، محمد خبر (٢٠١٣م) آفاق التناصية، المفهوم والمنظور، ط١، جداول، الكويت.

- بنیس، محمد (١٩٩٠م) الشعر المعاصر، ط١، دار طوبقال، المغرب.

- التبریزی، الخطیب (١٩٩٤م) شرح دیوان أبي تمام، تحقيق: راجی الأسم، ط٢، دار الكتاب العربي، بيروت.

- التوحیدی، أبو حیان (١٩٨٨م) البصائر والذخائر، تحقيق: وداد القاضی، ط١، دار صادر، بيروت.

- الشعالي، أبو منصور (٢٠٠٠م) أحسن ما سمعت، ضبط حواشیه: خلیل عمران المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت.

- الشعالي، أبو منصور (١٩٨١م) التمثيل والمحاضرة، تحقيق: عبدالفتاح محمد الحلو، ط٢، الدار العربية للكتاب، بيروت.

- الشعالي، أبو منصور (د.ت) أبو الطیب المتنبی وماله وما عليه، تحقيق: محمد محبي الدين عبدالحميد، مكتبة الحسين التجارية، القاهرة.

- الشعالي، أبو منصور (١٩٨٢م) يتيمة الدهر في محاسن اهل العصر، تحقيق: محمد مفید قمیحة، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت.

- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، (١٩٨٨م) *البيان والتبيين*، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، ط٧، مكتبة الماخنجي، القاهرة.
- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، (١٩٩٦م) *الحيوان*، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، دار الجليل، بيروت.
- الجمحي، ابن سلام (د.ت) *طبقات فحول الشعاء*، تحقيق: محمود محمد شاكر، دار المدنى، جدة.
- الحاتمى، محمد بن الحسن (١٩٧٩م) *حلية المعاصرة في صناعة الشعر*، تحقيق: جعفر الكنانى، دار الرشيد، بغداد.
- ابن أبي الحميد (١٩٦٥م) *شرح نهج البلاغة*، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة.
- ابن حمدون، محمد بن الحسن (١٩٩٦م) *الذكرة الحمدونية*، ط١، دار صادر، بيروت
- الحموي، ياقوت (١٩٩٣م) *معجم الأدباء*، تحقيق: إحسان عباس، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت.
- الحموي، ياقوت (١٩٩٥م) *معجم البلدان*، ط٢، دار صادر، بيروت.
- ابن حنبل، أحمد بن محمد (١٩٩٨م) *المسند*، تحقيق: السيد أبو المعاطى النورى، ط١، عالم الكتب، بيروت.
- ابن خلkan، أحمد بن محمد (١٩٧١م) *وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان*، تحقيق، إحسان عباس، ط١، دار صادر، بيروت.
- الخوارزمي، أبو بكر محمد بن العباس (٢٠٠٣م) *الأمثال المولدة*، تحقيق: محمد حسين الأعرجي، ط٢، المجمع الثقافى، أبو ظبى.
- أبو داود، سليمان بن الأشعث (١٣٨٩هـ) *السنن*، تحقيق: عزت عبيد الدعايس، دار الكتب العلمية، بيروت.
- الذهبى، النابغة (١٩٩٦م) *الديوان*، تحقيق: شرح عباس عبدالستار، ط٣، دار الكتب العلمية، بيروت.
- ابن رمضان، صالح (٢٠٠٧م) *الوسائل الأدبية ودورها في تطوير النشر العربي القديم*، ٢١، دار الفارابى، بيروت.
- الزعبي، أحمد (٢٠٠٠م) *التناص نظريًّا وتطبيقيًّا*، ط٢، مؤسسة عمون للنشر، عمان.
- الزمخشري، أبو القاسم (١٩٩٨م) *أساس البلاغة*، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت.

- **الزمخشري، أبو القاسم الرمخشري (١٤١٤هـ) الكشاف**، تحقيق: عبدالله بن عبد الرحمن السعد، ط١، دار ابن خزيمة، الرياض.
- **ابن سلام، أبو عبيد (١٩٨٠) كتاب الأمثال**، تحقيق: عبدالجيد قطامش، ط١، دار المؤمن للتراث، دمشق.
- **السيوطى، جلال الدين (د.ت) بغية الوعاة في طبقات اللغوين والنحاة**، تحقيق: أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، لبنان.
- **الضبي، المفضل بن محمد (١٩٨٣م) أمثال العرب**، تحقيق: إحسان عباس، ط٢، دار الرائد العربي، بيروت.
- **ضيف، شوقي (د.ت) الفن ومذاهبه في النثر العربي**، ط١٣، دار المعارف، القاهرة.
- **الطبرى، محمد بن جرير (١٣٨٧هـ) تاريخ الرسل والملوك**، ط٢، دار التراث، بيروت.
- **عبد الرحمن، طه (٢٠٠٧م) في أصول الحوار وتجديد علم الكلام**، ط٣، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء.
- **ابن العبد، طرفة (٢٠٠٢م) الديوان**، شرح: مهدي محمد ناصر الدين، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت.
- **عزم، محمد (٢٠٠١م) النص الغائب تجليات التناص في الشعر العربي**، من مشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق.
- **العسكري، أبو هلال (١٩٨٧م) جمهرة الأمثال**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم وعبد المجيد قطامش، ط١، دار الجيل، بيروت.
- **العسكري، أبو هلال (١٩٩٤م) ديوان المعاني**، شرح وضبط: أحمد حسن بسج، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت.
- **العسكري، أبو هلال (١٩٨٦م) الصناعتين**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، وعلى البحاوي، المكتبة العصرية، بيروت.
- **علوش، سعيد (١٩٨٥م) معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة**، ط١، دار الكتاب اللبناني، بيروت.
- **الغذامي، عبدالله (١٩٩٢) ثقافة الأسئلة (مقالات في النقد والنظيرية)** ط٢، النادي الأدبي الثقافي، جدة.
- **ابن قتيبة، عبدالله بن مسلم (١٩٨١م) تأويل مشكل القرآن**، شرحه: السيد أحمد صقر، ط٣، المكتبة العلمية، المدينة المغيرة.

- ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم (١٤١٨هـ) *الشعر والشعراء*، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار الحديث، القاهرة.
- ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم (١٤١٨هـ) *عيون الأخبار*، دار الكتب العلمية، بيروت.
- القرطاجي، حازم (٢٠٠٨م) *منهاج البلاغة وسراج الأدباء*، تحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة، ط٣، الدار العربية للكتاب، تونس.
- القزويني، الخطيب محمد بن عبد الرحمن (١٩٩٨م) *الإيضاح في علوم البلاغة*، تحقيق: هبيج غزاوي، ط٤، دار إحياء العلوم، بيروت.
- القلقشندى، أَحْمَدُ بْنُ عَلَىٰ (١٩٨٧م) *صَبَحُ الْأَعْشَىٰ فِي صَنَاعَةِ الْإِنْسَانِ*، تحقيق: يوسف الطويل، ط١، دار الفكر، دمشق.
- القيرواني، أبو إسحاق إبراهيم بن علي (١٩٩٧م) *زَهْرُ الْآدَابِ وَغُرُّ الْأَلْبَابِ*، تحقيق: يوسف علي الطويل، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت.
- القيرواني، ابن رشيق (١٩٨١م) *الْعَدْدَةُ فِي مَحَاسِنِ الشِّعْرِ وَآدَابِهِ وَنَقْدِهِ*، تحقيق: محمد محبي الدين عبدالحميد، ط٥، دار الجيل، بيروت.
- كريستيفا، جوليا (١٩٩٧م) *علم النص*، ترجمة: فريد الزاهي، ط٢، دار طوبقال، المغرب.
- الكلاعي، أبو القاسم (١٩٦٦م) *إِحْكَامُ صَنْعَةِ الْكَلَامِ*، تحقيق: محمد رضوان الديبة، ط١، دار الثقافة، بيروت.
- المتنبي، أحمد بن الحسين (د.ت.) *الديوان*، شرح أبي البقاء العكبي، تحقيق: إبراهيم السقا وآخران، ط١، دار المعرفة، بيروت.
- عبد الباسط مراشدة (٢٠٠٦م) *التناص في الشعر العربي الحديث* (السياب ودنقل ودرويش أنموذجًا) ط١، دار ورد للنشر والتوزيع، عمان.
- المرزباني، محمد بن عمران (١٩٣٧م) *الموشح في مأخذ العلماء على الشعراء*، أخرجه: محبي الدين عبد الحميد، ط٢، مطبعة السلفية.
- المرقش الأكبر، ولأصغر (١٩٩٨م) *ديوان المرقشين*، تحقيق: كارين صادر، ط١، دار صادر، بيروت.
- مفتاح، محمد (١٩٩٢م) *تحليل الخطاب الشعري، استراتيجية التناص*، ط٣، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء.
- مفید، نجم (١٩٩٧م) *التناص ومفهوم التحويل من شعر محمد عمران، موقف الأدب*، العدد (٣١٩).

- الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد (د.ت) مجمع الأمثال، تحقيق: محمد محبى الدين عبدالحميد، دار المعرفة، بيروت.
- يقطين، سعيد (١٩٨٩م) انفتاح النص الروائي، ط٢، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء.

جماليات التشكيل في السيرة الذاتية
كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ نموذجاً

د. وئام محمد سيد أحمد أنس
قسم اللغة العربية – كلية الآداب
جامعة الإمام عبد الرحمن بن فيصل

جماليات التشكيل في السيرة الذاتية كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ نموذجاً

د. وئام محمد سيد أحمد أنس

قسم اللغة العربية – كلية الآداب
جامعة الإمام عبد الرحمن بن فيصل

تاریخ تقديم البحث: ١٤٤٢ / ١ / ٨ تاریخ قبول البحث: ١٤٤٢ / ٨ / ٨

ملخص الدراسة:

ترجع أهمية هذه الدراسة، إلى محاولتها إعادة قراءة كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ، من خلال رؤية معاصرة، ترکز النظر على فن السيرة الذاتية في الكتاب، وتنطلق من فرضية مخاتلة اللغة فيه للمتلقى وإيهامه بأنها بسلامتها الدرجة تصل إلى حد السطحية، لكن البحث في شخصية المؤلف والمدونة يثبت عكس ذلك؛ ولذا اختارت الدراسة أبرز الآليات الفنية التي اشتغلت من خلالها نصوص السيرة الذاتية، وهي محاور ثلاثة: جهاز العنونة وقتل في وظيفتين إحداهما تأويلية والأخرى تعينية، وخطاب الوصف من خلال علاقته بالسرد وتوازيه معحدث دورانه مع أنساق الحوار وتخاده أداة من أدوات الحاجاج وكذلك البعد اللغوي، وتحليات "الأنما" في العلاقة الثلاثية بين المؤلف والبطل والراوي من خلال التفاصيل والاستطراد والضمائر ثم رؤيتها تجاه مفردات الكون والحياة.

الكلمات المفتاحية: الوصف - السرد - الأنما - الرؤية

The aesthetics of the pose in the biography Account book for Osama bin Munqith model

Dr. Weam Mohamed Saied Ahmed Anas

Department of Arabic Language. - Faculty of ARTS

IMAM ABDULRAHMAN BIN FAISAL University

Abstract:

The importance of this study is due to its attempt to re-read Osama bin Munqeth's book of consideration; through a contemporary vision. Focusing on the art of the autobiography in the book. Proceeding from the premise of misleading the language in it to the recipient and deceiving him that it is smooth to the point of being superficial. However, the research on the author's personality code proves otherwise. Therefore, the study chose the most prominent technical mechanisms through which the texts of the biography worked. They are three axes: the addressing device, which is represented in two functions, one interpretative and the other designative, and the description discourse through its relationship to the narration and its parallel with the event and its rotation with the dialogue patterns and its use as a tool for pilgrims, as well as the linguistic dimension. And the manifestations of the "I" in the tripartite relationship between the author, the hero and the narrator through details, digressions and pronouns, and then their visions towards the vocabulary of the universe and life.

key words: Description - Narration - Ego – Vision

مقدمة:

ليست السيرة الذاتية فنًا طارئًا أو محدثًا، وإنما متجلز في أعماق التاريخ، متعلق بمدى الحاجة والرغبة في البوح، وتبين أهميتها ليس فقط لكتابه معلم حياة الذات، وتاريخيتها، ولا كوثيقة تسطر مآثرها وتحكي مفاصيرها سواء بفرديتها أم بجماعيتها، وإنما كذلك لرصد رؤيتها لمفردات الحياة والكون، وإبراز مكنوناتها تجاه الكائنات والأشياء، رغبة في تسطير المثل، ورسم القدوة. اخترت أن أخوض غمار هذا البحث لعدة أسباب، أولاً: القيمة الأدبية لكتاب الاعتبار بوصفه مصدراً من مصادر التراث العربي، يحوي موضوعات متنوعة، ويعالجها من زوايا متعددة. وثانياً: اللغة التي كتب بها الكتاب في رصانتها، ودقة تعبيرها، وثالثاً: لم أجد دراسة ضمن الدراسات التي تناولت الكتاب بالبحث، ركزت على الجانب الجمالي، عدا التي عالجته معالجة سردية بحثية، مثل: المكونات السردية في السيرة الذاتية: كتاب الاعتبار نموذجاً، وقد ركزت على جوانب عدة، أبرزها: السارد - المسرود (المحكي) - المسرود له - الزمن السري - تقنيات السرد^(١).

أما الدراسات الأخرى، فمن أبرزها: استراتيجيات الاعتبار في السيرة الذاتية "كتاب الاعتبار" لابن منقد نموذجاً، وقد قسمت الدراسة الاعتبار

(١) ينظر الغزالي: عبد الله محمد عيسى، المكونات السردية في السيرة الذاتية: كتاب الاعتبار نموذجاً: ص ٩٩، ١٤٠، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، جامعة الكويت - مجلس النشر العلمي، الكويت مجلد ٢٥، عدد ٩٧، ٢٠٠٧.

إلى نوعين: مباشر، وغير مباشر، ثم أبرزت استراتيجيات كل نوع منهما، فال الأول يستند على استراتيجيتي الإحضار، والتبصر، والثاني على التمثيل، وكذلك (١). وكذلك: البنية التركيبية للغة السيرة الذاتية بين أسامة بن منقذ وابن خلدون، قسمت الرسالة إلى خمسة فصول: الأول بعنوان (الخصائص البنائية للغة السيرة الذاتية)، والثاني (طاقة الزمن والمكان السيري)، وفي الثالث الرابع تمت دراسة (الجملة الخبرية عند أسامة بن منقذ وابن خلدون)، وفي الخامس (الجملة الإنشائية عند كل منهما). وقد نحت الرسالة منحى لغوياً نحوياً في دراسة السيرة الذاتية بين العلمين (٢).

تهدف الدراسة إلى إبراز أهم مركبات السيرة الذاتية في كتاب الاعتبار، واكتشاف أهم السمات الفنية التي تشكلت منها السيرة الذاتية، وكذلك الرواقد الجمالية التي أمدت تلك السمات، وأسهمت في كتابة الذات واستجلاء مقوماتها.

وقد استعانت الدراسة بالمنهج الجمالي بشكل أساسي، لاستجلاء عناصر الجمال الفني لخطاب السيرة الذاتية في كتاب "الاعتبار"، وهو أحد المناهج

(١) يُنظر التمروفي: استراتيجيات الاعتبار في السيرة الذاتية "كتاب الاعتبار" لابن منقذ أنموذجاً، ص ٧٠:٨٠، مجلة أنساق، المجلد ٢، العدد ١، فبراير ٢٠١٨ م.

(٢) يُنظر عبد الله: البنية التركيبية للغة السيرة الذاتية بين أسامة بن منقذ وابن خلدون: ص ١:٢، رسالة دكتوراه، مجلة جسور، د. ت.

التي تتميز بالجمع بين العلمية والتذوق، وسيقوم المنهج باستكشاف ظواهر النص وخصوصياته، ودلالاته، وذلك من خلال مستويات التحليل الجمالي المختلفة، فقيمة النص من خلال المنهج الجمالي تقوم على إبراز ما فيه من خصوصيات لغوية جمالية تخصب العمل الأدبي بطاقة عالية من الحيوية والتفاعل.

وقد قدم المنهج الجمالي فائدة كبيرة للنصوص العربية الأدبية القديمة، وذلك لأن النصوص الأدبية القديمة مقيدة بقيود وأطر ليس من السهل تجاوزها والتعدى عليها، وهذه القيود تجعلها مقيدة بآفاق مرسومة مسبقاً، وتبعدها عن مسيرة الحياة وتطورها، والمنهج الجمالي يساعد هذه النصوص على منحها حياة جديدة مواكبة لتطورات الحياة، وفي هذا إثبات لحيوية هذه النصوص وفعاليتها، وعدم جمودها ^(١). وذلك مع الاستعانة ببعض المناهج الأخرى، مثل: المنهج التاريخي، والاجتماعي، والنفسى، والإحصائى، والعلماتي، لإضاءة النص، وفك رموزه.

ستكون هذه الدراسة على ثلاثة محاور، يسبقهما تمهيد (مفهوم السيرة الذاتية- أسامة بن منقذ)، المحور الأول: اشتغال العنونة، والثاني: خطاب الوصف، والثالث: تحليلات "الأن".

(١) ينظر كفافي: دالية ابن البارحة الأندلسي في ضوء منهج النقد الجمالي: ص ٨٦:٨٣، مجلة التجديد، مجلد ١٦، العدد ٣١، م.٢٠١٢.

السيرة: الطريقة، وسار بهم سيرة حسنة، والسيرة: الهيئة، وفي التنزيل العزيز: "سنعيدها سيرتها الأولى". وسير سيرة: حدث أحاديث الأوائل^(١). والحقيقة أنه "ليس هناك تعريف واحد متفق عليه لجنس السيرة الذاتية. وعلى الرغم من ذلك، فيندر أن نجد دراسة واحدة حول هذا الموضوع، لا تتطرق - بطريقة أو أخرى - لمسألة التعريف"^(٢). لكنه يمكننا القول إنه إذا "كانت السيرة الإنسانية في تعريفها الشائع، هي ذلك النوع الأدبي الذي يتناول بالتعريف حياة إنسان ما، تعريفاً يطول أو يقصر؛ فإن جانباً كبيراً من جوانب الحياة في هذه السيرة يقوم على التفكير والتأمل من جهة، والسلوك والعمل من جهة أخرى، ولكنها - إلى جانب هذا وذاك - فن أدبي جوهره التواصلي اللغوي"^(٣). يجمع كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ بين شكلين من أشكال السيرة الذاتية، وهما: الذكريات والمذكرات. ولا شك أن هناك بعض الفروق بينهما، من أهمها ما يأتي:

"١. من حيث التواصلي والانقطاع: المذكرات تسجيل متصل ومتواصل لما جرى لكتابها وما قام به أو شهدته في فترة زمنية يحددها هو. أما الذكريات

(١) ابن منظور: لسان العرب: مادة "سير".

(٢) الغامدي: كتابة الذات دراسات في السيرة الذاتية: ص ١١، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط ١، ٢٠١٣م.

(٣) شرف: أدب السيرة الذاتية، ص ٢، مكتبة لبنان، الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان، مصر، ١٩٩٢م.

فليس من الضروري أن تأتي متصلة متواصلة. فقد يختار الكاتب أحداً معييناً يتوقف عندها عارضاً ومحلاً، ويتجاوز أحداً آخر. أي إن نصيب الذكريات من الانتقائية هو أكبر بكثير من نصيب المذكرات التي تكون أقرب إلى طبيعتها كلما ابتعدت عن الانتقائية.

٢. من حيث التسلسل الزمني: في المذكرات يكون التسجيل دقيقاً في تسلسله الزمني، ولا يجوز للكاتب أن يشب من فترة إلى أخرى أو من حدث إلى حدث كاسراً حدود الزمن. أما الذكريات فقد تدفع كاتبها إلى التداعي الخارج عن الأطر الزمنية، فتشير إحداها الأخرى دون ترابط زمني.

٣. في المذكرات يتضاءل دول البعد الشخصي، ولا يغفل حدث هام من الناحية التاريخية لأنه يفتقد ذلك البعد، أما في الذكريات فإن البعد الشخصي يتسامق ويكبر أثره. فالكاتب قد يغفل بعض الأمور لأنها ليست متصلة في ذاكرته بسبب ضعف ارتباطها بوجданه وعاطفته، أي إنها ليست ذات ذات عمق شخصي^(١).

ربما يتضح لنا من خلال هذه التفرقة أنها تدور على الجانب الذاتي، الذي يبرز بشكل ملحوظ في جانب الذكريات ويتضاءل في جانب المذكرات. ولذا رأى جبور عبد النور أن المذكرات "سرد كتابي لأحداث جرت خلال حياة المؤلف وكان له فيها دور، وتحتفل عن السيرة الذاتية بأنها تخص العصر وشأنه بعناية

(١) مسوح: أعمال ندوة "فن السيرة الذاتية" ، ص ٣٤ ، دار المدى ، دمشق ، ٢٠٠٧ م.

كبير، فتشير إلى جميع الأحداث التاريخية التي اشترك فيها المؤلف فيها أو شهدتها، أو سمع عنها من معاصريه، وأثرت في مجرى حياته^(١).

ولعلنا نكتفي بالشروط التي وضعها فيليب لوجون (Philippe Lejeune)، لإدراج أي كتابة نثرية ضمن جنس السيرة الذاتية، وأبرزها ما يلي:
الأول: يحدد هذا الشرط شكل الكلام، فيجب أن تكون السيرة الذاتية قصة نثرية.

الثاني: يتعلق بموضوع السيرة الذاتية، وهو حياة الفرد وتاريخ شخصيته.

الثالث: التطابق بين الكاتب والراوي.

الرابع: التطابق بين الراوي والشخصية الرئيسية في السيرة، أو ما يُعرف بالميثلق السير ذاتي، ويقضي كذلك بوجوب التزام الراوي بالمنظور الارتجاعي.
ويمكن استناداً إلى هذه الشروط، أن ندرج كتاب الاعتبار ضمن جنس السيرة الذاتية، فقد استجاب للشروط التي وضعها فيليب لوجون (Philippe Lejeune)، فنحن نقدر أن أسامة بن منقذ قد نقل حياته وتاريخه الشخصي من خلال تاريخ مجتمعه لسبعين:

يتصل أوهما بكونه آخذ بأسباب ثقافة تخص الذات الإلهية بالوحданية والتفرد، وتقديم مفهوم الجماعة على الفردانية. ويتمثل السبب الثاني في أنه قد

(١) عبد النور: المعجم الأدبي، ص ٢٤٦، دار العلم للملائين، ط ٢، ١٩٨٤ م.

جعل من تاريخ الجماعة التي عاش معها مرقة لتأديب ذاته، وحملها على الاعتبار^(١).

فمن هو أسامة بن منقذ؟

بني منقذ من كنانة، ينتهون بسببهم إلى يعرّب بن قحطان، أسرة كبيرة كانت لها أملاك في حماة وحلب. نشأ مؤيد الدولة أبو المظفر أسامة في رعاية أبيه مجد الدين مرشد، وعمه عز الدين سلطان، فدرس اللغة والنحو والأدب دراسة مستفيضة على بعض شيوخ زمانه، وقرأ الشعر وحفظ قدرًا كبيرًا، ووعى القرآن وتفاسيره والحديث كتبه، واطلع على التاريخ والسير، وعلمه أبوه النجوم و مواقعها، وترسّس بأساليب القتال والصيد، وكان على حظ من حدة الذهن، وروعة البديهة، وشجاعة القلب، وخفة الحركة، غادر موطنه (قلعة شيزر) حيّاً إلى الموصل، ملتحقاً بنور الدين محمود، ثم لما مات أبوه غادرها مكرّهاً إلى دمشق(٥٣٢هـ) - وكانت تحت الأتابكة البوريين - فأقام فيها فترة، نعم فيها بحكم معين الدين أثر وزيرهم على دمشق.

ثم اقتضت الحال بعدها أن يرحل إلى مصر (٤٥٤هـ) أيام الحافظ لدين الله الفاطمي، فشهد الأحداث الدامية فيها، وظل بها تسع سنوات، ثم غادرها إلى دمشق حيث حكم النوريين. نجا هو وولده بعد ذلك من زلزال عنيف هدم أركان قلعة شيزر (٥٥٢هـ)، قام ببعض الأسفار إلى أرمينية

(١) يُنظر التمّراوي: استراتيجيات الاعتبار في السيرة الذاتية "كتاب الاعتبار" لابن منقذ أُنموذجاً: ص ٧٢.

وملطية، ثم ظل فترة بمحصن كيما على نهر دجلة، عكف فيها على الكتابة والتأليف، ثم استدعاه السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي (٥٧٠هـ) إلى دمشق، فرعاه وأقطعه ضيعة في المعرة، وأخذ يشتهره في أمره، ويكتب إليه بأخباره حين يخرج لقتال الإفرنج، وظل بها يلقي الدرس في مدارسها حتى توفي (٥٨٤هـ)، بعد أن من الله عليه فشهاد تحرير بيت المقدس (٥٨٣هـ)^(١).

(١) يُنظر ابن منقذ: كتاب الاعتبار: ص ١١:١٨، ت/ عبد الكريم الأشتر، المكتب الإسلامي، القاهرة، ط ٢، ٢٠٠٣م.

مدخل:

تبعد اللغة في كتاب "الاعتبار" لأول وهلة كأنها تسجيل مباشر لحياة أسامة بن منقذ الواقع التي مر بها، أو كرصد تلقائي قُصد به مجرد حفظ مخزون الذات للافتخار به أو توصيله إلى المتلقى. وربما يكون السبب في هذا التوهم ما نجده من غلبة السلامة والانسياقية في التعبير وبالتالي وضوح المعنى رغم البعد الزمني بين عصرنا وعصر كتابة هذا المؤلف، الذي قد يصل أحياناً إلى التساهل في قواعد اللغة:

المستوى الصريفي: هملوا خيلهم. (الأصل لزوم الفعل: هملت الإبل).

المستوى النحوي: وأكترى بغل رجل نصراني. (يفترض النصب في بغل كمفعول به مقدم).

مستوى الفصحى: ألفاظ عامية، مثل: العملة – أيس أنتم – شلته – الأولي، ضُمان (بالمجمع بدل الثنوية) ^(٢).

لكن هل الأمر كما يبدو عليه في الكتاب؟ من أن لغته ساذجة مسالمة تكفي بالقيام بما أنسد إليها من وظيفة تقليدية وهي أن تكون ناقلة أو تشف بوضوح عما وراءها من دلالات؟

كي نجيب عن هذا السؤال سنخوض فيما يأتي:

(٢) انظر السابق: ص ٦٢، ٦٥، ٦٨، ١٧١، ١٥٤، ١٨٦

أولاً: اشتغال العنونة:

اعتنت الدراسات الأدبية والنقدية بـ "العنوان" كواجهة النص ومفتاحه والدال على فضاءاته، وتشكل العنوان كمكون من مكونات النص بوصفه جزءاً حيوياً من عتباته، بل لا يبالغ إذا عدناه أهمها وأبرزها، ويُعدُّ كتاب عتبات (seuils) " بمثابة المصدر الحقيقى والرئيس فى علم العنونة بمفهومه العلمي، حيث عدَّ جنiet (Genette) العنوان أهم عناصر النص الموازي . (١) (paratexte)

وظيفة تأويلية:

عنون الكتاب بـ "كتاب الاعتبار لأسامة بن منقد الكتاني الشيرزي" حسب النسخة التي دققها عبد الكريم الأشتر (ابن منقد، ٢٠٠٣)، وفي النسخة التي حررها فيليب حتى، جاء العنوان كالتالي: كتاب الاعتبار لأسامة بن منقد

هو مؤيد الدولة أبو مظفر أسامة بن مرشد الكتاني الشيرزي (ابن منقد، د. ت)

(١) رحيم: العنوان في النص الإبداعي، أهميته وأنواعه: ص٣، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، العددان الأول والثاني، جامعة محمد خضر، بسكرة- جانفي، جوان ٢٠٠٨م.

ولو بحثنا عن لفظ الاعتبار في لسان العرب لوجدنا المادة "عبر": عَبَرَ الرؤيا يَعْبُرُها عَبْرًا وعبارةً وعبرها: فسرها وأخبر بما يُؤول إليه أمرها، والاعتبر الذي ينظر في الكتاب فيعبره أي يعتبر بعضاً من بعض حتى يقع فهمه عليه. وعبر الكتاب يَعْبُرُه عَبْرًا: تدبره في نفسه ولم يرفع صوته بقراءته. والعبرة: العجب، واعتبر منه: تعجب^(١).

وهكذا يدور المعنى المعجمي في الأغلب على ثلاث دلالات: التأويل- الاتعاظ- التعجب، وإن كانت القراءة المتداولة للعنوان وكذلك ظاهر الدلالة يرجحان الدلالة الثانية/ الاتعاظ. فعلى مستوى التصريح بخطة الدراسة يقول يسري التمراوي: "ينصرف المhor الأول إلى النظر في مقصود الاعتبار من وجهة نظر الكاتب من جهة كونه المعنى المباشر بهذا المقصود، ويتصل المور الثاني بمقصد الاعتبار الموجه إلى القارئ من جهة كونه معنِّيًّا من الدرجة الثانية بهذا المقصود... وسبحث في الاستراتيجيات التي أجرتها ابن منقذ لحمل القارئ على الاعتبار مما ورد في الكتاب"^(٢). لكنني أرجح الدلالة الثالثة/ التعجب كدلالة مركبة للعنوان ولا مانع من رفدها بالأولى والثانية، يدعمني في ذلك البنية الداخلية للعنوان.

(١) ابن منظور: لسان العرب: مادة "عبر".

(٢) التمراوي: استراتيجيات الاعتبار في السيرة الذاتية "كتاب الاعتبار" لابن منقذ أغمودجا: ص

نلاحظ اتفاق النسختين في الجزء الأول من العبارة: "كتاب الاعتبار لأُسامَة بن منقذ". وسواء كان المؤلف هو من اختار الصيغة النهائية للعنوان أو أملاها لأحد الكتاب، أو تصرف فيها من كتب عنه، ففي اعتقادي أنها في كل الأحوال رؤية المؤلف، لكن السؤال الذي يطرح نفسه هو: لماذا اختار أن يصدر العنوان بهذه الصيغة من الاسم رغم وجود عديد من الألقاب/الكنائي - الشيزري - مؤيد الدولة، بالإضافة إلى لقبه/ أبو مظفر، ولماذا اختار لقب العائلة "منقذ" ولم يختار الأب المباشر "مرشد" أو ما بعده؟

فقد ورد في صفحة المؤلف:

ابن منقذ (٤٨٨ - ٥٨٤ هـ = ١٠٩٥ - ١١٨٨ م) أُسامَة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكنائي الكلبي الشيزري، أبو المظفر، مؤيد الدولة.

واسم "أُسامَة" في لسان العرب: من أسماء الأسد. قال زهير يمدح هرم بن سنان:

ولأنت أشجع من أُسامَة، إذ دُعِيتَ نزال ولجَ في الذعر^(١).
ولا تحتاج لذكر الدلالات التي يوحى بها "الأسد" ويكتفي ما يوحى به من سمات القوة والشراسة والشجاعة والقدرة على الهجوم. فإذا أضيفت إليها لفظة "منقذ" صار أُسامَة البطل المرتجى لكل نازلة، والفتى المشار إليه بالبيان، الذي يجمع سمات الجسارة والمبادرة والتضحية؛ ولذا فمن الطبيعي أن يدعوا

(١) ابن منظور: لسان العرب: مادة "أسم".

المؤلف المتلقي للتعجب من هذه السمات البطولية وذاك النموذج المتفرد، وليس التعجب هنا من العجب أو الاغترار بقدر ما هو التفاس إلى الذات وإحالة عليها فهي حالة من حالات الانسجام معها والأنس بتاريخها وإنتاجها للقيم.

وظيفة تعينية:

وهي وظيفة " يعمد عن طريقها العنوان إلى تعين النص المعنون، وتحديد محتواه"^(١). ويمثل العنوان هنا أول دالٍ من دوال النص، يشير إلى الدلالات الكامنة في سياقاته مختلاً له ولتفاعلات مكوناته الداخلية والخارجية. إنه إذا تمعنا في متن المدونة فيكتفي مطالعة العناوين التي تتعاضد مع تلك الدلالات، من أمثل ما يأتي:

أُسامَة يحارب في صَف ابن السَّلَار (٥٩) – أُسامَة ينْقَذُ أَحَدُ السُّودَان (٦١) – أُسامَة يَحْسَنُ إِلَى عَمَالِ الْجَفَرِ (٦٤) – أُسامَة في عَسْكَرِ الشَّامِ يُدَيْنُونَ (يسجل في ديوان العسْكَرِ) أَسْمَاءَ ثَمَانِيَّةَ فَارِسٍ وَيَأْخُذُهُمْ لِلْإِغْرَارِ عَلَى الْإِفْرَنجِ (٦٨) – أُسامَة وَفَرَسَانَهُ فِي الْبَتَرَاءِ (٦٩) – وَصُولُ أَسَامَةَ وَفَرَسَانَهُ إِلَى عَسْقَلَانَ وَمَوَاجِهَتِهِمُ الْإِفْرَنجُ (٧٠) – أَسَامَهُ وَرَجَالَهُ يَقَاتِلُونَ الْإِفْرَنجَ فِي بَيْتِ جَبَرِيلِ (٧١) – هُجُومُ أَسَامَهُ وَرَجَالَهُ عَلَى بَلْدَةِ يُبَيْنِ الْبَحْرِيَّةِ (٧٢) – أُسامَة يُشْفَى أَحَدُ جَرْحِيِّ الْمَوْقَعَةِ بِالْفَصَادِ (٩٤) – ابْنُ عَمِّ أُسامَةٍ تَكْتُبُ لَهُ النَّجَاهَ عَلَى يَدِ أُسامَةِ (١٧٠) – أُسامَةٌ يَرْكُبُ فِي بَعْضِ الْمَعَارِكِ حَصَانِيْنِ مِنْ هَذَا النَّوْعِ الصَّبُورِ (١٧٨).

(١) مختارى: خطاب العنوان في القصيدة الجزائرية المعاصرة – مقاربة سيميائية: ص ٢١٩، رسالة ماجستير، وهران، الجزائر، ٢٠١١م – ٢٠١٢م.

وهكذا كثير من الأمثلة التي تستعصي على الحصر، بالإضافة إلى أخباره مع الحية والأسد، مثل: **أُسَامَة يَقْبَلُ عَلَى الْحَيَاةِ فَلَا يَنْهَا أَبُوهُ (١٨٤)** – **أَسَامَة يَقْبَلُ عَلَى الْأَسَدِ فَيَنْهَا أَبُوهُ (١٨٥)** ...

إنه "إذا كانت السيرة الذاتية في أيسير تعريفاتها، هي كتابة شخص عن حياته بشكل فني، فإن أُسَامَة بن منقذ استطاع في "كتاب الاعتبار" أن يكتب عن نفسه، أو يتحقق متعة السرد، بالنظر إلى النفس من الداخل، في تجاريه مع الآخر، حبيباً أو عدواً. وقد كان أُسَامَة محبًا لنفسه، فخوراً بها، في مختلف مراحل حياته"^(١).

ولعل متابعة بنى العناوين الداخلية للكتاب تثبت تلك الفرضية التي تقدمت، فالبديع باسم المؤلف/ أُسَامَة أولاً يرجع تمركز الذات وتصدرها الأحداث، وإذا أفلتت جملة من تسلط هذه الذات فنجدها مضافة إلى الاسم قبلها/ هجوم أُسَامَة- ابن عم أُسَامَة- وصول أُسَامَة. فالذات تروم أن تكون المرجعية الأولى للأفعال، على تنويعها: يحارب- ينقذ- يحسن- يديون- يشفى- يركب. أما الأسماء فقد أحيلت بدورها هي الأخرى على الذات: أُسَامَة وفرسانه- أُسَامَة ورجاله.

(١) الغزالي: عبد الله محمد عيسى، المكونات السردية في السيرة الذاتية: كتاب الاعتبار نموذجاً: ص ١٠٥.

ولعل تنوع الأفعال المسندة إلى الذات تشير إلى إمكاناتها ومرداتها، وامتلاكها زمام الأمور، وتجيب في الوقت نفسه عن السؤال الذي نفترض أنه يشغل ذهن المتلقى، وهو: كيف تسنى للذات أن تعقد كل تلك العلاقات على اختلاف كنهها وتفاوت درجات البساطة والتعقيد وفي ظل تعددية الفضاءات والأزمنة داخل الكتاب؟

"لقد شكلت وطأة الزمن لدى أسامة بن منقذ الأزمة الكبرى والصراع الحقيقى، الذى تجلت آثاره بشكل مباشر بفقده أهم الآثار لديه التي طلما تغنى بها وهي الفروسية، فقد شكل موت الفارس في نفس ابن منقذ، وتحول الزمان به من فارس يجوب البلدان ويشق غبار المعارك إلى عجوز لا حول له ولا قوة، عاكفاً منفرداً في حصن (كيفا) بعيداً عن المشاركة والتفاعل مع الأحداث السياسية- أزمة كبيرة، تجلت آثارها النفسية بما سطره بكتابه من مواقف تدل بشكل جلي على مقدار الحزن الذي آل إليه"^(١).

على أن هذا كله لا ينفي احتمالية، أن تكون العناوين الواردة في سيرة أسامة ليست أصلية وإنما هي من وضع المحقق، فربما تغلب عليها الوظيفة التأويلية.

(١) السقرات، براءة محمود، كتاب "الاعتبار" لأسامة بن منقذ دراسة تحليلية: ص ٢٠، رسالة ماجستير، جامعة مؤتة، الأردن، ٢٠١١ م.

ثانيًا: خطاب الوصف

الوصف هو الخطاب الذي يسمُّ كل ما هو موجود، فيعطيه تميّزه الخاص وتفرده داخل نسق الموجودات المشابهة له أو المختلفة عنه^(١). فللصفات تلاوين ومراتب ودرجات، تتراوح من تلك المكتسبة حدًّا أقصى من الموضوعية، إلى تلك المشحونة بأعلى مقادير الذاتية، فعندما يصدر المتكلّم ملفوظًا متضمّنًا مُسندات، فهو يبني "عوالم ذهنية ذرية" آهله بالأشياء، معبرة عن كيّفيّات حضورها، وعلاقّات بعضها ببعض، ووجوه تشكّلها بحسب تجربة المستعمل لها، وعلاقّته بالمحيط وأشيائه^(٢).

ربما يبدو الوصف في كتاب الاعتبار محاييًّا ينحو منحى عمليًّا، لكنه عند التمعن نجده قد جاء مطبوعًا بطبع العصر والبيئة والذات، لاسيما وقد شهدت هذه الحقبة (٤٨٨هـ - ٥٨٤هـ) أحداثًا متقلبة ومضطربة وحرّوّبًا طاحنة، أبرزها الحروب الصليبية، وفهم من مذكريات أسامة بن منقذ أن أكثر عيشه كان في الصحراء حيث عُدّت شاهدة على تنقلاته وأسفاره وغامراته، ولعل ما وُسّمت به الذات من سمات القوة والشجاعة والطموح، أهلها لأن تُعدّ ضمن المحاربين المحترفين مع الإخلاص والاحتساب عند الله سبحانه، كل

(١) محفوظ، عبد اللطيف: وظيفة الوصف في الرواية: ص ١٣، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، بيروت، الجزائر، ط ١، ٢٠٠٩م.

(٢) العجيمي، محمد الناصر: الخطاب الوصفي في الأدب العربي القديم، الشعر الجاهلي نموذجاً: ص ١٥٩، مركز النشر الجامعي، منشورات سعيدان، تونس، ٢٠٠٣م.

ذلك يعنى ما نهى الوصف به من وظائف، وما تشكل عليه من هيئات تعددت وتلونت حسب مقاصد الذات والسياقات المصاحبة للخطاب.

١- علاقة الوصف بالسرد:

١-١ السرد/ الوصف

"كلما هم السارد بتقديم شخصية جديدة أو مكان جديد- سيكون مجرى لسلسلة من الأحداث- إلا وفسح السرد المجال أمام العملية الوصفية؛ لأنه لا بد من تقديم المظهر الخارجي للشخصية، ومحددات المكان وأبعاده، وسمات الأشياء القابعة داخله أو حوله، وهي عملية تسبق عادة بتمهيد يضطلع به السرد؛ لتهيئ القارئ لتلقي الوصف، ولفسح المجال أمام الوصف الذي يعلن عن نفسه، وبذلك يكون الوصف منتميا للسرد وموجها من طرفه" (١).

فإنه لما أراد الملك العادل سيف الدين علي بن السلاي إرسال أسامة بمال إلى الملك العادل نور الدين محمود لينازل الفرنج في طبرية ليشغلهم عنه، أخبر أسامة عن ذلك فقال: "ودفع إلى ستة آلاف دينار مصرية، وحمل جمل ثياب ديبيقي (قماش ديبيقي نسبة إلى مقاطعة في دمياط)، وسقلاطون (ثياب كتان موسأة، اشتهرت بغداد بصنعها)، ومسنجب (فرو يتخذ من جلد

(١) محفوظ، عبد اللطيف: وظيفة الوصف في الرواية: ص ٤٧.

السنحاب)، ودمياطي (شهرت دمياط - في العصر الفاطمي - بصناعة الأقمشة الحريرية والكتانية، وعمائم" ^(٢)).

لعل ما يجمع بين صفات الشياب هذه - فوق غرائبها - ما توحّي به من ترف وزينة يغريان القارئ ويشيران إلى ما تتمتع به من نفاستها، وبالتالي ارتفاع سعرها، ومن ثم رفع المنزلة التي يتمتع بها أسمامة لدى الملك العادل، وكذا مدى أهمية المهمة المنوطة بحملها.

إذا أضفنا إلى ذلك صفات فرقة من العرب قابليهم أثناء سيره في الطريق؛ حيث سألهم: "إيش أنتم؟ قالوا: نحن من بني أبي" (وبينو أبي فرقة من العرب من طيء، لا يأكلون إلا الميّة. ويقولون: "نحن خير العرب، ما فينا مجنون ولا أبرص ولا زمن ولا أعمى!". وإذا نزل بهم الضيف ذبحوا له وأطعموه من غير طعامهم). إلى نهاية الحوار الذي يتبيّن فيه لأسمامة أنّهم لم يحصلوا على الزاد منذ فترة طويلة، وأن طعامهم الرمة والظام البالية ^(١).

تبين لنا السبب في سلوك أسمامة في نهاية الحكاية ورد فعله تجاه هؤلاء القوم؛ حيث يقول:

(٢) ابن منقذ: كتاب الاعتبار: ص ٦٣.

(١) يُنظر السابق: ص ٦٥.

"فوقفتُ حتى جاءت الجمال، وأعطيتهم من الزاد الذي كان معنا،
وقطعتُ فوطة كانت على رأسي أعطيتها للمرأتين، فكادت عقولهم تزول من
فرحهم بالزاد" (٢).

ربما يمكننا الرعم بأن الأحداث السردية الأخيرة المتمثلة في الأفعال:
فوقفتُ - جاءت - أعطيتهم - قطعتُ - أعطيتها - فكادت - تزول" هي التي
وجهت الوصف في المقطعين الأول والثاني.

فالأوصاف في المقطع الأول جاءت طابعها الإغراء، والرفاهية، والتفصيل،
والتعدد، لتعكس مدى تضحيحة أسامة، ونفسه المعطاءة، بل لا نفرط في
القول إذا أضفنا سمة الإيثار.

أما المقطع الثاني فهو مركب من مقطعين دلاليين: الأول (سمات إيجابية)
الأصل والشرف + الكرم للسلامة من العيوب.

فمن جهة هم من أشرف القبائل (طبيع) وتنقضى هذه المرجعية امتلاك
الأفراد المتنميين لها السمات الأخلاقية التي كانت ومازالت محل فخر عند
العرب، ومنها الكرم، ومن جهة أخرى فهم سالمون من كل العيوب الخلقية
(ولذا ربما جاز لنا أن نجعل هذه الوحدة مستقلة، أو متربة على المرجعية إذا
اعتبرنا أنها أمراض وراثية).

والثاني (سمات سلبية لإرادية) الفقر (قيمة غائبة) أكل الميالة (قيمة
حاضرة)

(٢) السابق: ص ٦٦

لعل ذلك ما حدا بالبطل/ المؤلف أن يرى استحقاقية هؤلاء القوم للحصول على بعض ممتلكاته، رغم حاجته إليها وطول الطريق، فمجموع هذه القيم قد نتج عنه هذا السلوك المنطقي من الذات الكاتبة. وكأننا هنا بقصد تبادل للأدوار، أو إجراء عملية عكسية، فكان الوصف هو من قام بتوجيهه السرد، ولعل هذا الحوار المتبادل بين الطرفين: الوصف/ السرد، السرد/ الوصف، فوق إثرائه للنص وما يتولد عنه من اكتناف دلالي، يسهم في تعضيد المضمون، وتقوية الدلالة؛ ومن ثم إقناع القارئ.

ومثل ذلك ما ورد في الكتاب تحت عنوان "أسامة وفرسانه في البتراء": "وسير معنوي نور الدين الأمير عين الدولة الياقوتي في ثلاثين فارساً، فاجترث في طريقه بالكهف والرقيم فنزلت فيه، ودخلت صليت في المسجد، ولم أدخل في ذلك المضيق الذي فيه، فجاء أمير من الأتراك الذين كانوا معنوي يُقال له: برشك، يريد الدخول في ذلك الشق الضيق. قلتُ أي شيء تعمل في هذا؟ صل (برا) قال لا إله إلا الله، أنا... حرام إذن حتى لا أدخل في ذلك الشق الضيق! قلتُ أي شيء تقول؟ قال هذا الموضع لا يدخل فيه ولد زنا - ما يستطيع الدخول. فأوجب قوله أن قمتُ دخلتُ في ذلك الموضع صليت وخرجتُ وأنا - الله يعلم - ما أصدق أكثر ما قاله، وجاء أكثر العسكر فدخلوا وصلوا. ومعنوي في الجندي بُراق الزبيدي معه عبد له أسود دَيْنَ كثير الصلاة، أدق ما يكون من الرجال وأذبهم. فجاء إلى ذلك الموضع، وحرص

بكل حرص على الدخول، فما قدر يدخل، فبكي المسكين وتوجع وتحسر،
وعاد بعد الغلبة عن الدخول"^(١).

فوصف العبد في المقطع الأخير، قد برر له تلك الأحداث في المقطع الأول، التي تدور حول ادعاء أحد الأشخاص المصاحبين لأسماء أن موضع الكهف لا يدخله ولد الزنا؛ ومن ثم لم يصدق ذلك أسامه وأنكره عقلياً، فجاء الوصف موازياً للأحداث، فهذا العبد متدين ومكثر من الطاعة والعبادة ومنها الصلاة، ورغم ذلك لم يستطع الدخول، وبذلك تكون الأحداث مسوغة للوصف، ويصبح الوصف مسوغاً للأحداث.

ويتحقق الوصف - الحدث حين يصبح الوصف وحده، مضطلاً بمهمة سرد أحداث مخبأة ومتسلية عبر سراديب الجمل الوصفية ^(١).

" فصعد رجل من الأتراك، ونحن نراه، ومشي والبلاء يأخذه، إلى أن دنا من البرج وضرب الذي عليه بقارورة نفط، فرأيته كالشهاب على تلك الحجارة البُهم، وقد رموا نفوسهم إلى الأرض خوفاً من الحريق، ثم عاد. وطلع آخر يمشي على البدن ومعه سيف وترس، فخرج عليه من البرج، الذي في بابه الفارس، رجل منهم عليه زرديتان، وبيده قُنطرية، وما معه ترس، فلقيه التركي وفي يده سيفه، فطعنه الإفرنجي..." ^(٢).

(١) ابن منقذ: كتاب الاعتبار: ص ٦٩.

(٢) محفوظ، عبد اللطيف: وظيفة الوصف في الرواية: ص ٥٩.

(٢) ابن منقذ: كتاب الاعتبار: ص ١٤٨.

لعل جمال الوصف يكمن في إقامة ذات الكاتب توازيًا بين وحداته من جهة، ووحدات السرد من جهة أخرى. فتصوير دفع الجندي من فوق البرج ووقوعه في الهواء أرضًا يوازي سقوط الشهاب من السماء، فإذا أضفنا إلى ذلك كون الشهاب نارًا ومن ثم الضوء وكذا قوة السقوط تمثل لنا المشهد بقوة ووضوح. ولا شك أن وصف الحجارة بالبهم (القائمة السوداء) قد مثل لنا مدى صعوبة السقوط ومن ثم فداحة المشهد. ولذا نجد في المقابل رد فعل البقية "رموا نفوسهم إلى الأرض خوفًا من الحريق" وكأن الوصف لا يصنع توازيًا على مستوى فعل الحدث فقط، إنما على مستوى ردود الأفعال أيضًا.

ربما استدعت هذه الفداحة المشهد التالي "يمشي على البدن" وما يوحى به من توجس وحرص شديد على الاختفاء والسكنون والتربص، ومن ثم من مكملاه الوصف الذي يليه "ومعه سيف وترس". وقد تناسب مع ذلك استدعاء القيمة العددية بالإضافة في الدروع "زريتاتان" ثم المكملات لتتكامل الصورة.

ومثل ذلك، قول أسماء: "وانقطعت يوما عن أصحابي وتحت حchan أبيض هو أرداً خيلي، شده الركابي ولا يدرى ما يجري، وما معى من السلاح غير سيفي، فحمل علىَّ العربُ فلم أجد ما أدفعهم به، ولا ينجيني منهم حصاني، وقد وصلتني رماحهم. قلت: أثبت عن الحchan وأجذب سيفي أدفعهم، فجمعت نفسي لأثبت فتتسع الحchan، فووَقعت على الحجارة وأرض خشنة، فانقطعت قطعة من جلدة رأسي و(دخلت) حتى ما بقيت أدرى بما أنا فيه، فوقف علىَّ منهم قومٌ وأنا جالس مكشوف الرأس غائب الذهن

وسيفي مرمي بجهازه، فضربني واحد منهم ضربتين بالسيف وقال: هات الوزن وأنا لا أدرى ما يقول، ثم أخذوا حصاني وسيفي"^(١).

فالوصف سواء المفرد أو الجملة في بداية المقطع، قد قام بتوجيه الأحداث، فجاء بثابة المهد للمتلقي، وإفساح المجال لعقله أن يتخيّل الحدث. فرداة فرسه كانت سبباً ومسوغاً لكل ما تعرض له من بلاء من وقوع على الأرض، وغياب الذهن عن الوعي، والتغافل عن أعدائه حوله، ثم ضربه بالسيف ضربتين، وسلب فرسه وسيفه. وقد أسلهم كل من: صيغة أفعال للتفضيل "أرداً" ، والجنسان بين يدري ويجري، في إقامة التبرير واتساق البنية السببية في المقطع.

"إنه حين يكون الوصف معيّراً عن الحدث، فإنه يصبح اقتصاداً لغوياً؛ ومن ثمة فإنه يجعل زمن السرد أكثر من سرعة من زمن الكتابة"^(١). فليس الوصف هنا مجرد أداة من أدوات السرد، بقدر تلبسه به وكأنه نظيره أو يمتلك آلياته، ما يؤهله ليحل محله، ويقوم مقامه.

١ - ٢ مسوغات حجاجية

تلجأ الذات إلى الحجاج في حال تعرضها ل موقف يعوزها إلى الدفاع عن رأيها، أو تحسين موقفها أمام القارئ، محاولة تعزيز توضّعها وتعضيده من خلال آليات تنتظم الخطاب.

(١) ابن منقذ: كتاب الاعتبار: ص ٨٤.

(١) محفوظ، عبد اللطيف: وظيفة الوصف في الرواية: ص ٦٣.

وعند النظرة المتمعنة لكتاب الاعتبار، فسنجد أن من أبرز آليات الحجاج الوصف، ربما بوصفه تقنية تؤدي وظيفة – حتى وإن كان على المستوى الشكلي – موضوعية، تزيل شبهة التحيز أو الانتقاء الذاتي للمواقف، وتحقق نجاعة الإقناع لدى القارئ.

"وركب وسرنا إليهم، فلحقناهم في وادي حلبون، وهو واد ضيق: لعل ما بين الجبلين خمسة أذرع، والجبل من جانبيه وعرة رفيعة، وطريقه ضيقة، إنما يمشي فيها فارس خلف فارس، وهم في سبعين رجلاً بالقسي والنشاب!" (٢).
مكان المهمة: دمشق. الزمن: ما بين عامي ٥٣٣ هـ : ٥٣٩ هـ.

الدافع: سرقة الحرامية (هكذا ترد بالعامية في الكتاب) لقافلة الأمير معين الدين.

الهدف: استخلاص القافلة من أيدي (الحرامية).

ينتهج المؤلف استراتيجية الوصف الدائري بطريقة منتظمة، من الداخل إلى الخارج، ومن النقطة الضيقة التي تتسع شيئاً فشيئاً بطريقة متدرجة: ما بين الجبلين خمسة أذرع **الجبل** من جانبيه وعرة رفيعة طريقه **ضيقة** إن استخدام الوحدة القياسية المحددة = خمسة أذرع، بين الجبلين تعكس قصر المسافة بين الجبلين، ومن ثم لنا أن نتخيل كيف يمر جيش أو كتيبة من تلك المسافة؟!

(٢) ابن منقذ: كتاب الاعتبار: ص ٢٤٧.

وإذا أضفنا صفة الوعورة للجبال والرفعة؛ تبين لنا مدى صعوبة المكان، وعدم جاهزيته لجريان المعارك، ومن ثم مدى المعاناة التي سيجدها أي جيش يحارب فيه.

وتأتي الصفة الأخيرة وهي ضيق الطرق في الوادي بصفة عامة؛ لتأكد كل التوابع السابقة من جهة، ولتقتضي على تعلق القارئ بأي خيط – ولو رفيعاً – يوحي بالسهولة أو يفتح الطريق للتهوين من مشقة المهمة. ثم تأتي التفاصيل الحية وهي الجزء الأهم في رؤية المؤلف، الذي يشغل فكره بصفته محارب:

"يمشي فيها فارس خلف فارس، وهم في سبعين رجلاً بالقسي والنشاب" وكأنها إثبات لادعائه السابق/ ضيق المكان ووعورته، من خلال التصوير البصري، الذي أسهم في رسمه فعل المضارعة "يمشي" وهو يفيد تحدد الحدث واستمراريته، فيتوازى بذلك مع تكرار لفظ "فارس" + الظرف "خلف"، وكأن أمامنا خط عمودي يلتزم العسكر بالسير عليه، مما يوحي بدقة تنظيم خصم أسامة ومن معه (لاسيما إذا أضفنا سلاحهم بالقسي والنشاب)، وفي الوقت ذاته صعوبة الاشتباك معهم في هذا المكان.

إن الذات تروم إثبات تفردها في مهنتها الأثيرة؛ ولذا تقدم المسوغات لاعتماد هذا التفرد وإقراره لدى القارئ، وتأتي هذه المسوغات بثابة المقدمات المنطقية، التي تتطلب تفاعل المتلقى معها، واستنتاج الدلالات الكامنة وراءها.

"إن الحاجاج - كما أفهمه - يعتبر المخاطب لا بوصفه شيئاً يتصرف فيه المرء، وإنما هو المعادل الموضوعي له الذي يحمله على مشاركته في الرؤية، والعمل على التأثير فيه هو السعي إلى تغيير مختلف التمثيلات، التي تُنسب إليه بإبراز بعض مظاهر الأشياء، وإخفاء بعضها الآخر، واقتراح مظاهر جديدة، وذلك بواسطة ترسيمية ملائمة" ^(١).

ولعل ما يؤكد زعمنا نجاح أسامة في مهمته: "فحملتُ عليهم وحدي، لضيق المكان، فانهزموا" ^(١).

ومن ذلك روايته للمهمة التي ندبه إليها عمه بإيعاز من شهاب الدين محمود، فيقول: "اجتمع عسكرنا وعسكره، وأنا على عسكر شيزر وهو في عسكره، وسرنا إلى أفامية فلقينا فارسهم ورجالهم في الخراب الذي لها، وهو مكان لا تتصرف فيه الخيل من الحجارة والأعمدة وأصول الحيطان الخراب، فعجزنا عن قلعهم من ذلك المكان، فقال لي رجل من جندنا: تريد تكسرهم؟ قلت: نعم، قال أقصد بنا باب الحصن، قلت سيروا، وندم القائل، وعلم أنهم يدسونا وي giozون إلى حصنهم، فأراد أن يردني عن ذلك، فأبىت وقصدت الباب. فساعة ما رأنا الفرج قاصدين الباب، عاد إلينا فارسهم ورجالهم فداسونا وجازوا" [.]

(١) شارودو، ومنغو: معجم تحليل الخطاب: ص ٦٩، ت / عبد القادر المهيري، وحمادي صمود، منشورات دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة، سلسلة اللسان، تونس، ٢٠٠٨.

(٢) ابن منقذ: كتاب الاعتبار: ص ٢٤٨.

فالذات تروم تبرير المزيمة التي تعرضوا لها في هذه الموقعة؛ ولذا وجدناها تتحج لذلك من خلال وصف المكان الذي دار على: إشغال المكان بالحجارة والأعمدة وأصول الحيطان؛ ومن ثم وعورة الطريق، بل انعدام صلاحيته لقتال الحر؛ مما ترتب عليه إلحاق العدو المزيمة بأسامة ومن معه.

وكانـت النـتيـجة فيـنـهاـيـةـ الروـاـيـةـ، موـتـ شـهـابـ الدـيـنـ مـحـمـودـ، حـيـثـ "جـاءـ سـهـمـ مـنـ الحـصـنـ فـضـرـبـهـ فيـ جـانـبـ عـظـمـ زـنـدـهـ، فـمـاـ دـخـلـ فيـ جـانـبـ عـظـمـ زـنـدـهـ مـقـدـارـ طـوـلـ شـعـيرـةـ... فـرـكـبـ الـمـغـرـبـ وـسـارـ حـمـاهـ فـأـقـامـ الـغـدـ وـبـعـدـ الـغـدـ ثـمـ اـسـوـدـ يـدـ وـغـابـ عـنـهـ رـشـدـهـ وـمـاتـ" (١).

٢- دوائر الأنساق: الوصف / الحوار:

"الـحـوارـ قـرـيـنـ الـوـصـفـ مـنـ نـاحـيـةـ التـوـظـيـفـ الزـمـنـيـ، حـيـثـ إـنـهـ يـبـطـئـ وـتـيـرـةـ السـرـدـ، وـيـقـارـبـ بـيـنـ زـمـنـ الـحـكـاـيـةـ وـزـمـنـ الـقصـ الـآـيـ. أـمـاـ عـنـ عـلـاـقـةـ الـوـصـفـ بـالـحـوارـ فـهـيـ عـلـاـقـةـ بـنـائـيـةـ، يـتـحـكـمـ فـيـ رـسـهـاـ الـمـؤـلـفـ، خـاـصـةـ أـنـ الـحـوارـ وـالـوـصـفـ لـاـ يـتـدـاخـلـانـ كـمـاـ "الـوـصـفـ وـالـسـرـدـ"؛ لـأـنـ الـحـوارـ يـمـتـلـكـ طـبـيـعـةـ تـمـيـزـهـ عـنـ مـسـتـوـيـاتـ الـلـغـةـ الـأـخـرـىـ" (٢).

لا يقلـ الدـورـ الـذـيـ يـقـومـ بـهـ الـوـصـفـ عـمـاـ يـقـومـ بـهـ الـحـوارـ، فـيـ تـحـدـيدـ معـالمـ الـشـخـصـيـاتـ وـرـسـمـ مـلـاحـمـهـ، وـتـوزـيـعـ الـأـدـوارـ الـمـنـوـطـةـ بـهـاـ، وـتـفـعـيلـ الـوـظـيـفـةـ

(١) ابن منقذ: كتاب الاعتبار: ص ١١١.

(٢) الشـمـالـيـ: الـوـصـفـ فـيـ الـحـطـابـ الـرـوـاـيـ وـأـبعـادـهـ التـقـنـيـةـ "زيـادـ قـاسـمـ نـمـوذـجاـ": ص ٦، مجلـةـ درـاسـاتـ الـعـلـمـ الـإـنـسـانـيـةـ وـالـاجـتـمـاعـيـةـ، المـجـلـدـ ٣٣ـ، العـدـدـ ٢٠٠٦ـ. مـ.

التأويلية لأنساق الدوائر التي تختلها كل شخصية. ويشتغل الوصف في المقاطع الحوارية كمهاد لتفاعل المتكلمي، واستنتاجه لما وراء السياقات من دلالات تعضد جهاز التتبع عنده لبنية الحوار.

" ومن الملاحظ أن أسماء يعتمد في كتابه بشكل كبير على الحوار، وأكثر الحوار الذي يرد عنده هو حوار مع أشخاص آخرين، أما الحوار مع الذات فإنه يرد في مواضع قليلة"^(١).

يقول أسماء بن منقذ: " وأصبح والده عباس، دخل القاهرة وجلس في دار الوزارة، وخلع عليه الظافر وفوض إليه الأمر، وابنه نصر مخالطه ومعاشره، وأبوه عباس كاره لذلك، مستوحش من ابنه، لعلمه بذهب القوم في ضرجم بعض الناس ببعض حتى يفنوهم ويحوزوا كل ما لهم حتى يتفانوا، فأحضراني ليلةً وهم في خلوة يتعابان، وعباس يردد عليه الكلام، وابنه مطرق، كأنه نمر، يرد عليه كلمة بعد كلمة، يشتاط منها عباس، ويزيد في لومه وتأنيبه، فقلتُ لعباس: يا مولاي الأفضل! كم تلوم مولاي ناصر الدين وتوجه وهو ساكت، أجعل الملامة لي، فأنا معه في كل ما يعمله، ما أتبأ من خطئه ولا صوابه. أي شيء هو ذنبه؟ ما أساء إلى أحد من أصحابك، ولا فرط في شيء من

(١) شاكر، تحانى عبد الفتاح: السيرة الذاتية في الأدب العربي: فدوى طوقان وجبرا إبراهيم جبرا وإحسان عباس نموذجاً، ص ٥٧، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط ١، بيروت، ٢٠٠٢ م.

مالك، ولا قبح في دولتك، خاطر بنفسه حتى نلت هذه المنزلة، فما يستوجب منك **اللائمة**، فأمسك عنه والده، ورعى لي ابنه ذلك^(٢).

تسير علاقة الوصف بالحوار على عدة أنساق تدرج ضمن أشخاص ثلاثة: الأول: الابن الثاني: الوالد، الثالث: **أسامة بن منقذ**.

أنساق علاقة الوصف بالحوار

الابن (المسالمة)	الوالد (العدوانية)	الواسطة (الوالد)	م
مخالط أباه ومعاشره	كاره لذلك	-	١
-	مستوحش	-	٢
يعاتب أباه	يعاتب ابنه	-	٣
مُطرّق كأنه غمر	يردد الكلام على ابنه	-	٤
يرد على أبيه كلمة بعد كلمة	يشتاط منها عباس	-	٥
وهو ساكت	يزيد في لوم اباه وتأنيبه	-	٦
-	اللامة لي	-	٧
-	فأنا معه في كل ما يعمله	-	٨
-	ما أثيراً من خطنه ولا صوابه	-	٩
ما أساء إلى أحد من أصحابك	-	-	١٠
ولا فرط في شيء من مالك	-	-	١١
ولا قبح في دولتك	-	-	١٢
خاطر بنفسه حتى نلت هذه المنزلة	-	-	١٣

تحرك هذه الأنساق في دوائر متضادة بين الابن من جهة، والوالد من جهة أخرى، بالإضافة إلى الدائرة الثالثة/**أسامة**، التي تتأرجح بين الدائريتين. نلاحظ أن نسق العدوانية يتخذ التدرج التصاعدي، بينما يتخذ نسق المسالمة التدرج التناظري. ولو تتبعنا الأول من رقم (١) سنجد البداية مع مجرد

(٢) ابن منقذ: كتاب الاعتبار: ص ٧٤.

الشعور القلي (الكره)، في مقابل الاختلاط والعشرة، ثم يتقدم خطوة أعلى (الوحشة) وكأنه بمثابة الترجمة العملية لشعور الكره، في مقابل لا شيء من الابن، ثم يترجم إلى (العتاب) عند الاثنين الابن والوالد، وهو أولى مراحل المواجهة وإخراج مكامن الشعور، ثم يتتصاعد من خلال التكرار (الترديد)، في مقابل الإطراف، ثم تدرج إلى درجة عالية من الغضب (يشتاط) وفي لسان العرب "شَاطَ الشيءُ شَيْطًا وشَيَاطِةً وشَيْطَوْتَهُ: احْتَرَقَ" ^(١). في مقابل (الرد) وهو شكل من أشكال الموضوعية والدفاع المادئ عن النفس، حتى يبلغ الذروة هنا وهناك، حيث زيادة التأنيب والتبيكية عند الوالد، والصمت التام عند الابن.

ويأتي تأرجح دائرة الوساطة من جهة، من خلال استعماله الوالد بتوظيف إمكانات اللغة، فارتکز على النداء بـ "يا" وياء المتكلم "مولاي" للتقرير، و اختيار أنساب أسمائه "الأفضل" على صيغة أفعل لتفضيله. واستخدم "كم" الخبرية لتفيد تعدد المرات لعله يرجع إلى نفسه فيراجعها، ثم الصياغة المكونة من أداة الأمر "اجعل + الملامة + لي" بالإضافة إلى العبارة التي تلتها فأكدت حمولتها الدلالية التي أفادت تحمله تبعات الأمر برمته، وإلقائها – في الوقت نفسه – من فوق كاھل ابنه، وقد زاد هذا التأكيد من خلال النفي بـ "ما" + "لا" ، وكذلك الاستفهام "أي".

(١) ابن منظور: لسان العرب: مادة "شيط".

ومن جهة أخرى، من خلال تبرئة الابن، بل وإرجاع الفضل له – بعد الله سبحانه – في تبؤه تلك المنزلة الرفيعة؛ وذلك عبر فضاءين: الأول: تحمل تبعات الأمر برمته، باستخدام ضمائر المتكلم العائدة على الذات: "لي- فأنا- أتبرأ" التي جاءت ضمن سياقات متنوعة في النوع (ياء المتكلم- الضمير المنفصل- الضمير المستتر)، والصياغة (الإثبات في التحمل الكامل: الملامة لي- إثبات الشراكة مع الابن: فأنا معه في كل ما يعمله- نفي شبهة التهرب من المسؤولية: ما أتبرأ من خطئه ولا صوابه).

والثاني: الدفاع عن الابن، ونسبة التضحية إليه في تثبيت أركان رتبة أبيه/ الوزير، وذلك نجده في الأرقام من ١٣:١٠ من خلال التدرج في النفي (ما: نفي الماضي- لا: نفي الماضي والحاضر)، ثم الإثبات من خلال الفعل الماضي الذي بدا الأمر معه كأنه من المسلمين (خاطر بنفسه حتى نلَّت هذه المنزلة).

إن الحوار "يؤدي دوراً كبيراً في البناء العام للنص السردي، إذ يساعد على إبراز الشخصيات ووعيها، وتطوير الحدث وتوضيح جوانب من الصراع، ففي المشهد الحواري يتكلم الكاتب السارد بنفسه ليفصح عن شخصيته، ويدلي بأفكاره عن طريق الحوار مع شخصيات أخرى مشاركة، فضلاً عن إبطاء السرد والتريث في الأحداث" (١).

(١) أسود: الحركة الزمنية في سيرة صلاح نيازي الذاتية: ص ٥٨، مجلة آداب الفراهيدي، العدد (٣٢)، ٢٠١٧ م.

٣- بعد اللغوي:

اللغة بشكل عام في كتاب الاعتبار "تجه سردياً إلى بناء مشهدي، وذلك لا بد منه؛ لأن لغة السرد السيري لغة تعتمد على الاختيار والتكييف، وهذا الاعتماد يتوجه ضرورة نحو بناء مهندس، وهذا ما رأيناه عند أسماء الذي تنوّعت لغته السيريّة بين مشهد الحرب ومشهد الرحلة الصيد والمشهد الأدبي" ^(١).

ويشتعل بعد اللغوي للوصف في كتاب الاعتبار، عبر وظيفتين، الأولى: تزيينية، والثانية تفسيرية.

٤-١ وظيفة تزيينية

وهي "موروثة عن البلاغة التقليدية التي كانت تصنف الوصف ضمن زخرف الخطاب، أي كصورة أسلوبية، وتعتبره تأسيسًا على ذلك، مجرد وقعة أو استراحة للسرد، وليس له سوى دور جمالي خالص" ^(٢).
يقول أسماء: "وكان معه مملوك صغير يجر فرسًا لي دهماء (السوداء أو الدكناه)، مجنبة (سهلة الانقياد)، وتحته بصلة مليحة سروجية، وعليها مركوب ثقيل من فضة" ^(٣).

(١) عبد الله، لؤي حاتم: البنية التركيبية للغة السيرة الذاتية بين أسماء بن منقذ وابن خلدون:

ص ٢.

(٢) الشمالي: الوصف في الخطاب الروائي وأبعاده التقنية "زياد قاسم نموذجاً": ص ٤.

(٣) ابن منقذ: كتاب الاعتبار: ص ١٠٤

يأتي هذا الوصف في سياق نهب الفرنج لزرع حصن شيزر (موطن أسامة)؛ ومن ثم تحرك أسامة بصحبة عمه أبي العساكر لقتالهم في أفارمية، وهناك يروي أسامة عن إحدى أبرز مغامراته الحربية - رغم أنه ما زال غرّاً في القتال - حيث حمل على أعدائه فأعمل فيهم الرمي والطعن والقتل.

يتمثل البعد التزيني في اختيارات الذات اللغوية، التي تبرز كفاءتها وإمكاناتها في امتلاك ناصية الخطاب، وذلك يبدو لنا في اختيار صفات الفرس: "دهماء - مجنوبة" ، والبلغة: " مليحة - سروجية - عليها مركوب ثقيل من فضة".

دهماء:

في اللسان: الدهمة:السود، والأدهم: الأسود، يكون في الخيل والإبل وغيرها. والعرب تقول: ملوك الخيل ڈهمها. وحديقة دهماء مدهامة: خضراء تضرب إلى السواد من نعمتها وربها. وفي التنزيل العزيز "مدحامتان" أي سوداوان من شدة الخضرة من الري^(١).

مجنوبة:

وفرس طوع الجناب بكسر الجيم، وطوع الجَب، إذا كان سلس القياد^(٢).
 مليحة:

والملح: الحُسن من الملاحة، وفي الحديث أن رسول الله ﷺ أتى بكبشين أملحين فذبحهما.

(١) ابن منظور: لسان العرب: مادة "دَهَمْ".

(٢) ابن منظور: لسان العرب: مادة "جَنْبْ".

الأملح الذي فيه بياض وسود، ويكون البياض أكثر. وأملح البعير إذا حمل الشحم، ومُلح فهو مملوح إذا سمن^(٣).

سروجية:

سرج: السرج: رحل الدابة، والسراج: المصباح الزاهر^(١). هذا بالإضافة إلى ما ورد في الكتاب من تعريف للكلمة بأنها (نسبة إلى سروج إلى الشمال الشرقي من منبج قرب حران)، ولعل ذلك فيه إشارة إلى تمييزها أو أصالتها. لعل الذات هنا تروم أن تعكس تفرد الفرس، بما يمتلكه من صفات نادراً ما تجتمع في فرس أخرى؛ ومن ثم فلا يستحقه أي فارس، إلا فارساً متفرداً مثله في الصفات القتالية: من قوة، وشجاعة، وإقدام، وتضحية. فهو إذن وصف وإن كان للفرس، فهو يعود— في الوقت نفسه— على الذات.

ويقول كذلك: "ودخل تحت فرس شقراء تحته، عُشراء (لم يمض على حملها عشرة أشهر)، مُحَجَّلة (في قوائمها بياض)، شعلاء (ذات بياض في الذنب، وفي ناحية من الناصية)"^(٢).

و يأتي هذا الوصف في سياق مطاردة أخيه لخنزير، وطعنه إياه حتى إن قنطاريته (قناة الرمح وُتطلق على الرمح كله) انكسرت، حتى دخل تحت فرسه

(٣) السابق: مادة "ملح".

(١) السابق: مادة "سرج".

(٢) السابق: مادة "شعل".

فانفسخت رجلي الفرس، وأما أخوه فانكسرت إصبعه الخنصر وانكسر خاتمه.

إنه بالإضافة إلى وجه الزينة المشتركة مع النموذج السابق، المتمثل في الخيارات اللغوية، ونجد هنا في وصف الفرس:

شقراء:

الأشرف من الدواب: الأحمر في مُعْرَة حمرة صافية، والعرب تقول: أكرم الخيل وذوات الخير منها شُفُرُها. وهي في الإنسان حُمْرَة صافية، وبشرته مائلة إلى البياض^(١).

عشراء: لم يمض على حملها عشرة أشهر.

محجلة: في قوائمها بياض.

شعلاء: ذات بياض في الذنب، وفي ناحية من الناصية.

نلاحظ التوازن الإيقاعي بين الوحدات: شقراء- عشراء- شعلاء، إضافة إلى ما بينها من سجع.

٢-٣ وظيفة تفسيرية

وفيه تعلُّم ذات المؤلف على ما يتسم به الوصف من خواص دلالية، سواء كانت مباشرة أو رمزية، ومن ثم تقوم بتوجيهه نحو خدمة النص، بتفسير جزئياته وإطاره العام.

(١) السابق: مادة "شقر".

يقول أسامه: "كنا نصيد ونعود ننزل على بوشمير نهر صغير بالقرب من الحصن وننفذ **نَحْضُر** صيادي السمك فنرى منهم العجب، فيهم من معه قصبة في رأسها حرية لها جبة (ما يدخل من السنان في الرمح) مثل الخشوت (مفردتها الخشت وهي الحرية)، ولها في الجبة ثلاثة شعب حديد طول كل جعبة ذراع. وفي رأس القصبة خيط طوبل مشدود إلى يده يقف على جرف النهر وهو ضيق المدى ويفسر السمكة فيزرقها في تلك التي فيها الحديد فما يخطفها، ثم يجذبها بذلك الخيط فتطلع والسمكة فيها، وآخر من الصيادين معه عود قدر قبضه فيه شوك وفي طرفه الآخر خيط مشدود إلى يده، ينزل يسبح في الماء يبسر السمكة يخطفها بتلك الشوكة ويخليها فيها ويطلع ويجذبها بذلك الخيط يطلع الشوكة والسمكة، وآخر ينزل ويسبح ويُمرر يده تحت الشجر في الشطوط من الصفاصاف على السمكة، حتى يُدخل أصابعه في خواشيم السمكة، وهي لا تتحرك ولا تنفر وياخذها ويطلع، فكانت تكون فرجتنا عليهم كفرجتنا على صيد البارزة"^(١).

بعد قراءة النص تستوقفنا ملاحظات عده، أبرزها ما يلي:

- تطغى على لغة النص المباشرة، ما عدا التشبيهين: "جبة مثل الخشوت"، "نكون فرجتنا (لفظة عامية) عليهم كفرجتنا على صيد البارزة".
- تتسم الوحدات بالدقة والانضباط والاقتصاد في الدلالة؛ ومن ثم مجانية التعبيرات الفضفاضة والتلهل الإنساني، وذلك نراه في "حرية- جبة-

(١) ابن منقذ: كتاب الاعتبار: ص ٣٢٠.

الخشوت - شعب - ذراع - القصبة - الخيط - شوك - الشطوط -
الصفصف - خواشيم - البزاة".

— التفصيل في الوصف، خارجيًا وداخليًا؛ فالأول يبدو لنا في تقسيم المشهد إلى ثلاثة مشاهد

فيهم من معه قصبة...، وآخر من الصيادين...، وآخر ينزل ويسبح...". وأما الثاني ففي التعمق داخل كل وسيلة للصيد من الوسائل الثلاث، ويغلب عليها الوصف التنازلي الارتدادي من الأكبر إلى الأصغر فالأصغر، فالقصبة وهي لا بد أن تكون طويلة، في رأسها حربة، والحربة لها جبة أصغر منها، وهي بدورها تتفرع إلى ثلات شعب حديد. ثم يرتد من رأس القصبة خيط طويل مشدود إلى يده. وأما الصياد الثاني فمعه عود ليس طويلاً، لكنه ضخم قد القبضة، ينتهي بنصل ليسهل غرسه في السمكة، ويرتد منه أيضاً خيطاً، وأما الصياد الثالث فآلتة هي يده بداية من ذراعه (وهو طويل) وانتهاء بأصبعه (وهو أقصر).

— اتسم الوصف بالموضوعية، عدا الافتتاحية " تَحْضُرُ صيادي السمك فنرى منهم العجب" ، والختام " فكانت تكون فرجتنا عليهم كفرجتنا على صيد البزاة" ، وهذا بمثابة التقديم والتعليق الانطباعي ربما يكون الغرض منه تأكيد الحضور الذاتي في المشهد من بدايته إلى نهايته.

ومن أمثلة ذلك قوله في الخيل: "وعلى ذكر الخيل: ففيها الصبور كالرجال، وفيها الحوّار..."^(١).

وقوله: "وأخرجت السكين فتقته عند صدره، وأظهرت جانب الزردتين، وكان فيه زردية إفرنجية إلى ذيله وفوقها أخرى إلى وسطه. على كل زردية البطائن واللبد واللاسين ووبر الأربن. فالتفت إلى غلام له كلمه بالتركي، ولا أدرى ما يقول. فأحضر بين يديه حصاناً كميتاً كان أعطاه إياه أتابك في تلك الأيام، كالصخرة الصماء قُدت من قنة الجبل"^(٢).

وقد استخدم في النموذج الأول التشخيص "الصبور - الحوّار"، بالإضافة إلى التشبيه "كالرجال".

وفي النموذج الثاني خلط بين المباشرة في الوصف "إفرنجية - أخرى - كميتاً" وبين الصورة الفنية "كالصخرة الصماء قُدت من قنة الجبل" ليصف قوة الفرس وسرعته.

ويبدو لنا أن غرض الكاتب الرئيس هو التفسير؛ ولذا لا يألو جهداً في توظيف الآليات التي من شأنها أن تخلو سمات الموصوف، حتى وإن اختلفت أو تعددت.

(١) ابن منقذ: كتاب الاعتبار: ص ١٧٧ .

(٢) ابن منقذ: كتاب الاعتبار: ص ١٨١ .

ثالثاً: تجليات "الأنما":

١- الأنما بين الروي والبطل

"قد كان لمباحث جينيت (Genette) أثر مهم في التفريق بين الكاتب والروي والشخصية، وتعهدت الدراسات التي اهتمت بالسيرة الذاتية بوظيفة تمييز الكاتب من الروي والبطل، وحددت العلاقات بينهم"^(١).

لعلنا نضرب مثلاً بإحدى الأحداث التي كان فيها أسامة راويًا وبطلًا، التي جاءت بعنوان: "أسامة يعود إلى الشام في مهمة رسمية":

١-١ التفاصيل: ^(٢)

لا حظنا في المشاهد التي يكون فيها "الأنما" راويًا وبطلًا في الوقت نفسه، حرصًا على تفصيل الحدث تفصيلاً دقيقًا؛ ولذا نجد مثل الحدث أعلاه يتفرع إلى ما يأتي:

وكان الإفرنج - خذلهم الله - قد شرعوا في عمارة غزة ليحاصروها عسقلان.

قلت: "يا مولاي، فإن اعتذر أو كان له من الأشغال ما يعوقه أي شيء تأمرني"؟

ودفع إلى ستة آلاف دينار مصرية، وحمل جمل ثياب...

(١) جعفورة: في الذاتية "عنترة نموذجاً": ص٦٤، الدار التونسية للكاتب، تونس، ٢٠١٣م.

(٢) ابن منقذ: كتاب الاعتبار: ص٦٣: ٦٦.

فأمرتُ اثنين من الأدلة ركباً مهرين وساراً قداماً إلى الجفر. فما لبثا أن عاداً والمهاري تطير. فوقفتُ وجمعتُ الجمال التي عليها ثقلٍ ورفقاً من السفارة كانوا معه وردهم إلى الغرب.

ندبُ ستة فوارس من مماليكي وقلتُ: "تقدمنا، وأنا في إثركم" فساروا يركضون.

فعاد إلي واحد منهم وقال: "ما على الجفر أحد، ولعلهم أبصروا عرباناً، فلما وصلتُ الجفر، وفيه مياه وعشب وشجر، فقام من ذلك العشب رجل عليه ثوب أسود فأخذناه، وتفرق أصحابي فأخذنا رجلاً آخر وامرأتين وصبياناً. فجاءت امرأةٌ منهن مسكتُ ثويٍ وقالت "يا شيخي أنا في حسبيك. قلتُ "أنت آمنة مالك"؟ ... فجمعتُهم ورأيتُ بهم من الضر أمراً عظيماً.

فوقفتُ حتى جاء الجمال، وأعطيتهم من الزاد الذي كان معنا. قطعتُ فوطة كانت على رأسي أعطيتها للمرأتين، فكادت عقوتهم تزول من فرجمهم بالزاد.

قلتُ: لا تقيموا ها هنا يسبوكم الإفرنج.

حتى نهاية القصة: "فرجع الإفرنج حملوا على أولئك فقتلوا منهم نفراً فانهزمت الرجال الذين رددتهم بما رجعوا ورموا تراسمهم. ولقينا الإفرنج فرددناهم ومضوا عائدين إلى بلادهم وهي قريبة من عسقلان. وعاد الذين انهزموا من الرجال يتلاؤون، وقالوا: كان ابن منقذ أخبرنا، قال لنا أرجعوا ما فعلنا حتى انهزمنا وافتضحتنا".

ربما يرجع السبب في سرد الذات لتلك التفاصيل؛ إلى طبيعة الجنس الأدبي الذي تكتب من خلاله كوعاء أشبه ما يكون بالمذكرات أو باليوميات، التي تقوم على تدوين كل الأحداث، سواء كانت محورية أم فرعية، طويلة أم قصيرة، لكن ما يbedo أن السبب الرئيس في سرد تلك التفاصيل هو رغبة الذات في إطلاع المتلقى على كل ما من شأنه أن يبرز إنجازاتها ونجاحاتها في الحياة، وإذا عرفنا أن حياة أسامة جلها كانت وسط المعرك، وفي خضم جهاد الصليبيين وأعداء الدولة الإسلامية، تأكّد لنا ضرورة سرد الأحداث بتفاصيلها الدقيقة، من جهة كمحاولة لإعادة اكتشاف الذات - لا سيما إذا عرفنا أن هذه السيرة كتبها أسامة بعد تجاوز التسعين من عمره - وكتابتها من جديد، ومن جهة أخرى إشراك المتلقى في إعادة بناء الحدث من منظور رؤيته العصرية، بصورة أشمل وأعمق بحيث تكون قابلة لإنجاح دلالات جديدة. كل ذلك لا شك قد أسهّم في إبراز تاريخية "الأنّا" وبلوره معالمها النصية في الخطاب.

ومن مظاهر هذه التفاصيل، الاستطراد^(١)، وهو الانتقال من موضوع إلى آخر، ثم العودة إلى الموضوع الأول، وهي سمة ظاهرة في سائر كتب الجاحظ، ويبدو أن الجاحظ كان يتقصد هذا الأسلوب لإبعاد الملل عن نفس القارئ.^(٢)

(١) يُنظر ابن منقذ: كتاب الاعتبار: ص ٦٦: ٦٨.

(٢) يُنظر التميمي: الأدب العربي عبر العصور: ص ٣٤٤، دار الساقى، ط ١، ٢٠١٥ م.

"من ذكريات الطريق فطنة ودليل"

"من ذكريات الطريق أيضاً: هرب أحد البغال بخرج الدنانير"

والاستطراد هنا يُعد من النوع السردي الذي يؤثر التفريع على الحدث؛ رغبة في استحضار الحكم، أو استرجاع الأحداث المفاجئة أو الطريفة. أما الأول فيدور على سير الجمال في الصحراء أشتاتاً، مما اضطرّ أسامة إلى أن يطلب من رفقائه الانتشار للبحث عنها: "فوقفتُ على رفعة من الأرض، وقلتُ للغلمان: تفرقوا في طلب الجمال وعودوا إلي، فأنا ما أزول مكانِي"، ومن ثم تاه بعضهم عن بعض، حتى ألمَ الله أحد الأدلة وأخرج قداحة وجعل يقبح والشرار يتطاير من الزند هنا وهناك حتى رأهم أسامة ومن معه؛ وبذلك التأم شملهم بعد أن أشرفوا على الهلاك.

وأما الثاني فيسترجع فيه أسامة أمِّ الملك العادل بـألا يُعلم الأدلة بما معه من المال؛ ولذا يحرص على وضعه داخل حُرج، ثم يضعه فوق البغل ويسلمه لأحد الغلمان، وكان من حرصه أن يجعل المال تحت البسط أثناء نومه، حتى إذا وضعه على البغل في إحدى الليالي، إذا به يجري بما فوقه من الخرج، فيأمر أسامة الغلمان بتتبعه فلم يتمكنوا من اللحاق به، لكنه قد أُسقط الخرج من قوة عدوه، فجاؤوا به وسلموه لـأسامة فقال: "الخرج كنتُ أطلب، والبغل أهون مفقود"، وإذا بالبغل يعود فيعلق أسامة: "فكأنه ما كان قصده إلا تضييع أربعة آلاف دينار".

من أبرز الملاحظات على الاستطراد في المثالين السابقين، ما يأتي:

– في المثالين انتقال من فضاء إلى فضاء آخر:

المكان: (رفعه من الأرض - البرية - النوء / تيه بني إسرائيل - المنزلة). "وهذا النسق من الانتقال إلى مكان آخر عبر الاستطراد هو ما يفتح في فضاء السرد مكاناً جديداً مفارقاً ومبيناً للمكان الذي تدور فيه أحداث القصة، ومن هنا يكون الاستطراد باعثاً على تحريك مخيلة القارئ باتجاه جديد وبمسافة شاسعة ويمثل في الوقت نفسه ابتعاداً عن الخط الدرامي للقصة فيكون القارئ معلقاً بالعودة مرة أخرى مع انتهاء هذا الاستطراد"^(١).

— "كما لا يمكن إغفال القيمة الجمالية المترتبة بالمعرفة في ذاتها فإذا كانت الحكاية بشكلها الدرامي والحركي وما تمثله من صراع أو تختزل من تجربة ممتعة ومشوقة فإن المعلوماتية التي تضيفها هذه الاستطرادات المعرفية هي بذاتها مهمة للقارئ الذي لا يقنع بمجرد الحكاية أو بفكرة التسلية ويريد حركة أو تطوفاً في العالم ينقله إلى حقل جديد أو مسألة معينة أو موضوع معين يضيف إليه جديداً^(١). فحتى وإن كانت المعرفة التي قدمها لنا الاستطرادات ضئيلة أو ضحلة بالمعايير العصرية، فربما كانت تعنى للعصر الذي قيلت فيه شيئاً ذا بال، ففي النص الأول نلمح بعض الإشارات، مثل: السير على النوء (نجم يميل إلى الغروب، ويطلع من المشرق نجم يقابلها) عند التيه في الصحراء— بعض الحلول الأخرى مثل: استخدام

(١) شوشة: صياد النسيم: جماليات الاستطراد المعرفية: موقع أنطولوجيا السرد العربي، (الفقرة الأولى)، ٢٠١٨/١٧/٢، ٦٧٠٢

(١) السابق (الفقرة الأولى).

النار وتطاير الشرار مما يتبع الرؤبة لآخرين بوضوح. وفي النص الثاني تقابلنا كذلك المعرف مثل المتعلقة بالمعالم "تيه بني إسرائيل (طور سيناء)"، وكذا تشبيه جري البغل في سرعته بالحمار الوحشي، مما يمد القارئ بصورة لطبيعة البغل والحمار الوحشي معاً.

— أ Medina النصان بعدد من المفردات Rima بعضها قليل الاستعمال في اللغة، وبعضها الآخر خاص بعصر المؤلف، مثل: جُرية (تصغير جرو) — سروجي (نسبة إلى مدينة سروج، من نواحي منج) — مجنوب (سهل الانقياد) — سرفسار (كلمة فارسية تعني العنان) — طوالة (في اللغة مكان لوضع طعام الخيل والبغال، لكن أسماء لا يستخدمها بهذا المعنى، لكن يستخدمها معنى الحبال التي تُشد بها الخيل لترعى).

— يغلب على النصين سمة الانتقائية، نستنتج ذلك من العنوان "من ذكريات الطريق"، وكذا من كلام أسماء في بدايتهما "ومن طريف ما جرى لي بالطريق"، "وما جرى لي في تلك الطريق".

وهذا يدل من جهة على وجود أحداث أخرى فرعية حديثة لأسماء في طريقه، ومن جهة أخرى على خضوع الأحداث لاختبارات خطابية من قبل الذات ومن ثم توافر القصدية لتكريس تلك السمات التي أسلفنا ذكرها لتصير بمثابة العلامات التي تشير إلى وجودها، ومن ثم تحيي مناحاً يبرر بروز "الأن" داخل النص.

٢-١ الضمير:

تعد العناية بالضمير في مختلف الدراسات اهتماماً يتوزع في إطار توجهات عديدة، منها ما يتعلق بتحديد الشخص المتحدث؛ لأن تحديد هذا النوع من الضمير وثيق الصلة بالمنظور الذي ينطلق من خالله، ووثيق الصلة بطبيعة الحكم الذي يصدره، سواء كان حكماً ذاتياً (في إطار نسق الذات)، أو موضوعياً (في إطار الغياب)، أو بينه وبين غيره (في استخدام المخاطب). كما أن تحديد الضمير له دوره الفاعل في بيان الكيفية التي يبني بها النص، وتأتي وظيفته في النصوص الأدبية مرتبطة في الأساس بجزئية التواصل المفترض بين المبدع والمتلقي.

فاختيار ضمير بعينه شيء ضروري لعملية التواصل؛ لأنه يحدد تنظيم الخطاب الذي يحيل إلى مجموعة من الدلالات الخاصة^(١).
وو عند القيام بإحصاء الضمائر سواء كانت متعلقة بأفعال، أو وردت منفصلة في تلك الحادثة، وجدناها على النحو الآتي:

الضمائر

الضمائر	المتكلم	الغائب	المخاطب
العدد	٧٦	٧٠	٢٢

(١) ينظر دريم: فاعلية الضمير في إنتاج الدلالة— دراسة أسلوبية في قصيدة أنشودة المطر لبدر شاكر السياب: ص ٣٠، الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية، قسم الآداب واللغات، العدد ٢٠، جوان ٢٠١٨.

إن هذا الإحصاء يعكس غلبة الضمائر التي تحيل إلى الذات: أنا- نحن، ومن ثم يثبت محورية الـ "أنا" وسط دائرة الخطاب التي تُعد الضمائر من أبرز محركاتها، وأكثرها فاعلية في النص؛ إذ تحيل القارئ إلى الدور الحيوي الذي تقوم به "الأنا"، لاسيما في الأحداث التي يُسند إليها دور البطولة والرواية- كما رأينا في المثال السابق- وقد لفتنا في هذه الأحداث تمثيل "الأنا" قطب رحى تدور حوله الأحداث الفرعية، وتنسند إليه المهمات الرئيسية، وكذا توزيع الأدوار على الشخصيات.

ويكفي أن نطالع أحداً آخر في الكتاب، كان فيها أسامة راوياً فقط وليس بطلاً، لنرى خلوها من تلك السمات النصية السالفة الذكر، مثل:

ابن السلاط يقتله حفيد امرأته، بالاتفاق مع الظافر^(٢).

باب المجلس يموت من الخوف (أربعة سطور)^(٣).

أسامة يعود فيسترجع ذكرى نكبة وزير آخر من وزراء الحافظ الفاطمي: الأفضل بن ولثسي^(٤).

(٢) يُنظر ابن منقذ: كتاب الاعتبار: ص ٧٣.

(٣) يُنظر السابق: ص ٧٨.

(٤) يُنظر السابق: ص ٨٩.

٤ - رؤية الأنا

إن القارئ بالإضافة إلى تنقيبه في "السيرة الذاتية" عن أحداث تاريخية لا يعرفها، فإنه كذلك يود التعرف على موقف كاتبها من هذه الأحداث بالذات، وكأنه يبحث عن زمنية أخرى تصنعها الذات، أو عن زمنية تتعلق بالتفاصيل وحدها^(١). فكاتب السيرة ليس مؤرخاً فقط، جل همه تدوين الأحداث والتاريخ وأبرز أعمال الشخصيات، إنما يروم أيضاً من خلال الانخراط في الكتابة، أن يعكس فكره ومن ثم يعي ذاته ويرز "أناه".

فقد كان أسامة مغرماً بكتابه اسمه أو تقييد بعض خواطره في الأمكانة التي ينزل فيها، على نحو ما يفعل بعض السياح في العهد الحاضر، من ذلك ما كتبه على حائط دار سكناها بالموصل، حيث لم تطب له الإقامة، فقال:

دار سكنت بها كرهاً وما سكنتْ روحي إلى شجن فيها ولا سكن
والقبرُ أستُرْ لي منها وأجملُ بي إن صدني الدهرُ عن عودي إلى وطني^(٢)
فهذا الخبر يحمل في طياته الوجهين: وجه الحرص على التاريخ بما يشبه
اليوميات أو المذكرات الشخصية، والوجه الثاني هو رؤية الذات إلى هذه
الدار؛ ومن ثم المقارنة بينها وبين القبر، وإن كانت في الحقيقة مقارنة بين

(١) يُنظر بنكراد(بتصرُّف): حقائق التاريخ ومكانت الهوية السردية: ص ١٣، مجلة علامات، المغرب، العدد ٣٨، ٢٠١٢م.

(٢) يُنظر حسن: الرحالة المسلمين في العصور الوسطى: ص ٧٧، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ٢٠١٣م.

الدنيا والآخرة، حتى يخلص إلى إثارة الآخرة على الدنيا، من خلال تكرار صيغة أفعل للتفضيل "أستر - أجمل".

١-٢ رؤية عامة:

من الوهلة الأولى أثناء قراءة الكتاب، يتبدى لنا أن رؤية "الأننا" تنطلق من المنبع الصافي للدين الإسلامي، الذي طبع كثيراً من ألوان الأدب في تلك الحقبة، فهو راقد محوري طبع جل الرؤى التي انتسبت إلى "الأننا" في هذا الكتاب. وقد اشتغل هذا الراقد من خلال وسائل عده، أهمها: التربية: حيث تربية النشء تربية إسلامية، من خلال تحفيظ القرآن الكريم، وتدریس علوم الشريعة الإسلامية من: تفسير، وفقه، وحديث شريف... الثقافة: وأعني بها الطابع العام للعصر، والسلوك السائد للمجتمع حكام ومحكومين، فالعالم الإسلامي - حتى بعد ضعف الخلافة العباسية - بقي يستظل بمحظة الشريعة الإسلامية، وتحكم بسلطان الدين على الأقوال والأفعال في الأعم الأغلب.

الأعلام: يخبرنا أسامة من خلال سرده لحوادث عصره، بمعايشته لأبرز أعلامه من السلاجقة، مثل: صلاح الدين الغساني صاحب حماة، ومن الفاطميين، مثل: الخليفتان الحافظ ل الدين الله والظافر، والوزراء الأفضل بن أمير الجيوش، وعلي بن السلاط، وعباس بن باديس، ومن الزنكيين: عماد الدين زنكي، وابنه نور الدين محمود، ومن الأيوبيين: أسد الدين شيركوه، وابن أخيه السلطان الناصر صلاح الدين.

هذا بالإضافة إلى أعلام الفرنجية، مثل: فُلك بن فلوك (Fulk V) وقد تُوج ملِكًا على بيت القدس سنة ٥٢٦هـ، ودنكري (Tancred) وهو أول أصحاب أنطاكية، وتذكره بعض التواريخ العربية باسم طنكري، ويدرها (Pedrovant) فارس صليبي معاصر لأُسامة، وروجر (Roger) ويسمونه في تواريخ العصور: سرجال أو روجيل، وهو ابن أخت تنكرد، وبغدوين البرونس (Prince) وهو بالدوين الثاني (Baldwin II) ملك بيت المقدس^(١).

ولا شك أن أُسامة قد تأثر بمؤلءات الأعلام، سواء منهم من طالت خدمته لهم، أو من اقتصر تعامله معهم على أداء أدوار بعينها ولاسيما الفاطميين. وقد تنوّعت ألوان هذا التأثر وتفاوتت مقاديره؛ فمنهم من تعلم منه مكر السياسة وأخذ الحيطة والحدر، ومنهم من تعلم منه خدعة الحرب، ومنهم من تأثر بورعه وتقواه، ومنهم من اجتمعت لديه كل هذه الخصال فنهل منها، لا سيما نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي.

٢-٢ معالم الرؤية:

تتحدد هوية "الأنّا" من خلال موقعها داخل مركز العالم والخطاب، ومن أبرز محددات هذه الهوية وأهمها على الإطلاق، تلك التصورات التي تنتهجها وتتبناها وتشير إليها.

وقد جاءت هذه الرؤى في كتاب "الاعتبار"، ما بين: حرية، وسياسية، وأخرى تخص المرأة، والأنّا والآخر، وطبع الحيوان.

(١) يُنظر الصفحتان ١٣٦، ١٣٩، ٢٠٣.

حربيّة:

- ١- "وسرنا حتّى وصلنا بلد دمشق من سلم من الإفرنج وبني فهيد يوم الجمعة الخامس ربيع الآخر من السنة، وكانت السلامـة من تلك الطريق من دلائل قدرة الله عز وجل وحسن دفاعـه" ^(١).
- ٢- (أسرة أسامة بيد الإفرنج) "فهذه نكبات ترزعـ الجبال وتـفـني الأموال، والله سبحانه يـعـوض برحمـته ويـخـتم بـلطفـه وـمـغـفـرـته. وتـلـك وـقـعـاتـ كـبـارـ شـاهـدـتـها مـضـافـةـ إـلـىـ نـكـبـتهاـ سـلـمـتـ فـيـهاـ النـفـسـ لـتـوقـيـتـ الـأـجـالـ وـأـجـحـفـتـ بـهـلاـكـ الـمـالـ" ^(٢).
- ٣- (بعد هزيمـتهم لـثـمـانـيـةـ، هـزـمـهـمـ رـجـلـ وـاحـدـ) "وـمـعـ هـذـاـ فـلـاـ يـثـقـ إـنـسـانـ بـشـجـاعـتـهـ، وـلـاـ يـعـجـبـ بـإـقـدـامـهـ" ^(٣).
- ٤- (رـجـلـ وـاحـدـ يـسـتـولـيـ عـلـىـ حـصـنـ) "وـالـرـجـالـ إـذـاـ قـوـواـ نـفـوسـهـمـ عـلـىـ شـيـءـ فـعـلـوـهـ" ^(٤).
- ٥- (معارضـتـهـ لـابـنـ الـمـنـيـرـ فـيـ أـنـ الـعـقـلـ لـاـ يـحـضـرـ أـثـنـاءـ الـقـتـالـ) "وـكـانـ رـحـمـهـ اللهـ بـالـعـلـمـ أـخـبـرـ مـاـ هـوـ بـالـحـرـبـ، فـإـنـ الـعـقـلـ هـوـ الـذـيـ يـحـمـلـ عـلـىـ إـلـقـادـمـ عـلـىـ

(١) ابن منقذ: كتاب الاعتبار: ص ٨٧.

(٢) السابق: ص ٩٧.

(٣) السابق: ص ١٢٥.

(٤) السابق: ص ١٥٤.

السيوف والرماح والسهام أنفحة من موقف الجبان وسوء الأحداثة، ودليل ذلك أن الشجاع يلتحقه الزمع والرعدة وتغير اللون قبل دخوله في الحرب؛ لما يفكر فيه وتحدث به نفسه مما يريد يعمله ويباشره من الخطر، والنفس ترتاع لذلك وتكرهه، فإذا دخل في الحرب وخاض غمارها ذهب عنه ذلك الزمع والرعدة وتغير اللون. وكل أمر لا يحضره العقل يظهر فيه الخطأ والزلل^(١).

٦- "النصر في الحرب من عند الله تبارك وتعالى، لا بترتيب وتدبير، ولا بكثرة نفير ولا نصير"^(٢).

٧- "وقد يكون التهيب في بعض الأوقات، نافعاً في الحرب"^(٣).

٨- "لو صفت القلوب من كدر الذنوب، وفُوضت إلى عالم الغيوم، علمت أن ركوب أخطار الحروب، لا ينفع مدةً الأجل المكتوب"^(٤). "ففي بقائي أوضح معتبر"^(٥).

٩- "وأنا القائل بمصر أدم من العيش الراحة والدعة وما كان أعدل تقضيه وأسرعه:

(١) السابق: ص ١٦٢.

(٢) السابق: ص ٢٣٩.

(٣) السابق: ص ٢٤٣.

(٤) السابق: ص ٢٥٩.

(٥) السابق: ص ٢٦١.

وما الرفاهة من رأيي ولا أرثي ولا التنعم من شأني ولا شغلي
ولست أرضي بلوغ المجد في رفه ولا على دون حطم البيض والأسل^(٦)
المرجعية الدينية هي الغالبة على هذه الرؤى، وقد تبدي ذلك من خلال
الإيمان بقدرة الله، وتسليم الأمر إليه، والتحلي بالصبر، والتوكيل على الله والثقة
به في كل شيء، لا سيما في مواطن القتال.

ليس القتال بكثرة العدة ولا العتاد، إنما بتفويض الأمر إلى الله أولاً، ثم
الأخذ بالأسباب ثانياً، وأهمها: مراعاة إحداث توازن بين العقل من جهة
والشعور من جهة أخرى، وتبني الاعتدال، والتواضع، وتقدير الأمور، واعتماد
الواقع والمشاهدات مصدراً أولياً من مصادر المعرفة والحكمة، ولا شك أن
المال يحتل مرتبة متقدمة، والدليل على ذلك التكرار "الأموال - المال"، وإشار
الحياة العسكرية بكل مفرداتها (الخشونة - شظف العيش - الشدة - التدرب -
القتال) على الترف ونعومة العيش. ولذا لما طعن أسامة في السن وببلغ
السبعين، وأحس بألم في رجليه منعه من ركوب الخيل، وجدناه يقول:

رِجْلَاهُ وَالسَّبْعُونَ قَدْ أَوْهَنْتُ قَوَاعِيْدَ عَنْ سَعِيِّي إِلَى الْحَرْبِ
وَكُنْتُ إِنْ ثَوَّبَ دَاعِيَ الْوَغْيِ لِبَيْتِهِ بِالْطَّعْنِ وَالْضَّرْبِ
أَشْقَى بِالسَّيْفِ دَجِي نَقَعَهَا شَقَّ الْدِيَاجِي مُرْسَلُ الشُّهُبِ
أُنَازِلُ الْأَقْرَانَ يُرْدِيْهُمْ مِنْ قَبْلِ ضَرِبِ هَامَهُمْ رُعْيِي^(١)

(٦) السابق: ص ٢٥٩.

فبحسر الذات ليس بسبب الكبر في حد ذاته، إنما ما ترتب عليه من ضعف جسدي حال بينها وبين القتال؛ ولذا تلجمأ إلى الارتداد إلى الخلف حيث الذاكرة، وأبرزها سرعة تلبية النفير إلى الجهاد، وكذا الشجاعة في القتال التي تبدت من خلال الصورة في البيتين الثالث والرابع، حيث يشق أسامة بسيفه ظلمة غبار الحرب في سرعة وقوة وخفة مثلما تشق الشهب ظلمة الليل حيث يسلطها الله عز وجل بقدرته على الشياطين في سرعة وقوة. وفي مقارعة الأبطال في ميدان المعركة نراه مبادراً "أنازلُ" ، وتبعد المفارقة هنا في بيان سبب هلاك أعدائه الرئيس، وهو هلعهم من مجرد رؤيته، وقد سبقه المتنبي في هذا المعنى، إذ يقول من ميميته الشهيرة في وصف سيف الدولة:

قد نابَ عنكَ شديداً الحوف، واصطنعتَ لكَ المهابةُ ما لا تصنعُ البُهْمُ^(١)

سياسية:

- ١ - "(تنانع عباس وابن رزيك على أسامة) فكان الشياطين وسوسوا عباس بذلك، أو توهمه؛ لما يعلمه بيني وبين ابن رزيك من المودة"^(٢).
- ٢ - "(ترجيح أسامة لرأي غلام عباس على مولاه، من ضرورة التجهيز لقتال ابن رزيك، بدلاً من السفر إلى الشام) وكان الصواب معه"^(٣).

(١) ابن منقذ: ديوان أسامة بن منقذ، ت/ أحمد بدوي، وحامد عبد المجيد، ص ٢٥٨، عالم الكتب، ط ٢، بيروت، ١٩٨٣ م.

(٢) المتنبي: ديوان المتنبي، ص ٣٣١، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٣ م.

(٣) السابق: ص ٨١.

٣- "ولولا نفاذ المشيئة في عباس وابنه، وعواقب البغي وكفر النعمة، كان اعظ ما جرى قبله للأفضل بن رضوان الولحي رحمه الله"(٤).

٤- "(بالعقل تعمير البلاد- بالعقل تحفظ البلاد عمرانها- صاحب بدليس يحفظ عمران بلده بالعقل- صاحب قلعة جعبر يحسن السياسة/ ضمنية)"(١).

لعلنا نلمح فيما سبق سمة بارزة، وهي الوعي بقيمة التحالفات السياسية، وذلك من خلال استقراء شخصية أسامة، ومعالجته لكافة الأمور الحياتية، فيبدو لنا شخصية متزنة، تحكم العقل دائمًا، ومن ثم نجده في تعامله مع الساسة وحتى مع الخصوم متسمًا بالروية والحكمة لا التسرع والهمجية؛ ومن ثم ترجيح التعقل والسلم في العلاقات السياسية (الدبلوماسية)، سواء كانت محلية أو دولية.

وقد عكست النماذج السابقة سعة الصدر وتقبل الآخر، وقد اتضح ذلك من خلال بعد نظر "الأننا" في معالجة الانتيماءات الحزبية، ومحاولة استمالة الخصوم، والإنصات للصديق والعدو، وإسناد الدور المركزي للاعتبار في اتخاذ القرار المناسب للمرحلة؛ ولذا لا نتعجب إذا وجدناه في حواراته وجداوله وأرائه- في الكتاب- يتسم بال موضوعية في الطرح السياسي؛ مما يدل

(٣) السابق: ص ٨٢.

(٤) ابن منقذ: كتاب الاعتبار: ص ٨٩.

(١) السابق: ص ١٦٤: ١٦٨.

على تحلي شخصيته بالانفتاح ومحاولة الإفادة من كل الآراء، وعدم الاكتفاء والانكفاء على ذاته.

المراة: (٢)

١- "كل ذلك وأمة عجوز يقال لها بريكة مملوكة لرجل كردي من أصحابنا يقال له علي بن محبوب وافقه بين الخيل على شط النهر وفي يدها شربة تسقي بها وتسقي الناس، وأكثر أصحابنا الذين كانوا على الشرف لما رأوا الإفونج مقبلين في ذلك الجموع اندفعوا نحو المدينة وتلك الشيطانة واقفة لا يروعها ذلك الأمر العظيم".

٢- (يتحدث أسماء عن ابن عمه سنان الدولة في لقائه بمقدم الإماماعيلية): "ولدت أنا وهو في يوم واحد... إلا أنه ما باشر الحرب ذلك اليوم وأنا كنت قطبها. فأراد علوان اصطناعها. فقال له ارجع إلى بيتك احمل منه ما تقدر عليه ورُح لا تُقتل، فالحصن قد ملكتناه. فرجع إلى الدار وقال: من كان له شيء يعطيه إياه، يقول ذلك لعمته ونساء عمه، فكل منهم أعطاه شيئاً، فهو في ذلك إذا إنسان وقد دخل الدار عليه زردية وخوذة ومعه سيف وترس. فلما رأه أيقن بالموت، فوضع الخوذة وإذا هي أم ابن عمه ليث الدولة يحيي رحمه الله. فقالت أي شيء تريدين تعمل؟ قال آخذ ما قدرت عليه، وأنزل من الحصن بحبل وأعيش بالدنيا. قالت بئس ما تفعل، تخلي بنات عملك وأهلك للحجاجين وتروح؟ أي عيش يكون عيشك إذا افتضحت في

(٢) يُنظر السابق: ص ٢٠٧ - ٢١٨.

أهلوك أهزمت عنهم؟ اخرج قاتل عن أهلوك حتى تقتل بهم، فعل الله بك وفعل. ومنعته رحمة الله من الهرب، وكان من الفرسان المعدودين بعد ذلك".

٣- "وَجَئْتُ إِلَى دَارِي أَطْلَبْ شَيْئاً مِنْ سَلَاحِي مَا وَجَدْتُ إِلَى جَهَازَاتِ السَّيْفِ وَعَيْبِ الْكَرَاغِنَدَاتِ. قَلْتُ يَا أُمِّي أَيْنَ سَلَاحِي؟ قَالَتْ يَا بْنِي أُعْطِيَتِ السَّلَاحَ مَنْ يَقْاتِلُ عَنَا، وَمَا ظَنَنْتَكَ سَالِماً! قَلْتُ وَأَخْتِي أَيْ شَيْءٍ تَعْمَلُ هَاهُنَا؟ قَالَتْ يَا بْنِي أَجْلَسْتَهَا عَلَى الرُّوْشَنِ وَجَلَسْتَ بِرَا مِنْهَا. إِذَا رَأَيْتَ الْبَاطِنِيَّةَ وَصَلَوَا إِلَيْنَا دَفَعْتُهَا رَمِيَّهَا إِلَى الْوَادِي فَأَرَاهَا قَدْ مَاتَتْ، وَلَا أَرَاهَا مَعَ الْفَلَاحِينَ وَالْحَلَاجِينَ مَأْسُورَةً، فَشَكَرْتُهَا عَلَى ذَلِكَ وَشَكَرْتُهَا الْأَخْثُ وَجَزَرْتُهَا خَيْرًا، فَهَذِهِ النَّخْوَةُ أَشَدُّ مِنْ نَخْوَاتِ الرِّجَالِ".

٤- (امرأة مسلمة تقتل زوجها لخيانته للMuslimين) "فَكَانَ يَنْهَضُ بِالْفَرْنَجِ إِلَى الْمُسْلِمِينَ يَغْنِمُهُمْ وَيَبَالُغُ فِي أَذَى الْمُسْلِمِينَ وَأَخْذُ مَا لَهُمْ وَسُفْكُ دَمِهِمْ حَتَّى قَطَعَ سَبِيلَ الْمَسَافِرِينَ ... وَاجْتَمَعَتْ هِيَ وَهُوَ عَلَى زَوْجِهَا عَلَيْ بْنِ أَبِي الرِّيَادِ قَتْلَاهُ وَاحْتَمَلَ بِجَمِيعِ مَا لَهُمْ. وَأَصْبَحَتْ عَنْدَنَا فِي شِيزِرِ، وَقَالَتْ غَضِبَتْ لِلْمُسْلِمِينَ مَا كَانَ يَفْعَلُ بَهُمْ هَذَا الْكَافِرُ، فَأَرْحَثَتِ النَّاسَ مِنْ هَذَا الشَّيْطَانِ، وَرَعَيْنَا لَهَا مَا فَعَلْتُ وَكَانَتْ عَنْدَنَا فِي الْكَرَامَةِ وَالْاحْتِرَامِ".

لعل الإقرار بأهمية المرأة، وفاعليتها في المجتمع، يؤكد ما استنتاجنا سابقاً من امتلاك ذات المؤلف لعقلية مستيرية، وفطنة واعية، وهي رؤية نابعة من توجه العصر توجهاً دينياً، ما زال ملتزماً ومتعلقاً بتعاليم الشريعة الإسلامية، وفي الوقت نفسه صادر عن طبيعة العصر وحيثياته، فالآمة منشغلة باحتلال الصليبيين لبيت المقدس، ولذا فهناك محاولات في أماكن شتى للتبعة، ومحاولة

توحيد الصفواف، والاجتهاد في رأب الصدع؛ ولذا لا نستغرب مما تفعله المرأة وما جاء في السياقات السابقة، فهو يدل على حرص المرأة على مشاركة الرجل وأن تقوم بدور إيجابي يخدم القضية العامة التي تشغّل المسلمين آنذاك. إن دور المرأة هنا لا يتنافر مع دور الرجل، ولا تتعارض مصلحتها مع مصلحته، إنما يأتي مكملاً لدور الرجل في المجتمع. ولا أدل على الاعتراف بذلك من مدح الكاتب لهذه المواقف، وما تعكسه من صفات، وربما نستتّجع أيضاً اختلاف معايير الأنوثة تأثراً بظروف البيئة والعصر، وهذا يتضح من طبيعة الوظيفة التي قامّت بها المرأة، ومشاركتها في الأحداث، وكأن السمات التي عكستها تلك الوظيفة صارت منخرطة ضمن معايير الأنوثة في هذا العصر، وأبرزها الجرأة، والقوّة، والنحوة، والمرءة، والإخلاص.

الأنّا والآخر:

عقوّلهم:

"ورأيت واحداً منهم، جاء إلى الأمير مُعین الدين — رحمه الله — وهو في الصخرة، فقال: "تريد تبصر الله صغيراً؟" قال: نعم! فمشى بين أيدينا حتى أرانا صورة مريم، والمسيح — عليه السلام — صغير في حجرها! فقال: هذا الله صغير! تعالى الله عما يقول الكافرون علواً كبيراً!"^(١).

أخلاقهم:

(١) ابن منقذ: كتاب الاعتبار: ص ٢٢٤.

١- الجفاء: "فكل من هو قريب العهد ببلاد الإفرنج أجفى أخلاقاً من الذين قد تبليدوا وعاشرووا المسلمين" ^(٢).

٢- نخوة رجالهم: "ليس عندهم شيء من النخوة والغيرة، يكون الرجل منهم يمشي هو وأمرأته يلقاء رجل آخر يأخذ المرأة ويعتزل بها ويتحدث معها، والزوج واقف ناحية ينتظر فراغها من الحديث، فإذا طولت عليه خلاها مع المتحدث ومضى" ^(١).

٣- خيانة العهد: "ملك الإفرنج ذنكري لا يحفظ عهده؛ بعد تأمينه للفارس المسلم حسنون، يأمر بتعذيبه واقتلاع عينه اليمنى" ^(٢).
قتالهم:

ـ الشجاعة والقتال: "إذا خبر الإنسان أمرور الإفرنج سبع الله تعالى وقدسه ورأى بهائم فيهم فضيلة الشجاعة والقتال ولا غير" ^(٣).
طبعهم:

١- من عجيب طبعهم/ إيجابي: "فرمته حصان في ساقه، فعملت عليه رجله، وفتحت في أربعة عشر موضعًا، والخرج كلما ختم في موضع، فتح موضعًا - وأنا أدعوا بحلاكه - فجاءه طبيب إفرنجي، فأزال عنه تلك

(٢) السابق: ص ٢٢٣.

(١) السابق: ص ٢٢٦ : ٢٣٢.

(٢) السابق: ص ١٣٦ : ١٣٨.

(٣) السابق: ص ١٣٥.

المراهم، وجعل يغسلها بالخل الحاذق، فختمت تلك الجراح وبراً، وقام مثل الشيطان!""^(٤).

٢- من عجيب طبهم/ سلي: "حضر الفارس والفالس - وأنا حاضر - فحط ساقه على قرمة خشب وقال للفارس اضرب رجله بالفالس ضربة واحدةً اقطعها، فضربيه - وأنا أراه - ضربة واحدةً ما انقطعت، ضربه ضربة ثانية فسال مخ الساق، ومات من ساعته"^[١].

تجدر الإشارة في هذا السياق إلى أن لـ"الأنما" أنواع، أبرزها ما يلي:
— الأنما المتعالية:

وهي الأنما العظيمة المتعالية، وأهم ما يميزها الصراع المستمر مع الآخر، وهذا من أجل إثبات وتحقيق كيانها، ووجودها، فهي تتمتع بقدرات وإمكانيات عالية... تجعلها تتعالى عن واقعها الاجتماعي.

— الأنما الصدامية:

هي أنا تتعارض وتصارع وتتناقض بما تحمله من طموحات وأفكار وآمال مع الآخر، مما يؤدي إلى نشوء علاقة صدامية بينهما.

— الأنما المتماهية:

هذا النوع من الأنما/ الذات تعاني من نقص في جانب ما في شخصيتها، وتبثث عما يعوض ويكمel لها هذا النقص^[٢].
ويمكن تحديد دلالات الآخر من خلال سياقين رئيسيين:

(٤) السابق: ص ٢٢١.

معري:

وعلى ضوئه يبدو الآخر مفهوماً تكوينياً أساسياً للهوية، أي للذات وهي تحدد هويتها، فلا هوية بدون آخر.

فيمي أخلاقي:

يكتسب الآخر من خلاله قيمة، أو موقعاً في سلم تراتبي يكون من خلاله مقبولاً أو مرفوضاً، طيباً أو سيئاً^[١].

من خلال قراءتنا لسياقات الأنما/ الآخر عبر الكتاب، يمكننا تحديد نوعية "الأنما" فهي أقرب ما تكون إلى النوعين الأول/ المتعالية، والثانية/ الصدامية، فلديها اعتقاد بأنها الأصح عقيدة، والأعمق فكراً، والأحسن خلقاً، والأقوى عسكرياً، في مقابل "الآخر" الذي يسهم في اكمال وعي "الأنما" بما هي ومتلكه من طاقات وإمكانات؛ ولذا نجد تقييماً مستمراً من الأنما عبر تفاصيلها النصي من خلال إعادة اكتشاف ذاتها في مقابل الآخر.

والآخر/ المحتل من الصليبيين في رؤية الأنما ذو عقيدة منحرفة عن الصواب، وبيدو هذا من خلال اللعن المتكرر منها للآخر، كلما روت عنه أو جاء اسمه عرضاً، وكذا من خلال الدعاء عليه وتنبي موته.

والأنما تنتقص الآخر فكراً من خلال روایتها عن تفوقها عليه عسكرياً في ميادين القتال، وتقديرها للأمور، ودرجة إتقانها للمهن التي تمتلكها، مثل: الطب، وكذا بعض السلوكيات والتصورات الغربية.

وهو في ميزان الأخلاق - في الأعم الأغلب - يتسم بقساوة القلب، وغلوظ الطبع، وبالغدر والخيانة، وانعدام الغيرة والنخوة، والروايات والأخبار التي

تسوّقها كثيرة ومبثوّثة بين دفتي الكتاب، إلا ما ندر من أخبار تنصّف الآخر، مثل: عدالّتهم في الحكم، إظهار التسامح وقت السلم.

والأنا لا تجد فضيلة لآخر سوى الجسارة واحتراف القتال، والأمر في الميدان سجال بين الطرفين، مع إبراز التفوق للأنا في مجموع الأخبار. وهي لا تفتّأ تذكر المتلقي بمرجعية هذا النصر وذلك التفوق، وهو ترتيب الله عز وجل وتوفيقه، وسبب ذلك الاستعانة به سبحانه والتوكّل عليه.

وأما المهن فمن الطبيعي أن يوجد فيها المجيد والمُخْفَق، والمُتقن والمُهمل، والمُتميّز والمُؤدي، وأبرز مثال لذلك "الطب". وتحدر الإشارة في هذا السياق إلى أن الآخر/ الغرب الصليبي، لم يكن في ذلك ذا حضارة متقدمة مثل ما هو عليه في وقتنا الحاضر؛ ولذا فتعجب "الأنا" من طب "الآخر" موجه لإمكانات الأطباء، ومقدار علمهم وخبرتهم المهنية.

طبع الحيوانات:

الخيول:

"على ذكر الخيل ففيها الصبور كالرجال وفيها الخوار، فمن ذلك أنه كان في جندنا رجل كردي يقال له كامل المشطوب في الشجاعة... فطعن الإفرنجي حصانه في موضع القلادة فمات رقبته من شدة الطعن وخرجت القنطرية من أصل رقبة الحصان فضررت فخذ كامل المشطوب وخرجت من الجانب الآخر، وما تزعزع الحصان من تلك الطعنة ولا فارسه" [١].

"أما خورها وضعفها على الجراح فإن عسکر دمشق نزل على حماة وأنا بها... فضررت حصاني نشابة في ساقه خمسة فوق بي وقام ووقع وأنا أضربه..." [٢].

الأسود: [٣]

قاتلث السباع في عدة مواقف لا أحصيها، وقتلث عدّة منها، ما شركني في قتلها أحد سوى ما شاركتني فيه غيري، حتى خبرت منها وعرفت من قاتلها ما لم يعرفه غيري:

١ - فمن ذلك أن الأسد مثل سواه من البهائم يخاف ابن آدم ويهرب منه وفيه غفلة وبله ما لم يجرح فحيثند هو الأسد...

٢ - وإذا خرج من غاب أو أجمة، وحمل على الخيل، فلا بد له من الرجوع إلى الأجمة التي خرج منها، ولو أن النيران في طريقه، وكنت أنا قد عرفت هذا بالتجربة.

النمور:

١ - "أما النمور فقتالها أصعب من قتال الأسد لخفتها وبعد وثبيتها، وهي تدخل في المغارات والجاحر كما تدخل الضياع" [٤].

٢- "والنمر لا يكاد يألف بالناس، ولا يستأنس بهم" [٢] .

إن الغالب على اهتمام "الأننا" من الحيوانات من جهة ما يرتبط بالآيات القتال / الخيل، ومن جهة أخرى ما يتعلق بالقوة والشراسة والسيطرة / الأسد - النمر. وهذا يدل على ارتباط رؤية "الأننا" للحيوان بالمعيار الإنساني وبالتجربة الإنسانية، فتركيزها على ما يتتسق مع طبيعتها وما تمثل إليه وما تربت عليه، وهذا يتضح في تصويرها لنوعية بعینها من الحيوانات، ثم رصدها لسماتها التي ربما تتقاطع مع السمات الإنسانية، لا سيما التي ترجحها وتتجيدها. هذا بالإضافة إلى أن عالم الحيوان يُعد مرتعاً خصيّاً لمشاهدات "الأننا" وتأملاتها، وكذلك وجود هذه الحيوانات بكثرة في بيئة "الأننا"، ومن ثمة تمرسها في التعامل معها.

وقد لفتنا استخدام الفعل الماضي عند تقرير أمر أو ما يشبه الحكم أو القاعدة، مثل ماورد في الجوانب: الحربي [١] ، والسياسي والمرأة [٢] . وارتكر الكاتب على الصورة عند الحاجة إلى تصخيم الحدث، سواء الاستعارة: "نكبات تزعرع الجبال وتفني الأموال" ، "وتلك الشيطانة واقفة" أو التشبيه: "فكأن الشياطين وسوست لعباس بذلك".

تبعد "الأننا" في مواقفها عبر الكتاب حجاجية، تنازع عن آرائها ومواقفها التي تبنتها، فبالرغم من أن ما كتبته ثابت وموثق في كتب التاريخ، فإنها بهذه الكتابة بعد انقضاء الأحداث التي عاشتها، كأنها تعيد صياغة ذاتها من جديد؛ ولذا فهي في حاجة إلى تقديم أدلة تكون بمثابة الوثيقة الرسمية التي

تبرر وجودها، وتبرز كيأنها. ولذا تكثر المؤكّدات بـ "إن"، وأدوات النفي المتعددة بـ "لا" و "ما" و "ليس".

وجاء الشرط أداة محورية، وهو "وسيلة تعبير في اللغة تقوم على وجود مقدمات تؤدي إلى نتيجة، وتکاد تكون منطّقاً عاماً في جميع اللغات البشرية" [١].

"والرجال إذا قعوا نفوسهم على شيء فعلوه!" تستخدم "إذا" في أساليب الشرط المعبرة عن الأحداث أو الحالات الممكّنة التّحقيق، وتحقق تلك الأحداث أو الحالات يكون مؤكداً، لكن زمن التّحقيق بعيد أو غير مؤكّد [٢]. ولا شك أن استخدام هذه الأداة تعكس موقف "الأنّا" المترافق ورؤيتها للحياة.

"ولولا نفاذ المشيّة... كان اتعظ". وتأتي "لولا" للتّعبير عن الظروف غير المتحقّقة، أو المنافية للحقيقة [٣]. وتعكس الأداة موقف "الأنّا" السياسي وانعدام الولاء للوزير عباس وابنه.

وهكذا رأينا كيف تشكلت سيرة أسامة بن منقذ، عبر كتاب الاعتبار، من خلال: اشتغال العنونة، وخطاب الوصف، وتجليات "الأننا"، ومن ثم تبدت رؤى الذات وموافقها، وتمكنكت من إعادة صياغة ذاتها صياغة متأنية، متسقة مع زمنية الكتابة، في محاولة منها لتسليط الرؤية باقتراب يحقق التعمق، واكتشاف مكامن التفوق والإخفاق.

وقد انتهت الدراسة إلى ما يلي:

لعنوان الكتاب وظيفة تأويلية، تشير إلى دلالة التعجب، وليس التعجب هنا من العجب أو الاغترار بقدر ما هو التفات إلى الذات وإحالة عليها فمها حالة من حالات الانسجام معها والأنس بتاريخها وإنتاجها للقيم.

وقد رجح متابعة بني العناوين الداخلية للكتاب، مثل: البدء باسم المؤلف/ أسامة أولاً، أو إضافة اسم إليه، تكرر الذات وتصدرها الأحداث، وأشار تنوع الأفعال المستندة إلى الذات إلى إمكاناتها ومرونتها، وامتلاكها زمام الأمور.

وقد أسهمت المخوار المتبادل بين الطرفين: الوصف/ السرد، السرد/ الوصف، فوق إثراه للنص وما تولد عنه من اكتناز دلالي، في تعضيد المضمون، وتقوية الدلالة؛ ومن ثم إقناع القارئ.

إن جمال الوصف يكمن في إقامة ذات الكاتب توازيًا بين وحداته من جهة، ووحدات السرد من جهة أخرى، وقد عُد من أبرز آليات الحجاج- في كتاب الاعتبار - ومن ثم أدي وظيفة موضوعية، وحقق نجاعة الإقناع لدى

القارئ، وأسهم من خلال علاقته بالحوار، في تحديد معالم الشخصيات ورسم ملامحها، وتوزيع الأدوار المنوطة بها، وتفعيل الوظيفة التأويلية لأساق الدوائر التي تختلها كل شخصية.

اشتغل بعد اللغوي للوصف في كتاب الاعتبار، عبر وظيفتين، الأولى: تزئينية، والثانية تفسيرية، وقد أثبتتا مدى امتلاك الذات لнациمة الخطاب من جهة، والقدرة على البوح من خلال المباشرة الدلالية والترميز.

تجلت "الأننا" من خلال أمرين: علاقة الراوي/ البطل، ورؤيتها في الكتاب، واحتفل تماهي الراوي/ البطل من خلال بعض الآليات، أبرزها: التفاصيل- الاستطراد- الضمائر، وتبعد- من خلال رؤيتها- متعلقة، متزنة، متحضرة في نظرها لمفردات الحياة والكون، تستمدّها- في الأعم الأغلب- من معين الدين الصافي، وقد بزرت- عبر كتاب الاعتبار- من خلال تقنيات عدّة، أبرزها: الفعل الماضي، والصورة، والحجاج، والشرط.

المصادر والمراجع أولاً: الكتب

- ١- ابن منقذ، أسامة، *ديوان أسامة بن منقذ*، ت/ أحمد بدوي، وحامد عبد المجيد، عالم الكتب، ط ٢، بيروت، ١٩٨٣.
- ٢- ابن منقذ، أسامة، *كتاب الاعتبار*، ت/ عبد الكريم الأشتر، المكتب الإسلامي، القاهرة، ط ٢٠٠٣.
- ٣- ابن منقذ، أسامة، *كتاب الاعتبار*، ت/ فيليب حتى، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، د. ت.
- ٤- ابن منظور، لسان العرب، ت/ أمين عبد الوهاب، ومحمد الصادق العبيدي، دار إحياء التراث العربي، ومؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ط ٣، ١٩٩٩.
- ٥- البازعي، سعد، *الاختلاف الثقافي وثقافة الاختلاف*، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط ١، ٢٠٠٨.
- ٦- التميمي، هدى، *الأدب العربي عبر العصور*، دار الساقى، ط ١، ٢٠١٥.
- ٧- جعفورة، محمد معز، في الذاتية "عنترة نموذجاً"، الدار التونسية للكتاب، تونس، ٢٠١٣.
- ٨- حسن، زكي محمد، *الرحالة المسلمين في العصور الوسطى*، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ٢٠١٣.
- ٩- شارودو، باتريك، ومنغنو، دومينيك، *معجم تحليل الخطاب*، ت/ عبد القادر المهيري، وحمادي صمود، منشورات دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة، سلسلة اللسان، تونس، ٢٠٠٨.
- ١٠- شاكر، تهاني عبد الفتاح، *السيرة الذاتية في الأدب العربي: فدوى طوقان وجيرا إبراهيم جيرا وإحسان عباس نموذجاً*، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط ١، بيروت، ٢٠٠٢.
- ١١- شرف، عبد العزيز، *أدب السيرة الذاتية*، مكتبة لبنان، الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان، مصر، ١٩٩٢.

- ١٢ - العجمي، فالح بن شبيب، أسس اللغة العربية الفصحى، كرسي الدكتور عبد العزيز المانع لدراسات اللغة العربية وأدابها، الرياض، ط١، ٢٠١٦ م.
- ١٣ - العجيمي، محمد الناصر، الخطاب الوصفي في الأدب العربي القديم، الشعر الجاهلي نموذجاً، مركز النشر الجامعي، منشورات سعيدان، تونس، ٢٠٠٣ م.
- ١٤ - الغامدي، صالح معيض، كتابة الذات دراسات في السيرة الذاتية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط١، ٢٠١٣.
- ١٥ - محفوظ، عبد اللطيف، وظيفة الوصف في الرواية، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، بيروت، الجزائر، ط١، ٢٠٠٩ م.
- ١٦ - المتبني، أبو الطيب، ديوان المتبني، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٣ م.

ثانيًا: الدوريات

- ١ - أسود، نو زاد أحمد، الحركة الزمنية في سيرة صلاح نيازي الذاتية، مجلة آداب الفراهيدي، العدد (٣٢)، ٢٠١٧ م.
- ٢ - بنكراد، سعيد، حقائق التاريخ ومكانات الهوية السردية، مجلة علامات، المغرب، العدد (٣٨) ٢٠١٢ م.
- ٣ - التمراوي، يسري، استراتيجيات الاعتبار في السيرة الذاتية "كتاب الاعتبار" لابن منقذ نموذجاً، مجلة أنساق، المجلد ٢، العدد [١] ، فبراير ٢٠١٨ م.
- ٤ - دريم، نور الدين، فاعلية الضمير في إنتاج الدلالة— دراسة أسلوبية في قصيدة أنشودة المطر لبدر شاكر السياب، الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية، قسم الآداب واللغات، العدد [٢٠] ، جوان ٢٠١٨.
- ٥ - رحيم، عبد القادر، العنوان في النص الإبداعي، أهميته وأنواعه، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، العددان الأول والثاني، جامعة محمد خيضر، بسكرة- جانفي، جوان ٢٠٠٨ م.

٦- الشمالي، نضال محمد فتحي، الوصف في الخطاب الروائي وأبعاده التقنية "زياد قاسم نموذجاً"، مجلة دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد ٣٣، العدد [١] ، ٢٠٠٦ م.

٧- شوشة، محمد سليم، صياد النسيم: جماليات الاستطراد المعرفية، موقع أنطولوجيا السرد، العربي، ٢٠١٨/١٧/٢ ، <http://alantologia.com/blogs/٦٧٠٢>

٨- عبد الله، لوي حاتم، البنية التركيبية للغة السيرة الذاتية بين أسماء بن منقد وابن خلدون، رسالة دكتوراه، مجلة جسور، د. ت.

٩- الغزالي، عبد الله محمد عيسى، المكونات السردية في السيرة الذاتية: كتاب الاعتبار نموذجاً، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، جامعة الكويت- مجلس النشر العلمي، الكويت مجلد ٢٥، عدد (٩٧)، ٢٠٠٧ م.

١٠- كفافي، منذر ذيب، دالية ابن الليانة الأندلسية في ضوء منهج النقد الجمالي، مجلة التجديد، مجلد ١٦، العدد (٣١)، ٢٠١٢ م.

ثالثاً: الرسائل الجامعية

١- السقرات، براءة محمود، كتاب "الاعتبار" لأسماء بن منقد دراسة تحليلية، رسالة ماجستير، جامعة مؤتة، الأردن، ٢٠١١ م.

٢- شاوش، سارة، جدلية الأنما والأخر في رواية كتاب الأمير مسالك أبواب الحديد للروائي واسيني الأعرج مقاربة في التلقي والتأويل، رسالة ماجستير، جامعة العربي بن مهيدى، أم البوقي، الجزائر، ٢٠١٤ م.

٣- مختارى، زهرة، خطاب العنوان في القصيدة الجزائرية المعاصرة، مقاربة سيميائية، رسالة ماجستير، وهران، الجزائر، ٢٠١٢ م - ٢٠١١ م.



III. Documentation:

1. Footnotes should be placed in the footer area of each page respectively..
2. Sources and references must be listed at the end.
3. Sample images of the verified/edited manuscript should be inserted in their respective areas.
- 4 - Clear pictures and graphs that are related to the research should be included in appendices.

IV. In case the author is dead, the date of his death, in Hijri calendar, is used after his name in the main body of the research.

V. Foreign names of authors are transliterated in Arabic script followed by Latin characters between brackets. Full names are used for the first time the name is cited in the paper.

VI: Submitted articles for publication in the journal are refereed by two reviewers, at least.

VII. The modified articles should be returned on a CD-ROM or via e-mail to the journal.

VIII. Rejected articles will not be returned to authors.

IX. Authors are given two copies of the journal and fifteen reprints of their article.

Address of the Journal:

All correspondence should be sent to the editor of the Journal of Arabic Studies:

Riyadh, 11432 P.O. Box 5701

Tel: 2582051 - Fax 2590261

www.imamu.edu.sa

E.mail: arabicjournal@imamu.edu.sa

Criteria of Publishing

The Journal of Imam Muhammad Ibn Saud Islamic University for Arabic Studies is a peer reviewed journal published by the Deanship of Scientific Research on University Campus. It publishes scientific research according to the following regulations:

I. Acceptance Criteria:

1. Originality, innovation, academic rigor, research methodology and logical orientation.
2. Complying with the established research approaches, tools and methodologies in the respective disciplines.
3. Accurate documentation.
4. Language accuracy.
5. Previously published submissions are not allowed.
6. Submissions must not be extracted from a paper, a thesis/dissertation, or a book by the author or anyone else.

II. Submission Guidelines:

1. The author should write a letter showing his interest to publish the work, coupled with a short CV and a confirmation that the author owns the intellectual property of the work entirely and that he will not publish the work without a written agreement from the editorial board.
2. Submissions must not exceed 50 pages (A4).
3. Submissions are typed in Traditional Arabic, in 17-font size for the main text, and 14-font size for footnotes, with single line spacing.
4. A hard copy and soft copy must be submitted with an attached abstract in Arabic and English that does not exceed 200 words or one page.

Editor –in- Chief

■ Prof. Ibrahim Ibn Abdulaziz Abu Haimed

Applied Linguistics- Institute for Teaching Arabic Language- Al- Imam Mohammad Ibn Saud Islamic University

■ Prof. Ibrahim Ibn Mohammad Abanami

Literature department College of Arabic Language - Al- Imam Mohammad Ibn Saud Islamic University

■ Prof. Muhammad Ahmad Al-Daly

Linguistics department- College of Arts - Kuwait University

■ Pro. Mohammad Mohammad Abu Musa

Department of Rhetoric and Criticism- Faculty of Arabic Language- Al-Azhar University

■ Prof. Nawal, Bint of Ibrahim Al-Hilweh

Arabic Language department- Faculty of Arts - Princess Nourah Bint Abdul Rahman University

■ Prof. Yusef Ibn Abdullah Al-Aliwi

Department of Rhetoric and Criticism- College of Arabic Language- Al- Imam Mohammad Ibn Saud Islamic University

■ Editorial-secretary

Prof. Mamdouh Ibrahim Mahmoud

Deanship of Scientific Research



Chief Administrator
H.E.Prof. Ahmed Ibn Salem AL-Ameri
President of the University

Deputy Chief Administrator
Prof. Abdullah ibn Abdulaziz Al-Tamim
Vice Rector for Graduate Studies and Scientific Research

Editor –in- Chief
Prof. Saud Ibn Abdulaziz Al-Hanin
Grammar Department- College of Arabic Language

Managing Editor
Dr.Ibrahim Ibn Nasser Al-Shakari
vice Deanship of Scientific Research